أعلام القرن الرابع عشر الهجري

المجلد الأول

أعلام الدعوة والفكر

انور الجندي

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد ، القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى البحث

حفل القرن الخامس عشر الهجرى بمجموعة ضخمة من الأعلام البازرين فى شق ميادين الفكر والثقافة واللغة والتاريخ والفقه، ومختلف دراسات النقد الحديث والعلوم الاجتماعية والسياسية والتربوية فى مختلف أقطار العالم الإسلامى من أرخبيل الملايو إلى رباط الفتح، ولما كان المسلمون قد امتحنوا فى هذا القرن بالغزو الفرنسى والانجليزى والهولندى والإيطالى لمختلف بلاد المسلمين وبالعزو الصهيونى لفلسطين وبيت المقدس ولما امتحن به المسلمون من تيارات ودعوات رأسمالية وماركسية فقد برز عديد من الدعاة فى مختلف الميادين فكانوا قادرين على رد عادية هذه التيارات ودحض تلك الشبهات التى أثارها التبشير والاستشراق فى محاولة لتغريب هذه الأمة وإخراجها من ذاتيتها الخاصة .

ولذلك فقد حاولنا أن نستوعب فى هذه الموسوعة دراسة مجموعة بارزة من هؤلاء الأعلام فى مختلف الميادين ، وقد بدأناها بأعلام الدعوة والفكر فى خمسة ميادين :

مدرسة الفقهاء ، ومدرسة المفكرين وأرباب السيف والقلم والكتاب والأدباء والدعاة إلى الله .

وقد استوعب هذا المجلد قرابة الأربعين من هذه الشخصيات كما استوعب

المجلد الثانى (أربعة وأربعون شخصية) منهم عدد كبير من دعاة الحرية والمجاهدين فى وجه الاستعمار المدافعين عن شخصية الأمة الإسلامية وقادة الثورات الوطنية والفكرية ورواد الصحافة ومؤلفو دوائر المعارف وشيوخ الأزهر .

أما المجلد الثالث فتناول مجموعة عرفت بأنها (أعلام وأصحاب أقلام) وهم قرابة الخمسين من الباحثين والبرزين فى مختلف الميادين ومحتوى المجلد الرابع على أعلام البيان واللغة (٣٩ شخصية) .

ولاريب أن هذه المجموعة من الأعلام هى علامة على تلك الطاقة القوية المذخورة فى ضمير الأمة الإسلامية التى تدافعت فى وجه النفوذ الأجنبى وفى وجه التحديات قادرة على إضاءة الطريق أمام المقاومة والإصلاح والتجديد .

* * *

ولاريب أن كل مجلد من هذه المجلدات يعد وحدة قائمة بنفسها ويضم باقة منوعة من الرواد فى مختلف الميادين والتخصصات ويكشف عن هذا العطاء الوافر من الكفايات العلمية والفكرية القادرة فى مختلف المجالات ويتميز هذا المجلد الذى بين أيدينا بعدة ميزات أساسية :

أولا : الصبغة الغالبة لهذه المجموعة هى البناء والإشادة ووضع لبنات جديدة فى صرح الفكر الإسلامى والأدب العربى على طريق الاصالة والإيمان يقيم هذه الأمة الماجدة ومواجهة التحديات وليس ذلك فى مجال الأدب وحده بل فى مختلف المجالات حيث ترى كامل كيلانى يواجه حرب اللغة العربية الفصحى بإنشاء قصص الطفل وحيث ترى أحمد عطية الله يواجه تحديات دوائر المعارف الأجنبية بإنشاء القاموس الإسلامى كما ترى محمد مسعود وهو يقيم أرشيفا ضخما للمصطلحات الإسلامية التاريخية وحيث ترى محمود شيت خطاب ينشىء موسوعة أبطال الإسلام فى مختلف المعارك والميادين .

وهكذا فما من نموذج من النماذج التى تقدمها هذه الحلقة إلا تتميز بذاتية قادرة فى مجال من مجالاتها .

ثانيا : تتميز هذه المجموعة بالرواد فى مختلف الميادين سواء فى مدرسة الفقهاء أو مدرسة المفكرين أو فى مجال الدعاة إلى الله فترى المودودى منشىء الجماعة الإسلامية فى باكستان ، والندوى فى الهند والسباعى فى دمشق وحسن البنا فى مصر .

ثالثا : ترى نوعية أخرى من الرواد : الدكتور عيسى عبده فى مواجهة تحديات الربا والنظم الاقتصادية الوافدة ، وعدنان الخطيب فى مواجهة لغة القانون فى البلاد العربية وعلي على منصور فى مجال الشريعة الإسلامية .

رابعا : فى هذه المجموعة عدد من منشىء الموسوعات :

عمر رضا كحاله : معجم المؤلفين

أحمد عطية الله : القاموس الإسلامى

طاهر الزاوى : تراجم ليبيا

خامسا : هناك نوعيات أخرى مختلفة :

عثمان الكعاك : مؤرخ الحضارة الإسلامية ، فى تونس

فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين

سادسا : هناك ظاهرة التنويع فى العالم الإسلامى

مصطفى صبرى شيخ الاسلام فى تركيا ودراساته عن الخلافة الاسلامية والدونمة والاتحاديين ومصطفى كمال وإلغاء الخلافة والمودودى والندوى وإقبال من مسلمى القارة الهندية ، ومبشر الطرازى من تركستان ، وماكشر من جاوة ، وصلاح السلجوقى من أفغانستان الجريحة ومالك بن نبى من الجزائر .

سابعا : هناك طابع آخر من دقة النماذج الإسلامية وأثرها البالغ وبطولتها . هناك الفاضل بن عاشور الذى أذاع عظمة الفقه الإسلامى فى كل مكان وتحدث عنها بطلاقة بالفرنسية والعربية ، ومحمد أبو زهرة الذى هز أركان الطاغوت وحسن البنا الذى بعث فى الأمة الإسلامية روحا جديدة وهناك إقبال الذى مازال شعره الإسلامى يهز النفوس وهناك عبد الله التل الذى كشف سموم الماسونية والصهيونية وشيت خطاب الذى كشف خطط اليهودية العالمية والغمراوى الذى كشف عظمة العلم فى آيات القرآن ومحمد عبد الله العربى الذى كشف زيف القانون الوضعى وعزة دروزه الذى كشف زيف نظرية السامية .

وهكذا تتميز كل شخصية من هذه الشخصيات بطابعها الفريد فى إطار اليقظة الاسلامية وحماية الذاتية الاسلامية من الانهيار والتحلل .

المجلد الأول : أعلام الدعوة والفكر

حرف الألف

إبراهيم عبد القادر المازنى : الأديب القصاص (مصر)
أبو الأعلى المودودى : منشىء الجماعة الإسلامية فى الهند (باكستان)
أبو الحسن الندوى : داعية الفكر الإسلامى وعميد جامعة لكنو (الهند)
أحمد عطية الله : صاحب الموسوعات (مصر)

حرف الحاء

حسن البنا : منشىء الاخوان المسلمين (القاهرة)

حرف الصاد

صلاح الدين السلجوقى : الباحث الأفغانى الكبير (أفغانستان)

حرف الطاء

طاهر الزاوى : المؤرخ الليبى (طرابلس الغرب)

حرف العين

عثمان الكعاك : المؤرخ التونسى الكبير (تونس)
عدنان الخطيب : الباحث القانونى العلامة (دمشق)
علي أحمد باكثير : رائد القصة الإسلامية (مصر)

عبدالله التل	: رب السيف والقلم وصاحب كتاب الأفعى اليهودية فى معاقل الاسلام (الأردن)
عيسى عبده	: داعية الاقتصاد الإسلامى (مصر)
عمر رضا كحاله	: صاحب موسوعة أعلام المؤلفين (دمشق)
على على منصور	: داعية التشريع الإسلامى (مصر)
علال الفاسى	: الباحث الإسلامى العملاق (المغرب)
عبدالله كنون	: الأديب المغربى الكبير (المغرب)

حرف الفاء

فريد وجدى	: صاحب موسوعة القرن الرابع عشر الهجرى (مصر)
الفاضل بن عاشور	: الفقيه المشرع . . . . (تونس)

حرف الميم

محمد عبدالله دارز	: صاحب دراسة الاخلاق الإسلامية (مصر)
محمد أبو زهرة	: عملاق الشريعة الإسلامية (مصر)
محمد بهجت الأثرى	: المحقق العربى والشاعر النابه (بغداد)
محمد بهجت البيطار	: علامة الشام (دمشق)
محمد حسن هيكل	: صاحب حياة محمد (مصر)
مالك بن نبى	: الفيلسوف الإسلامى (الجزائر)
محمد عبدالله العربى	: مقنن الفقه الإسلامى (مصر)
محمد جميل بيهم	: المؤرخ الإسلامى (بيروت)

محمد عزه دروزه : الباحث الإسلامى (دمشق)
محمد إقبال : الشاعر الإسلامى (باكستان)
مبشر الطرازى : المفكر الإسلامى (تركستان)
مصطفى صبرى : شيخ الإسلام فى تركيا (مصر)
محمد مسعود : صاحب الاضابير التاريخية (مصر)
محمود شيت خطاب : مؤرخ العسكرية الإسلامية (بغداد)
محب الدين الخطيب : صاحب الفتح (مصر)
مصطفى السباعى : الدعوة الإسلامية فى الشام (دمشق)
محمد المبارك : الدعوة الإسلامية والاصلاح الاجتماعى (دمشق)
محمد أحمد الغمراوى : الدين والعلم (مصر)

المجلد الثانى :

تراجم الأعلام المعاصر

إبرهيم هنانو . (سوريا) : المجاهد الذى كشف خدعة الاستعمار
أبو الكلام ازاد : (الهند) : داعية الحرية والاسلام
أحمد عرابى : (مصر) : قائد الثورة العرابية
أمير بقطر : (مصر) : الرحالة المنقطع النظير
أمير على : (الهند) : مدرة الإسلام فى قلب بلاد الغرب
إسماعيل عصبرنسكى : (تركستان) : داعية الوحدة الإسلامية
جمال الدين القاسمى : (الشام) : الكشف عن جوهر الإسلام

خير الدين التونسى : (تونس) : داعية الربط بين الإسلام والعصر

رشيد رضا : (مصر) : صاحب المنار

رشد الكيلانى : (العراق) : قائد الثورة العراقية

رفيق العظم : (الشام) : مؤرخ أعلام الإسلام

شبلى النعمانى : (الهند) المؤرخ والمجدد الإسلامى

شكيب رسلان : (الشام) : موسوعة حاضر العالم الإسلامى

صلاح الدين الصباغ : (العراق) : صوت اليقظة العربية

طاهر الجزائرى : (الشام) : مجدد الإسلام والثقافة العربية

طنطاوى جوهرى : (مصر) داعية السلام العالمى

عزيز المصرى : (مصر) : رجل الحرب والعروبة

عبد الحميد بن باديس : (الجزائر) : داعية الإسلام والعروبة والجزائر

عبد الحميد الزهراوى : (الشام) : رئيس المؤتمر العربى الأول

عبد الرحمن شهبندر : (الشام) : من قادة الحركة العربية

عبد الرحمن الرافعى : (مصر) : مؤرخ الحركة الوطنية المصرية

عبد العزيز الثعالبى : (تونس) : تلميذ جمال الدين وخليفة الكواكبى

عبد القادر الجزائرى : (الجزائر) : سفير المغرب إلى المشرق

عبد القادر المغربى : (الشام) : مجدد الإسلام واللغة

عبد القادر الحسينى : (فلسطين) : أول شهداء حرب فلسطين

عبد الكريم الخطابى : (المغرب) : بطل تحرير المغرب

عبد المحسن الكاظمى : (العراق) : شاعر النفس الطويل

على مبارك : (مصر) . بناء المعاهد والمدارس والمكتبات

على يوسف : (مصر) : رائد الصحافة العربية فى مصر

عمر مكرم : (مصر) حامل لواء الشعب

فارس الخورى : (الشام) : عبقرية البيان والقانون

فريد وجدى : (مصر) : مؤلف دائرة المعارف

محمد أحمد المهدى : (السودان) : الرجل الذى أسر غردون ليفتدى به عرابى

محمد على جناح : (الباكستان) : مؤسس الباكستان

محمد بن عبدالوهاب : (الجزيرة العربية) : مجدد الاسلام وداعية التوحيد

محمد بن على السنوسى : (طرابلس الغرب) الدعوة إلى تحرير الإسلام من القيود

محمد بن العربى العلوى : (المغرب) مجدد الاسلام فى المغرب

محمد مصطفى المراغى : (مصر) مجدد الاسلام والازهر

محمد مصدق : (إيران) : صوت الحرية فى إيران

محمد مسعود : (مصر) : صاحب الجزاءات التاريخية

مصطفى عبد : (مصر) : ثقافة الشرق والغرب

مصطفى كامل : (مصر) موقف الوطنية بعد الإحتلال

نعمان أبو الثناء الألوسى : (العراق) : صاحب تفسير روح المعانى

يوسف العظمة : (الشام) : البطل الذى رفض أن يرى إستعمار وطنه

المجلد الثالث

اعلام وأصحاب أقلام

أحمد الاسكندرى : اللغة العربية
أحمد تيمور : المخطوطات
أحمد زكى (باشا) : المخطوطات
أحمدفؤاد (الدكتور): وحدة وادى النيل
أحمد كمال الأثرى : الآثار الفرعونية
أحمد وفيق : علم القانون
أمين سامى : تقويم النيل
أمين الرافعى : الصحافة الوطنية
البشير الإبراهيمى : الجزائر : الإسلام : العربية . . (الجزائر)
توفيق البكرى : التصوف الإسلامى
توفيق اسكاروس : التاريخ القبطى
جمال الدين الأفغانى : اليقظة
حسن توفيق العدل : تاريخ أدب الفقه
حسين الهراوى : الاستشراق والإسلام
حفنى ناصف : اللغة واللهجات
حمزة فتح الله : حقوق المرأة المسلمة
رشيد رضا : مدرسة المنار
رفاعة الطهطاوى : الترجمة والتأليف
زين العابدين السنوسى: الأدب العربى . . . : . (تونس)

سليم حسن : الآثار الفرعونية
شبلي شميل : النشوء والارتقاء
طاهر الجزائرى : دائرة المعارف . . . (الشام)
طلعت حرب : الاقتصاد المصرى
عبد الحميد سعيد : الدفاع عن الحرية
عبد الرحمن الجبرتى : مؤرخ مصر
عبد الرحمن الكواكبى : الدفاع عن الحرية (الشام)
عبد السلام ذهنى : اللغة العربية
عبد العزيز جاويش : الصحافة الوطنية
عبد الله نديم : الكلمة الثائرة
عبد الوهاب النجار : الأدب العربى
عبد الوهاب عزام : الرحلة
عثمان غالب (الدكتور) : كشف السرطان
على إبراهيم (الدكتور) : الطب
على بهجت : الآثار العربية
على مصطفى مشرفة (الدكتور) : تنشيط العلم
عمر لطفى : التعاون والشريعة
فريد وجدى : التقاء الدين والعلم
لطفى جمعه : رائد القصة
محجوب ثابت (الدكتور) : الطب والوطنية
محمد رضا الشبيبى : الأدب العربى . . . (العراق)
محمد الخضرى : التاريخ والتشريع
محمد فريد : (المؤرخ)
محمد عبده : (مجدد الإسلام)

محمد عياد الطنطاوى : الاصلاح الاجتماعى
محمد رشاد : الرحلة
محمود مختار : فن النحت
مصطفى الغلاييني : الأدب العربى (الشام)
منصور فهمى : اللغة والأدب
يحيى الدرديرى (الدكتور) : الدفاع عن العقيدة

المجلد الرابع

اعيان البيان واللغه

أحمد شوقى : أمير الشعراء
حافظ إبراهيم : شاعر النيل
مصطفى لطفى المنفلوطى : صاحب النظرات
أحمد أمين : فيض الخاطر
مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم
محمد السباعى : الترجمة فى البيان العربى
عبد العزيز البشرى :
إبراهيم عبد القادر المازنى :
محمود تيمور : القصة
أحمد حسن الزيات : صاحب الرسالة
توفيق الحكيم : أهل الكهف
عباس محمود العقاد :
محمد حسين هيكل : الأديب
محمد فريد أبو حديد :

أبو الفضل إبراهيم	: تحقيق التراث
أحمد حسين	: دراسات الاسلام والإنسان
إبراهيم الإبياري	: تطور اللغة وبعث التراث
خير الدين الزركلي	: الاعلام
دكتور زكي علي	: الدعوة إلى الاسلام
عبد العزيز بمحمد الله	: التعريب فى المغرب
عمر الدسوقي	: الأدب العربى
عبد الله كنون	: تراجم أعلام المغرب
على أدهم	: الترجمة والدراسات الإنسانية
عمر فروخ	: الدراسات الإسلامية والعربية
على الجندى	: الشعر ونقد الشعر
قدرى حافظ طوفان	: ايقاظ العقل الإسلامى
خيرى حماد	: الترجمة فن
دكتور محمد صبرى	: دراسات الشعر العربى المجهول
محمد عبدالله عنان	: الإسلام والأندلس
دكتور محمد محمد حسين	: تطور الأدب
الأمير مصطفى الشهابى	: التحقيق اللغوى والعلمى
جبردو مط	: اللغة ودوائر المعارف اللغوية

أمين المعلوف	:	اللغة
انستاس الكرملي	:	«
مصطفى الشهابي (اللغوي)	:	«
الدكتور أحمد عيسى	:	«
الدكتور محمد شرف	:	«
إبراهيم اليازجي	:	«

هذا وستصدر ملاحق أخرى لاستكمال أعلام القرن الرابع عشر

الباب الأول

مدرسة الفقهاء

١ — الفاضل بن عاشور
٢ — محمد عبد الله دراز
٣ — محمد ابو زهره
٤ — محمد بهجة الاثرى
٥ — محمد بهجه البيطار
٦ — عبد الله كنون
٧ — طاهر الزاوى



الفاضل بن عاشور

فى يوم ١٣ صفر ١٣٩٠ (٢٠ ابريل ١٩٧٠) ودع الحياة عالم من كبار علماء المسلمين هو المرحوم الأستاذ الفاضل بن عاشور فقيه تونس وعميد كلية الزيتونة وعضو المجامع اللغوية فى القاهرة ودمشق ـ مات عن واحد وستين عاما أعظم مايكون تألق فكر وحيوية عقل وصحة بدن ، وقد عرف فى السنوات الأخيرة برحلاته فى سبيل الثقافة الغربية والفكر الإسلامى إلى عديد من الأقطار وأشتهرت عنه محاضراته البارعة وأحاديثه الذكية باللغة القرنسية متحدثا عن الإسلام عارضا للفوارق والروابط بين الفقه الإسلامى والشرائع الغربية كاشفا عن عظمة الإسلام ، وتلك كانت أبرز خصائصه التى عرفتها ، وقد استمعت اليه المرة بعدالمرة حين يتحدث فى هذا المجال فيبز الفقهاء ورجال القانون جميعاً .ويقدم للعقل الإنسانى تلك الحقائق سائغة مبسطة ، وتلك كانت هوايته المحببة ، فقد حاضر فى السربون فى فرنسا ، وحاضر فى جامعات استانبول ، وجامعة عليكرة فى الهند ، وخلب الألباب بقدرة أستاذ معمم يلبس ذلك الزى الإسلامى المغربى المعروف وهو يعتلى المنابر ويهز النفوس ، هذا من فرط براعته وبلاغته وايمانه بدينه وأمته .

وقد كشف لى فى حديث خاص أجريته معه فى العام الماضى ليكون نواة لدراسة عنه[1] كواحد من جيل الرواد فى الفكر الإسلامى الحديث عن مصدر هذه الخاصية ، فقال إن والده العلامة الكبير الطاهر بن عاشور إمام المالكية فى تونس وعلامتها منذ أوائل القرن ، والرجل الذى التقى بالأستاذ الإمام محمد عبده فى زيارته الأخيرة لتونس عام ١٩٠٤ قبل وفاته بعام وقطب الدراسة السلفية التى كانت مجلة المنار التى أصدرها الشيخ رشيد منارا لها والمغرب كله ، قال أن والده أطال الله بقاءه ، وهو مايزال حيا وله مؤلفات عديدةا يتجدد صدورها فى هذه

---

(١) ولد عام ١٣٢٧ هـ ـ ١٩٠٩ م فى مدينة تونس .

الأيام هو الذى أرشده إلى هذا الطريق ودفعه إلى أن يتزود بالثقافتين الإسلامية العربية والفرنسية الغربية .

يقول : بدأت الدراسة فى مطالع الصبا فى البيت ، فحفظت القرآن والمتون القديمة ثم دخلت الزيتونة وهنالك درست إلى أن تخرجت بالشهادة الثانوية المسماة (التطويع) عام ١٩٢٨ م — ١٣٤٧ هـ ثم واصلت الدراسة العليا فى الزيتونة (الشريعة وأصول الدين واللغة) وعلى الشيخ محمد بن يوسف درست التفسير وصحيح البخارى، وعلى الوالد درسنا التفسير والموطأ والمطول للتفتازانى وديوان الحماسة .

وعلى الشيخ أبو الحسن النجار درسنا علم الكلام (المقاصد للتفتازانى) وعلى الشيخ محمد بن القاضى درسنا أصول الفقه (شرح المحلى على جمع الجوامع) .

وكان والدى قد خطط لى نظاما يتضمن تعلم اللغة الفرنسية بأساتذة خاصين، ولم أنتسب إلى مدرسة أو إلى معهد تونسى .

ثم انتسبت إلى كلية الآداب فى جامعة الجزائر لإستكمال دراستى فى اللغة الفرنسية ، وكانت الطريقة المتبعة بعد الدراسة العليا أن يتقدم الطلبة لمباريات ومناظرات للدخول من سلك الأستاذية وهى مراتب ، والانتقال من كل رتبة إلى مافوقها إنما يتم بمناظرة ، وقد اجتزت المناظرات على التعاقب حتى أحرزت الدرجة الأولى عام ١٩٣٥ وقد عملت مدرسا فى جامعة الزيتونة وفى المدرسة الصادقية منذ عام ١٩٣٢ وأنا مستمر فى التدريس وظللت أواصل التدريس حتى وليت عمادة الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين عام ١٩٦١[1].

ويمكن القول أن علامتنا قد واصل الاشتراك فى مجال الثقافة الإسلامية والعربية منذ العقد الثالث وتوالت أبحاثه فى المجلات التونسية ورحلاته فى الأقطار العربية والإسلامية وكانت مفاهيمه الإسلامية والعربية واضحة عميقة الدلالة على غيرته وإيمانه وإخلاصه . فقد كان حريصا على أن يحمل لواء الدعوة إلى الإسلام

---

(١) وقد ظل العميد محتفظا بهذا المنصب حتى توفى

والعربية فى كل مكان ، وأن يكون مدافعا عن الفكر الإسلامى والتاريخ واللغة فى وجه خصومها شاجبا لأهوائهم داحضا لشبهاتهم وقد أتاه الله القدرة من ناحيتين : من ناحية الأداء العربى البليغ والفرنسى الطليق ومن ناحية اطلاعه الواسع على الفكر الإسلامى والفكر الغربى على السواء .

ولقد رددت مثل هذا المعنى على مسمعه عند لقائى المطول معه فى صباح الجمعة ١٩٦٩/٢/٦ فى فندق شبرد بالقاهرة ، ونحن نستعرض أعماله وتاريخه فقال لى :

« إنما هى ثقافة إسلامية واحدة وليست ثقافتين فهى تقوم على عامل التكون الإسلامى الصرف فأنا أنظر إلى ماأقرأ بالفرنسية من ناحية المطلب الإسلامى وحده، وما أرى أمامى عقلين مختلفين: عقل عربى وعقل أوربى ، وأنا ماطلبت معرفة من المعارف الفرنسية إلا بدافع إسلامى ، فأنا أحس فى قرارة نفسى أن شخصيتى آتية من سعد الدين التفتازانى والسبكى حين تناقش أو تقرأ ما يكتب عن الإسلام باللغة الفرنسية » .

وقد فهمت من ذلك أنه يريد ألا يقال عنه أنه مثقف ثقافة غربية بمعنى أنه يؤمن بما وراء هذه الثقافة من قيم على النحو الذى يقال حين نذكر بعض الذين تعلموا فى فرنسا أو زاولوا عرض آثار الفكر الغربى عندنا وأن اى فكر مكسوب هو فى خدمه الاسلام .

وقد كانت حياة العلامة الفاضل ابن عاشور خصبة مليئة بالعمل والدرس والمحاضرة بين منابر المعاهد الإسلامية فى تونس وليبيا والجزائر والمغرب وفى مجمع البحوث الإسلامية ومجمع اللغة العربية وبين الكلية الزيتونية فى تونس وكلية الحقوق بها حتى كانت محاضراته تبلغ خمس عشرة ساعة فى الأسبوع ، وهو فى هذا العمل يرتجل ولا يكتب وقد واتته ذاكرته الخصبة وأسعفته عقليته الحافظة بالنصوص والمصادر على نحو بارع وقد كان يرى ذلك مصدراً من مصدر قصوره فى التأليف وتحرير المحاضرات والدرس على النحو الذى يجمع إليه الاساتذة بكتابة مايلقون فى ساحات الدرس ، وإنما كان يكتفى بأن يكتب خطوطا عامة لما يتناوله ولذلك فقد كانت محاضراته المطبوعة فى مصر عن الحركة الفكرية فى

تونس من الأعمال التي تحققت تحت تأثير الضرورة ، وإن كان له إلى ذلك مؤلفات أخرى منها :

١ — أركان النهضة الأدبية فى تونس .

٢ — أعلام الفكر الإسلامى فى المغرب العربى .

٣ — وله كتاب التفسير ورجاله ، إلى جانب دراسات أخرى لها صفة التأليف كأبحاثه فى مجمع القاهرة ومجمع دمشق اللغويين ومجمع البحوث الإسلامية .

وكان قد نشر فصولا منثورة فى مجلة الثريا التونسية عن مشاهير التونسيين فى القرن الرابع عشر ، وله أيضاً بعض الأبحاث فى مجلتى الفكر والمجلة الزيتونية .

كما شارك فى عديد من المؤتمرات الإسلامية والعربية فى مختلف البلاد الإسلامية والعالم العربى كمؤتمرات الحقوقيين والمحامين العرب فى دمشق وبغداد ورابطة العالم الإسلامى فى مكة والمجلس التأسيسى فى باكستان وجامعة استانبول فى تركيا فضلا عن زياراته لأوروبا بدولها المختلفة وخاصة فرنسا وسويسرا وايطاليا ، وذلك إلى شغفه بالحج والعمرة فقد أداهما عشرات المرات .

كما شارك فى الاحتفال بمهرجان ابن خلدون فى القاهرة، وحضر إزاحة الستار على تمثال ابن خلدون المقام فى مدينة الأوقاف بالدقى .

وقد استخلصت من مراجعة آثاره وكتاباته أنه قد أضاف إضافات بناءة فى ميادين ثلاثة : هى التشريع الإسلامى واللغة العربية والتاريخ الإسلامى — وقد سألته فى ذلك فقال : أن هناك رابطة عضوية بين التشريع الإسلامى واللغة العربية ، فاللغة العربيـــة أداة ضرورية لفهم التشريع الإسلامى ، وتعمق روح الإسلام يـــكاد يكون ضرورة ماسة لتذوق اللغة العربية وآدابها .

ونحن نحتاج للنظر فى تاريخ الإسلام لاستجلاء ماضينا ، وحتى نتصور ماعلينا من واجبات نحو الماضى وماتربطنا به من مقومات لانستطيع أن نخرج عنها وخروجنا عنها معناه أننا نخرج عن أنفسنا . فضلا عن حاجتنا الماسة إلى التعرف على رواد نهضتنا العربية الإسلامية الأولين حتى نكون على بصيرة من الغاية التى نحن سائرون إليها الآن ، لأننا فى الحقيقة لسنا إلا مواصلين السير على خطط النهضة التى خططها هؤلاء الرواد ولكن الطريق قد يبهم امامنا احيانا فيكون من الضرورى لنا أن نتعرف دائما طريقنا الصحيح وروابطنا بقادتنا الأولين والمبادىء التى قامت عليها النهضة أصلا .

ويؤمن العلامة الفاضل بن عاشور أن العالم العربى يضم شرقين يطلق على المشرق منه وطن (الارتكاز) ويطلق على المغرب منه (وطن الامتداد) .

ويرى أن الخط الجامع بين المنطقتين هو النيل ، فمن الضفة الشرقية للنيل يبدأ المشرق ، ومن الضفة الغربية يبدأ المغرب وقد سألته عن ذلك التمييز الواضح للدراسات المقارنة فى اللغة والفلسفة والفقه وذلك الطابع الذى يطبعها فقال :

يختلف المغرب عن المشرق من حيث ائتلاف العناصر،ومن حيث أن أول عهده بالعروبة يبدأ منذ أول عهده بالإسلام ، بخلاف مافى المشرق حيث له روابطه بالعروبة منذ أمد بعيد قبل الإسلام ويختلف أيضا من حيث متاخمة المغرب للعالم الغربى الأوروبى ، ومن حيث متاخمة المشرق للعالم الايرانى والهندى ، من هنا تكونت فى المغرب عناصر طبعت الفكر وطبعت الأدب وجملته مع مايتلاقى فيه من العنصر العربى الذى هو وطن (الارتكاز) يمتاز بظواهر خاصة هى نتيجة تلك الخاصيات التى اتصلت بتكوين الفكر والشعور ولم تتصل بالعالم الشرقى .

كما أشار إلى ظاهرة تطلع المغرب إلى المشرق على امتداد التاريخ ، وكيف أن الرحلات الإسلامية كلها قد بدأت من المغرب إلى المشرق وليس العكس ،فقال: أن المغاربة كانوا يتطلعون دائما إلى الشرق حيث بيت الله الحرام فى مكة وحيث قبلة المسلمين وملتقى وحدتهم الروحية والفكرية .

وبعد فإن آثار العلامة الفاضل بن عاشور كثيرة وجديرة بالمراجعة والعرض لما تحويه من مفاهيم وآراء هى خلاصة تجربة عالم عريق أتاحت له دراسته وثقافته واتصـــالاته بعوالم المشرق والمغرب حصيلة ضخمـة من العلم والثقافة .

هذا بالإضافة إلى شخصيته الجذابة وروحه المرحة وخلقه الرفيع وذكائه الحى وبالجملة فهو أحد رواد الفكر الإسلامى العربى المعاصر ، الذين تركوا تراثا ضخما على طريق حركة اليقظة التى قادها جمـــال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

لمحة عن الطاهر بن عاشور :

ولا يمكن أن يذكر العلامة الفاضل بن عاشور ، دون أن يذكر والده الإمام الطاهر بن عاشور الذى علمه ورباه وكونه وهو من رجال اليقظة الإسلامية الأوائل: وكان صديقا للشيخ محمد عبده وتعتبر دعوته امتداداً للسلفية المستنيرة التى عمت العالم الإسلامى فى هذه المرحلة وكان المغرب دورا كبيرا فيها . وقد عاش رحمة الله سنوات بعد وفاة ابنه (الفاضل) مؤمنا بقضاء الله صابرا حتى توفى عام ١٩٧٣ .

بدأ عمله عام ١٩٢٢ بعد أن تولى مفتى منصب المالكية ثم أصبح من دعائم جامع الزيتونة وأساتذة الفقه فيه وشيخاً له (١٩٣٦) يقول : جعلت حقا على أن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تاره لها وآونة عليها وأن أبدى فى تفسير القرآن نكتا لم أر أحداً سبقنى إليها فإن الاقتصار على الحديث المعاد تعطيل لفيض القرآن الذى ماله من نفاذ .

وقد رأيت الناس نحو كلام الأقدمين أحد رجلين : رجل معتكف فيما شاده الأقدمون وآخر أخذ بمعولة لهدم مامضت عليه القرون وفى كلتا الحالين ضرر كبير . وهناك حالة أخرى ، هى أن نعمد إلى ماشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده وحاشا أن ننقصه أو ننبذه علما بأن تمحض فضائل السلف كفران للنعمة كيف وقد علمنا الله مايجب علينا نحو سلفنا« والذين جاءوا من بعدهم يقولون

ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم » .

ويقول عارفوا فضله : أن طريقة دروسه كانت ممتازة ، يتحاشى الإطالة وكلام المفسرين المستطرد الذى لا يرتبط بالغرض المهم من معانى الذكر الحكيم صارفا همه لإيراد ما احتوى عليه القرآن من أسرار الشريعة وتواميس الكون والعمران معتنيا جد الاعتناء بإظهار بلاغة التنزيل واعجازه .

وكان اكبرهمه : إرشاد العامة وانقاذهم من الجهالة وذلك بالوعظ والإرشاد فى الجوامع والمجتمعات العامة وقد تحقق له فى دراساته أمرين هامين :

(الأول) ربط الفروع بالأصول والأخلاق والآداب الشرعية مع التبحر فى جميع ذلك بما يحفظ على الأمة قواعد دينها .

ثانياً) المحافظة على اللغة العربية وآدابها على انتشارها بما يظهر للعالم أجمع أنها لغة حية وإنها هى الزينة الأولى بين اللغات وهى الحافظة للامه أمر دينها أو هى لغة الكتاب الكريم .

وهو يولى اهتمامه ليفسر القرآن فى أكثر مايعنى به محب للقرآن الكريم دائم التأمل والنظر فيه :

يقول : أصار الله تعالى أن يكون اللسان العربى مظهراً لوحيه ومستودعا لمراده ، وأن يكون العرب هم المبلغين أولا لشرعه وابلاغ مراده لحكمة علمها منها كون لسانهم أفصح لسان وأسهلها انتشاراً وأكثرها تحملا للمعانى مع ايجاز لفظه ، ولتكون الأمه المتلقية للتشريع والناشرة له : امة قد سلمت من أفن الرأى عن المجادلة ولم يقعد بها عن النهوض انحلال التكالب على الرفاهية ، ولا عن تلقى الكمال الحقيقى أو يسبب لها خلطة بما يجر إلى اضمحلاله بمعنى أن الأحوال التى رسخت فى الأمم المعاصرة للفرس والروم كانت تعوقهم عن تلقى الكمال الحقيقى لعسر انخلاعهم عنها بخلاف العرب الذين كانوا على الفطرة .

وليس المراد من خطاب العرب بالقرآن أن يكون التشريع قاصراً عليهم أو مراعيا لخاصة أحوالهم بل عموم الشريعة ودوامها وكون القرآن معجزة دائمة مستمره على تعاقب السنين ينافى ذلك ، نعم، أن من مقاصده تصفية نفوس العرب الذين اختارهم لتلقى شريعته وبثها ونشرها ، فهم المخاطبون إبتداء قبل بقية امة الدعوة ، وكان كثير من القرآن مقصوداً به خطابهم خاصة وإصلاح أحوالهم : قال تعالى (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) .

دكتور محمد عبد الله دراز

هذا رجل من الأزهر ، فيه أصالة المؤمن ، وثقافة المسلم ، والقدرة البيانية العربية الفائقة ، استطاع أن يقتحم آفاق الفكر الغربي ويدرس اللغة الفرنسية ويكتب بها رسائله التي يناقش فيها أساطين الفلاسفه الغربيين في نظرياتهم وقضاياهم كاشفا عن وجه الحقيقة بين بيان الإسلام الناصع ووجهته الصادقة وبين ماتحمل هذه النظريات والمذاهب من قصور والتواء ، بما يجعلها غير صالحة للفطرة الانسانية في عصر العلم ، ليس للمسلمين وحدهم بل للبشرية كلها وقوامه في هذا كله فهم عميق للقرآن ، وتدبر عجيب له ، وقدرة على تبليغ العبارة بأصفى لغة ، ولتقديم الأمثلة إلى العقل الغربي في تمكن عجيب .

وكان الدكتور محمد عبد الله دراز حين قصد من الأزهر إلى السربون ليعد رسالته عن الأخلاق في القرآن يعرف جيداً ماهي الوجهة وماهو الهدف وما هي الفوارق العميقة بين مفاهيم الفلسفات ومفهوم الإسلام ولكنه يعرف أيضاً كيف يقدم وجهة نظر الإسلام في مرونة وذكاء حتى لا يصطدم بمعارضه، ومن أجل ذلك أمضى اثنى عشر عاما (مايو ١٩٣٧ — مارس ١٩٤٨) في فرنسا منها خمس سنوات في التعرف على مناهج العلوم في الغرب وتحضير درجة الليسانس والأخرى في اعداد رسالته عن الأخلاق ورسائل أخرى مكملة لها ، وكان في خلال ذلك كله يعايش القرآن الكريم في تفسيراته المختلفة ليستخرج منها ومن إبداعه النفسي والروحي ذلك الفيض الكريم الذي قدمه إلى الغرب في اللغة الفرنسية عام ١٩٤٧ والذي لم يترجم إلى اللغة العربية إلا عام ١٩٧٣ بعد أن كان رحمه الله قد فارق الحياة .

وهو في خلال كتبه (١) النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن) و (٢) مدخل إلى القرآن الكريم و (٣) الدين : بحوث مهده لدراسة تاريخ

الأديان : يسير على نفس ذلك الطريق العميق الهادىء الممتع الذى يملأ القلب إيمانا والنفس يقينا والروح ثقة بكل مايقول : فقد أوتى أسلوبا بارعا وقدرة على الأداء فى خضم هذه المفاهيم التى تتصل بالعقائد والتى تحتاج إلى مزيد من التعمق فى الفهم ، وهو بذلك يمثل نموذجا قل نظيره فى مجال الدراسات الإسلامية والأزهرية من حيث الانصراف عن العبارة الرنانة أو الإفاضة والإسهاب أو الانشاء المستطرد ، وإنما هى عبارات محكمة على قدود المعانى ، وأداء محكم ، يسعد القلب والعقل معاً .

ولا ريب أن الدكتور محمد عبد الله دراز بأعماله الفكرية هذه قد أضاف إضافات حقيقية للفكر الإسلامى ، وتعد رسالته عن الأخلاق فتحا جديداً غير مسبوق فلقد تناول فلسفة الأخلاق الإسلامية كثير من الباحثين المسلمين من أمثال ابن مسكويه والغزالى وابن حزم وغيرهم ولكن أحداً لم يصل إلى (استخراج) منهج القرآن الأخلاقى كاملا ومفصلا ومحرراً عن المفاهيم اليونانية التى تأثر بها من كتبوا فى القرن الثالث والرابع ، مثل ما وصل الدكتور دراز. وإذا كان هذا هو العمل الأكبر فى حياة علامتنا فإنه قدم عملين آخرين لهما أهمية كبرى فى مجال الفكر الإسلامى :

(الأول) : الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) وفيه أيضاً مقارنات هامة بين الأديان تواضع على أن يسميها بحوثا ممهدة ، بينما تناولت صميم الموضوع وأضاءت الطريق أمام الباحثين فى هذا المجال وكشفت عن عظمة الإسلام .

(الثانى) : مبادىء القانون الدولى العام فى الإسلام وفيه تناول الشريعة الاسلامية ومنهج الإسلام فى المعاملات الخارجية هذا بالإضافة إلى أبحاثه عن (التعريف بالقرآن الذى كتبه باللغة الفرنسية) وقدمه إلى الفكر الغربى ودراسته عن الربا فى نظر القانون الإسلامى ودراساته المختلفة عن رأى الإسلام فى القتال، و (العبادات) وغيرها .

وقد كانت حياة هذا العلامة الكبير خصبة واسعة نتاج ، لا تكف عن العطاء . وهو منذ شبابه الباكر ومنذ أحرز شهادة العالمية ١٩١٦ وقد توجه

إلى تعلم اللغة الفرنسية بمجهوده الخاص ، أملا منه فى أن يتخذها سلاحا لخدمة الإسلام قراءة ورداً على مايقدمه الفكر الغربى . وقد بدأ منذ ذلك الوقت البعيد فى الدفاع عن الإسلام ضد هجمات الصحف الأجنبية ومنها جريدة الطان الفرنسية .

ومنذ عام ١٩٣٦ أخذ يستعد للدراسة فى أوربا فسافر مبعوثا إلى فرنسا حيث أقام بها سنواته الطويلة دارسا وباحثا وكاتبا فى اناة ويسر ، حيث كتب رسالته عن التعريف بالقرآن وعن الأخلاق فى القرآن نال بهما دكتوراه الدولة من السربون بمرتبة الشرف الممتازة عام ١٩٤٧ .

وعن فترة إقامته فى باريس : فى هذه الفترة :

يقول الدكتور السيد محمد بدوى : كنت مع الطلبة العرب فى باريس نلتمس فى رحاب الأستاذ الجليل ما نحتاج اليه من رعاية فى وقت الشدة وكان هو يجمعنا فى منزله فى المناسبات الدينية والقومية ليشعرنا بما افتقدناه من جو عائلى يسبق بعدنا عن الأوطان وكنا نجد عنده كرم الضيافة العربية ونستمتع بأحاديثه ومناقشاته فى شئون الدين والعلم والسياسة وكان رحمه الله لا يضيق بما نثرثر به من آراء متطرفة احيانا بل يفندها بروح العالم المستنير ، فى سماحة ورحابة صدر ، ولا يزال بنا حتى يقنعنا بوجهة نظره المستندة إلى البرهان العلمى والمنطق .

وقد لمست عن كثب الجهود والخطط التى رسمها منذ أمد بعيد لنشر رسالة الإسلام فى العالم الغربى فعلمت أنه اتقن الفرنسية إبان طلبه للعلم فى الأزهر الشريف استعداداً لذلك اليوم الذى يقوم فيه بواجبه العلمى والدينى . فما أن وطأت قدمه أرض فرنسا حتى بدأ فى تحقيق خطته ولم ينتهج الطريقة السهلة التى انتهجها غيره بالشروع فى تحضير رسالة دكتوراه رأسا بل فضل أن يسير فى الطريق الأكاديمى فى بدايته ، ويفعل مايفعله طلاب العلم من الفرنسيين الذين يعدون أنفسهم اعداداً اكاديميا رصينا، فالتحق بالسربون للتحضير لدرجة الليسانس ودرس الفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم النفس ، وعلم الاجتماع على أيدى أساتذة السربون والكوليج دى فرانس من أمثال ماسنيون وليفى بروفنسال ، ولوسن ، وفالون ، وفوكونيه .

ونجد أثر هذا التكوين العلمى الرصين فى رسالته حيث لم يكتف بتوضيح وجهة النظر الإسلامية بل كان يجليها بمقارنتها بآراء المفكرين والفلاسفة ، وكان لا يترك مناسبة إلا استعرض فيها رأى عالم من علماء الغرب أو نظرية من النظريات السائدة ثم بين مافى هذه النظرية أو فى ذلك الرأى من قصور أو خطأ ويعقب ذلك بيان كمال النظرية الأخلاقية فى القرآن الكريم .

وقد استغرقت كتابة الرسالة (دستور الأخلاق فى القرآن) مايقرب من ست سنوات ويبدو أن العالم الجليل قد شرع فيها فى عام ١٩٤١ بعدأن أنتهت حملة فرنسا ، وعاد إلى باريس بعد سنة أمضاها فى بوردو (بجنوب غرب فرنسا) حين اقتربت الجيوش النازية من العاصمة الفرنسية وأصبح سقوطها وشيكا . وإذا أضفنا إلى هذه السنوات الست خمس سنوات قبلها التى أمضاها الأستاذ فى التعرف على مناهج العلوم فى الغرب وتحضير درجة الليسانس ، فإنه يكون قد أمضى مابين اعداد العدة وتنفيذ مشروعه حوالى أحد عشر عاما ، ولم تكن هذه بالفترة الطويلة إذا قدرنا ما اكتنفها من سنوات الحرب العصيبة ، وما اثارته هذه الحرب من مشكلات مادية ونفسية كان الأستاذ يتحمل عبئها ويحاول إبعادها عن أسرته الكبيرة التى صحبته فى غربته وأذكر أنه اضطر ـ أثناء هجوم الحلفاء لتحرير فرنسا — الى قضاء أيام طويلة مع أسرته فى مخبأ تحت الأرض كان يجمع فيه أوراقه التى يحرص عليها ويشتغل وسط القنابل التى كانت تدوى من حوله على ضوء شمعة أو مصباح خافت » .

أولا : العمل الأكبر

ولا ريب أن من أعمال الدكتور دراز يأتى هذا العمل ليتوج هذه الأعمال ، وقد قصد هو إلى ذلك قصداً أن يعلن صيحة القرآن ورسالة الأخلاق فى مجتمع الغرب بلغة الغرب وعن طريق رسالة رسمية فوق منبر أعظم جامعاتها :

هذه الرسالة نوقشت فى ديسمبر ١٩٤٧ أمام خمسة من أساتذة السربون والكوليج دى فرانس قدمت نسختها الفرنسية إلى المطبعة عام ١٩٤٨ ومع ذلك

فإن ترجمتها العربية لم تظهر إلا بعد ربع قرن من ذلك التاريخ وبعد أن لحق المؤلف يالرفيق الأعلى بأكثر من خمسة عشر عاما .

والكتاب فى الفرنسية (La Morade du Coron) أى (أخلاق القرآن) غيرأن المؤلف كان يطلق عليها فى العربية (دستور الأخلاق فى القرآن) .

ويبدو أهمية العمل حقيقة فيما يشير اليه الدكتور عبد الصبور شاهين تلميذه ومترجم الرسالة إلى اللغة العربية : الحق أن المؤلف فيما أرى لم يكن يكتب هذا العمل على أنه مجرد وسيلة إلى هدف ، هونيل اجازة دكتوراه الدولة فى الفلسفة من السربون فقد كان بوسعه أن يحقق هدفه بأقل مما بذل من جهد ولكنه كان يحمل فى ضميره رسالة هذا الدين ، الداعية إلى السلام ، فى فترة كانت أوربا خلالها ، بل العالم كله من حوله ، كتلة ملتهبة من الصراع والدماء وأسوأ ماقاد أوربا والعالم معها إلى ذلك المصير المحزن وهو بلاشك الخراب الأخلاقى الذى ران على وجوه الحياة السياسية والاجتماعية والفردية ، لدرجة لم يستطع معها رباط المسيحية بين الدول المتحاربة أن يردعها عن التحارب ، أو التخارب ، إن صح التعبير ، ولم يكن الحلفاء فى مواجهة هتلر والنازية بأحسن حالا من الوجهه الأخلاقيه فانهيار فرنسا أمام الزحف النازى فى يوم وليلة إنما كان إنهياراً اخلاقيا فى جوهره كما لاحظ ذلك بحق المارشال بيتان رئيس الجمهورية الفرنسية ابان الاحتلال فى رسالته التى وجهها إلى ضمير الأمة الفرنسية صبيحة الهزيمة أوعشيتها . والتغير العقائدى الذى سيطر على دول أوربا باسم العلمانية أو المادية أو الفاشية أو النازية أو الشيوعية هو فى الحقيقة خراب اخلاقى ابتليت به الإنسانية وأن تقمص اردية شتى . وسط هذه الخرائب وتحت هدير المدافع والقنابل وضعت هذه الرسالة أشبه بصرخة فى وادى الدماء والدموع والفساد والضياع عسى أن ترتد الإنسانية الأوربية إلى رشدها وتفيد عبرة من تجربتها الأليمة وتختار طريقا أخرى من أجل السلام والخلاص . ولا ريب أن الإسلام هو الحل الأمثل لكل ماتعانى منه الإنسانية : أوربية أو غير أوربية من ادواء .

وكأنما كان الدكتور دراز قد أرسل فى هذه الفترة بالذات ليبلغ رسالة الإسلام إلى أهل الغرب ومن فوق أعلى منابر الفكر لديهم ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . ومن عجب أن سمح له بما قال وكتب وعارض من أصول الفكر الغربى ونظرياته التى هى أشبه بالمسلمات وخاصة فى مجال دراسات النفس والأخلاق والإجتماع .

وحين تترجم هذه الرسالة إلى اللغة العربية يأتى ذلك فى أعقاب الأحداث التى شهدتها أمتنا من هزائم طويلة فى وجه الإستعمار والصهيونية والماركسية وحاجتنا إلى صيحة قوية مدوية نلتمس بها أصول فكرنا وقيمنا .

(ثانياً)

مقارنات الأديان

وفى مجال مقارنات الأديان تنبعث دراسة الدكتور دراز التى تعد عملا جديداً فى الجامعات العصرية وكان قد أدخلها عام ١٩٤٩ لأول مرة فى جامعة القاهرة (فؤاد الأول) فى برامج كلية الآدب تحت اسم مادة (تاريخ الأديان) لطلبة فرع الاجتماع من قسم الدراسات الفلسفية . وقد عهد اليه أن يقوم بتدريس هذه المادية وفوض اليه أمر الخطة والمنهج : يقول : فرأيت من الخير قبل الدخول فى الدراسات التفصيلية لمختلف الأديان أن أقدم بين يديها بحوثا عامة تستبين بها ماهية الدين ونشأته ووظيفته فى الحياة إلى اشباه ذلك من الأصول الكلية التى يجد فيها الطالب الجامعى مجالا لاجتهاد الرأى وتدريب ملكة الحكم والتى لم يقدر لها أن تجمع فى كتاب من قبل » .

وهكذا تظفر الدراسات الإسلامية ببحث جيد فى مجال خصب ينكشف فيه عن حاجة البشرية إلى الدين الحق ، وأهمية وظيفته فى المجتمع ، ومدى اقدمية الديانات فى الوجود ومدى اصالتها فى الفطرة .

وهو فى هذا يناقش كل ماكتبه رجال الفكر الغربى عن الدين : أوجست كونت ، ماركس ، برجسون ، ساباتيية ، ديكاربت ، دوركايم ويخلص إلى سلامة الإسلام وقدرته على العطاء وتحرره من عوامل التغيير والتزييف التى تعرضت لها كثير من الأديان المنزلة .

وهو يكشف اخيراً عن أن المنهج الذى سار فيه دارسو تاريخ الأديان فى الغرب يتسم بنقص شديد ومن أبرز عوامل هذا النقص تجريدهم ماهية الدين من فكرتى الروحية والإلهية وهم بذلك يكونون قد جردوها من أخص صفاتها ونزعوا عنها المحور الذى تدور عليه كل عناصرها وقد كشف العلامة دراز عن حقيقة جوهر الدين الإلهى : الذى يقف فى جانب الأمل والإمكان والحرية والاختبار والذى هو بهذا يخدم العلوم ويمهد لتقدمها ويفسح المجال أمامها

فى تغيير معالم الأشياء إلى أبعد مما يتصوره العلوم الواقعية التى هى بطبيعتها جبرية إلى أقصى حدود الجبر ميئوسة إلى أبعد حدود اليأس ،تعيش يوما بيوم ولاتؤمن إلا بعينها ولا ترى أكثر من طرف أنفها .

ثم هو يكشف فى بساطة ويسر أن العلم البشرى لا يستطع إطفاء غريزة الدين بل سيزيد إشعالها ، وقد مر وقت طويل على تلك الصيحات التى نادت بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية الحتمية لتقدم العلوم« لقد أصبح العلم يؤمن اليوم بأن فى الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر ، المزود بأدق المقاييس والموازين ، وبالجملة أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هى المعيار الوحيد للوجود وهكذا وضع بيده اللبنة الأولى فى القاعدة التى تقوم عليها الأديان » هذا فضلا عن أن هذه العلوم لم تكشف من قوانين الوجود إلا جانبا يسيرا يمتد من خلفه عالم فسيح من الشواذ والأحوال الفردية التى لا تضبطها قاعدة ولا قانون . وأننا نقول بلسان علوم الطبيعة نفسها أنه لم يوجد ولن يوجد فيها قانون عام واحد يعتمد على منهج تجريبى يقينى . شامل ذلك أنه مهما تتكرر التجربة وتتنوع الأمثلة فإنها كلها أحداث معينة تقع فى أزمنة معدودة وامكنه محدودة ، ويظل بين جملتها وبين منطوق القانون الكلى ، الذى لايحده زمان ولا مكان ، برزج عريض يفصل مابين النهائى و « اللا نهائى » وأنه لكى يسد العلم هذه الفجوة يلجأ دائماً إلى وسيلتين من الرفو والترقيع ، ينسج خيوطهما من مقايسة ذهنية تعتمد على محض الظن والتمنى : أما (أولاهما) فإنه يمد بين كل معلمة ومعلمه من معالم التجربة الفعلية جسورا وهمية قصيرة يفترض فيها أن الحلقات المقفوده التى لم تسجلها المشاهدة تنتظم فى سلك مع الحلقات التى سجلتها . أما فى (أخراهما) فانه من وراء تلك السلسلة كلها يثب فى عالم الغيب الزمانى والمكانى وثبة هائلة يفترض فيها أن المناطق التى لم ير منها شيئاً شبهة بالمنطقة التى رآى بعضها ، وهذا معناه أن كل تفسير للآثار بأسبابها الطبيعة يحمل فى نفسه جرثومة نقصه وعجزه . ومعنى هذا أن التفسيرات الطبيعية بين نارين : فهى إما أن تقف بنا معترفة بعجزها وإفلاسها وتتركنا ظمأى لا تنقع لنا غلة وإما أن تسعى إلى الوفاء والكمال وهكذا تلتقى العلوم العقلية والطبيعية

العملية منها والنظرية على الاعتراف بأنها فى استقصاء البحث عن أصول الأشياء ومبادئها تنتهى دائماً بالانتصار لقضيه الغيب وتفسح بيـــدها المجال لبقاء الاديان وخلودها .

وهكذا نجد الإيمان الربانى الإسلامى ينطلق فى ثنايا البحث العلمى على نحو هادىء وجاد ومتماسك على نحو لم يعرف لكثير من الدارسين فى الحقل الإسلامى .

ثالثا : القرآن

أن مدار ابحاث للدكتور دراز كلها ترجع إلى أصل واحد هو (القرآن) وهى فى محاولتها الاتصال بالفكر الحديث إنما تريد أن تكشف عن نظرة القرآن ومنهجه فى كل ماتصل اليه :سواء فى مجال الأخلاق أو مقارنات الأديان ، أو الاقتصاد ، أو القانون ، فالقرآن هو المحور الضخم الذى يعتمد عليه الدكتور دراز ويدور حوله ويستقصى له ويستصفى كل مايجد من العلوم الإسلامية ، أو مقارنا به النظريات الغربية ، وهو حين يقدم الإسلام للغرب يقدمه فى اسلوب رائع وتعبير محكم من شأنه أن يلقى قبولا فى العقل الغربى الذى الف الأسلوب العلمى بوسائطه ومصطلحاته : يقول :

« أن القرآن الذى أعلن على العالم بصوت محمد لمعجزة ، بل أنه المعجزة . كل شىء يبرهن على ذلك ، أسلوبه ومحتوياته والأحداث غير المألوفة التى أنزل بها وبها لقنت آياته ودونت كلماته ثم مطابقته الدائمة لحقائق الماضى والحاضر والمستقبل، وميزه تساميه وترفعه مما لا يدل أبدا على أثر لرجل معين أو مجتمع واحد أو حقبة من التاريخ أو منطقة معينة من الكرة الأرضية .

وليس القرآن حدثا عابرا فى التاريخ يظهر يوما وتختفى فى اليوم التالى ، ولا شيئاً يتناقله الرواة وحدهم بشىء من الصدق قل أو كثر ، كلا ، بل أنه لحقيقة ثابتة راسخة باقية على مر العصور وكر الدهور دون أن يطرأ عليها تغيير أو تبديل وستظل مثار اعجاب جميع الناس الذين به يتأملون وفيه يفكرون » .

هذا أسلوب عربى ولكنه فى الواقع كتب بالفرنسية وقصد به أن يقدم للعقل الغربى مفهوما للقرآن بعيداً عن أساليب البيان العالية ، وبعيداً عن المبالغات وفى دقة تلتمس إعطاء هذا العقل مايتطلع اليه فى فهمه لأمور غيبية ، جلاها الدكتور دراز بأصفى أسلوب وادقه :

وأنظر مثلا : مايقول تحت عنوان كيف ينظر المسلمون إلى القرآن والنبى :

« أن القرآن عمل إلهى صرف وصلت نصوصه إلى العالم على يد رسول من السماء هو الروح الأمين جبريل الذى أودع القرآن فى قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اقتصر دور محمد على تلقى الوحى وتعلمه وتدوينه ثم تبليغه للناس وشرحه وتطبيقه ، ولم يكن لمحمد أن يتخطى ذلك أو يتجاوزه بأى حال من الأحوال . أو يجرى فى القرآن أى تغيير أو تعديل مهما كان ، لا هو ولا أى واحد من المؤمنين يمكن تناول أى عمل من غير صنع البشر بالبحث والنقاش أو المعارضة والمناقضه فى ضوء أحداث الماضى أو الحاضر أو المستقبل .

أما القرآن — وهو كلمة الله — فهو الكمال بعينه وهو الحق الذى لامراء فيه والصواب المعصوم من الخطأ والزلل وأنه الخير والجمال الذى لا يضاهى .

ولم يكن محمد — وهو نبى الله — سوى إنسان من البشر ، أنه لم يكن إلها عظيما ولا إلها صغيراً حتى ولا شبه إله ولا مساعد إله . لم يكن بقادر على نيل الخير وحده أو تجنب الشر إلا بإذن الله وهذا الكثير مما عرفه النبى من الماضى والمستقبل إنما أنزل اليه من رب العالمين ، وما كانت أحكامه معصومة إلا إذا كان الوحى يؤيدها ولكنه كان يتميز عن بقية الرسل بشمائل وفضائل فطرية ممتازة وبالعلم الإلهى الذى وهبه الله له وامتاز بشرف رسالته ، أنه رأس المؤمنين قاطبة ، ولما كان هو المفسر الأمين والمثل الحى للقرآن فإننا ندين له بالطاعة والولاء والحب والإجلال والقرآن يحثنا على معاملته بأحترام وتبجيل خاص » وهكذا يمضى الدكتور دراز فى تصوير الإسلام والقرآن ومحمد فى رسالته (مدخل إلى القرآن الكريم) داعية موقنا مؤمنا مدققا .

وهو يحاول أن يقدم القرآن والإسلام إلى العقل الغربى فى صدق :[1] فالإسلام فى معناه الحرفى هو الايمان بالله والخضوع للارادة الإلهية وهو بهذا المعنى لا يتعارض مع اليهودية ولا مع المسيحية وأنه يدعو للايمان بجميع الكتب المنزلة وجميع الأشياء ايمانا يضمهم جميعاً بتقديس واحد دون التمييز بين أى منهم ،

---

(١) من تلخيص الدكتور السيد محمد بدوى (مقدمة كتاب مدخل إلى القرآن الكريم).

والإسلام من هذه الناحية ليس دعوة جديدة ولا حق إصلاحا وإنما مجرد دعوة إلى الوحدة الأصلية . أنه الدين الأوحد الذى لم يأل الرسل جهداً فى الدعوة اليه منذ نوح وإبرهيم حق موسى وعيسى عليهم السلام .

هذا فيما يتعلق بالحقيقة الدينية ولا يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالقانون الأخلاق ، فقد أقام جميع الرسل ميزان العدل وكلهم أمروا بأن يفعلوا الخير ويحثوا على الخير ، ولقد سن الصلاة والزكاة كل من إبرهيم واسماعيل واسحق ويعقوب وموسى وعيسى ، كما كتب الصوم على الأمم السابقة ،وشرع إبرهيم فريضة الحج ولقد أدان كل من هود وصالح حب قومه للأموال والمتع الدينوية والعدوان والفساد . وقاوم لوط انحلال قومه وانغماسهم فى الرزيلة ، وقاوم شعيب الغش فى التجارة لجميع الناس مرجعهم إلى الله وستعرض عليه اعمالهم فى الدنيا سواء فى ذلك الرسل أم الشعوب التى أرسلوا إليها وفضلا عن احياء السلوك القديم والتضامن الفكرى الذى يجمع بين رسل الله جميعاً ، فإن القرآن يذكر دائماً فى كلا المجالين العقيدى والعملى ما فى نفس الإنسان من عنصر مشترك : هو الحكم الفعلى والسليم الذى يميز به الإنسان : الخير والشر وهكذا نرى أن الدعوة القرآنية دعوة عالية فى هدفها ، وهى عالية أيضاً فى اسلوب ووسائل الإقناع التى يتبعها القرآن لتحقيق هذا الهدف السامى » وهكذا نجد الدكتور دراز يرسم للاسلام صورة عصرية رائعة قائمة على الأسس الجوهرية ، التى جاءت بها كتب السنة ، ثم لا تتوقف عند هذا بل يمضى ليدرس الاعتراضات والشبهات الثارة حول كل قضية من هذه القضايا وما أكثرها فى كتب المستشرقين والفلاسفة الغربيين « ويرد عليهم بحجج عقلية من نوع حججهم فيكون فى ذلك ابلغ الرد عليهم وخير وسيلة لهدم دعاواهم » .

يقول : لقد بحثنا . مسترشدين بالوقائع التاريخية : افتراض وجود مصدر بشرى لتعاليم القرآن ، فتتبعنا مؤسس الإسلام فى مراحل حياته المزدوجة : الحياة العادية وحياة الرسالة ، فى مسقط رأسه أو فى موطنه الأخير ، فى رحلاته فى اتصالاته وتعرضنا لقدرته على القراءة ولمدى توفر الوثائق تحت يده ، لجميع سبل البحث التى وقعت تحت أيدينا وناقشناها ثبت ضعفها وعدم قدرتها

على تقديم أى احتمال لطريق طبيعى أتاح له فرصة الاتصال بالحقائق المقدسة .
وهو فى هذا يرد على جولد سيهر وماسنيون ونولدكه ,وسان هيلر ومرجليوث
وكل الذين حاولوا إثارة الشبهات حول الرسول والقرآن والإسلام ، وهو فى
الختام يقول : إذن مهما بذل المغرضون من محاولات لتجميع نقط التشابه بين
الحقائق القرآنية والحقائق اليهودية والمسيحية ، سنقول : جهد ضائع ، بل أن ذلك
سيكون معناه بالحرف الواحد اصطناع أسلحة تفيد منها المبادىء القرآنية » .

– ٤ –

حقق الدكتور دراز كل هذه النتائج خلال رحلته إلى الغرب فلما عاد انتدب
لتدريس تاريخ الأديان بجامعة القاهرة وحصل على عضوية جماعة كبار العلماء عام
١٩٤٩ ثم ندب لتدريس التفسير بكلية دار العلوم واللغة العربية بالأزهر وتدريس
فلسفة الأخلاق فى كلية اللغة العربية .

وفتح الرجل بذلك صفحات جديدة من البحث وأضاف إضافات جديدة إلى
الجوانب التى حررها وكشف عنها دفاعا عن الإسلام وتحقيقا لربانيته فى مواجهة
كل مايثار حوله من شبهات ولكن العمر كان قد اقترب من النهاية فإنه لم يبق
بعد عودته أكثر من تسع أعوام مشغولا بشئون علمية نيطت به على عجل منها
هذه التى ذكرنا ومنها اشتراكه فى اللجنة العليا لسياسة التعليم والمجلس الأعلى
للاذاعة ، فضلا عن اشتراكه فى عدد من المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلا لمصر
والأزهر ، وكانت أحد رحلاته إلى باكستان لحضور المؤتمر الإسلامى فى
مدينة (لاهور) فى يناير ١٩٥٨ وقد ألقى هناك بحثا عن (موقف الإسلام من
الأديان الأخرى وعلاقته بها) ثم وافاه الأجل المحتوم أثناء انعقاد المؤتمر . وبذلك
استكملت حياة خصبة قدمت ما أذن الله لها أن تقدم من عطاء فى مجال الثقافة
الإسلامية .

ولقد كان الدكتور دراز يطالعنا فى صباحيات بعض الأيام بأحاديثه فى
الإذاعة بذلك الإلقاء الخافق الحلو ، وذلك النسق العالى الذى يجمع السورة
الواحده فى كل ثم يعرضها فى مراحلها المختلفة التى يسلم بعضها إلى بعض لتصل
فى النهاية إلى الغاية وذلك نهج تفرد به فى هذه المرحلة وحقق به نتائج رائعة .

ومما قاله فى عرض سورة البقرة قوله : أرأيت وحدتها فى كثرتها ، أعرفت اتجاه خطوطها فى لوحتها ، أرأيت كيف التحمت لبياتها من غير ملاط يمسكها ، وأرتفعت سملؤها بغير عمد تسندها ، أرايت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وطرفها ، لاأقول أحسن دمية بل أجمل صورة حية ، كل درة فى خليتها ، وكل خلية فى عضوها ، وكل عضو فى جهازه ، وكل جهاز فى جسمه ، ينادى بأنه قد أخذ مكانه المقسوم وفقا لخط جامع مرسوم ، رسمه مربى النفوس ومزكيها ، ومنور العقول وهاديها ، ومرشد الأرواح وحاديها ، فتالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام نزولها لكان جمع اشتاتها على هذه الصورة معجزة وكيف وكل نجم منها — كسائر النجوم فى سائر السور — كان يوضع فى رتبته من فور نزوله ، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظاراً لحلوله ، وهكذا كان مالم ينزل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل ، ثم كيف وقد اختصت من بين السور المعجمة بأنها حددت مواقع نجومها لاقبل نزولها بعام أو بعض عام بل بتسعة أعوام ، لعمرى لئن كانت للقرآن فى بلاغة تعبيره معجزآت وفى أساليب ترتيبه معجزات وفى نبوءاته الصادقة معجزات ، وفى تشريعاته الخالدة معجزات وفى كل ما أستخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية ، معجزات ومعجزات ، لعمرى أنه فى ترتيب آيه علي هذا الوجه لهو معجزة المعجزات » .

هكذا نرى الدكتور دراز يهدر وهو يتحدث ، من قلب مؤمن ، وعقل مفكر ، فتحس أن رجلا احتضن فكره وقلبه القرآن فخفق به وتعمق فهمه ومنحه الله فيضا من تفسيره وعطائه .

وبعد فلقد ظلت آثار الدكتور دراز بعيدة عن الظهور فترة طويلة ولكننا نراها فى السنوات الأخيرة قد بدأت تطبع وتوضع فى أيدى الباحثين فيعرف قدرها قراءها وماتزال تتوالى لتكمل حلقة هذا العمل الكبير لعلم من أكبر أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث (توفى يناير ١٩٥٨) .

محمد أبو زهرة

حياة خصبة عريضة ، ونموذج كريم ، لعلماء الإسلام القائمين بالحق ، الذين آمنوا بأن أعظم الجهاد هو كلمة الحق عند السلطان . ولقد قام أبو زهرة فى سنواته الأخيرة بالحجة فأعلن رأى الإسلام جليا فى عدد من القضايا : أهمها قضية الشورى فى الحكم والربا فى الاقتصاد والمرأة فى المجتمع وأعلن رأيه من فوق أعلى المنابر وفى جمع حاشد من علماء المسلمين القادمين من كل مكان : من فوق منبر مجمع البحوث الإسلامية ، والملتقى الإسلامى فى الجزائر ، وفى العراق والكويت ، ولم يدع مكانا استطاع أن يصل اليه إلا بلغه وكانت مقالاته فى سنواته الأخيرة — حتى أوقفت — فى مجلة لواء الإسلام صادقة الانابة إلى الله والتبليغ عنه وعندما وجد بعض الكتاب الماركسيين يتناولون القرآن فى عدد من مجلة الهلال: تقدم الصفوف وشمر عن ساعد الجد وقدم كتابه الضخم : « المعجزة الكبرى : القرآن » كتبه فى مواجهة التحدى عندما حيل بين قلمه وبين الكتابة فى الصحف وكشف فى مقدمته عن موقفه ، وهو فى سن الثامنة والسبعين : يقول :

نحمد الله على ما اختبرنا به ، لقد اختبرنا الله تعالى فى أول كتابة ما كتبينا عن القرآن فانقطعنا عن الصحف السيارة نخاطب المسلمين من فوق منبرها ، وقطعنا عن المجلات العلمية نوجه الفكر الإسلامى عن طريقها ، وعن كل طرق الاعلام فلا نصل اليها ، وكان الهم الأكبر أن يقطعنا عن دروسنا وعن المحاضرات العامة . ولكن « القرآن » آنسنا فى وحدتنا ، وأزال غربتنا وكان العزاء النفسى والجلاء الروحى ، واختبرنا الله تعالى بالضر ، كما اختبر نبيه ايوب : إذ قال (انى مسنى الضر وأنت ارحم الراحمين) وأنه وأن تشابه المرض فإنه يختلف المقام، فهذا نبى يوحى اليه ونحن من الأتباع ، ونرجو أن نكون من الابرار من أتباع النبيين ، لزمنا المرض المقعد نحو شهرين فكان ألم الابتعاد عن القرآن أكبر من ألم المرض المحض . ولقد من الله علينا بالشفاء ، نخرجنا من الداء العقام ،

وما منعنا وعثاء المرض فعدنا إلى القرآن نقبس من نوره ونعبق من عرفه ، فهو أنس المستوحش وسمير المستغرب فأنسنا بعد طول الغياب ومنحنا الله تعالى به العافية ، فوفقنا لأن نقطع كل ماأردنا عرضه فى مدة المرض وكنا فى مجموع مابلينا من طول المــدة أصحاء فى أبداننا لأنه سلمت نفوسنا من السقام بفضل القرآن .

واختبرنا الله تعالى من بعد بهم وأصب بأن أصاب رفيقة حياتى كسر أقعدها وأقعدنى بالغم الشديد والكرب البعيد الأثر العميق فى النفس ولكن أنس القرآن خفف همى وكشف غمى لأنه ملأها ايمانا بقضاء الله وقدره ، ووضع فى نفوسنا الصبر الجميل من غير أنين ولا ضجر ولكن برضا لما اراد وهو اللطيف الخبير » .

وهكذا اختتمت حياة هذا العلامة الكبير بهذه المواقف الحاسمة وكان كتابه عن القرآن وكتابه عن خاتم النبيين ﷺ هما مسك الختام فى حياة عريضة بدأت فى المسجد الأحمدى بطنطا ثم فى الأزهر ، ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى تعلما ، ثم فى جامعة القاهرة وكلية الحقوق ومعهد الدراسات الإسلامية تعليما ، فضلا عن لجان الفقه والقانون والتفسير والحديث فى جامعات الأزهر والقاهرة وعين شمس والإسكندرية وكان قد ولد عام ١٣١٦ هـ وحصل على عالمية القضاء الشرعى من درجة استاذ ١٣٤٣ ثم حصل على معادلة دار العلوم واشتغل بالتدريس بها وفى كلية أصول الدين بالأزهر ثم كلية الحقوق .

حياة خصبة طويلة عريضة فى نفس الوقت : يقول : « واحسب فى حياتى كلها أن الله كان معى مع كثرة الذين يرومون بى السوء وماخيب الله لى املا ولا رجاء ، وكنت اضطهد فى العهود السابقة فكلما اشتد الكرب على جاءنى الفرج من حيث لا أحتسب ، يروى هذا لتلاميذه ثم يقول : كونوا يابنى مع الحق دائماً واخلصوا لله دائماً ولا تمالقوا أحداً فى حق ولا تكونوا على ضعف أبدا.

ووقائع حياة العلامة أبو زهرة تكشف عن حقيقة اساسية هى مفتاح حياته : ذلك هى « العزة والكرامة والصلابة والحق » حق أنه كان حريصا على

ألا يسند اليه منصب لا يستطيع أن يقوم فيه بالحق ، وأبرز مواقفه فى الصلابة موقفه من الربا والتأمين ونظام الحكم .

فقد وقف فى وجهه الماركسيين وصدع بالحق فى نظامهم وكتاباتهم وحاولوا النيل منه بما كان تحت ايديهم من نفوذ فى الصحف الكبرى ولكنه صمد وهو على الحق واعطاه هذا الموقف تقديراً واعجابا بالغين ، وكذلك وقف زملاءه منهم عبد الوهاب فايد ومحمد الغزالى ومجلة لواء الإسلام .

وقد كشف هذا الموقف الطويل عن جوهر الرجل وثباته ، فإنه لم يدع بعد فرصة إلا عالج فيها هذه القضايا الاجتماعية بروح الإسلام ، وماتزال محاضرته الجامعة عن نظام المجتمع الإسلامى تحمل نبضات قلب مؤمن ثابت على الإيمان لايخاف الجهر بكلمة الحق . ولعل خير ماختمت به حياته واعطاه عز الدنيا والآخرة : « الصمود فى موقف الحق » .

وقد صور هذه التجربة فى ايامه الأخيرة .

يقول : كنت اشعر وأنا فى المكتب (أى فى عهد الطلب فى الصبا الباكر) بأمرين ظهرا فى حياتى من بعد :

الأمر الأول : اعتزازى بفكرى ونفسى ، حتى كان يقال عنى انى طفل عنيد .

الأمر الثانى : إنى كنت أتضايق من السيطرة .

ولعل الأمرين متلازمان ، لأن الاعتزاز بالنفس يتولد عنها بعض السيطرة ، ولما أخذت اشدو فى طلب العلم وأنا فى سن المراهقة دخلت المعهد الأحمدى بطنطا ، فظهر فى طبيعتى أمر أحسسته ولعله من مظاهر النزعتين السابقتين ، وهو انى كنت أفكر ، لماذا يوجد الملوك وبأى حق يستبعد الملوك الناس فكان كبر العلماء عندى بمقدار عدم خضوعهم لسيطرة الخديوى الذى كان امير مصر فى ذلك الوقت وكبر فى نظرى عالم كبير قال للخديوى وقد أخذ يطلع على اسئلة المنطق التى وضعها ذلك الشيخ لطلبة المعهد السكندرى فقال للخديوى :

ماذا تعرف عن علم المنطق

فقال شيخ المعهد : أنشتم الحديوى .

فكبر ذلك الشيخ فى نظرى واعتززت بالإعجاب به حتى كنت إذا رأيته اهتزت نفسى بالإعجاب واستمر ذلك الشيخ له الخطوة العليا فى تقدير طالب علم مثلى حتى رأيته يتملق ويصبح من رجال أحمد فؤاد ، سلطان مصر ، فذهبت كل روعة له عندى وانتقلت من النقيض إلى النقيض .

ولما دخلت مدرسة القضاء الشرعى وكان ناظرها العالم ذو الأخلاق « محمد عاطف بركات » كان شديد الاستمساك برأيه مادام لم يعلم أنه باطل وكان قويا فى نفسه لا يسيطر عليه إلا ضميره وعقله ، فمن هذا النبع استقيت ماتغذت به نفسى وارضى نزعتى ، وإذا كان من الناس من يرى فى تمسكا برأيى ولا أسير وراء الناس فإن هذا من تلك التربية العالية .

هذا هو لب لباب حياة الشيخ ومفتاح شخصيته ، وهو ما كان مستمراً مدى حياته ولكنه لم يظهر فى صورة عامة إلا فى السنوات العشر الأخيرة ، حين أخذ يحمل على الانحراف والفساد والفكر الماركسى الوافد ، حتى حيل بينه وبين الكتابة سنوات قليله ، ثم عاد مرة أخرى فى أوفى تقدير واعزاز . وقد عرف له تلاميذه ذلك وكان موضع اعجابهم، يضاف الى ذلك قدرته البالغة فى السجال والمناقشة وتشقيق الحديث واحقاق الحق بالحجة الدامغة :

يشير إلى هذا دكتور عدنان زرزور ويقول أنه قوة عارضة فى مناقشه مخالفيه فى الندوات والمحاضرات والرسائل الجامعية تساعده ذاكرة قوية وبديهة حاضرة واطلاع واسع وقدرة عجيبة على التوليد والابتكار وصوت قوى مجاجل ينطلق من اعماق القلب وطبع أصيل تسعفه الاشارة الموحية .

ويقول دكتور وهبه الزحيلى وهو من تلاميذه : انه طويل النفس فى معالجة القضايا ، يشقق المسألة على وجوه متعددة ، ويقلب فيها وجوه النظر المختلفة داعما الرأى بدليله من القرآن والسنة النبوية أو الأصول الاسلامية وقارنا الفكرة الاسلامية

بأعدلها عند علماء الفلسفة والاجتماع والمنطق ، وهو متأثر فى كتاباته بطريقة الشاطبى وابن تيمية وابن القيم والعز بن عبد السلام ومدرسة محمد عبده حيث يربط القضايا الجزئية بأصول الشريعة العامة ومبادئها الكلية ومراميها الحقيقية وروحها السائده » .

كذلك كان أبو زهرة معجبا بالإمام أبى حنيفة لمثال فى نفسه : يقول : كان أبو حنيفة رجلا يقدر الحرية فى غيره كما يقدرها لنفسه ، ولذلك كان فى فقهه حريصا كل الحرص على أن يحترم إرادة الإنسان فى تصرفاته مادام عاقلا فرأيناه يجعل للبالغة العاقلة تمام الولاية فى أمر زواجها ولم يجعل لوليها عليها من سلطان وتفرد من بين الأئمة الأربعة بذلك ، ووجدناه يمنع الحجر على السفيه وذى الغفلة وعلى المدين ثم وجدناه يمنع كل قيد على مايملك الإنسان إلا القيود الدينية النفسية ، ثم وجدناه فى سبيل هذه الارادة يمنع الوقف ، ولهذا نراه يتجه إلى ترك إرادة الإنسان حرة ، ليس للقضاء شأن معها إلا عند الاعتداء على غيره » .

ويتبع هذا النسق فى الحفاظ على الكرامة والصلابة فى الحق جانب آخر مرتبط به لا ينفك عنه ذلك هو جانب لاستهانة بالمادة التى تعوق صاحبها عن الغايات الكبرى وتأسره فى قيد المال والرزق والأجر وفى تجربته هذه يقول :

لقد ابتدأت فقيرا ، فى أسرة بين الفقر والغنى ، ولكن لم ينل الفقر من احساسى بنفسى ، واعتزازى بدينى وخلقى ، كأسرتى التى كانت غريزة فى مالها ، عزيزة فى نفسها ، ولم تصل إلى درجة من الثراء قط ، ولكنها كانت دائماً موضع الاحترام والتقدير .

ولما دخلت موظفا فى الحكومة قنعت وكنت مدرسا يقدر بين تلاميذه وأولياء أمورهم ، وعزفت عزوفا كاملا عن الدروس الخصوصية ، وحدث أننى كنت أدرس بالسنة الأولى بالمدارس الثانوية ولم شعر بأن عندى مقدرة لتفهيم طلبه السنة الأولى ، فاعملت الحيله لاستطيع أن ادرس للطلبة الإنشاء

والمطالعة والمحفوظات لجعلتها درسا واحداً فالطلبة يطالعون فى المطالعة فأرى قطعة ادبية أقول لهم لخصوا هذه القطعة فيستفيدوا إنشاء أو اشرح قصيدة من المحفوظات فأطالبهم باختيار ابلغ كلماتها ليستعملوه مره واثنتين .

أما فى النحو فكنت الزم الطلبة بالإنصات المطلق وأنا رقيب عليهم فمن تلفت يمينا أو شمالا أطالبه بأن يقول الكلام الذى كنت أقوله وإلا اخذت بعنقه وبادرته باللطم على خده فكنت عندما ابتدىء درس النحو الاحظ أن الطلبة يفتحون اعينهم ، ووقع فى يدى من هذا النوع طالب كان أبوه وكيل وزارة التجارة والصناعة ، فرآنى الناظر وقد قبضت على خلفة عنقه ويدى تتناول وجهه بمس عنيف جداً فجاءنى الناظر واعطانى كشفاً بأسماء الطلبة واسرهم وقل لى : هذا آدم أبوه بواب وهذا الذى كنت تضربه أبوه وكيل وزارة فلا تهتم بهؤلاء لأنهم يحضرون مدرسين خصوصيين ، فقلت للناظر : أجمع هذا واشباهه وارسلهم إلى الفصول الأخرى واجمع لى ابناء البوابين واشباههم من الفقراء لأعلمهم ، فانى أتعب فى هذا الدرس واريد أن يكون هذا التعب قربة لله . فقال الناظر : ألا تغضب إذا نقلت هذا الطالب من درسك . فقلت له : لا ، فاتصل بابيه وكيل الوزارة وعرض عليه أن ينقله من فصلى فقال له وكيل الوزارة : إذا كان مدرس العربى يدرس فى أى فصل فانقله اليه فقال الناظر : إنى انقله لأنى رأيت مدرس العربى يضربه فقال : إذن قد وقع : أبقه فى الفصل لأنى احضرت له مدرسين خصوصيين فى كل مادة إلا العربى وقل لاستاذ العربى إن كان يحتاج إلى عصا فأنى ارسلها اليه فجاءنى الناظر وشكرنى على أداء واجبى » .

ويتحدث الاستاذ أبو زهرة عن حياة جادة : لا هزل فيها ، عاشها دون أن تصيبه صبوة الشباب : يقول فما ماعت نفسى لحب استغرقها ، ولا لشهوة جامحة دفعتها ولا لسكره فى النساء ولكن لجد فى العمل .

ولما نلت مطالبى من العلم أخذت أفكر فى الزواج ، فتزوجت ، وكان حبى لزوجى وأولادى واحسب أن هذا هو الحب الذى يدوم ، وهو الذى ينظم حياة

الإنسان وغيره شهوات حيوانية لا تدوم ولا تستمر وكل زواج بنى على الحب الشهوانى لا يبقى لأنه سرعان مايفتر ، ولذلك يقول بعض الناس : الزواج يقتل الحب الشهوانى أما الحب الزوجى فيعيش وينمو ولايفتر ابداً .

ومن الخيوط التى تكشف شخصية أبو زهرة وتكمل الصورة : ما أشار فيه من أن كتبه فى كلية الحقوق كانت ارخص الكتب وكان للطلبة سعر مخفض عن البيع العام ، (ستون وخمسمائة صفحة بخمسون قرشا) وزملائه يبيعو بمائة وخمسين قرشاً .

ولما سأله العميد والأستاذ عن ذلك قال : أنا ابيع بذلك وا كسب ، أما أنا فالله اعلم بكم تلك ملامح صورة إجتماعية لهذا الرجل الذى قدم للفكر الإسلامى ثروة ضخمة منها تفسر للقرآن كان ينشره تباعا فى مجلة لواء الإسلام ، ومجموعة أئمة المذاهب الإسلامية :

(أبو حنيفة ، الشافعى ، مالك ، ابن حزم ، ابن حنبل ، الإمام زيد ، الإمام جعفر الصادق ، ابن تيمية ، ابن قيم الجوزية) وكان تغير بكتابه عن الإمام الشافعى بالإضافة إلى كتاباته المهنية والقانون : أصول الفقه ، الأحوال الشخصية ، الجريمة والعقوبة فى الفقه الإسلامى ، العلاقات الدولية فى الإسلام أو نظرية الحرب الملكية ونظرية العقد ، القضاء الإدارى فى الإسلام ، ولاية المظالم فى الإسلام .

وله دراسات هامة : [تنظيم المجتمع الإسلامى ، الوحدة الإسلامية . محاضرات عن النصرانية] .

ومن هذا القبض له يتشكل له مفهـــوم جامع للاسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع .

(٢)

قال مشاعل أبوزهرة الفكرية : تطبيق الشرائع الإسلامية فهو فى كل مؤتمر

أول تغيير فى الأحوال الشرعية كان انحراف الحكم من شورى بنص القرآن إلى إستبداد بإرادة الحكام، ملوكا وغير ملوك، كما ظهر من بعد وصار أمر المسلمين بورا وحكمهم فرطا يحكم المالك وكأنه يحكم بأمر الله)،وطاعته المقدسة، والخروج عليه تمرد على، حكم الله وحكم المسلمين حكام جهلة، وأضطربت الأمور ولم يكن ثمة قضاء منظم ولا حقوق مرعية .

وأخذ سلطان الشريعة يضعف شيئاً فشيئا فى العصور المختلفة وإن الفقهاء فى وقت ضعفها أو تدرج هذا الضعف نازلا درجة درجة وإن نظام الحكم مكد لأهل الباطل أن يغلبوا ويتولوا أمر المسلمين وإن لم يظهر أثر ذلك والإسلام غض وإنما كانت مظا لم فقد ظهر بعض ذلك وقد ضعف الوازع الدينى عن الحكم أو إذا كنا نريد أن نعيد للشريعة مكانتها ويحكم الإسلامى إصلاحه للناس وعلاء شأنه من المسلمين فلانه يجب علينا أن نعود إلى أسباب قوتها فى عهد النبي صلي الله عليه وسلم وعهد الراشدين من أصحابه الكرام وإن الشريعة أخذت تتولى فى سلطانها لا فى ذاتها فهى شريعة الله لا تتولى ابداً بل هى تقرر هذا الوجود الساطع دائما وعلى الناس أن يعشوا إليه . أمر القرآن بالشورى فيجب أن يختار الحاكم منهم أختياراً حراً ولا يتولى أى ساطان إلا بعد أن يختار وليبحث العلماء عن طريق لاختيار عادل لاريب فيه .

إن اختبار الحاكم هو السبيل الذى سنه الإسلام بالقرآن وبأعمال الصحابة فى إختيار الراشدين هو السبيل الأمثل لوقاية الشريعة من عبث الحاكمين وكل تهاون فى ذلك هو تهاون فى أصل من أصول الإسلام . ويجب أن تقام الحدود كلها من غير هوادة وليس لأحد إرادة فى هدفها أو التأويل لإسقاطها أو التعابث بها فإن إقامتها صيانة للمجتمع من المفاسد وحماية له من الإنهيار ومنع للترف الذى أطفىء الحكام من أن يهلك الأمة : أنه يجب أن تنفذ الشريعة فى العقوبات تنفيذاً جاه محكما لا يفر من حكمه أحد ولا يدرع سلطان بسلطانه ولا ذو يجب على المسلمين فى كل البقاع الإسلامية قاضيها ورانيها أن يرفعوا عن أنفسهم رق الحكام وبجلوهم معسئولين ككل الناس وإلا استمر الضياع والانجاه .

* * *

وقضية الوحدة الإسلامية من إهتمامات أبو زهرة الكبرى :

أن الوحدة الإسلامية هي الغاية التي يجب أن يطلبها كل مؤمن ومن لم يؤمن فإن المؤمنين أمة واحدة فقد عاند نصوص القرآن وخالف حكمه وجانب دعوته ودخل ضمن من يساقون الله ورسوله والمؤمنين وإذا كنا قد تفرقنا في الماضي فعلينا أن نتدارك أمرنا في الحاضر ، وإن كانت العنصرية قد فرقتنا ،والانضواء تحت لواء القرآن يجمعنا وإن كانت الطائفية التي نبذها الإسلام قد جعلت تفكيرنا الديني والسياسي لا يعدوها ، فالاتجاه صوب القرآن هو الذي يهدينا للتي هي أقوم لا ولئن يقتضينا اسباب الإفتراق لنجدنها في أمور تتعلق بتلك العنصرية الجنسية والأهواء الفكرية فإنها هي التي تقطع ما أمر الله تعالى بوصله وتفرق ما أوجب جميعه ، وتبدد ما الزمنا بحفظه وصانته أن الوحدة التي نبتغيها لا تمس سلطان ذى سلطان يقوم بالحق والعدل في المسلمين ، لا يعترضها شكل الحكم في الأقاليم الإسلامية فلكل إقليم أسلوب حكمه مادام يؤدى إلى إقامة الحق والعدل فيه ، ويحقق المعاني الإسلامية السامية ، وإنما الوحدة الإسلامية أن نعتبر أنفسنا مرتبطين بروابط وثيقة تمتد جذورها في أعماق أنفسنا فالإسلام دين الوحدة الجامعة الشاملة كما هو دين التوحيد الخالص .

إن المسلمين إذا لم يتجمعوا صاروا فرقا لغيرهم ، بل صاروا اشلاء لا تقوى على العمل ولا تنفع نفسها ولكن تكون منها أدوات تستخدم وتكون أرضها وماؤها وخيراتها لغيرها ، أما إن اجتمعوا فقد يصيرون قوة تنفع نفسها وتنقذ جزءاً من العالم وتصيح بلسان القرآن : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان أنه لكم عدو مبين » .

* * *

ويوجه اهتماما كبيراً إلى الفصحى : لغة القرآن فيقول :

أن الهجوم على العربية الفصحى له أسباب منها الصايبية ومنها الاجتهاد في أن يبعدوا المسلمين عن تراثهم الإسلامي ومنها العمل على البعد عن القرآن

وأنهم يريدون أن تصبح اللغة العربية لغة أثرية : كالقبطية في مصر و اللاتينية في أوربا . ودعوى قطع الناس عن القرآن ، أو قطعهم عن الإسلام ، هذه دعوى لم يتبدى في هذه الأيام بل ابتدأت في منتصف هذا القرن عندما جاءت الدعوة إلى الحروف اللاتينية ، قالوا : أن القرآن قد نزل بلسان عربي مبين ، ولا يمكن فهمه إلا بالعربية الفصحى ومادام الأمر كذلك فليقل العربية لكي لايفهم ذلك الكتاب ولكي تندثر كما اندثرت في الانجيل العبري وكما اندثر غيره من الكتب التي كانت في أصلها مكتوبة بغير اللغات العصرية ولكن خاب فألهم وطاش سهمهم لأن الله وعدنا بحفظ القرآن وأنه محفوظ إلى يوم الدين واللغة العربية هي التي تحوطه وتحفظه ، أنهم يريدون ألا تكون اللغة العربية لغة تخاطب ومادامت كذلك فلن تكون لغة يفهم بها القرآن الكريم .

أن العامية لا تصلح لغة جامعة ، وأن كل اللغات لها لغة أدبية تشمل الأدب ولها لغة عامية يكون بها التخاطب » .

* * *

وهو مشغول بوضع الضوابط في فهم الأديان ، ووجوه الاختلاف بينها وفق أسلوب علمي يقول في كتابه محاضرات في النصرانية : « كتبنا تلك المحاضرات بروح المحقق الذي يجمع الحقائق ويعرضها وقد تماسك بعضها ببعض ، ليتكون من ذلك مجموعة تهدى ولا تضل ، وما كنا نجهد التاريخ لتفسيره ، ولكنا خضعنا له ، وهو الذي كان يسيرنا وكنا في ذلك كالقاضي العادل يخضع للبيانات التي تكون بين يديه وهي التي تحكم في الحكم الذي نسجله ، لا نغير ولانبدل ، ولا ننحرف عن النتائج التي تؤدي اليها مقدماتها وعلم الله ماقصدنا إحراجاولا إيلاما إنما أمانة العلم هي التي جعلتنا لا نقدم إلا مانعتقد أنه الحق الناصع » .

ويقول أن هذه الأبحاث ضاقت بها بعض الصدور فأرسلوا له وجادلوه . فقابل ذلك كله بالسماحة والرضا والدفاع الصحيح وذهب إلى بعض الذين كتبوا وحاول أن يتعرف على مصادرهم عملا بقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل

الـكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا : آمنا بالذى أنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » .

يقول : كتبناه نرجو به مع احقاق الحق الهداية ، لا نهاجم اعتقاداً ولا نبطل عقيدة بل نير السبيل ونضع المصباح أمام الجادة فيسلـكها من يريد الرشاد ومن يرجو السداد ولـكنا فى عصر فهم الناس فيه الدين منزعا جنسيا ولم يفهموه حقاً إعتقاديا ، ولا تهذيباً نفسيا ولا خلاصا روحيا ، فـكان ذلك حاجزاً دون أن تصل الهداية إلى القلوب ، وأن تشرق النفوس بنور الحق .

* * *

ويختم الشيخ أبو زهرة عمله الضخم بكتابه عن رسول الله « خاتم النبيين » قبل وفاته بقليـــل وهو وكتابه عن القرآن ختام اعماله : وفى مطالعه يقدم هذه المفاجأة :

يارسول الله : أن الله خلقـك بشرا سويا ولـكنـك فوق سائر البشر ، وآثارك التى حملتها الأجيال من بعدك فوق القدر ، ونحن معشر المتبعين لك إن كان فينا شرف هذا الاتباع إنما ندرك بالتصوير أمثالنا فمن خواطرنا ومنازع نفوسنا نتعرف نفوس غيرنا ونحكم على أحوالهم وإن حاولنا أن ندرك من هو أعلى منا ، فانه يجب أن يكون علوه على مرأى أنظارنا وفى مطالع آفقنا ، فعندئذ نحاول أن نصل ولـكنـك يارسول الله فى علو لا نصل اليه وفى سماك لا نراه ، وليس منا من يضاهئـك حتى نتمثله ونتخيله ، فانى لأمثالنا أن يكتب فى شأنك وأن يعلو إلى شأوك وأن ذلك امر فوق المنال ويعلو على مدارك الخيال . وقد كتبنا فى أئمة الأعلام قد قبسوا من نورك قبسه أو قبسات فأدركنا نورهم فلما جئنا إلى ساحتك وحاولنا أن ندخل فيها غمرنا النور وكف ابصارنا الضوء المنير ، فأنى ندرك وانى نرى ، وقد صرنا كذى رمد غمره ضوء الشمس أو ماهو أعلى فأصابتنا الحيرة ولا هادى لنا إلا تـكون الهداية من الله تعالى .

أنا نـكتب فى العظماء لنصور نواحى عظمتهم ولـكل عظيم ناحية واحدة من

نواحى العظمة فالاتجاه إلى تلك الناحية ، هو مفتاح عظمته ، فتسهل معرفته ، ولكنك يارسول الله فوق عظمة الاشخاص لأن وجوه عظمتك تعددت حتى تعجز المحصى علي الإحصاء والمستقرىء عن الاستقراء ، وإذا نفذت الطاقة أقر مطمئنا بعجزه ، ومؤمنا بأن وجودك فى هذا الوجود معجزة البشر ، فإذا كنت من البشر ولست فى كونك إلا بشراً فلست إلها ولست ملكا من الملائكة ، فانك فى مقام أعلى من سائر البشر ومن الملائكة ، صانك ربك وحفظك ورباك على عينه حتى كنت وحيداً بين الغلمان بما كلأك الله به وحماك وصبيا فريدا بين الصبيان وكنت الشاب الأمين البعيد عن رجس الجاهلية بين الشباب فكل شىء فى حياتك الأولى كان من الخوارق التى علت على الأسباب والمسببات فلم تكن اثر تربية موجهة ولا اثر بيئة حاملة ولا اثر مشرف رفيع وإن كان محققا ولكنك كنت صنع الله فكنت معجزة اشخصك وكونك ووجودك ففيك البشرية وفيك المعجزة الإلهية « الله اعلم حيث يجعل رسالته » .

(٣)

أما قضية الربا فهى أكبر (مواقف) الشيخ أبو زهرة وأجدرها بالإحاطة والتصور ، فقد وقف من الآراء المتعارضة كلها موقف واحداً حاسما : رفض فيه الربا رفضا تاما . سواء الجاهلى أو الكامل أوربا النسيئة . وهو يرى أن العالم الدينى الأصيل لا يخرج تفكيره عن الإسلام فى منابعه الأولى ولايمكن أن يقول أن الربا الجاهلي أو الربا الكامل أو الربا الجلى أو ربا النسيئة : حلال فى أى صورة من صوره لأنه الربا الذى لايشك فيه ـ كما قال الإمام أحمد — ولأنه حرام بصريح القرآن ، إذ يقول الحكم العدل :

[فإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون]

ولأن العلماء أجمعوا علي أن (ربا القران) هو كل زيادة فى الدين فى نظير الأجل ، وأن العالم الحق لايعتقد أن فى الأمر الذى يحرمه القرآن وتجمع عليه الأديان مصلحة قط ، وأنه لايصلح أمر هـــذه الأمة إلا بما صلح به أولهـا .

يقول : ولكن فى أول هذا القرن طغت المدنية الأوربية على الأمة الإسلامية وأفسدت مقاييس الأمور عندها ، فوجد من بين المسلمين من يؤمن بالحضارة الاوربية أكثر من إيمانهم بحقائق الأديان ، وهدى القرآن ، وأثر تفكير هؤلاء فى بعض نادر جدا من علماء المسلمين ، فوجد فى نهاية السنين الأولى من هذاالقرن من ينادى بتحليل الفائدة القليلة ، وكانت اذ ذاك تسعة فى المائة بمقتضى القانون ، فما أن أنطلق ذلك العالم بتلك المقالة حتى انبرى له علماء أجلاء ، وبينوا انها كبوة وحفل نادى دار العلوم بالردود .

فالتزم الرجل الصمت ولم يعدها . ونامت هذه الفكرة أو قبرت حتى أستيقظت مرة أخرى فى السنوات الأخيرة وجهر بها بعض العلماء فحق علينا أن نناقش قولهم وما يبنون عليه كلامهم »

*

وهكذا مضى الشيخ أبو زهرة فى مناقشة الآراء والكشف عن حقيقة الأمر، ووصل إلى الغاية حين قال : « أن الربا لامصلحة فيه ولاضرورة تدعو اليه » وأنه لامساغ لأحد من الناس أن يقول : أن فوائد المصارف ليست من ربا السلام أوربا الأديان بشكل عام ، ولكن جاء بعض العلماء وقالوا : نحن فى حال الضرورة لأن بناء الاقتصاد فى البلاد العربية يقول علي المصارف والمصارف تقوم على الرباوفوق ذلك فإن هذه الفائدة فيها مصلحة اقتصادية إذ تنمى الادخار وتجعل المجتمع ينتفع بكل الأموال بدل أن تكون الأموال فى الخزائن لاتنتج كالماء الآسن الذى لاينتفع به أحد . وفى الحق أن نظرية الضرورة لاقت رواجا وخصوصا أنها جاءت على لسان رجل تقى غير متحلل من الأوامر الدينية ولاممن يخضعون المقررات فى الإسلام لاعراف الناس . ومع إجلالنا لصاحب هذا القول : نقررأن الضرورة لايتصور أن تتقرر فى نظام ربوى بل تكون فى أعمال الآحاد . اذ أن معناها أن النظام كله يحتاج إلى الربا كحاجة الجائع الذى يكون مخمصة إلى أكل الميتة أو لحم الخنزير أو شرب الخمر ،وأن مثل هذه الضرورة لاتتصور فى نظام كهذا النظام. ولقد صور النبي صلى الله عليه وسلم « الضرورة » التى يبيح الحرام إجابة على سؤال : فقد قال السائل :

(أنا نكون فى الأرض تصيبنا المخمصة فمتى تحل لنا الميتة :

فقال عليه السلام : (متى لم تصطبحوا أو تغتبقوا أو تجدوا بقلا)

فهو عليه السلام لم يعتبر حال الضرورة إلا فى هذا ، فهل الحاجة إلى التعامل بالربا من هذا الصنف حتى نستحل ما حرم الله تعالى ، وهل يكون الدائن فيه لمن لايجد الأكل فى الصباح ولا فى المساء قد يكون المقترض فى حال قريبة من هذا، ولكن المقرض لايمكن أن يكون له مثل هذه الحال . قد يحتاج إنسان إلى الاقتراض لأجل قوته الضرورى ، ولكن لايمكن أن يكون المقرض فى مثل هذه الحال .

يجب أن نقرر هنا أن أكل الربا حرام لذاته لايحل إلا لضرورة تكون على الحد الذى بيناه نقلا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أما الاقتراض بالربا فهو حرام لغيره فهو حرام سد لذريعة الربا وما يحرم سداً للذريعة يباح للحاجة لاللضرورة ويبوء بالاثنين من لايقرض إلا بالربا ولعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهده وكاتبه ولكن اللعنة متفاوتة فهى على الأول بالأصالة وعلى الآخرين بالتبع . انه لاضروره تبيح الاقتراض مطلقا ، بل لاضرورة تبيح الاقتراض إلا فى أحوال فردية وليست جماعية حتى تكون ثمة ضرورة لنظام اقتصادى قائم على الربا. وننتقل من بعد ذلك إلى « المصلحة فى الربا » قد رددها الأكثرون وقالوا : أن نظام الفائدة نظام اقتصادى يجعل الأموال كلها مدخرة ، ونحن نقرر أن تحريم الربا فى الإسلام هو فالبناء اقتصادى سليم يحقق فيه أوجه المصلحة الفاضلة التى ليس فيها أكل لمال الناس لباطل وليس فيه كسب مطلق من غير تعرض لتحمل الخسارة فليس تحريم الربا للمروءة أو الاخلاق كما توهم بعض الكتاب وإذا كان تحريم الربا للمصلحة أو بعبارة أدق للتخفيف من طغيان رأس المال إطغيانا مطلقا ، حتى يكون ربح المال كسبا مضمونا مستمرا فإن الإسلام بهذا يرعى مصلحة المجتمع مراعاة كلية .

أن الإسلام إذ منع الربا حث على الإنتاج المباشر ، فأمر بالاتجار فى الأموال وأعمالها فى كل الوسائل المنتجة ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« اتجروا فى مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة »وقد أعتبر الإسلام النقود أموالا

ناقية بالقوة لتؤخذ منها الزكاة وليحمل صاحبها على الإنتاج بهالسكيلاتأ كلها الزكاة المنتظمة كل عام وفي ذلك جمل لصاحب رأس المال على العمل المباشر بالإسهام فى المصانع والمتاجر والمزارع تنمية للانتاج بطريق انظم وأعدل وأقوم .

أن الربا بجوار مصلحته التي تضاءل إذا وزنت بمنفعة الاستغلال المباشر فيه ضرر ، لأن الربح من غير تحمل للخسارة قد يؤدى إلى ألا يأتى المقترض بكسب يعادل الفائدة فتكون الازمات بينما لايتصور هذا إذا أسهم صاحب رأس المال فى الكسب والخسارة . ولقد قرر الاقتصاديون فى العصر الحاضر أن الفائدة لاتؤدى إلى التوظيف الكامل للأحوال لأنه سيوجد كثيرون يتخذون الفائدة كسبا لذاتها من غير نظر إلى ما يشتمل عليه من إنتاج ويحبسون أموالهم لهذا الغرض .وبهذا يتبين أنه لا توجد مصلحة عامة فى الفائدة وليس من شأنها أن تنمى الاقتصاد ، بل أنها تضعفه ، وإن كانت هناك مصلحة فهى مصلحة المقرض فى كل الأحوال ، ومن المقررات الاجتماعية والشرعيةأن المصلحة الخاصة لا يلتفت اليها بجوار المصلحة العامة ، وأنالعبرة هى فى أكبر قدر من المنفعة لأكبر عدد ، كما أنه من المقررات الشرعية أن الضرر القليل يحتمل بجوار دفع الضرر الأكبر ».

وهكذا يكشف الأستاذ أبو زهرة بأدلة دقيقة وعلميـــة فساد نظرية الربا أصلا ، وعدم حاجة الأمم اليها ، وكيف أن الإسلام حرم الربا أول الأمر حماية للمسلمين ولمجتمعهم من ذلك الاضطراب الذى يعانيه مجتمع الغرب الربوى ، الذاهب فى طريق المادية الجائر . ثم جاء الإستعمار لينقل ذلك الزيف إلى واقعنا ونجد من يجتهد فى تقبله والقول به .

ومن الحق أن يقال أن الشيخ أبو زهرة قـــد نافح فى هذا المجال بقوة عارضة وعلم وايمان لم يبلغه غيره من علماء عصره .

(٤)

محمد بهجت الأثرى

عرفت هذا الرجل عن طريق الفكر قبل أن ألقاه . ألفتنى إليه شعره وديباجته الرصينة ، وآثاره المنوعة، فلما لقيته رأيت سمتا من الرجال يذكرنا بأولئك الأبرار المصلحين الذين سبقوا على طريق النهضة والأحياء واليقظة .

رجل طويل مهيب ، وصوت جهير ، ونفس سمحة كريمة ، وقلب ينبض بالايمان الصادق بحب الإسلام وفضل أمة العرب على الإنسانية والفكر وروح شفاف : تلك هى الصورة التى رأيتها للرجل القادم من بغداد والذى شارك فى عشرات من المؤتمرات والجماعات والندوات التى ذخر بها تاريخ الشرق والعالم الإسلامى فى هذه السنوات الأربعين الأخيرة .

ومنذ أول لقاء أحسست أنى أعرفـــه لزمن طويل وكانت كلماته كأنما تصدر من أعماق نفسى قبل أن تخرج على طرف لسانه لقد عرفت فكرته ومنهجه، وقرأت له الكثير ، وأحببت النبع الذى شرب منه ، ووجدت عنده روح الشباب المتجددة ، والايمان الصادق هؤلاء الذين قرأنا لهم فى أول الشباب ومطالع الصبا ، وحفلت بآثارهم الفتح والزهراء والرسالة ، وتداولت أسماؤهم مجامع اللغة فى دمشق والقاهرة وبغداد . واشتركوا فى المؤتمر الإسلامى العام ١٩٣١ فى القدس .

هذا واحد من هذه المجموعة التى قاومت الغزو الفكرى والتغريب والشعوبية دون توقف فى حملاتها الضارية على اللغة العربية والتاريخ الإسلامى والأدب العربى .

فإذا أردت أن استحضره أمامى فى كلمات قلت : الرجل الشجاع الذى دعته إحدى الدوائر الأجنبية للكلام فلما ذهب إلى هناك قال لهم كل شىء دون تهيب أو مجاملة ، وتركهم فاغرى الأفواه .

هذا مفتاح شخصيته ، كلمة الحق يقولها دون أن يخشى شيئا .

وهو إلى هذا الشاعر الرقيق والنفس العذبة ، الأنيق الملبس الحلو البادرة ، إذا جاء إلى القاهرة أبرق يحجز غرفة فى الفندق على النيل ، وإذا سار تلفت حيث جمال الطبيعة ، وإذا تحدث كانت عباراته هى الخير والحب .

قلت له : أين ولدت فى بغداد قال : فى الرصافة على الجسر الذى يربط الرصافة بالكرخ ، أنها قلب بغداد ، ونشأت فى محيط تربطه عوامل ثلاث ، التدين والعلم والتجارة ، فنحن بيت التجارة ، فرسل الخيل ونتعاطى مع الهند .

تعلمت أول خطواتى على امرأة : (الخوجة نعيمة) ماتزال فى نفسى صورة العصر ، عام ١٩١١ حروب البلقان ، صورة السنوسى والمجاهدين .

وتقلبت بين المدارس حتى نشبت الحرب العالمية الأولى ، ١٩١٤ ، وظفت بوظيفة كاتب وشهدت احتلال بغداد مارس ١٩١٧ ورأيت مآسى الاحتلال : الحريق حول بيوتنا ودرست الفرنسية والفارسية والتركية ، بالإضافة إلى العربية أيضا .

فتح الإنجليز دورات لتخريج معلمين ، فما رغبت أن أكون معلما ، وإنما أحببت أن أتعلم الإنجليزية وأجيد العربية .

كان الزهاوى يلقى محاضرات فى الأدب فأحببت أن أحضر محاضراته فلم أفد منها شيئا فتركته ولم أعد إليه ، كانت دروسه قراءة مختارات يسميها (عيون الشعر) يسردها سردا متتابعا فى لهجة عربية مفخمة فتهز رأسه ولحيته ، والزلازل السود فى مؤخرة طربوشه الأحمر ؛ ولايزيد على هذا السرد إلاتعريفات نحوية يوردها وقد طرقت سمعى منه لأول مرة فلم أفقهها .

ترددت على بعضهم ولم أفد شيئا وأخيرا قصدت الإمام الألوسى الكبير (محمود شكرى الألوسى) للتلمذة عليه فأبى أن يدرس طالبا ناشئا فقصدت ابن عمه الأستاذ علاء الدين الألوسى قاضى بغداد وكان من أبلغ العلماء فقها وعلما وأدب نفس فتبلنى فورا وعنى بتعليمى حقيقة ، عناية فائقة ، لاسيما بالأدب ،

فقرأت مع رحلة الآلوسى مقامات الآلوسى الأكبر (أبو الثناء) ونزهة الطرف فى علم الصرف ، وحفظت من الحديث الشهاب للقضاعى ، وفى الفقه صدرا من فقه الحنفية .

ثم لم ألبث أن وقفت موقفا من بعض خلافات الفقهاء وقلت لنفسى : أريد أن أتتبع آثار الرسول صلى الله عليه وسلم ثم تحولت إلى الإمام محمود شكرى الآلوسى ، فقد نصحت قال. قبل أن نبدأ ، أنسخ هذا الكتاب أولا :

قلت ماهو : قال لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تبلغ سبع مجلدات فى الرد على فخر الدين الرازى .

ثم أمرنى أن أقرأ ألفية ابن مالك واشترط على حفظها .

ثم شرعت أقرأ مايمكن من علوم اللسان : البلاغـة ، الصرف والعروض ، القوافى ، علم الهيئة ، الميقات ، الحكمة ، الطبيعية .

وقرأت عليه صحيح مسلم بأجمعه : قراءة درس وتحقق وكان يعطينى فى كل فترة مجلة المقتبس (كرد على) أو مجلة المنار (رشيد رضا) .. وكذلك مجلة المجمع العلمى بدمشق .

وبدأت أدخل معارك الأدب : ناقشت الزهاوى فى الانتصار لاحمد شوقى ، وكان قد نقده فى قصيدته : (أجل وإن طال الزمان موافى) فى رثاء اسماعيل صبرى فرددت عليه فى ثلاثين مقالا فى جريدة العراق العاصمة بتوقيع (ناقد) وبعنوان (بين أديبين) وانتصرت لشوقى ، فضاق ذرعا.

وقالوا : أنها ليست لى وانما هى من إملاء الآلوسى . فأعطانى ذلك شحنة قوية من الاعتزاز بالنفس ، إن استطعت أن أتمثل علم الآلوسى ، وزادنى ذلك اندفاعا فى طريق إلى كسب العلم والتوسع فى المعرفة ، فكان الناس لايروننى بعد المدرسة إلا فى سوق الكتب أحمل منها منتقاها وخيرها .

وكانت تأتينى كتب أخرى من الهند .

وتوفى الألوسى بعد أربع سنوات من ذلك ، ولم أر أحداً يستحق أن آخذ عنه إلا العلامة (أمجد الزهاوى) من ناحية واحدة تلك هي أصول الفقه .

ومضيت أكتب فى الصحف وكانت أول قصيدة نظمتها فى الدعوة إلى تطوير معانى الشعر والابتعاد عن الأغراض القديمة التى لاتلائم الحياة ثم ترأست تحرير جريدة البداية الأسبوعية . ودعيت للتدريس فى مدرسة أهلية على أثر وفاة الألوسى . وتعاطيت التدريس فى الثانويات الأميرية ، فى مادة الأدب العربى عشر سنين إلى عام ١٩٣٦ .

ثم انتقلت إلى مرحلة أخرى — تلك هى العمل فى مجال الأوقاف والشئون الإسلامية ثم عدت إلى العمل فى التعليم : مفتشا للغة العربية فلما قامت الحركة الوطنية بقيادة الكيلانى شاركنا فيها .فاعتقلنا بعدو نفينا إلى — الفاو — فى أقصى العراق فى أرض سبخة تحيط بها المياه .

ثم عدت إلى العمل فى الأوقاف . تلك هى صورة التدرج فى العمل ، فإذا نظرنا إلى أعماق هذه الحياة وجدنا عالما ضخما مؤثرا فى مجال الشعر واللغة والتاريخ وتحقيق المخطوطات ، ومؤلفا بلغت مؤلفاته الأربعين ودارس له كتابات فى الإصلاح الإسلامى والأدب العربى ومجلات المجامع الثلاث ومنشئ لجمعية الشبان المسلمين فى بغداد ، وصاحب مشروع الفلس العراقى على غرار مشروع القرش المصرى .

ثم مشارك فى عشرات من الأعمال العامة : لجنة الجامعة الإسلامية ، مؤتمر بلودان العربى . جمعية المؤتمر الإسلامى فى بغداد الجبهة المتحدة للدفاع عن فلسطين مؤتمر الأدب العربى فى بلودان ، وضع المصطلحات الطبية فى بغداد ، تأسيس دار لليتيمات المسلمات ، مؤتمر الدراسات العربية الأول ، وله محاضرات فى معهد الدراسات العربية بالقاهرة ، المكتبة الوطنية فى حلب ، مهرجان أبى فراس الحمدانى ، جامعة القرويين فى المغرب ، مؤتمر الأدباء العرب فى مصر والكويت .

إذن فهى حياة حافلة ضخمة رافق فيها كثيرا من أعلام الفكر العربى الإسلامى : إقبال ، رشيد رضا ، محمد على علوبة ، أسعاف النشاشيبى ، الثعالبى ، عبد الحميد سعيد ، وعبد القادر المغربى . وهو صديق الإمام المراغى وله معه مساجلات .

وقد أحيى ذكرى أستاذه الألوسى ومواطنه عبد المحسن الكاظمى . وله فى مجامع اللغات أبحاث متجددة كان آخرها فى القاهرة فى العام الماضى ١٩٦٠ — تصحيح النظرية التغريبية التى تقول بأن عصر ماقبل النهضة كان عصر انحطاط ولقد استمتعت كثيرا بعلمه فى أبحاثى ودراساتى ، فإذا جد الجد أرسلت إليه أسأله وسرعان مايجيب ، قدم لى عصارة ضخمة لحياة العلامة عبد العزيز الثعالبى خلال إقامته فى بغداد ، وتفضل مشكورا بمراجعة كتابى : (الإسلام والثقافة العربية فى مواجهة الاستعمار والتغريب) .

وتظل فترة إقامته فى القاهرة خلال مؤتمرات المجمع اللغوى فترة سعادة روحية لى وكثيرا مارافقته فى زيارة السيد محب الدين الخطيب فى دار الفتح بالروضة وجلست إلى الرجلين اللذين يمثلان جزءاً حيا من تاريخ الفكر العربى الإسلامى واستمعت إلى مراجعاتهم العميقة وملاحظاتهم الحية .

وعن طريق العلامة بهجت الأثرى يجد الكاتب نفسه موصول الأواصر بالألوسين ، الألوسى الكبير أبو الثناء : الرجل الذى جدد الفكر الإسلامى فى أوائل القرن التاسع عشر وأنشأ موسوعته القرآنية : روح المعانى ..

والألوسى : محمود شكرى أستاذه وصفيه وقد ألقى عنه محاضرات موسعة فى معهد الدراسات العربية بالقاهرة ، وهى امتداد لكتابه الأول :أعلام العراق .

ويتسع نطاق القـــول إذا تحدثنا عن آرائه وفكره ومفاهيمه العربية الإسلامية المجددة الحية وخاصة فى كتابه الصغير الحجم الوافر المضمون :(الاتجاهات الحديثة فى الإسلام) .

الاتجاهات الحديثة فى الاسلام

خلاصة فكر العلامة بهجت الاثرى

ما تزال نهضة الإسلام الحديثة تشغل الباحثين وتجد من دوائر العلم والثقافة فى العالم كله مزيدا من الاهتمام ، وقد ظهرت فى السنوات الأخيرة كتابات متعددة لباحثين ومستشرقين لم تكن نظرتهم بحيث تستطيع أن تكشف كل الجوانب أو تلم بالوجوه المختلفة للتطور الذى يمر به العالم الإسلامى اليوم .وقضايا الفكر العربى الإسلامى ، ولذلك فقدكان من الضرورى أن ينتدب بعض العلماء الدارسين أنفسهم لتصحيح هذه المواقف ، ولإبراز الحقائق الناصعة .

وقد عنى العلامة وكاتب العراق والعربية الكبير ، السيد محمد بهجت الاثرى ، أن ينتدب نفسه لمواجهة هذه القضايا ، وهو الباحث الذى تصدى للدراسات الإسلامية منذ الثلاثينات فى هذا القرن ، وكان من صفوة تلاميذ علامة العراق والمجدد الكبير السيدمحمود شكرى الألوسى وكان من أخص تلاميذه .. وهو إلى ذلك شاعر ناصع الديباجة ومحقق للتراث ، وعضو فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة ودمشق وبغداد . ولعل أجرا ما فى هذه الدراسة أن كثيرا من موادها ألقى فى محاضرة على منبر الجامعة الأمريكية فى بيروت .

. . .

يرى الأستاذ الأثرى أن الإسلام بواجه فى هذا العصر مجموعيتن كبيرتين من المشكلات العويصة المعقدة، المشكلات القديمة التى تراكمت عليه فى عصوره الطوال وعملت علي تغيير صورته وتحويل وجهته عن مجاريها العالمية إلى أن تأخر أهله وعاد هو غريبا بينهم غربته بين غيرهم ... والمشكلات الجديدة التى أحدثها ولا يزال يحدثها له،هذا السلطان السياسى لدول أوربا فى دياره ،ومحاولاته الكثيرة المتنوعة فى مكافحته لإفساديقظته وعزته وأقصائه عن واقع الحياة ،مخافةسلطانه واستعلائه »

تمزيق الوحدة الإسلامية

ثم مضى الكاتب في تصوير هذه المشكلات فقال أن الإسلام ليس له مشكلات في نفسه عند من يتدارسونه ويتعمقون عقيدته وتشريعه ونظامه في قرآنه والصحيح الثابت من سنن رسوله ، وفي ترجمتهما إلى أعمال وأخلاق ومطامح عليا ، كما ترى من سير خلفائه وأبطاله وعلمائه ومفكريه وساسته وقادته في عهوده الأولى خاصة ، وإنما مشكلاته من خارج نفسه في القديم وفي الحديث » .

ثم صور الكاتب مشكلات الإسلام من خارج نفسه في القديم فأشار إلى سلسلة الآفات والكوارث والحملات العنيفة التي تعرض لها في تاريخه المديد . وقال أن الباعث عليها هو عوامل شتى من العصبيات والأحقاد وقفت له بالمرصاد ، ونزلت إلى ميدانه تصارعه وتغالبه لتقضي عليه ، أو لتحد من نشاطه السياسي ونفوذه العالمي وتقف بموجاته حيث تستطيع أن تقف بها من شرق الأرض وغربها ، في سلسلة طويلة من الصراع بينها وبينه ، وقد تركت هذه العوامل آثارا سيئة في حياة المسلمين العامة أدت نتائجها الخطيرة إلى انتقال السلطان من أيديهم إلى أيدي خصومهم وتغلب هؤلاء على أوطانهم

غير أن العلامة الأثري يرى : أن ماترتب على هذا الصراع السافر من نتائج سياسية وعقلية وروحية واجتماعية ما كان يكون كذلك لو سلم الإسلام من الآفات التي تناولته ونفذت إليه ، وقد نفذت هذه الآفات إلى الإسلام بوسيلتين هما : السياسة والدين ، ولطالما ظهرت الحركات السياسية مبرقعة ببراقع الدين أو المذهب لتخفي وجهها وتنفذ إلى ماتشاء من مآربها تحت ستار اسمه .

ويمضي كاتبنا فيصور كيف بدأت هذه الحركات بمحاولة قلب الدولة الإسلامية وهي فتية غضة ، في المؤامرة اليهودية المجوسية التي نفذها أبو لؤلؤة المجوسي فقتل عمر ، فلما أخفقت بهذه الوسيلة ، عمدت إلى إثار الفتن الداخلية وتمزيق الوحدة الإسلامية بإنشاء الأحزاب السرية والعلنية ، والتحزب للأسر الكبيرة في الإسلام ، ونشر فكرة الحق الإلهي في الدولة وإبطال الشورى ، فنشب الصراع على

الخلافة وانتقل الحكم من يد إلى يد بعوامل العصبيات ، وبذلك دخل أول الوهن ، وما زال يزداد حتى اقتسمت المملكة الإسلامية ، وظهرت حركات الملاحدة والقرامطة ، والباطنية ، إلى أن اكتسح المغول الشرق الإسلامى .

خرافات الأساطير الإسرائيلية .

وأشار المؤلف إلى أن أخطر ماقامت به هذه الحركات هو العمل على تحويل توجيهات الإسلام الروحية وتشريعاته ونزعاته من مجاريها العالمية إلى إحياء العصبيات القديمة وإعادة سلطانها الذاهب . فعمدت إلى التوحيد الخالص فأرادته شركا ووثنية . ثم سعت فى تشويه حقائق معظم الأمور التى تترتب عليه . وكان من وسائلها والوضع وتمحل التأويل لنصوص الكتاب والسنة ، وجعل ظواهر وبواطن للقرآن وأحكامه وإضافة البدع والمحاثات إلى الدين والعبادات وإشباع الأذهان بالخرافات بالقصص والأساطير الإسرائيلية ، ومازالت هذه القوى تدأب فى ذلك حتى أحالت الإسلام إسماً على غير مسماه فى ظل حركات هؤلاء فى الداخل وأثار صراع الإسلام وراء حدود بلاده وفى قلبها .

التبشير ثم التعطيل

هذا موجز الصورة التى رسمها السيد بهجت الأثرى للعالم الإسلامى فى فجر العصر الحديث وهو فى طريقه مستعرضا مشكلات الإسلام الحديثة التى يعدها جميعها ناشئة من الاحتلال الأوربى ، وهى تكمن وراء طبيعة الاحتلال ووسائله فى تثبيت أقدامه فى دياره ومنها تنطلق أسبابها وبواعثها .

وقد أشار الكاتب إلى أنه من أبرز أهداف الاستعمار « السيطرة » على العالم الإسلامى وإبقاء هذه السيطرة عن طريق إذابة شخصية المحتلين فى هذه الحضارة وتغيير ما بأنفسهم من روح الاعتزاز بعقيدتهم والتعلق بلغتهم وبتاريخهم والاكبار لحضارتهم تغييرا يسلمهم إلى الخضوع لإرادته والاستسلام لسلطانه والفناء فى مذاهبه ..! وقد سعى الاستعمار لذلك أول الأمر بالتبشير ، وكان يظنه سلاحا نافذا ، فلما لم يثمر فكر فى ثمر « التعطيل » بين المسلمين ليكون الوسيلة إلى قطع

صلتهم بالاسلام ، فاسس المدراس التى اذاعت الاتحاد وانشرت شبكة من المدرس الأجنبية فى معظم البلاد الاسلامية تولت الدول الاوربية تأسيسها فيها ، كما تدخلت فى نظم التربية والتعليم فى البلاد المحتلة وقد كان الهدف هو اضعاف سلطان النزعة الاسلامية علي التلاميذ « على حد تعبير المستشرق جب الذى يرى « أن هذه المدارس قد أدخلت فى بناء المجتمع الإسلامى أداة هدامة وقطعت بعض الأواصر التى كانت تحفظ تماسكه » .

ومن أجل هذا أيضاً نشأ الاستشراق فى بلاد الغرب وأخذت كل دولة ذات مطامع استعمارية فى دراسة لغات الشرق وتاريخه ودينه ، بقصد إثارة المشاكل فى وجه الإسلام .

الرجوع إلى القرآن :

ومضى الأستاذ الأثرى يصور مهمة زعماء الإصلاح الإسلامى منذ بداية عهد اليقظة ، فقال أنها كانت تستهدف وجهتين : الهدم والبناء فى وقت معاً . ثم تقيم البناء على أساس مهم جداً لا يتم أمر عظيم كالذى يبنونه بدونه ، وهو تغيير نفسية الشعوب الإسلامية وتحريرها من ركام المنازع الفاسدة والأهواء الدخيلة فى الإسلام ، وهو أساس أرشد اليه القرآن فى قوله تعالى :

« أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وبه نقل الرسول العرب من حال إلى حال ، وعليه اقام عمود الإسلام .

وأشار إلى كفاح جمال الدين الأفغانى فى الدعوة إلى اقامة حكم الشورى، وكفاح الكواكبى ، هذا الكفاح الذى انتقل به الشيخ محمد عبده وتلاميذه وخلفاؤه فى أواخر القرن التاسع عشر إلى ميدان كان أرحب أفقا وأكثر ملاءمة للمواقف الجديدة التى دفع اليها المجتمع الإسلامى دفعا ، وأمكن قدرة على حل المشكلات الحديثة التى أثارها الغرب بتوجهاته إلى الالحاد والتشكيك فى الإسلام ، أو نشأت من مغالبة الثقافة الحديثة فى أمهات مسائل المعرفة ، خاصة فى تركيا ومصر والهند ، فبنوا منهاجهم الجديد على أصول راقية كان لها أكبر الأثر فى توجيه النهضة الحديثة ، وتحرير الإسلام من اغلال الجمود .

أما هذا المنهاج فقد كان فيه هدم وكان فيه بناء ، هدم لأصول العوامل القديمة التى عدت على الإسلام بإفساد جوهره وتغيير صورته ، ونقض للشبهات التى يحركها دعاة التعطيل الذين ربتهم مدارس الاحتلال ويرددها الشعوبيون ونفر من المستشرقين فى الدين ورسوله والإسلام وأهله والعرب ومدنيتهم ، والقرآن واعجازه ، والفصحى والعامية ، والحروف العربية والحروف اللاتينية ،

وكان فيه بناء وإحياء للعاطفة الدينية المهذبة التى ترمى إلى تقوية الروح الإسلامى وإعداده للصمود فى وجه الحملات المغرضة المنظمة على الإسلام ودحرها .

وقد تناولت هاتان الوجهتان من الهدم والبناء أمهات قضايا العقيدة والشريعة والمجتمع والنظام والتربية والأخلاق وأصول التفكير وقواعد العمل فى الإسلام ، وقد حفلت هذه الدراسات بالتحليل والتعليل فى تبيان وجهات الإسلام ، كما حفلت بالبحث فى ماضى الإسلام وحاضره ، وفى هدايته وارتقائه المعنوى وبعثه على الارتقاء المادى ، وفى موقفه من حرية الفكر والعلم والعقل والمدنية وفى مسالكه فى السياسة والاقتصاد والحرب والسلم ، وفى معالجته لقضايا الإنسانية الكبرى ، وفى الصلة بينه وبين الأديان وإدراكه للعلاقات الدولية وشمول نظرته للوحدة الإنسانية وقدرته على النهوض بها والجمع بين الأجناس المختلفة والتسوية بينها فى المكانة والعمل وتهيئة الفرص .

وأشار الكاتب إلى أن هذه الحركة الخطيرة ظهرت فى مصر ، فما لبثت أن جاوزت حدودها إلى العالم الإسلامى كله ، وكانت مجلة « المنار » سفيرها إليه ، حملت أفكارها أربعين عاما إلى بلاد العرب كما حملتها إلى بلاد الترك والهند والصين وأرخبيل الملايو ، فأثارت اهتمام المسلمين فيها بالإصلاح الدينى وكونه أصلا يقوم عليه كل إصلاح . ثم ترددت أصداؤها فى اندونيسيا والهند . وظهرت فى كل مكان حركات قوامها « الرجوع إلى القرآن » .

فى ضوء الإسلام :

وقد تلاقت هذه الدعوات فى جمال الدين ومحمد عبده وإقبال ورشيد رضا ومصطفى عبد الرازق والكواكبى والجزائرى والقاسمى والألوسى ورفيق العظم وشكيب إرسلان وابن باديس .

ثم أشار الباحث إلى أن أشراق هذه الحركة الواسعة لفت أنظار الشبان المسلمين

المأخوذين بتوجه أوربا فى البلاد الإسلامية كافة إلى الإسلام ، وكان فيهم ازورار عنه فاجتذبتهم إليه ، فألفوه فى صورة أخاذة غير الصورة القاتمة التى رسمت لهم ، ورأوا من حقائقه ما لم يخالوه من قبل، وبصروا بدساتير وآداب ومثل تعلو فوق متناول المطاعن والشكوك ، ولم يروا فيه جمود كما لقنوا ، وإنما رأوا شبابا متجددا وحياة نامية ورفقا وتسامحا وإخاء ومساواة وعدلا ، فانجذبوا إليه ، اشربوا حبه وهاموا به وأولوه ما يستحقه من اهتمام ورعاية ، فاندفعوا فيه وأشرعوا أقلامهم فى تبيان محاسن الإسلام ، عادين الأمانى الوطنية جزءاً منه .

وبهذا انداحت دائرة التجديد الإسلامى وامتدت إلى نواح شتى وآداب مختلفة ، وقد كان جان جاك روسو والثورة الفرنسية والفكر الأوربى هى الأمثلة التى يحتذيها هؤلاء فأصبحت عبقرية محمد ومثل الثورة الإسلامية وسمو الفكر العربى هى المثل التى يلتمسون فيها الإصلاح والبعث ، وكانت القيادة التوجيهية إلى علماء الأزهر والزيتونة والقروين فأصبح خريجو الجامعات الشرقية العربية شركاءهم فيها ، فكتبوا حقائق الإسلام فى ضوء العلم الحديث بفهم مستقل ووعى عميق ، ووائموا بين الدين والحياة،وعرضوا نظريات العدالة الإجتماعية الضمان الاجتماعى والتأميم والمذاهب الشيوعية الرأسمالية على حقائق الإسلام ، وقابلوا بينها ، فأثبتوا قدرة الإسلام على مواجهة المعضلات بنفسه ولم ينسوا مع ذلك أن يتأملوا ويطيلوا التأمل فى حضارة الغرب على أنها وسيلة لا غاية ينتفع من مادياتها بما يمكن للاسلام من الظهور والاستعلاء .

رفق وإحسان وعدل :

ثم خلص الأستاذ الأثرى إلى أن هذه الحركات قد تجمعت فى ثلاث وجهات كبرى تتلخص فيها جميع منازع الإسلام، أنضجتها الأحداث وأبرزها الجهاد الطويل فى سبيل تحرير الفكر الإسلامى من أغلال القرون القديمة وأغلال التقليد للفكر الأوربى ، وتكوين شخصية مستقلة له يحقق بها حريته وحرية أوطانه . هذه

الوجهات هى : وحدة الإسلام ، ووحدة الأديان ، والوحدة الإنسانية ، تأتى بعضها من وراء بعض ، وتكمل الواحدة الأخرى .

أما الوحدة الإسلامية فإنها ترجع بطبيعتها إلى الأصل الأعظم الذى بنى عليه الإسلام ، وهو عقيدة التوحيد ، وإن شئت قلت ، وحدة العقيدة ، وقد ألهمت عقيدة التوحيد العرب فكرة الحرية الشخصية والدينية وحررت عقولهم من الوثنيات الموروثة ، وجمعتهم على عقيدة واحدة ترفع النفوس عن الخضوع لكائن من كان ، إلا الواحد الديان .

ويتصل بهذه الوحدة الإسلامية، وتصحبها ظاهرة رائعة من وجهة الإسلام إلى توثيق الصلة بينه وبين الأديان الأخرى،وهى وجهة قديمة معروفة فى أصول الشريعة، وسيرة رسول الإسلام والتاريخ الإسلامى ، وأشار الكاتب فى هذه الحلقة إلى شرعة الإسلام فى معاملة أهل الكتاب ، وصور كيف كانت سيرة رسول الإسلام مع أهل الأديان جميعاً ، سيرة كلها رفق وإحسان وعدل ، لأن دينه لا ينظر إلى غيره من الأديان إلا هذه النظرة الجامعة ، وقد فتح المسلمون البلاد التى كانوا يقطنونها فما أطاحوا بحقوق أحد منهم ، وكان من أصول السياسة الإسلامية المساواة المطلقة بين المسلم وغير المسلم حتى فى بيت مال المسلمين .

وقد قابلت أوربا هذه السماحة بفظائع لا حصر لها لم تعرفها وحوش الغابة ، وعبثت بوحدة الشرق باسم حماية الامتيازات وحقوق الأقليات ، لذلك كان على الإسلام فى غمرة صراعه للاستعمار أن يكشف عن وجهته ونيته غير متملق ولا مداهن فوضع أمام الأعين كتابه الصادق وتاريخه الناطق ، فالتقى المسلمون وغير المسلمين فى مقاومة الاستعمار وظهرت رايات المتظاهرين المصريين سنة ١٩١٩ وقد نسجت خيوطها أهلة وصلبانا .

وقوى هذا التعاون فى مقاومة النفوذ الصهيونى فى فلسطين،وفى الجانب المسيحى ظهر الأدباء المسيحيون العرب يمازجون بين عواطف الإسلام والعروبة،ولهم الآيات

البينات فى التغنى بمحاسن الحضارة الإسلامية، ومنهم لبيب الرياشى الذى وصف فضائل محمد بما لم ينهض بمثله كثير من المسلمين ، ومنهم أمثال شبلى جلاط والياس قاعور ونجيب نصار وجورج سلستى وغيرهم كلهم أشاد فى شعره ونثره بمحمد ، واستعذب لغة القرآن .

الدين كله لله :

وكذلك التقى الاسلام بالمسيحية فى هذا العصر .

ثم قال ونحن نعتقد أن هذه "طلائع من تصفية العقول وتزكية الضمائر والرغبة الصادقة فى إلتقاء وجهات النظر عند أصول الأديان جميعاً وهى الإيمان بالله وحده لا شريك له ، ستنقل الناس حتما إلى الأفق الرحيب الذى يليق بالإنسانية أن تنتقل بفطرتها إليه ألا وهو « الإخاء الإنسانى العام » فلا مرية فى أن بنيان المدنية الإنسانية الحق إنما يقوم على هذين العمودين : الإيمان بالله والأخوة الإنسانية الجامعة فى عالم واحد .

ثم ختم العلامة الأثرى دراسته فأشار إلى أن الإسلام وهو يتحرر من قيوده وأغلاله التى كبلته فى ظل مرحلة الاستعمار ، سيرفع دعوة الأخوة الإنسانية فى عالم واحد ، دعامته نظام روحى يكون أساساً للنظام التهذيبى وأساساً لقواعد الخلق والعمل ، ولا يضحى فيه بشىء من أصول الأخلاق فى سبيل التنظيم الاقتصادى ومعاملة الأفراد والجماعات ، ويومئذ تصل الإنسانية إلى السعادة المنشودة ، ويكون « الدين كله لله » .

حسن البنا

حسن البنا

حياته ومنهجه من خلال أحاديثه

« أعتقد أن خير النفوس : تلك النفس الطيبة التى ترى سعادتها فى إسعاد الناس وإرشادها وتستمد سرورها من إدخال السرور عليهم وذود المكروه عنهم ، وتعد التضحية فى سبيل الاصلاح العام ربحا وغنيمة والجهاد فى الحق والهداية — على توعر طريقهما — راحه ولذة ، وتنفذ إلى أعماق القلوب فتشعر بأدوائها وتتغلغل فى مظاهر هذا المجتمع ، فتتعرف على مايعكر على الناس صفاء عيشهم ومسرة حياتهم ومايزيد هذا الصفاء ويضاعف تلك المسرة ولايحدوها إلى ذلك إلا شعور بالرحمة لبنى الإنسان . وعطف عليهم ، ورغبة شريفة فى خيرهم ، فتحاول أن تبرىء القلوب المريضة وتشرح الصدور الحرجة وتسر النفوس المنقبضة ، لاتحسب ساعة إسعد من تلك التى تنقذ فيها مخلوقا من هوة الشقاء الأبدى أو المادى ، وترشده إلى طريق الاستقامة والسعادة وأعتقد أن العمل الذى لايعدو نفعه صاحبه ولاتتجاوز فائدته عامله ، قاصر ضئيل ، وخير الأعمال وأجلها ، وذلك الذى يتمتع بنتائجه العامل وغيره من أسرته ، وأمته ، وبنى جنسه ، وبقدر شمول هذا النفع ، يكون جلاله وخطره ، وعلى هذه « العقيدة » سلكت سبيل المعلمين ، لأنى إراهم نورا ساطعا يبدو فيستنير به الجمع الكثير ، ويسرى فى هداه الجم الفقير أن كان كنور الشمعة يضىء للناس باحتراقها .

وأعتقد أن أجل غاية يجب أن يرمى الإنسان إليها وأعظم ربح يربحه ، أن يحوز رضاء الله عنه ، فيدخله حظيرة قدسه ، ويخلع عليه جلابيب أنسه ويزحزحه عن جحيم عذابه ، وعذاب غضبه ، والذى يقصد إلى هذه الغاية يعترضه مفرق طريقين لكل خواصه ومميزاته يسلك أيهما شاء :

أولهما . طريق التصوف الصادق الذى يتلخص فى الإخلاص والعمل وصرف القلب عن الاشتغال بالخلق — خيرهم وشرهم ، وهو أقرب وأسلم .

والثانى : طريق التعليم والإرشاد الذى يجامع الأول فى الأخلاص والعمل ، ويفارقه فى الاختلاط بالناس ودرس أحوالهم وغشيان مجامعهم ووصف العلاج الناجع لعللهم وهذ أأشرف عند الله وأعظم ، ندب إليه القرآن الكريم ونادى بفضلة الرسول الكريم وقد رجح عندى الثانى بعد أن نهجت الأول ،لتعدى نفسه وعظيم فضله ، ولأنه أوجب الطريقين على المتعلم وأجملهما بمن فقه شيئا (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) .

وأعتقد أن قومى بحكم الأدوار السياسية التى أجتازوها والمؤثرات الاجتماعية التى مرت بهم ، وبتأثير المدنية الغربية والشبه الأوربية والفلسفة المادية ، والتقليد الأفرنجى ، بعدوا عن مقاصد دينهم ومرامى كتابهم ونسوا مجدأبائهم وأثارأسلافهم والتبس عليهم هذا الدين الصحيح بما نسب إليه ظلما وجهلا ، وسترت عنهم حقيقته الناصعة البيضاء ، وتعاليمه الحنيفية السمحه ، بحجب من الأوهام يحسر دونها البصر وتقف أمامها الفكرة ، فوقع العوام فى ظلمة الجهالة وتاه الشبان والمتعلمون فى بيداء أو حيرة وشك أورث العقيدة فساداً وبدل الإيمان إلحاداً .

واعتقدان النفس الإنسانية محبة بطبعها ، وأنه لابد من جهة تصرف إليهاعاطفة حبها ، فلم أر أحد أولى بعاطفة حبي من صديق امتزجت روحى بروحه فاوليته محبق وآثرته بصداقق .

وأعتقد كذلك أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها من الرجوع إلى أصول الدين والتمسك بقانونه المتين ، والرقى والتقدم تحت لوائه المنضود .

كل هذا أعتقده عقيدة تأصلت فى نفسى جذورها ، وطالت فروعها ، وأخضرت أوراقها ، ومابقى إلا أن تثمر ، فكان أعظم أمالى بعد إتمام حياتى الدراسية أملان :

« خاص » : وهو إسعاد أسرتى وقرابق ، والوفاء لذلك الصديق المحبوب ماأستطعت إلى ذلك سبيلا .

« عام » : وهو أن أكون مرشد معلما ، إذا قضيت فى تعليم الأبناء سحابة النهار ، ومعظم العام ، قضيت ليلى فى تعليم الأباء هدف دينهم ومنابع سعادتهم ، ومسرات حياتهم ، تارة بالخطابة والمحـــاورة وأخرى بالتأليف والكتابة وثالثة بالتجول والسياحة .

وقد أعددت لتحقيق الأول : معرفة بالجميل وتقديرا للاحسان ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، ولتحقيق الثانى من الوسائل الخلقية والثبات والتضحيه وهما الزم للمصلح من ظله ، وسر نجاحه كله ، ماتخلق بهما مصلح فاخفق إخفاقا يزرى به ، أو يشينه ، ومن الوسائل العملية درسا طويلا سأحاول أن تشهد لى به الأوراق الرسميه ، وتعرفا بالذين يعتنقون هذا المبدأ ، ويعطفون على أهله ، وجسما تعود الخشونة على ضآلته ، وألف المشقة على نحافته ، ونفسا بعتها لله وصفقة رابحة ، وتجاره بمشيئته منجية ، راجيا منه قبولها ، سائله إتمامها ، ولكليهما عرفانا بالواجب وعونا من الله سبحانه ، أقراه فى قوله تعالى :

« أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »

هذا هو موضوع الإنشاء الذى كتبه « حسن أحمد عبد الرحمن البنا » الطالب بالسنة الثالثه في دار العلوم عام ١٩٢٦ وكان الموضوع :

« أشرح أعظم آمالك بعد إتمام دراستك وبين الوسائل التى تعدها لتحقيقها ، وهو برنامج عمل يكتبه ذلك الطالب المولود عام ١٩٠٦ والذى كان فى العشرين من عمره ، والذى أنطلق منه إلى حياته العملية ، ويقضى الباحث العجب كيف يمكن أن يكون إنسان بمثل هذا النضج والفهم العميق فى هذه السن الباكرة ، لمهمه الداعى إلى الله ، والتعرف على الطريق ، على نحو يختلف عن الأسلوب الذى الفه جيله ، وفى مواجهه التحديات الق عرفها المجتمع المسلم فى هذه المرحلة ، ومن عجب أن

ينشأ هذا الداعية فى إطار التصوف ثم يستطيع أن يجد من حلق الذكر منطلقا إلى الدعوة العامة إلى الله على النحو الذى بينه فى هذا العرض ، وكأنما الهم أسلوبا جديدا للعمل فى مجال الدعوة الإسلامية هو بحق إنتقال بها من العمل الصوفى الفردى ومن عمل العلماء القاصر على الوعظ والإرشادو التوجيه إلى مجال جديد ، كان هو راسمه ومنفذه وهو بناء أجيال إسلامية بالتربية العملية على إيمان بأن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع . هذا الأسلوب الذى انتهجه خلال حياته العملية منذعام ١٩٢٧ إلى ١٩٤٨ خلال عشرين عاما هو منهج التعليم والإرشاد الذى وصفه بأنه يشترك مع منهج التربية الصوفى فى الأخلاص والعمل ويمتاز عليه فى الأختلاط بالناس ودرس أحوالهم وغشيان مجتمعاتهم ووصف العلاج الناجح لعللها .

وقد كان هذا الرجل صادقا فى نيته،على عزيمهقادره،تعتمد على الله تبارك وتعالى إذ سرعان ما نزل إلى الميدان وعمل فيه ، فى الإسماعلية أولا ثم فى القاهرة ثم فى كل مكان ذهب إليه ، وظل يعمل فى الميدان إلى أسلم الروح شهيد فكرته وغايته » .

وحين يكتب تاريخ حركة اليقظة الاسلامية فى العصر الحديث ، يكشف عن أن هذا الداعية إلى الله وضع أسلوبا جديدا ، يخرج بالدعوة الإسلامية من مرحة تأليف الكتب والأبحاث إلى تأليف الناس ، وذلك « بتكوين جيل جديد يفهم الإسلام فهما صحيحا ويعمل بتعاليمه ويوجه النهضة إليه حق تكون مظاهر حياة الأمم كلها مستمدة من روحة مرتكزة على قواعدها وأصوله .

هذا الجيل يجرى تكوينه تكوينا صالحا : بدينا بالرياضة وعقليا بالعلم والثقافة وروحيا بالخلق والعبادة ووضع المنهج الصالح فى كل الشئون الحيوية من التربية والتعليم والقضاء والتشريع والاسترشاد فى ذلك كله بتوجيه الإسلام الحنيف وصولا إلى أقامه الدولة الصالحة التى تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه عمليا وتقوم بحمايتها وتبليغها إلى كل وطن إسلامى » .

وقد صور الأستاذ حسن البنا مهمته فى جلاء ووضوح فى كثير مما كتب وخطب

وحاضر فقال « القيت إلينا نحن شباب الإسلام هذه التبعه : وهى وأن كانت تبعة ثقيله إلا أنها جليلة عظيمة ، والتبعة هى إظهار الناس عامه والبشر جميعاً على مافى الإسلام من أصول وقواعد وتوجيهات ونظم لو اتخذها الناس « نظاما إجتماعيا » لهم لماشواء سعداء ولضمنوا فى دنياهم الخير كله وفى أخراهم الخير كله كذلك ، ثم دعوة الناس لتطبيقها على أنفسهم بعد ذلك ، وهى دعوة لم نضع أصولها ولم نبتكرها إبتكاراً ولكنها دعوة وضع الله تبارك وتعالى أصولها وزكى فروعها وبلغها رسوله وسجلها كتابه وتوارثها المخلصون من عباده . ومانحن إلا ورثة لامخترعون ولا مبتكرون ومن هنا وجب أن لايظن الأخوان أن الدعوة لهم أو قاصرة عليهم ولكنها الدعوة العالمية التى يجب علي كل غيور أن يدعوا إليها » .

(٣)

رسم الأستاذ حسن البنا خطته فى منهج دقيق متماسك أطلق عليه إسم :

« عقيدتنا »

أولا : أعتقد أن الأمر كله لله — وأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم رسله للناس كافة ، وأن الجزاء حق وأن القرآن كتاب الله وأن الإسلام قانون شامل لنظام الدنيا والآخره .

وأتعهد : بأن ارتب على نفسى حزبا من القرآن الكريم وأن أتمسك بالسنة المطهرة وأن أدرس السيرة النبوية وتاريخ الصحابه الكرام .

ثانيا : أعتقد أن الاستقامة والفضيلة والعلم من أركان الإسلام .

وأتعهد : بأن أكون مستقيما وأؤدى العبارات وابتعد عن المنكرات : فاضلا اتحلى بالأخلاق الحسنة ، واتخلى عن الأخلاق السيئة واتحرى العادات الإسلامية ماأستطعت وأوثر المحبة والود على التحكم و التقاضى ، فلا الجأ إلى القضاء إلا مضطراً واعتز بشعائر الإسلام ولغته واعمل على بث العلوم والمعارف النافعة فى طبقات الأمة:

ثالثاً : اعتقد أن المسلم مطالب بالعمل والتكسب ، وأن فى ماله الذى يكسبه حقا مفروضا للسائل والمحروم .

وأتعهد : بأن اعمل لكسب عيشى واقتصد لمستقبلى واؤدى زكاة مالى واخصص جزءاً من إيرادى لأعمال البر والخير ، وأشجع كل مشروع إقتصادى إسلامى نافع واقدم منتجات بلادى وبنى دينى ووطنى ولا أتعامل بالربا فى شأن من شئونى ولا اتورط فى الكماليات فوق طاقتى .

رابعاً . اعتقد ان المسلم مسئول عن اسرته وان من واجبه ان يحافظ على صحتها وعقائدها واحترامها .

وأتعهد : بأن اعمل لذلك جهدى . وأبث تعاليم الإسلام فى افراد اسرتى ، ولا ادخل ابنائى اى مدرسة لاتحفظ عقائدهم وأخلاقهم ، وأقاطع كل الصحف والنشرات والكتب والهيئات والفرق والانديه التى تناوىء تعاليم الإسلام .

خامسا : اعتقد ان من واجب المسلم إحياء مجدالإسلام بأنهاض شعوبه وأعادة تشريعه ، وان رآية الإسلام يجب ان تسود البشر ، وان من مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام .

وأتعهد : بأن اجاهد فى سبيل اداء هذه الرساله ماحييت وأضحى فى سبيلها بكل ما أملك .

سادساً : اعتقد ان المسلمين جميعاً أمة واحدة تربطها العقيدة الإسلامية وان الإسلام يأمر ابناءه بالأحسان إلى الناس جميعا .

وأتعهد : بأن ابذل جهدى فى توثيق رابطة الأخاء بين جميع المسلمين وإزالة الجفاء والاختلاف من طوائفهم وفرقهم .

سابعاً : اعتقد ان السر فى تأخر المسلمين ابتعادهم عن دينهم وان اساس الإصلاح العودة إلى تعاليم الإسـلام واحكامه وان فكرة الأخوان المسلمين تحقق هذه الغاية .

وأتعهد : بالثبات على مبادئها والأخلاص لكل من عمل لها وان اظل جنديا فى خدمتها أو اموت فى سبيلها .

(٣)

حدد الأستاذ حسن البنا مفهومه للاسلام فى نقاط واضحة صريحه تمثل منهج دعوته إلى لله :

١ — نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنتظم شئون الناس فى الدنيا وفى الآخرة ، وأن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحى مخطئون فى هذا الظن ، فالإسلام عقيدة وعبادة ، ووطن وجنسية ، ودين ودولة وروحانية وعمل ، ومصحف وسيف ، والقرآن الكريم ينطق بذلك كله ويعتبره من لب الإسلام ومن صميمه ، ويوصى بالإحسان فيه جميعه ؛ وإلى هذا تشير الآيه الكريمة : «وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » وانك تقرأ فى القرآن وفى الصلاة أن شئت قول الله تبارك وتعالى فى العقيدة والعبادة: «وماأمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » وتقرأ قوله تعالى فى الحكم والقضاء والسياسة : « فلاوربك لايؤمنون حتى يحكمون فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » وتقرأ قوله تعالى فى الدين وفى التجارة : « ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولايأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ؛ فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولايبخس منه شيئا » الآية وتقرأ قوله تعالى فى الجهاد والقتال والغزو : « وإذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذو أأسلحتهم [illegible] دوا فا [illegible] ا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيملون عليكم ميلة واحدة ولاجناح عليكم أن كان بكم إذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم».

إلى غير ذلك من الآيات الـكثيرة البارعة فى هذه الأغراض نفسها وفى غيرها وفى الآداب العامة وشئون الاجتماع .

وهكذا اتصل الإخوان بكتاب الله واستلهموه واسترشدوه فايقنوا أن الإسلام هو هذا المعنى الـكلى الشامل ، وأنه يجب أن يهيمن على كل شئون الحياة وأن تصطبغ جميعا به ، وأن تنزل على حكمه وأن تساير قواعده وتعاليمه وتستمد منها مادامت الأمة تريد أن تـكون مسلمة إسلاما صحيحا . أما إذا أسلمت فى عبادتها وقلدت غير المسلمين فى بقية شئونها فهى أمة ناقصة الإسلام تضاهىء الذين قال الله تعالى فيهم : « افتؤمنون ببعض الـكتاب وتـكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منـكم إلاخزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وماالله بغافل عما تعملون » .

٢ — إلى جانب هذا يعتقد الاخوان أن أساس التعاليم الإسلامية ومعينهاهو كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم اللذان أن تمسكت بهما الامة فلن تضل أبداً — وأن كثيرا من الآراء والعلوم التى اتصلت بالإسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التى أوجدتها والشعوب التى عاصرتها ، ولهذا يجب أن تستقى النظم الإسلامية التى تحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافى : معين السهولة الأولى ، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لانقيد أنفسنا بغير مايقيدنا الله به ، ولانـــلزم عصرنا لون عصر لايتفق معه ، والإسلام دين البشرية جميعا .

٣ — وإلى جانب هذا يعتقد الأخوان المسلمون أن الإسلام كدين عام أنتظم كل شئون الحياة فى كل الشعوب والأمم لـكل الاعصار والأزمان ، جاء أكمل وأسمى من أن يعرض لجزئيات هذه الحياة وخصوصا فى الأمور الدينوية البحته ،

فهو إنما يضع القواعد الكلية فى كل شأن من هذه الشئون ويرشد الناس إلى الطريق العملية للتطبيق عليها والسير فى حدودها ، ولضمان الحق والصواب فى هذ التطبيق أو تحريهما على الأقل .

عنى الإسلام عناية تامة بعلاج النفس الإنسانية وهى مصدر النظم ومادة التفكير والتصوير والتشكيل ، فوصف لها من الأدوية الناجعة مايطهرها من الهوى ويغسلها

من إردان الغرض والغاية ويهديها إلى الكمال والفضيله ، ويزجرها عن الجور والقصور والعدان وإذا استقامت النفس وصفت فقد أصبح كل مايصدر عنها صالحا جميلا — يقولون أن العدل ليس فى نص القانون ولكنه فى نفس القاضى .

وقد تأتى بالقانون العامل العادل إلى القاضى ذى الهوى والغاية فيطبقه تطبيقاً جائراً لاعدل معه ، وقد نأتى بالقانون الناقص والجائر إلى القاضى الفاضل العادل البعيد عن الاهواء والغايات فيطبقه تطبيقا فاضلا عادلا فيه كل الخير والبر والرحمة والأنصاف . ومن هنا كانت النفس الإنسانية محل عناية كبرى فى كتاب الله ، وكانت النفوس الأولى التى صاغها هذا الإسلام مثال الكمال الإنسانى ولهذا كله كانت طبيعة الإسلام تساير العصور والأمم وتتسع لكل الأغراض والمطالب ولهذا أيضاً كان الإسلام لايأبى أبدا الاستعادة من كل نظام صالح لايتعارض مع قواعده الكلية وأصوله العامة .

وقد كان من نتجه هذا الفهم الشامل الكامل للاسلام عند الأخوان المسلمين أن شملت فكرتهم كل نواحى الاصلاح فى الأمة وتمثلت فيها كل عناصر غيرها من الفكر الاصلاحية وأصبح كل مصلح مخلص غيور يجد فيها امنيته ، والتقت عندها آمال محبى الاصلاح الدين عرفوها وفهموا مراميها ، ونستطيع أن نقول ولاحرج عليك أن الأخوان المسلمين :

(١) دعوة سلفية : لأنهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافى من كتاب الله وسنته ورسوله .

(٢) وطريقة سنيه : لأنهم يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة في كل شيء ، وبخاصة فى العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

(٣) وحقيقة صوفية : لأنهم يعلمون أن اساس الخير طهاره النفس ونقاء القلب والمواظبة على العمل والأعراض عن الخلق والحب فى الله والارتباط على الخير .

(٤) وهيئه سياسية : لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم فى الداخل وتعديل النظر إلى صله الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم فى الخارج وتربية الشعب على العزة والكرامة والحرص على قوميته إلى أبعدحد .

(٥) وجماعة رياضية لأنهم يعنون بجسومهم ويعلمون أن المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف وأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : (أن لبدنك عليك حقا) وأن تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن تؤدى كاملة صحيحة إلا بالجسم القوى .

(٦) ورابطة علمية ثقافية : لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ولأن اندية الأخوان هى فى الواقع مدارس للتعليم والتثقيف ومعاهد لتربية الجسم والعقل والروح .

(٧) وشركة إقتصادية : لأنه الإسلام يعنى بتدبير المال وكسبه من وجهه وهو الذى يقول نبيه صلى الله عليه وسلم « نعم المال الصالح للرجل الصالح ولقول » من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له » وأن الله يحب المؤمن المحترف .

(٨) وفكرة إجتماعية : لأنهم يعنون بأدواء المجتمع الإسلامى ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها .

وهكذا ترى أن شمول معنى الإسلام قد أكسب فكرتنا شمولا لكل مناحى الاصلاح ووجه نشاط الأخوان إلى كل هذه النواحى وهم فى الوقت الذى يتجه فيه غيرهم إلى ناحية واحدة دون غيرها يتجهون إليها جميعا ويعلمون أن الإسلام يطالبهم بها جميعا .

ومن هنا يرى الناس الأخ المسلم فى المحراب خاشعا متبتلا يبكى ويتذلل ، وبعد ليل يكون هو بعينه واعظا مدرسا يقرع الأذان بزواجر الوعظ ، وبعد قليل تراه نفسه رياضيا انيقا يرمى الكرة أو يدرب علي العدو أو يمارس السباحة وبعد قليل يكون هو بعينه فى متجرة أو معمله يزاول صناعته فى أمانه وفى إخلاص ، هذه ظاهر قدراها الناس متنافرة لايلتئم بعضها ببعض ، ولوعلموا أنها جميعا يجمعها لإسلام ويأمر بها الإسلام ويحض عليها الإسلام لتحققوا فيها مظاهر الالتئم ومعانى الانسجام ومع هذا الشمول فقد اجتنب الأخوان كل مايؤخذ على هذه نالواحى من المآخذ ومواطن النقدو التقصير .

ومن خصائص دعوتهم : البعد عن مواطن الخلاف والبعد عن هيمنة الأعيان والكبراء والبعد عن الأحزاب والهيئات والعناية بالتكوين والتدرج فى الخطوات وإيثار الناحيه العملية الإنتاجية على الدعاية والإعلانات وشدة الاقبال من الشباب وسرعة الانتشار فى القرى والبلاد .

أن غاية الأخوان تنحصر فى تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح يعمل على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة فى كل مظاهر حياتها (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغه) وأن وسيلتهم فى ذلك تنحصر فى تغيير العرف العام وتربيه أنصار الدعوة على هذه التعاليم حتى يكونوا قدوة لغيرهم فى التمسك بها والحرص عليها والنزول على حكمها » .

(٤)

ولم يتوقف الأستاذ حسن البنا عن أن يرسم الخطوط العريضة لفهم الإسلام فهما صحيحا : فى صورة جامعة متكامله .

أولا : الإسلام نظام إجتماعى شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا والقرآن الكريم والسنه المطهرة مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الإسلام ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف ويرجع فى فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات ومرد القياس والإجماع إلى هذين الأصلين . ورأى الإمام ونائبه فيما لا نص فيه يحتمل وجوها عدة وفى المصالح المرسلة يعمل به مالم يصطدم بقاعدة شرعيه وقد يتغير بتغير الظروف وهذا الحق ثابت لأهل الحل والعقد كذلك .

وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وكل ماجاء به السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع ولا نعرض للاشخاص فيما اختلف فيه بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ماقدموا وكل مسألة لا ينبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذى نهينا عنه شرعا ومن ذلك كثرة التفريعات للاحكام والخوض فى معانى الآيات القرآنية الكريمة التى يصل إليها العلم بعد ، والكلام فى المفاضله بين الصحابة رضوان الله عليهم . وماشجر بينهم من خلاف ولكل منهم صحبته وجزاء نيته وفى التأويل مندوحه .

ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع أماما من ائتمة الدين ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد مااستطاع فى تعرف أدلة أمامه و أن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صدق من أرشده وكفايته وأن يستكمل نقصه العلمى وأن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر .

ثانيا : والخلاف الفقهى فى الفروع ليس سببا فى التفرقة فى الدين ولا يؤدى إلى

خصومة أو بغضاء ولكل مجتهد أجره ولامانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب المقيت ورأى القاضى يرفع الخلاف .

ولكل بدعة فى دين الله لا أصل لها استحدثها الناس بأهوائهم زيادة فيه ونقصا منه ضلالة يجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التى لاتؤدى إلى ماهو شر منها ، والبدعة الإضافية والتركية والالتزام فى العادات المطلقة خلاف فقهى ، لكل فيه رأى وتتمحض الحقيقة بالدليل والبرهان .

ثالثاً : ومعرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة ومايلحق بذلك من المتشابه نؤمن بها كما جاءت فيها من خلاف بين العلماء ويسعنا ماوسع رسول الله وأصحابه « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا .

رابعاً : ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم ربة إلى الله تعالى والأولياء هم المذكورون فى الآية الكريمة : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فى حياتهم وبعد مماتهم فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم وزيارة القبور أيا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ولكن الاستعانة بمن فيها أيا كانوا ونداؤهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما إلى ذلك كبائر تجب محاربتها ، ولانتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فقهى فى كيفيه الدعاء وليس فى مسائل العقيدة .

وللإيمان الصادق والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب من شاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام

الشرعية إلا إذا وافقها نص صريح والتمائم والرقى والودع والرمل وادعاء معرفة الغيب ، وكل ما كان من هذا الباب منكرات تجب محاربتها « إلا ما كان من أية من قرآن أورقيه مأثورة » .

ولا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وأدى الفرائض برأى أو معصية ، إلا إذا أقر بكلمة الكفر أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن أو فسره على وجه يصدم قواعد الإسلام ولا تحتمله أساليب اللغة العربية أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر .

خامسا : والإسلام يحرر العقل ويحث على النظر فى الكون ويرفع قدر العلم والعلماء ويرحب بالصالح النافع من كل شيء ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها والنظر الشرعى والعقلى لن يختلف فى القطعى فلن تصطدم حقيقه علمية صحيحه بقاعدة شرعية ثابتة ، ويؤول الظنى منهما فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع .

(٥)

وهكذا نجدنا أمام داعية إلى الله تقوم دعوته على مفهوم للاسلام نقى قرآنى المصدر ، أساسه استقامة الفكر مع استقامه الخلق ، وطهارة الباطن مع طهارة الظاهر ، ونقاء الوجهة مع نقاء السريرة ، هذا الخلق المستقيم الذى نراه من خلال هذه الشخصية النادرة التى عاشت فى سبيل الغاية العليا دون أن تطمح إلى شىء من متاع الدنيا ؛ فقيره عازفة عن المادة ولو إرادت أن تحصل لحصلت على الكثير ، لقد عرض عليها الاغراء فأبت ورغبت فيما عند الله تبارك وتعالى وتطلعت إلى الشهادة فاحرزتها ويقول رضى الله عنه فيما يتحدث عن نفسه : ها أنا .. أنا ورقة بيضاء ناصعة البياض ، ولم يمسسها سوء بفضل الله وأرجوا أن يتم على نعمته ،فالقى الله و وأنا على هذه الطهارة وأن يرزقنى الله أيضاً الموتة الطاهرة التى طلبها أحد الصوفية فى دعائه ، وأنا أرددها فى أورادى ، هذه الموته الطاهرة هى الشهادة . أنا ورقة بيضاء ناصعه البياض ، أنا من ضوء محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ضوء محمد أسير ، وهذا سر مايدركنى من نجاح ، فهو من توفيق الله وحده لست عبقريا ولست فذا مفرداً فى علم أو خبرة ، وقد أخذت فى الدنيا نصيبا من الشهرة وأقبال الناس ، وكان الصالحون من المتصوفة يعتبرون ظهور الكرامة على يد الولى نقصا ، وأنا أرجو ان يكرمنى الله فيجعل هذه المظاهر كلها خالصة له ولدعوته .

« أن توفيقى من الله ، فالمجهود ليس لى وحدى ، ولكنه مجهود جند الله المجهولين : ومايعلم جنود ربك إلا هو ، على أن كل من اعتصم بحبل الله إدرك هذا النجاح ، وإدركه هذا التوفيق ، وكل من سلك طريقة المدرسة المحمدية الهاشمية فقد وصل إلى هـــذه الغاية لامحالة فالإسلام فى ذاته معجز ، أنه معجزة الفكرة ومعجزة التاريخ .

« أنا لاأضع للناس شيئا كيما عجزهم ، ولاأصنع اكثر من أن اقدم لهم لإسلام الذى فهمته وآمنت به إيمانا عميقا . آمنت بالإسلام إيمانا عميقا فلا اتحول عنه ، فإنا اقدم لكل عقل ولكل فكر ولكل شخصيته مهما كانت ، أقدم لها ماينا سبها ، ويتناسب معها ، ولاازيد على ذلك ، وهذا التقديم وهذه البضاعة هى المعجزة . هى الق تعجز الناس والعقول والأفهام ، لأن الإسلام هكذا معجزة التاريخ والإنسانيه .

« ياتينى الرجل العبقرى ذو الفكر والعلم والمنصب والجاة فاقدم له الإسلام فيعجزه ويتوه فيه ، لأن الإسلام أكبر منه . مهما كان العبقرى عبقريا فالإسلام أكبر منه لأنه صنع الله « صبغة الله وعن أحسن من الله صبغة » « صنع الله الذى أتقن كل شيء » فانا لا اعجز الناس بشيء ولكنه الإسلام ، وعملى فى هذا كله هو الإيمان والاسلام منه مع الاعتزاز بالله والانتساب إليه تبارك وتعالى .

« أما اخوانى فتربطنى بهم صلة الأخوة والحب فى الله وللدعوة ، أبادلهم هذا للحب كما يبادلونى أياه ، فلا اشعر بأننى ممتاز عليهم ، وبينى و بينهم عهد الله وحدود الله ، هى التى تحكمنا ، هى قانوننا ويعظمها مابيننا من حب ويثق.

« واستطع ان اصور المجاهد شخصا قد اعد عدته واخذ هيبته ، وملك عليه الفكر فيما هو فيه من نواحى نفسه ، وجوانب قلبه ، فهو دائم التفكير ، عظيم الاهتمام على قدم الاستعداد ، ابدا ، ان دعى اجاب وان نودى لبى ، غدوه ورواحه ، وحديثه وكلامه ، وجده ولعبه ، لايتعدى الميدان الذى اعد نفسه له ، ولايتناول سوى المهمة التى وقف عليها حياته وإرادته يجاهد فى سبيلها ، تقرا فى قسمات وجهه ، وترى فى بريق عينه ، وتسمع فى فلتات لسانه ، مايدلك على مايضطرم به قلبه ، من جوى لاصق ، وألم دفين ، ومانفيض به نفسه من عزمة صادقة، وهمة عالية ، وغاية بعيدة ، اما المجاهد الذى ينام ملء جفنيه ويأكل ملء ماضغيه . ويضحك ملء شدقيه ، ويقضى قتهولاهيا لاعبا ، عابثا ، فهيهات ان يكون من

الفائزين او يكتب فى عداد المجاهدين ، وهكذا انا ، كما احسن الظن بنفسى وهكذ ارىد ان اكون واطلب لعون من الله تعالى اقول دائما : ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين » اريد ان اكون كذلك واعتقد ان لم اكن هذا الرجل الآن ، او لم ابلغ فيه وحده فإنا بهذا السبيل آخذ ، وفى طريقة سائر ، ومن سار على الدرب وصل ، هذا انا مسلم والسلام.

فاعرفوا اسلامكم واعرفوا المسلمين تعرفونى ، وانت ايها المؤمن قد وهبت نفسك لله ، ووقفت كل حياتك على دعوة الحق ، فكل شعرة فيك ، وكل حاسة من حواسك ، وكل ما أنعم الله به عليك من عضو او موهبه ، كل هذا من نعم الله فهو له ، وينبغى ان يكون موقوفا كله للجهاد له ولدعوته ، فعليك ان تحافظ عليه لتصرفه فى هذا السبيل وحده ، فليس لك من نفسك شىء ».

هكذا عرف الأستاذ حسن البنا دعوته وعرف نفسه رحمه الله رحمة واسعة .

(توفى ١٣ فبراير ١٩٤٩)

الدكتور عيسى عبده

الدكتور عيسى عبده

كان من أبرز ماحققته حركة اليقظة الإسلامية بروز عدد كبير من إعلام الفكر الإسلامى فى مختلف مجالات القانون والاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية نافحوا عن مفهوم الإسلام الأصيل فى مواجهة تحديات الغزو الفكرى والتغريب ومافرضه النفوذ الأجنبي على البلاد الإسلامية من تطبيقات للقانون الوضعى والمصرف الربوى ومفاهيم الرأسمالية والاشتراكيه والديمقراطية والليبرآليه وغيرها من مفاهيم وافدة ولقد كان الدكتور عيسى عبده واحداً من هذه الصفوة التى نافحت عن مفهوم الإسلام الأصيل فى الاقتصاد خلال خمسين عاما متصلة لم يتوقف خلالها عن العمل بالكلمة المكتوبة والمسموعة والمرئية وبالرحلة فى أفاق الأرض بحثا عن التجربة الاقتصادية الغربية ومقاتلها وأخطائها وبالرحلة فى أفاق العالم الإسلامى داعيا إلى إنشاء المصارف الإسلامية وحيثما وجد تقبلا لدعوته فقد كان يمكث ويتريث ويقيم حتى يحقق خطوة على ذلك الطريق الشاق ولقد كانت له رحلاته إلى المملكة العربية السعودية والكويت ولبنان ودبى وكانت له مشاركة فى إنشاء أقسام الاقتصاد الإسلامى بالجامعات العربية والكليات المختلفة من اقتصاد وقانون وإدارة ، واشتراكه فى مختلف مؤتمرات الاقتصاد التى عقدت فى السنوات الأخيرة بأبحاث ناضجه تكشف عن خبرة وافرة ومتابعة جبارة لكل تطورات الاقتصاد فى العالم كله ، وكانت كلمته خلال ذلك كله حاسمة وهى إن (التجربة الغربية) فى الاقتصاد قد تصدعت وأنها قد عجزت عن أن تحقق للبشرية شيئاً بعد أن أغرقها اليهود فى أتون « الربا » الذى دمر الاقتصاد العالمى تدميراً .

ولقد انطلق من نقطة واحدة عاش حياته كلها لها هى الكشف عن فساد النظام الربوى ، وآثاره الخطيرة على الاقتصاد الإسلامى منذ تمكن النفوذ الأجنبى من

التسلط على بلاد الإسلام « أن الخطر هو تمكن المرابى من أموال المسلمين بالإيداع عنده ابتداء فإذا علم المسلم الغيور على دنيه . أن أول الأثم وأكبر ه هو مجرد إيداع المال بين يدى خصوم الإسلام لأن هذا الايداع فى حد ذاته يجرد المسلمين من أدوات النشاط الاقتصادى ومن القوة القاهرة فى المبادلات ثم يصعها فى أيدى المشتغلين بالربا وهم أول خصوم الإسلام .

لو علم المسلم الغيور من فداحة وزر الايداع مايتعين عليه أن يعلمه لما غمض له جفن وأمواله بين اليهود والذين اشركوا يستعينون بها على استنباط موارد الثروة وأقامة المصانع وأجهزة لاتقع تحت حصر وإنما تقع كلها فى يدى خصوم الإسلام فتكون حربا على المسلمين » .

ويهاجم الدكتور عيسى عبده مايسمى بالاقتصادالسياسى الذى يخضع له المسلمون ويدرسونه على أنه علم فيقول : أن هذا العلم الذى يقال له الاقتصاد السياسى لايزيد علي مر الأيام إلا غموضا وبعدا عن الحقيقة الاقتصادية فما جاء جيل إلا لينقض من جهود سابقة وماجاء حا كم لا وله نظرية وفكر وسياسة ، ومن ثم كان الصراع بين درجات المجتمع الواحد وفيما بين القبائل والشعوب حق إذا أحتلف بعضها مع بعض فإن هذا الأختلاف يجى جزئاً ويؤدى إلى ظهور معارضين له فى الفكر والعمل ومن ثم كانت التكتلات والحروب الباردة والصدام المسلح كره بعد أخرى أما حصاد هذا الفكر المرهق المضطرب فهو زحام وركام ، وهو حصاد قليل العناء ، ومع ذلك لامفر لنا نحن المسلمين من النظرة فى كل وافدة من هذا القبيل لأن دار الاسلام لم تعد معزولة أو محصنة فى الثغور والحدود ، بل أصبحت كغيرها أرضا تهب عليها رياح الفكر وتزوات الهوى علي موجات الأثير وفى الصحف والمجلات والكتب وغيرها من وسائل الأعلام ، كان لزاما أن ينظر المسلمون وأن يوازنوا بين الأصيل الذى عندهم وبين البديل الذى هو وافد بغير دعوة ولكنه وافد ثقيل مقيم ، ومن أجل دفعه و مطاردته يتعين علينا أن نعرف الشيء الكثير عنه وماصح عندنا أن

الاقتصاد ليس علما فى كلياته وتفصيلاته بل أقله علم وأكثره رأى وفكر إلى آخر ماهو معروف » .

وقد عاش الدكتور عيسى عبده بدعوة إلى أن يكون الاقتصاد الإسلامي هو المهيمن على كل ماعداه من الدراسات الاقتصادية والوضعية وإلى العناية بدراسة فقه الأموال والحاجة إلى التركيز على دراسة الاقتصاد من القرآن والسنة ذلك أن معظم الدراسات والاقتصادية التى قدمها الباحثون تبين أنها أما أن تكون من الروافدالتى تصب فى القناة الرئيسية لمايعرف بحق أنه« اقتصادإسلامى» أو أنها مناقشات سطحيه لفكر غربى بين ماهو منتشر فى العالم من اقتصاد سياسى منقطع عن الدين وبين ماهو اقتصاد مستمد من كتاب الله والسنة .

ويرى أن هذا الخطأ يرجع إلى تأثر المثقفين العرب والمسلمين بالنزعه العلمانيه التى تفصل الدين عن الدنيا فى أوربا نقلوا ذلك إلى محيط الأمة الإسلامية بزعم أن التقدم التكنولوجى وماصحبه من ثراء مادى فى الغرب الرأسمالى والشرق الاشتراكى إنما كان من ثمرات النزعه اللادينية التى بدأت بوجه خاص منذ عهد نابليون ومعلوم أن هذا خطل فى الرأى بالغ الجسامة ومما زاد فى خطورته أن طائفة ممن تقدم ذكرهم قد وصل إلى مركز السلطة وإلى الجامعات وساعدوا فى تعميق هذه النزعة ودعمها بأجهزة الأعلام ومناهج التعليم وبرامج للتدريب» .

كذلك فقد كان من نتيجة ذلك أن مناهج كليات الاقتصادوالتجارةوالإدارة فى معظم البلاد الإسلامية ظلت خالية تماما من دراسة الشريعة بأصولها وفروعها فى حين أن كليات الحقوق لاتعنى بدراسة علوم الدين إلا بما يقرب من عشرة فى المائة من مناهجها ، أما الكثيرة الغالبة من دراساتها فإنها تستمد أصولهاوفروعها من فلسفة الإغريق وتشريع الرومان ، وقد دعا إلى ضرورةوقف هذاالتيارالجارف خاصة وأن الجامعات الغربية المختلفة تتطلع الآن إلى دراسة الاقتصاد الإسلامى من مصادره الأصيلة .

وهكذا مضى الدكتور عيسى عبده يكشف فساد المناهج الغربية فى دراسة الاقتصاد ويبين حاجة البلاد الإسلامية إلى دراسة الاقتصاد الإسلامى من مصادره الأصيلة وكان من نتيجة هذه الجهود إدخال الاقتصاد الاسلامى فى مناهج عدد من الجامعات منها جامع الأزهر وكلية الاقتصاد والتجارة بالجامعة الليبية وكلية الاقتصاد والإدارة بجامعة الملك عبد العزيز بجده .

كما مضى الدكتور عيسى عبده فى العمل لإنشاء البنك الإسلامى مع طائفة من الإبرار فى صورة جمعية تعاونية أو صورة شركة مساهمة ، مثل بيت التمويل الكويتى ، وبنك فيصل الإسلامى ، والبنك الإسلامى فى دبى الذى يعد أول بنك باشر النشاط التجارى فى دوائر الاعمال بأساليب تتفق مع حكم الشريعة فى معظم الحالات ولقد كان من أهم مايشغل خاطر الدكتور عيسى عبده كشف خطيئة الربا وفسادها ، وزيف بنوك الربا ومخاطرها على الاقتصاد الإسلامى يقول : لقد أصبح المسلمون يتنفسون الربا حتى تخدرت أجسامهم ، وحين يعضهم الفقر وتأخذهم العناية الإلهية بالقوارع لعلهم يرجعون إذا بهذه الأجيال المضيعة من المسلمين تفزع إلى مزيد من القروض الربوية تصحبها ظاهرات الضنك والضيق منها إلى البطالة والتضخم والانحلال الخلقى فلا تجد المفزع من الربا إلا إلى الربا من جديد مع التسكرار القبيح الذليل كما يتداوى شارب الخمر بالخمر .

وهو يسمى الربا : « الفوايد » بالياء لأنها فى الأصل هى (الفوايظ) .

ويقول ليست المشكلة (الفائدة على رأس المال) ومحاددة الله جل شأنه وعصيانه بأكل الربا ، ليست المشكلة فى هذه السطحية وأن كانت جد خطيره بل المشكلة أعمق وأخطر لأنها تتصل بموارد هذه الأمة الإسلامية كلها — عبر الحدود السياسية الطاغية التى قطعت أوصال الجسد الواحد — أنها مشكلة دفينه وذات شعب أن المعاملات الربوية وأن كانت من الكبائر ليست إلا جانبا واحداً من المنهج

الخارج على الكتاب والسنة . إن الربا على فداحة وزره قد جر على المسلمين ماهو أخطر على الدين والدنيا جميعا .

وهو يدعو إلى الكشف عن مخاطر الربا من غير تكلف التأويل إرضاء لحاكم أو فزعا من أن يقال إن الإسلام قد توقف عن مسيرة الحضارة المادية ، ويقول أن هذا وهم أفزع فريقا من الكتاب فذهبوا كل مذهب لتطويع أحكام الشريعه لعلها تتسع للمعاملات المعاصرة ماكان منها خارجا على حكم الشرع فى جرأة صارخه .

ويقول أن الربا كان مصدر تمزق أرض الإسلام ونهب مواردها وسببا لما هى فيه من ذلة وهوآن حتى أصبح المال الذى هو مالنا غريبا عنا وهو فى أرضنا وحربا علينا والأصل أن يكون عدة لنا ويقف الدكتور عيسى عبده موقف الاصاله من ذلك الركام الضخم الذى يقدمه إتباع التغريب والغزو الثقافى : يقول: تقرأ للمحدثين من المثقفين ثقافة غربية خالصة فيخيل إليك أن قضية الفائدة قد استقرت وطويت ملفاتها منذ زمن مضى ، ومن ثم يكون الكلام عنها عبثا والحق غير ذلك . الحق أن الأوساط المالية التى تذل لها أعناق الجامعات الأجنبية لاتزال تبحث عن أساس علمى أو أساس قانونى تقوم عليه الفائدة وتطالب الباحثين بأن يتابعوا ومضى مائتا عام إلى يومنا هذا وليس منها نص واحد يقول بأن القوانين ترتكز على قاعدة السلمـــة .

وقد كشف الدكتور عيسى عبده أن الفرنجة أعلنوا فشلهم فى إرساء الفوائد على قاعدة علميه أيا كانت فلماذا نحن المتخصصين الذين نحمل عن الأمة الإسلاميه أمانة البحث نسكت عن الخوض منها .

وقد دعا إلى أن نخرج من هذا الإطار الفكرى المحكم الذى أخضع العقلية العلمية المعاصرة فى البلاد الإسلامية لكل ماخصم للاسلام حرب عليه حتى وصلت

بنا الحال إلى اعتبار البعـد عن العبادات وعن النظر فى التراث من علامات النضج العلمى .

كما دعا إلى الاصالة التى تدعونا إلى أن نعلن عن أن علماء الغرب كشفوا الحقيقة التى تقول أن أمر الفوايد مجرد خطأ يجرون إليه الشباب المثقف وأن هذا الاقتناع من علمائنا المستغربين هو مجرد إقرار بسلامه النظام الربوى ، وأن هذا الإقرار خطأ .

وعاب على التغريبين أجلالهم للمنهج الغربى إلى حد التقديس ، وخاصة من قال منهم أن الإسلام عاجز عن تقديم نظرية متكامله للنشاط الاقتصادى .

هذا الفهم العميق للغزو الفكرى فى ميدان الاقتصاد هو تلك القضية التى التزم بها هذا الرجل منذ مطالع شبابه عندما رأى صورة البنوك الربوية فى مصر وسمع من العلماء مقدار خطرها وأثرها على البلاد ، وعندما طلب ناظر المدرسة من الطلبة شراء أسهم البنك وعندما قال له جده : يابنى أن البنوك تشتغل بالفوايد والفوايد حرام ، ثم يذكر كيف كانوا يدرسون له فى مدرسة التجارة العليا الفوائد على أنها أمر واقع لامرد له ورأى كيف أن نظريه الفوايد وحاباتها وجداولها تشيع فى دراسة المواد التجارية كما ينتشر الداء الوبيل فى جسم فقد كل أسباب المنعة ولم يسمع فى هذه الرحلة كلمة عن الشريعة الإسلامية ، ثم يمضى إلى انجلترا ليدرس فى جامعة مسنشستر وكانت أسئلة الاقتصاد تدور حول الفائدة فكتب بحثا عن تحريم الفائدة لأنها ربا وأيد أقواله بأحكام الدين ورفضت ورقه الإجابة بجملتها لا سؤال الفائدة وحده — واستدعته إدارة الكلية وتحدث إليه أستاذ المادة مقررا بأن الجامعة ليست مكانا ملائما لاظهار التعصب لدين دون آخر وأن المطلوب منه أن يضع على الورق ماعرفه من النظرية العلمية دون التأثر بنزعه أوعاطفة . يقول :

وهكذا عادت قضية الفوائد والبنوك من جديد تنازع غيرها على مركز الصدارة فيما يعنى من أبحاث وهكذا عاش الدكتور عيسى عبده لهذه القضية الكبرى منطلقا من مصدر الاصالة هاديا إلى الحق : رحمه الله عليه وأجزل مثوبته فقد مضى وهو يعمل على إنشاء كليه للاقتصاد الاسلامى فى جامع الامام محمد بن مسعود تكون نموذجا للعالم الاسلامى كله .

محمد بهجة البيطار

هذا نموذج كريم من أولئك الذين عاشوا حياتهم للكلمة ، يقولونها خالصة لا يلتمسون بها إلا الحق . يسلكون نفس الطريق الذى سلكه من قبلهم مجاهدون صدقوا ماعاهدوا الله عليه . تلك المدرسة العريقة السلفية التى فجر طاقتها قبل قرنين من الزمان أمام الأئمة (محمد بن عبد الوهاب) بدعوة التوحيد الخالص ، وعنها أخذ أولئك الأبرار الذين ظهروا فى العراق والشام ومصر امثال : الالوسى وطاهر الجزائرى ، وعبد الرازق البيطار ، وجمال الدين القاسمى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا ، وقد التمسوا جميعاً دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد أشرقت دعوة التوحيد وغربت ، حتى بلغت أرخبيل الملايو والهند ، ووصلت إلى المغرب الاقصى،وكان لها أثرها الفعال فى مقاومة النفوذ الأجنبى .

ولذلك فإن من أكبر أعمال علامتنا البيطار كتابه الحافل عن (حياة شيخ الإسلام ابن تيمية)وهو كتاب قوبل من الباحثين والعلماء بكثير من التقدير والإعزاز لأنه على حد تعبير عبد الرحمن الكيالى قد رسم المثل الأعلى الذى يمثل فى شخصية هذا المسلم الفذ ، والمفكر العبقرى (ابن تيمية) فى علمه وشجاعته وتعاليمه . يقول البيطار : أن الذى دعانى إلى دراسة كثير من مصنفات فريد عصره (ابن تيمية) هو حاجة عصرنا إلى مثلها وعدم اتساع أوقات الدارسين لمطالعتها والعناية بها ، وحتى لا تنقطع السلسلة بيننا وبين هدى السلف .

وهكذا يكشف البيطار عن منهجه التقدمى الواضح فى ارتباط الإسلام دائماً بالعصر والحضارة وقضاياها . وليس كتاب ابن تيمية هو كتابه الوحيد ولكنه واحد من مؤلفاته وأبحاثه التى مايزال ينشرها منذ وقت بعيد ، ومازلت أذكر مقالاته فى (الرسالة) واسمه يتردد بين كتابها فى الثلاثينات . وكان أسلوبه

ومنهجه منذ ذاك الوقت ومازال يرسم أمامنا سمة العالم السمح الدقيق ، النقى العبارة والنقى السريرة على السواء . فهو معلم ينشر العلم بين طلابه سواء أكانوا فى حصة الدرس أو فى المجلة أو الكتاب كأنما هوصاحب حديقة زهور يوزعها على كل من يلقاه دون أن يطالب على ذلك أجرا .

كذلك كنت أراه من القاهرة وهو فى دمشق ، ومازلت أراه اليوم بعد أربعين عاما وقد مد الله فى عمره وماتزال آثاره منشورة فى مجلة المجمع العلمى العربى وعشرات من المجلات التى كتب بها طوال هذا الزمن . وبإلقاء نظرة إلى أعمال البيطار الكثيرة المتعددة بين التأليف والأحياء وتراه قد عمل على أن يكمل عمل السيد رشيد رضا حيث أكمل تفسيره لسورة يوسف ، وحقق ماورد فى (الربا) للسيد صاحب المنار ، وأكمل اعمال جده الشيخ عبد الرازق البيطار ، حيث أحيى (كتاب حلية البشر فى تاريخ القـــرن الثالث عشر) وألف نقد (عين الميزان)أنتصارا للأستاذه الأدنى جمال الدين القاسمى وطبعه فى حياة استاذه ، وجدد ونشر كتاب مسائل الإمام أحمد بن حنبل لتلميذه الإمام ابى داود السجستانى .

وله بحث طيب بعنوان (الثقافتان الصفراء والبيضاء) وله : الإسلام والصحابة الكرام بين السنة والشيعة ، وله مقال فى حياة حجة الإسلام الغزالى وآخر فى الاشتقاق والتعريب .

وجملة القول فى إنتاجه أنه يدور حول محورين أساسيين :

* تصحيح المفاهيم فى ضوء الإسلام .

* احياء اللغة العربية والدفاع عنها .

* وقد تقاسم عمله ثلاثة مجالات : المسجد والمدرسة والصحيفة .

وله مجالس بعد العشاء يقرأ فيها طائفة من الكتب الدينية والعقلية والعربية ، يقول (كنا نقرأ مع الأخوة كتاب الموافقات للشاطبى ، ومن مراجعنا كتاب الآمدى والمستصفى للغزالى فى أصول الفقه ، وكتاب ابن قيم الجوزية فى الرد على

المعطلة والجهمية ، ومن قبل كنت أقرأ (دلائل الاعجاز لإمام البلاغة الجرجانى) وهو عالم عامل ، فى كل ماعرف عنه ، بطبق فى حياته مايدعو إليه الناس . ويجعل مكان حياته قدوة لمن يتحدث اليهم (ما دعوت إلى التعاون فى أمر خيرى على المنبر أو فى الدرس إلا وكنت البادىء بنفسى ، على انى لا أجمع بنفسى ولا أوزع بمعرفتى وقد أعتزلت الولائم والمآدب الرسمية عملا بقول القائل :

« فلزمنا البيوت نستخرج العلم ونملأ به بطون الطروس » وكان كبار المثقفين والاعلام يردون مسجده فى صلاة الجمعة ليستمعوا اليه : أمثال الأمير شكيب أرسلان وكرد على وغيرهم فإذا اتم درسه قام معهم إلى بيته فأولم لهم مائدة طيبة .

وفى وقائع تاريخ حياته صورة الأبرار المجاهدين الذين يلتمسون رضاء الله ولاتهمهم زخارف الحياة الدنيا ، ولطالما أهدى اليه سيارة بعد سيارة فكان يهبها إلى دور البر والتعليم والإحسان ، وأهدى اليه مال كثير تبرع به لدور الأيتام والمعاهد الدينية بل سافر كثيراً على حسابه وتكلف من أجل أن يقول كلمة حق دون أن يعبأ بتكاليف السفر أو مشقاته .

وقد كانت له رحلات متعددة حفلت بها حياته العريضة (مد الله فيها) الى روسيا والولايات المتحدة وباكستان والهند مرات متعددة ، زار فيها وصلى بالناس فى مساجد طشقند ، وسمرقند فى روسيا وواشنطن فى أمريكا ومسجد لاهور فى باكستان وحضر عشرات من الندوات والمؤتمرات العالمية فى مقدمتها المؤتمر الإسلامى فى القدس سنة ١٩٣١ ، أما رحلاته إلى مكة والمدنية فى الحجاز وإلى الرياض فى نجد وإلى دمشق وبغداد والبصرة ، والكويت فقد تعددت واتصلت ، وله ذكريات متعددة عن كبار رجال عصره وفى مقدمتهم جمال الدين القاسمى وطاهر الجزائرى وعبد الرزاق البيطار يقول : حضرت على شيخنا القاسمى مع تلاميذه دروسه فى بيته وجامعه ومدرسته نحو ثلاث سنوات ندر جدا أن يمر يوم يذكر لنا فيه الأستاذ البيطار إلا ويقرر لنا فيه عظمته أو يطرفنا بنادرة مما اتفق له معه أو مع غيره ، وإذا ذكره فى الدروس فيذكره بلفظ شيخنا وكان يعده عالم الشام .

وينسب للشيخ طاهر الجزائرى الفضل الكبير فى المحافظة على ما تبقى من المخطوطات فى مكتبات دمشق العامة الموقوفة فقد أمتدت اليهاأيدى سماسرة السوء فاختلسوا الكثير منها وباعوه للأجانب بثمن بخس فعنى بها الجزائرى بكل العناية وجمعها كلها ونقلها إلى المكتبة الظاهرية وكانت للمترجم له جلسات طوال مع كل من يصل إلى دمشق من علماء الإسلام :

وفى مقدمتهم عالم تونس والجزائر : محمد الخضر حسين والبشير الإبراهيمى : سنا نجلس الساعات الطوال من ليل أو نهار ونحن مقبلون عليهما وهما ينثران على مسامعنا من دفور المباحث العالية والمطالب العالية ما بعد لباب اللباب فى كل علم وباب .

ومن نجد أن آراء علامة الشام (بهجة البيطار) غاية فى الحصافة والمرونة واليقظة فهو يؤمن بأنه (قد مضى العصر الذى كان فيه العلماء لايلتفتون لشىء خارج مساجدهم ومعاهدهم وجاء اليوم الذى يتولون فيه قيادة الأمة فى بلادهم) وهو يرى أن أساس الدين وركنه الأعظم هو كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فهو أصل الأصول ودين الرسل . وهو ينقد العلماء والمدرسين الذين يدرسون تاريخ الإسلام وسيرة النبى ـ ص ـ (ثم يغفلون عن قضية من أهم قضايا التاريخ وأشدها رتباطا بعلم التوحيد وتأثيراً فى تهذيب النشء الإسلامى بل الإنسانى الحديث وإنشائه صحيح العقل سليم الفطرة بعيدا عن لوثة وثنية أو جاهلية ، أن كل من أحاط بالسيرة النبوية وسيرة والمصدر الأول من الإسلام حبرا ، انكر أشد الإنكار ما أحدث الناس من البدع والجهالات والخرافات) ويصل العلامة البيطار إلى القول بأن النبى ـ ص ـ وقد كان مرجع الجميع فى أمور الإسلام، فإن من جاءوا من بعده صاروا يرجعون إلى ماعرفوا من سننه وهذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرأورة ومن العقل والحدس والوجدان بالبداهة ، ولكن مفسرى تاريخ المسلمين فى الأمصار الإسلامية قد قصروا فيما يجب عليهم من البيان) .

وهو يصور مهمة العلماء فى مواجهة تحديات العصر والحضارة على نحو بارع دقيق :

يقول :لا شك أن واجب العلماء هو مواجهة الحقائق التى ظهرت فى هذا العصر وبيان الحكم فى استعمال جامع ما استحدث من المخترعات إلى اليوم على قاعدة جلب المصالح للأمة ودرء المفاسد عنها أى أن تكون فتاوى العلماء الواقفين على أسراو التشريع، وكنة الزمن وحاجة الأمة ، هادية إلى حفظ وحدتها وتنمية ثروتها مع إثبات أن ذلك هو الذى يقتضيه هدى الإسلام وترشد إليه آيات القرآن ، وأن المسلمين هو أولى بالمسابقة والسبق فى هذا المضمار فاستثارة دفائن الأرض واستخراج كنوزها وعلم الزراعة وفن الرى وإقامة الجسور وبناء الحصون والقلاع هو عين ماذكره الفقهاء فى أبواب الركائز والمعادن وإحياء الموات ، وصنع الغواصات والمدرعات والجهراء هو عين ما أشار إليه القرآن (وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه) . وهو يؤمن (بأن العرب لم يكن لهم وحدة حقيقية يحافظون عليها ويدافعون عنها إلا بالإسلام الذى الف بين قلوبهم ووحد كلمتهم وعلمهم فصانوا دماءهم وحفظوا أموالهم فقلصوا ظل القياصرة والأكاسرة عنهم ذلك بأن عقيدة التوحيد التى تغلغلت فى نفوسهم وجرت فى عروقهم قد ناطت رجاءهم فى الله وحده ولما أخذ العرب بهذه العقيدة ، المثلى تطهرت عقولهم من لوثات الشرك والأضاليل فأصبحوا علماء وحكماء و (خير أمة أخرجت للناس) ظهرت على ايديهم تلك المدنية الزاهرة التى جددت ما اندرس من المدنيات الغابرة وأوجدت أصول مخترعات الأمم المعاصرة ، والإسلام هو الذى نشر لغة القرآن المظيم فى الأقطار وبلغ بأمته وبلغته مابلغ الليل والنهار) .

تلك نماذج من آراء علامتنا البيطار تهدى إلى شخصيته وتلقى الضوء على نفسيته بحسبانه واحداً من جيل الرواد فى عصرنا الحاضر .

ولد فى دمشق ١٨٩٤ م — ١٣١١ ه ودرس دراستين : مدنية وإسلامية وتعلم اللغة الفرنسية فى المدرسة العازارية دراسة خاصة على المسيو موريس الذى أسلم على يديه وأصبح يدعى (عبد الله الريحانى) .

وتلقى العلوم الدينية والعربية والعقلية على والده الشيخ بهاء الدين وعلى جده عبد الرازق البيطار واستاذه حمال الدين القاسمى وعلى محدث الشام بدر الدين الحسنى والشيخ محمد الخضر حسين ، وبذلك جمع الفضل من أطرافه ،، واستصفى عصارة فكر اعلام عصره ، وعمل منذ مطالع شبابه معلما فى المدارس الثانوية فالكليات العالية وكان كثيراً مايختار لمعاهد البنات لحسن خلقه ونبله ، وكانت العلوم التى يعنى بتدريسها :

١ — تاريخ الأدب العربى والإنشاء والخطابة .

٢ — علوم الدين والتوحيد والفقه والتفسير والأخلاق والحديث .

٣ — اللغة العربية .

وقد أدار المعهد العلمى السعودى بمكة خمس سنين ، لم ينقطع خلالها عن قراءة الدرس فى الحرم المكى فى مكة والحرم النبوى فى المدنية ، وعمل عضوا فى محكمة مكة الشرعية ، ومفتشا للعلوم العربية فى مدارس الحجاز (١٩٢٦ — ١٩٣٠) ومدرسا فى المسجد الحرام .

يقول : خدمت فى القضاء ورئاسته تطوعا ولم اقضى فيه بشىء ، ولم اتقاضى منه اجراً وآثرت مرتب التعليم عليه وهو نصف مرتب القضاء .

وتولى التدريس فى جمعية المقاصد الإسلامية فى بيروت وجمع بينها وبين العمل فى تجهيزية دمشق وخدم فى العاصمتين (كنت أسافر إلى بيروت أصلى الجمعة وأعود منها مساء الثلاثاء فى كل أسبوع) وتولى التدريس فى الكلية الشرعية فى دمشق كما تولى تفسير القرآن الحكيم من الوجهة الأدبية فى دار المعلمين العليا ثم فى كلية الآداب ثم فى كلية الشريعة .

وانتخب عضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق عام ١٩٢٣ ثم عمل عضوا فى مجمعى القاهرة وبغداد وإنشاء (دار التوحيد) بمدينة الطائف وأقام بها ثلاث

سموات ، وكان والداه يسار وعاصم عونا له فى الإدارة والتعليم كما حل مكان والده فى جامع محلة القاعة فى حى الميدان بدمشق ، أماماً وخطيبا ومدرسا .

وهكذا عاش — أطال الله عمره — حياة خصبة عريضة فى خدمة الفكر الإسلامي واللغة العربية فى مجال الكتابة والتدريس والخطابة متابعا على نفس الطريق اعلام الإصلاح والتجديد فى الإسلام ومازلنا نتطلع إلى مزيد من أعماله وآثاره النافعة ، حفظ الله .

عبد الله كنون

وليس أعظم شرفا لصحف الشرق العربى ، من أن تحمل لواء ذلك التلاقى الكريم والتعاون الخصب بين مشرق الأمة العربية ومغربها ، فترتبط بين جناحى العروبة ، فتقدم اليهم علما من أعلام المغرب فى مجال الأدب والثقافة نبراسا على ذلك اللقاء المتجدد والرباط الوثيق ولقد كان من أقسى ماحاول الإستعمار إبان مرحلة الاحتلال أن يقطع الصلات ، بين مشرق الأمة العربية ومغربها ، وأن يذيع من الشبهات ما يحاول الادعاء بأن الأدب العربى هو أدبهم وحدهم ، متجاهلين جناح الأمة العربية التمثل فى الجزائر والمغرب وتونس وليبيا .

بل لقد حفلت كتب الأدب بأخطاء كثيرة تحاول أن تركز على النبوغ فى الأدب العربى على المشارقة وحدهم ، فى ادعاء روجه بعض المستشرقين وخصوم الأمة العربية بأن المغاربة يتقدمون فى الفقه ويتخلفون فى الأدب ، وكانت هذه فريسة مبطلة ، تصدى لها علامتنا « عبد الله كنون » وجرد لها قلما بارعا وتراثا حيا ضخما يكشف عن اصالة جناح الأمة العربية المغربى من أعلام ونوابغ فى مختلف ميادين الأدب والبلاغة والنحو والبيان .

ومن هنا ، من خلال ذلك العمل الضخم الذى بدأه ذلك العلامة فى الصحف والتأليف ، أعطى الأدب العربى المغربى مكانته ووقف المشارقة على مدى ماقدمه من نتاج خصب بالغ الجودة ، عظيم الأثر :

ذلك هو التحدى الخطير الذى تجرد له « كنون » منذ أوائل الثلاثينات والذى أثمر ثمرتين من أضخم الثمار .

١ — موسوعة (النبوغ المغربى العربى) .

٢ — موسوعة (ذكريات مشاهير المغرب) التى بلغت أكثر من أربعين جزاء فى الترجمة لرواد فى مختلف مجالات الدراسات العلمية والعقلية .

أما (النبوغ المغربى فى الأدب العربى) الذى صدر لأول مرة عام ١٩٣٨ فقد أحدث ضجة كبرى حتى قامت السلطات الإستعمارية فى المغرب بمصادرته لأنه يدحض شبهة من أضخم الشبهات التى اذاعها الإستعمار فى العالم العربى كله ، وقد توجه الكاتب بالحديث فيه إلى كتاب المشرق الذين الفوا فى الأدب العربى وتجاهلوا المغرب ، بينما كان المغرب يولى وجهه دائما نحو المشرق ويتطلع إلى مكة والأزهر، وكان الأدباء هنا — فى ظل ظروف الإستعمار الذى فرض على المشارقة : الإقليمية ، فى الوظنية وفى الأدب جميعا ، وحال طويلا بينهم وبين اللقاء العربى والوحدة العربية ، وفى هذه السنوات كانت أصوات الأدب الاقليمى تعلو فى كل بلد عربى ، وكان المغرب مقفل فى وجه المشارقة ، فلا يعرفون عن إنتاجه القديم أو الحديث إلا القليل . ومن هنا كانت صيحة العلامة كنون (تصحيحا) لهذا التحريف الذى فرضه الإستعمار على المشرق والمغرب جميعا ، ولقد تصدى علامتنا للشبهة فذهب ينقب فى التراث المغربى حتى استطاع أن يقدم فى أكثر من (ألف صفحة) عن ميراث المغرب فى مجال الأدب المغربى ووضع بين ايدى الباحثين أسانيد حافلة بالتقدير .

ولقد كان هذا العمل شاقا — على حد تعبير الأستاذ عبد الكريم غلاب — أن يقوم به شخص بمفرده، نظراً لتعذر وجود المطبوع ومشقة البحث عن المخطوطات المبعثرة هنا وهناك ، ولكن (كنون) جهد فى الاستنباط والأستقصاء والكشف عنها إن وجدت ، حتى استوى له من البحث صورة حية ، تحطم تلك المقولة التغريبية الرامية إلى أن المغرب مغرب الفقهاء ، وتكشف بوضوح كيف ساهم المغرب فى كل ضروب الأدب ، شعرا أو قصة أو بحثا .

وفعلا تحطمت تلك الفرية التى قالت أم المغرب لم ينتج شاعراً ولا مؤرخا ولا كاتبا ، وبعد أن كتب الأستاذ (كنون) كتابه لم يعد فى وسع أحد أن يتجاهل الشخصية الأدبية العربية المغربية ، هذه الشخصية التى تجتمع مع المشارقة فى أعمق أعماق التراث اللغوى والدينى والفكرى ولكنها تتسم بطابع من الدقة العلمية والبراعة الفنية تكشف عنها أسماء كثيرة فى مقدمتها المؤرخ الكبير : ابن خلدون .

وتمثل أهمية هذا الكتاب (النبوغ المغربى) الذى جلى هذه الحقيقة فى عبارة الأمير شكيب ارسلان عنه حين قال « كنت أعد نفسى من بين المشارقة ، الرجل الذى أطلع أكثر من غيره على تاريخ المغرب وأهله وأنعم النظر فيما يتملق بثقافته وسياسته وسائر شئونه ، ولكننى رأيت نفسى بعد أن طالعت هذا الكتاب الصغير حجمه الكبير قدره كأنى لم أعلم عن المغرب قليلا ولا كثيراً ، وكدت أقول أن من لم يطلع على هذا الكتاب لا يحق له أن يدعى فى تاريخ المغرب علما ، ولا أن يصدر على حركاته الفكرية حكما ، وكما قيل فى كتاب (نفح الطيب) للعلامة المقرى : من لم يقرأه فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمى والأدبى والسياسى ، بل هذا الكتاب فى موضوعه أجدر بالإطلاق الشامل من نفح الطيب فى موضوعه » .

وفى مقدمة كتاب (ذكريات مشاهير رجال المغرب) يقول العلامة كنون: أن هذا الكتاب يعطى الصورة الحقيقة للمجهود الكبير الذى بذله المغرب فى سبيل اثبات شخصيته والمحافظة على كيانه أمام المؤثرات القومية التى حاولت مرارا أن تمحوه من صفحة الوجود ، ويكاد يكون كتاب الذكريات تتمة لكتاب النبوغ فى ميدانه .

وللأديب الكبير : آثار شتى منوعة ، فى الأدب والإسلاميات واللغة ، منها كتبه : (التعاشيب) ، (خل وبقل) ، (واحة الفكر) ومن كتبه التى صدرت أخيراً « أدب الفقهاء » وذلك بالإضافة إلى كتابه (مفاهيم إسلامية) .

وله فى مجال الشعر تراث خصب وأكثر من ديوان : وفى قصائده شفافية وفى نظمه أصالة ورقة ، فقد ضرب فى كل فنون الشعر بنصيب ، وهو شعر على حد تعبير (على الصقبى) فيه من القديم الأصالة والقــوة ، ومن الحديث الجزالة والعذوبة .

وأسلوبه فى الكتابات النثرية يمتاز بصفاء العبارة وسلامتها من العجمة وهى تمثل للأسلوب العربى المغربى الحديث .

وللأستاذ كنون تاريخ طويل فى مجال البحث والتأليف ، وهو إلى ذلك عضو بارز فى مجمع البحوث الإسلامية ومجمع اللغة العربية فى القاهرة وفى دمشق .

وقد أصدر مجلة (لسان الدين) عام ١٩٥١فأنشأ بها لونا جديداً من الصحافة الأدبية الإسلامية وعلى مجلته هذه ومؤلفاته نشأ جيل يتصدر الثقافة والصحافة فى المغرب اليوم فى مقدمته الدكتور محمد عزيز الحبابى الذى أطلق عليه فى مهرجان التكريم الذى اقيم فى الرباط عاصمة المغرب :« استاذالجيل» وقال عنه أنه الشخص الذى أثرت كتاباته فى أذهاننا ، والذى أغنى المكتبة المغربية بما يشرفنا ويشرف أدبنا ويعلى من شأنه فى الداخل والخارج . وبمن يزودنا بالمادة الخام سواء لطلاب الجامعة أو لغيرهم من القراء » .

ومن تلاميذه نقيب الأدباء والصحفيين فى المغرب الصديق الأستاذ عبد الكريم غلاب يقول :

ترجع معرفتى بأستاذنا كنون إلى أول عهدى بالقراءة ، فقد فتحت مجلة « السلام » لأجد صورة لأستادنا ومعها بحث عن شاعر من شعرائنا المغمورين ، فالتهمت المقال ، ولم أفهم منه إلا صورة باهتة المعانى عن الموضوع الذى طرقه ولكننى تتبعت الأستاذ كنون بعد ذلك فعرفت فيه الباحث المحقق ،والمنقب الأمين عن رجالات المغرب والمبرز للنهضة الفكرية والعلمية فى بلادنا ، وكان العمل شاقا أن يقوم به شخص بمفرده وخصوصا فى تاريخنا الأدبى عمل عسير المنال .

وفى المشرق عرفنا العلامة الكبير وقرأنا له ، وحضرنا دروسه فى معهد الدراسات العربية ، وكان له فضل الإتجاه بإنشاء دراسة مطولة (عن الفكر والثقافة فى شمال أفريقيا) رددنا بها للمغرب بعض الدين ، الكبير الذى يدين به المشرق حبا وإيمانا وتطلعا ، وانى لأ ذكر حين بدأت إعداد هذا البحث ، كيف تفضل فأهدانى عشرات من الكتب والصحف والمجلات حتى أغنى بحثى وأنا مقيم فى القاهرة لا يتيسر لى الإطلاع على مثل هذه الوثائق إلا بالرحلة الطويلة والبحث المجهد .

ولقد كان ولا يزال العلامة كنون ، رمزاً حبيبا للمغرب فى قلوب الأدباء والباحثين فى مختلف أقطار العالم العربى ، بسماحة وجهه وكريم خصاله ، ونبل

مقالته ، وذلك الإيمان الصادق الغامر بقيم العروبة والإسلام وترابطهما وذلك البحث الحثيث عن مفردات التراث وخدمة الكلمة العربية والحرف العربى، خدمة لاتتوقف ولا تفتر حرارتها ولا يضيع عبقها .

وحياة العلامة الكبير تجمع بين مراحل الوطنية وعلامات الفكر ، فقد كان واحداً من المناضلين فى معركة المغرب فى سبيل الحرية ووزيراً من وزراء الحركة التى حملت لواء الدفاع عن عودة جلالة الملك محمد الخامس ، حاكما لتطوان ، وهو إلى ذلك الأمين العام لجمعية العلماء ، وصاحب مجلة الميثاق ، والقاسم المشترك الأعظم على جميع المجالس العلمية للفكر واللغة والثقافة وممثلا للمغرب فى مؤتمرات العالم الإسلامى ، فى الباكستان وماليزيا وطشقند والحجاز .

ثم هو إلى ذلك أديب كاتب يشهد دوره بعظمة ما قام به وما يقوم ، تأثراً بكتابات الإمام عبد الحميد بن باديس وبرجال الثورة العلمية الإسلامية فى المغرب (الدكالى ، وابن العربى) وكان جده واحداً من هؤلاء المجددين ، وهم ينسبون نهضتهم إلى حركة الشيخ محمد عبده ومنار السيد رشيد رضا ويربطون أنفسهم باليقظة الإسلامية التى حملت اسم دعوة (التوحيد) فى الجزيرة العربية كما تأثر بمؤلفات فريد وجدى ومصطفى الغلايينى إلى كتابات جمال الدين ، ومحمد عبده ورشيد رضا ورفيق العظم وكرد على .

وهو يرى : أن رسالة الأدب العربى رسالة مقدسة يجب ألا تقتصر على الأغراض اللفظية ، ولا على المتعة الذهنية ولا على المعانى الذاتية التى لا يشعر بها إلا الأديب المتكلم نفسه ، ومهمته الهدم والبناء ، والعمل الجماعى المؤدى إلى الغاية التى أدت إليها رسالة النبيين من قبل : غايته فتح الآذان الصم والأعين العمى ، والقلوب الغلف .

وقد آمن منذ مطلع شبابه إلى (التمهيد والتمكين للغة الضاد وآدابها خشية أن تجرفها الرطانات الأجنبية المختلفة) .

ويرى العلامة كنون : « أن علينا أن نوجه إهتمامنا إلى المعانى والمقاصد ،

لا إلى الألفاظ والقوالب ، فإن مما درجنا عليه أن ندرس الأدب للمتعة لاللتوجيه ، ويقول : قد آن لنا أن نسقط من الأدب العربى كل نص لايؤدى مهمته فى تثقيف فكر أو تغذية عاطفة أو بعث روح فى شبابنا الطموح ، ومن ذلك أدب المجون والاستجداء ، والحيل اللفظية المسماة بالمحسنات البديعة ، ويرفض تقسيمنا الذى يقسم الأدب علي أساس الأقاليم والعصور ، ويرى أن ذلك جناية على وحدته .

وقد صور الأستاذ كنون معالم الأدب العربى فى المغرب فقال أنه أدب قوامه الإسلام والوطنية والعروبة وأنه مرتبط بالأمجاد العربية المتصلة بالأندلس ، وأنه حمل أمانة الأمة العربية قرونا طويلة فى وجه الغرب المهاجم ، وحفظ ذلك التراث وحماه حتى رده مرة أخرى إلى الأمة العربية ، وأنه أدب يفوق غرض الاستعمار فى تمزيق أهل المغرب إلى عرب وبربر ، كما يقاوم إتجاه التغريب فى تعميم العامية للقضاء على الفصحى أو تعميم الفرنسية للقضاء على العربية .

وفى مجال الدراسات الإسلامية يعطينا (كنون) نتاجا طيبا ، وفكرا مجددا فهو يرى فى كتابه (مفاهيم إسلامية وقد لخصناه عام ١٩٦٦ فى مجلة الشبان المسلمين) : أن كل حركة تحريرية قامت فى العالم الإسلامى كان أساسها الإسلام ، وأن الإسلام يقر التجديد وأن هذا التجديد يتمثل أولا فى المحافظة المتبصرة على القواعد والأصول ثم فى التقديم اللائق بسمو هذه القواعد والأصول وعظمتها والتكيف بروح العصر ومقتضيات التطور الحديث ، لا فى التغطية على الآثار وطمس المعالم والمنارات .

ويرى أن المسلمين جميعا رجال دين وليس فى الإسلام (إكليروس) وأنه لا يجوز فى الإسلام تقديس أحد من الناس وجعله فوق النقد والانقياد اليه بلا حجة واضحة .

وفى كتابه الأخير (أدب الفقهاء) يحاول الأستاذ كنون كعادته أن يقدم تصحيحا لقضية طال حولها الخلاف وأصطرعت الآراء ، وقد جرى القول بأن الفقهاء لايجيدون فى مجال الأدب. ولذلك ـ ولسوء قصد ـ استبعدت آثارهم من دراسات الأدب العربى الحديث ويقول الكاتب :

أن إطلاق الكلام إلى حد إرسال المثل بضعف أدب الفقهاء لايوافق الحقيقة ، وفيه تحامل كبير على هذه الطبقة من رجال الفكر وحملة القلم ، وأن بعض الفقهاء كثيرا ما يتساهلون فى أساليبهم العلمية لقصدهم إلى عموم الفائدة وتقريب المعنى إلى الطلاب وهذا ليس من الحق أو يؤخذ به جميع أفراد هذه الطبقة ويعمها حكمه .

أن أدب الفقهاء حى معبر لايقصر عن أدب غيرهم ممن ليسوا بفقهاء أن التهم التى توجه بالضعف والتخلف حتى جعلته مثلا مضروبا لكل أدب بارد سخيف، هى تهم باطلة فيها كثير من التجنى والظلم .

أن منشأ التساهل ما يقع فى أثر العلماء ، إنما يقصدون به النفع والتفهيم بأقرب الطرق وأسهل العبارات وليس ذلك عن عجز ولا قصور ، وقد استطاع العلامة كنون أن يكشف الستر عن طائفة عريقة من آثار الفقهاء تشمل الشعر الوجدانى من الطبقة الرقيقة، والشعر الفلسفى الذى يتناول مطالب النفس العليا ويتحدث عن الروح وعالمها الفسيح ، وعن الأخلاق والآداب ، إلى مثل شرعية وسياسية ، يقول « ويمدح الفقهاء ، ويرثون كغيرهم من الادباء وربما هجوا ولكنهم لا يتخذون ذلك حرفة كما يفعل غالب الادباء » .

من الفقهاء الذين أورد لهم أدبا رقيقا:الشافعى وابن حزم وعبد الله بن المبارك وأبو بكر بن العربى والقاضى عياض والزمخشرى وغيرهم كثيرون وبذلك رد أعتبار مجموعة من الأعلام البلغاء الذين انكرهم رجال الأدب .

هذا هو عمله الجديد الذى وصل إلى أيدينا ، وله دراسة أخرى لم تتم بعد ـ ولعلها قد تمت ، وتلك هى ملاحظاته على أخطاء (قاموس المنجد) وما فيه من تحريف ، وما زال الأستاذ الجليل صاحب الوجه الصبوح والقلم الكريم ماضيا فى رسالته ، أطال الله عمره ونفع به .

ويتمثل نشاط العلامة عبد الله كنون فى ميادين عدة :

فهو عضو فى مجامع اللغة العربية فى القاهرة ودمشق ، وعضو فى رابطة العالم الإسلامى بمكة . وعضو فى مجمع البحوث الإسلامية فى القاهرة .

وهو يولى رابطة علماء المغرب إهتماما كبيراً فهو أمينها العام ولها جريدة تصدر نصف شهرية هي (الميثاق) يشرف عليها ويوجهها . وتعقد الرابطة مؤتمرا سنويا يكون له صدى كبير ويحضره أكثر من مائتى عالم واستاذ بهدف مقاومة الفرنسة والتخريب والغزو العثمانى ، ويولى الرابطة إهتماما بالغا بتعريب مناهج التعليم وتحريرها من الاحتواء الغربى وقد كان لهذه الجهود أثر بالغ فى تثبت كيان جامعة القرويين وإنشاء دار الحديث يلتحق بها الحاصلون على العالمية أو ليسانس جامعة القرويين للتخصص فى الدراسات العليا .

طاهر الزاوى

أن فضل الرواد الذين قدموا لامتنا أضافات بناءة فى مجال الفكر والأدب والتاريخ لاينسى مهمابعد العهد ، أو حالت الحوائل ، وستظل هذه الأسماء الجادة التى عملت فى صمت سنوات طوالا منارات سابقة لايستطيع الغيام الذى يحجب السماء حينا أن يخفى ضؤها وعلامتنا « طاهر الزاوى » الايذكر اليوم بعد أن أختارته الثورة الليبية مفتيا للجمهورية العربية الليبية ولكن فضله المقدور كان موضع اعتراف الباحثين منذ وقت بعيد . ويكفى أن يضاف جهده إلى جهود اعلام البحث فى اللغة والتاريخ حين يذكر كتاب واحد من كتبه — وهى عشرات الكتب — ذلك هو : ترتيب القاموس المحيط » الذى ظل يعمل فيه منذ عام ١٩٣٨ حتى أخرجه عام ١٩٥٩ ، أى أنه أمضى فى ذلك العمل الضخم الذى بلغ أكثر من ثلاثة آلاف صفحة ؛ فمن ذا الذى يصبر على عمل علمى ضخم أكثر من عشرين عاما ، وهو عمل ليس وحده مشغله يومه ، ولكنه اضافة على جهد الرزق والعمل الرسمى المنوط به وهذا يعنى بالضبط أن علامتنا أمضى هذه الفترة من العمر دون أجازة أو راحة وإنما هو يقذى عيونه تحت أضواء المصابيح ليله كلة فى سبيل تيسير ذلك العمل الضخم الذى قدمه العلامة الفيروزيادى إلى العالمين يوم قدم قاموسه المحيط ، وأقامة على ذلك النحو الشاق من تخريج الكلمات ، فقد نحا الفيروزيادى فى قاموسه منحى جعل من العسير على كثير من طلاب اللغة امكان البحث فيه والوصول إلى بغيتهم ذلك أنه اعتمد فى ترتيبه على اعتبار الحروف الاصلية للكلمة ، واهمل الحروف الزائدة ، وزاد فى صعوبة هذه الطريقة أنه رتب مواده على آخر حروف الكلمات حديث تكثر الحروف الزائدة ويصعب على غير المتخصصين بلوغ غايته ، ومثال ذلك أن الفيروزبادى يضع « يوسف مثلا فى » أ ش ف « وإسرائيل فى » (س ر أ) وفيروزياد فى « فوز » . فأتى للطالب أن يدرك أن « سيد » فى « سود » وأن السنة « العام » فى « و س ن » ، فأذا

حاول الباحث معرفة هذه الكلمات فأول مايخطر بباله البحث عنها فى الأبواب إلى تتفق مع آخر حرف من حروفها فيبحث عن « إسرائيل » مثلا فى باب « اللام » ويوسف فى باب « الفاء » .

هذه هى عقدة قاموس المحيط التى حاول العلامة طاهر الزاوى أن يحلها وأن ييسر للباحث أن يصل إلى الكلمة من أقرب طريق :

يقول : « القاموس المحيط للفيروزيادى من أصح ما ألف فى اللغة العربية نقلا وأدقها وصفا واوسعها مادة ومنذ أن صدر عن مؤلفه سار فى الناس ذكره واعجبوا به حيث تدارسوه فى كل مكان وهو لازال محل الأعجاب محتفظا لنا فى اطوائه بما تفخر به من تراث أجدادنا العرب ونسجلة فى صفحات امجاد لغتنا الخالدة . وكان صاحب القاموس فى قدرته الأختصار وتأدية المعانى الكبيرة بالألفاظ القليلة مضرب الأمثال بين علماء اللغة » .

ثم يصور تجربته فيقول : وقد ظهر لى أن القاموس يكون أكبر فائدة لطلاب العلم ويكون اقبالهم عليه أشد إذا ازيلت عنه هذه الصعوبة وقدم اليهم فى ثوب جديد بحيث يرتب على حروف أوائل الكلمات كما درج عليه بعض المؤلفين واعتبار حروف الكلمة المنطوق ، لا فرق بين زائد واصلى ، وبذلك يتسهل الوصول إلى ماقصدوا إليه فى سهولة ويسر ، ولم يصل إلى علمى أن أحدا حاول هذه الطريقة بالنسبة للقاموس وقد وجدت فى نفسى رغبة فى القيام بها مع اقتناعى بأنها من أحسن مايسهل على طلاب العلم الاستفادة من هذا الكتاب القيم الجليل فاعتزمت الأمر منذ عام ١٩٣٧ وشرعت فى ترتيبه على غرار المصباح المنير للفيومى وأساس البلاغة للزمخشرى ، وغيرها من كتب اللغة ، ولا شك أن ترتيب الكلمات علي الحروف الأوائل منها يقلل كثيرا من صعوبة الأهتمام بالتمييز بين الحروف الزائدة والآصيلة » . ويقول : « وجعلت الحرف الأول من الكلمة هو الباب وبه تبدأ كل مادة فى الباب ، وثنيت بالثانى ثم الثالث علي ترتيب النطق بها ولم أفرق بين زائد واصلى » *

ذلك هو العمل الضخم الذى أضنى علامتنا أطال الله عمره عشرون عاما مما دفعه أن يسجل ذلك صراحة حين يقول . « وقد لاقيت فى ترتيب القاموس عنتا

مضنيا فى مدة تقارب عشرين سنة انهزت فيها الكثير من أوقات فراغى وارجو أن يكون هذا العناء شافعاً لى لدى من عثر على نقص أو ما يستحق الاصلاح » .

ولم يتوقف عمل الأستاذ الزاوى عند هذا الحد بالنسبة للقاموس ولكنه عاد فاختصر هذا العمل فى مجلد واحد وقربه إلى الباحث الذى ليس لديه من الوقت مايجعله يبحث فى المطولات فقدمه اليه تحت عنوان « مختصر القاموس » مرتبا على طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير عام ١٩٦٤ وعنى بأن يكون مقتصرا على متن اللغة ممايتصل بالمسائل العلمية وضبط الكلمات والأفعال واختيار الكلمات القريبة إلى فهم الغالب ومتناول الجميع ؛ يقول : « درجت فى طريقة اختصارى على الاكتفاء من المواد الطويلة بالمتعاوف فى الاستعمال ليفهم القارىء صحة أو خطأ ما استعمله المجتمع من ألفاظ » .

ومن الحق أن يقال أن هذا العمل الذى استمر منذ عام ١٩٣٩ إلى ١٩٦٤ دون توقف، مما تنؤ به العصبة أولو القوة ، وهو من جهاد المجامع اللغوية ومن كدها ، تلك التى يشترك فيها عشرات من العلماء فتلك عزيمة عربية إسلامية تعطى مظهر شخصية ذلك العلامة المتواضع السمح الذى عاش فى مصر خمسا وأربعين عاما وهو فى شغل بالتأليف والبحث لا يرى إلا ذاهبا إلى دار الكتب باحثا عن المخطوطات النادرة أو إلى المطبعة لمراجعة تجاربه أو قابعا فى بيته يعمل فى صمت وايمان ، فلما كنا نراه نشم عبير العلم ونرى جلاله على وجه سمح كريم عميق الايمان بأمته ولغتها وتاريخها وكأنما قد تجرد لمثل هذا العمل فلم يكتف بعمله فى مجال اللغة ، بل عمد على دراسة تاريخ ليبيا وجهاد أبطالها فأخرج فى هذا المجال :

١ — معجم البلدان الليبية — ١٩٦٨ .

٢ — جهاد الأبطال فى طرابلس الغرب ١٩٥٠—١٩٥٢ .

٣ — أعلام ليبيا .

٤ — تاريخ الفتح العربى .

هذا فى مجال التأليف ، وفى مجال التراث حقق عددا من الكتب النافعة أهمها :

١ — التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان لها من الأخبار تأليف أبو عبدالله محمد بن خليل غليون .

٢ — الكشكول — تأليف محمد بن حسن بن عبد الصمد الملقب ببهاء الدين العاملى .

٣ — ديوان البهلول — نظم أحمد بن حسن بن أحمد بن محمد البهلول « من الأدب الليبى » .

٤ — المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب — تأليف أحمد النائب .

وهكذا تتمثل صفحة الشيخ طاهر الزاوى حافلة بالعمل ، والاضافات البناءة . للادب والتاريخ واللغة ، وكان همه تغطية الجوانب التى لم تستكمل .

كان يثيره أن يرى جانبا ناقصا أو جانبا محرفا ففى كتاب تاريخ الفتح العربى فى ليبيا يقول : أن من أمجادنا مايزال محجوبا بما تراكم عليه من غبار الماضى البعيد ، وتلأليل الاوروبين ، وإذنابهم من أنصار المستعمرين وأصحاب الأغراض الدنيئة ويتحدث عن العرب فيقول : لقد كان لهم من أعمال البطولة فى مشارق الأرض ومغاربها مالم يحفظ التاريخ مثله لغيرهم من امم الدنيا ، ومن هذه الأمجاد ، وتلك البطولة ذلك الفتح المبين والنصر المؤزر الذى احرزوه فى الشمال الأفريقى فى السنة الثانية والعشرين من الهجرة .

وأشار إلى مايتعلق بطرابلس من فتح العرب فقال أنه ظل مبعثرا فى بطون الكتب مما يحتاج معه إلى جمع وتنسيق وتحقيق وهذا ماقام به « كفاء لما لطرابلس علينا من فضل التربية وحقوق الأمومة وقياما بواجب وطنى) .

ومن هنا فقد عمل على النحو الذى صوره حين قال « رجعت إلى كل كتاب علمت أنه يتصل بالفتح العربى فى ليبيا » .

هذه واحدة ، أما الأخرى فيكشف عنها كتابه جهاد الأبطال : يقول :

« كان يسؤونى من المتطفلين على التاريخ أن يتجاهلوا جهادنا أو ينسبوه إلى غيرنا ، فكنت أقابل ظلمهم بالصبر وألتمس لهم العذر فيما جهلوا ريثما انتهى من جمع هذا التاريخ الحافل بجلائل الاعمال ومصادمات الأبطال ، ثم أقول لهم هاؤم اقرأوا جهاد الطرابلسيين » .

ويصور تجربته فى هذا العمل وهى قاسية مريرة أيضاً : « سلخت محجة من عمرى زهاء عشرين سنة وما سمعت بحادثة إلا قيدتها ولا وقع نظرى على مسألة إلا نقلتها وما اجتمعت بعد الهجرة « بقصد الهجرة إلى مصر وقد تمت عام ١٩٢٤ » بذى شأن من الطرابلسيين ممن لهم صلة بالحرب وإدارتها إلا رويت عنه وناقشته فيما يتعارض مع رواية غيره ولا سمعت بحاكم منطقة أو رئيس إدارة إلا أخذت عنه ماوسعنى أخذه » .

وقد صدر كتاب جهاد الأبطال عام ١٩٥٠ أى بعد مرور ربع قرن على الهجرة والأحداث التى شارك فيها علامتنا الذى كان واحدا من أبطال هذا النضال فى مطالع الكتاب يقول : رويت عن أحمد السويحلى وعبد الرحمن عزام وعين سوف ، والتهامى قانصية ، ومختار كعبار ، والسيد محمد العيساوى أبو خنجر ، وعبد السلام المويض وغيرهم كثير من المجاهدين ومارويت عن يخامرنى فيه شك أو رواتيه تخالف من هو أوثق منه عندى . وكانت مشاهداتى من أكبر العوامل التى شجعتنى على الكتابة فى الحروب الطرابلسية ، فقد شهدت أول الأحتلال قرب صلح (أوشى) ومالم أشهده كان يقع على مسمع منى فكنت أذكره لمجرد سماعه » .

ويقول : اعتقد إنى وضعت لقومى مايصلح أساساً للبناء عليه فى مستقبل الايام.

نعم ، من الحق أن يقال أن علامتنا أكمل الناقص وصحح المحرف ومن الحق أن يقال أنه عاش أيام هجرته فى القاهرة وعينه على ليبيا خلال الفترة من ١٩٢٤—١٩٦٩ ، تاريخها وأبطالها وأحداثها ومدنها ، وأنه كان يجد لذة فى

معايشة هذه البحوث التى تشده بالروح والخاطر والفكر إلى أرض الاجداد ، وإلى أرض الأمجاد الاشاوس الذين فجروا الثورات فى وجه الإستعمار دوما ، وقد مد الله فى عمره حتى عاد إلى الأرض الحبيبة التى ذكرها فى حنان ، وأهلها الذين مافتىء يقدم لهم ثمرات علمه .

وإذا كان من حق علامتنا وأستاذنا أن نكتب عنه اليـــوم فإننا مانسينا الإشارة إلى آثاره عندما أصدرنا عام ١٩٦٥ كتابنا « الفكر المعاصر فى شمال أفريقيا » .

فقد قلنا بالحرف فى صفحة ٢٨٩ ونحن نتحدث عن الدراسات التاريخية الليبية :

« ومن أبرز من خدم دراسات الفكر والآدب والصحافة والتاريخ فى ليبيا : الشيخ طاهر الزاوى ، فقد ألف عديدا من الآثار فى مقدمتها : اعلام ليبيا وجهاد الأبطال . وكشف فى كتابه (أعلام ليبيا) عن حملة الأعلام الذين جاهدوا فى مقاومه الإستعمار ومنهم من مات كمدا من ظلم الإيطاليين وجورهم ، ومن التحقير والأهانة التى تلحقة ، ولا يستطيع لها دفعا ، ومنهم رجال عاهدوا الله على الدفاع عن الوطن وقتال الأعداء فصدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فقتل منهم عشرات ومئات بنيران المدافع وحبال المشانق ، وفازوا بالشهادة ومن لم يكتب له الشهادة هاجر بعد أن رمى فى ميدان المعركة بكل مايملك من مال ورجال ومات غريبا عن وطنه وكان يتمنى لو أتيحت له الفرصة ليعود فيحظى بالشهادة كما حظى بها إخوانه من قبل » .

إلى آخر ما أوردناه فى ذلك البحث ، وقد كان علينا أن نكمل ذلك البحث عن رجل قدم عصارة عمره للإسلام واللغة العربية والتاريخ وليس ذلك غريباً على من له مثل علمه وحزمه منذ التحق بالأزهر الشريف عام ١٩١٤ وأخذ عن أسذته محمود خطاب محمد الشريقى ، الدسوقى العربى ، علي الجهانى

المصراتي ، ثم رجع إلى طرابلس ١٩١٩ مشاركا في الجهاد حتى عام ١٩٢٤ حيث تغلب الطليان في ذلك العام على طرابس فهاجر إلى مصر كرة أخرى والتحق بالأزهر ونال الشهادة العالية عام ١٩٣٨ ومضى في أبحاثه ودراساته التي أثرت المكتبة العربية ، ومازال ننتظر منه اتمام كثير من الابحاث التى كان قد بدأها راجين أن لا تشغله مسئولياته الجديدة عن دوره العلمى وأثره الأبقى .

الباب الثاني

مدرسة المفكرين

---

١ — صلاح الدين السلجوقي .
٢ — دكتور هيكل .
٣ — مالك بن نبي .
٤ — محمد عبد الله العربي .
٥ — محمد جميل بيهم .
٦ — محمد عزه دروزه .
٧ — عمر رضا كحاله .
٨ — علي علي منصور .
٩ — علال الفواسي .
١٠ — محمد اقبال .
١١ — فريد وجدي .
١٢ — مبشر الطرازي .
١٣ — مصطفى صبري .

صلاح الدين السلجوقى

كان السيد صلاح الدين السلجوقى علامة أفغانستان وفيلسوفها الإسلامى الكبير بعد نفسه من تلاميذ جمال الدين وخلفائه ويتابع نهجه فى الفكر والبحث ، ويربط فكره به ، بل لعل مولد السلجوقى قريباً من العام الذى توفى فيه جمال الدين الأفغانى (وقد توفى جمال الدين ١٨٩٧) كان يمده دائماً بذلك الفيض من الألتقاء والمتابعة والإعجاب الباهر .

وقد أختتمت يوم ٩ ربيع الآخر ١٣٩٠ (١٤ يونيه ١٩٧٠) حياة هذا العلامة الذى كان من أبرز العاملين على الربط بين العروبة والإسلام وبين الأفغانى والأمة العربية ، ومن الداعين إلى أحياء مفاهيم الإسلام وقيمه والاعجا باللغة العربية وحبها ودعم العلاقات بين أجزاء الوطن الإسلامى — ليس على مستوى السفراء والعمل السياسى وحده — وإنما عن طريق ذلك اللقاء الفكرى والروحى الأدبى القائم بين أجزاء العالم الإسلامى بوصفها أمة واحدة يجمعها فكر موحد هو الفكر الإسلامى المستمد من القرآن الكريم .

وقد أمضى (صلاح الدين السلجوقى) حياة عملية نشطة فقد تولى منصب الافتاء فى هرات وعمل أستاذا فى كليتى الحبيبة والمعلمين فى كابل ، ثم عمل مديرا للمعارف فى هرات ثم سفيراً لبلاده فى نيودلهى وكراتشى والقاهرة ، ثم كانت له مشاركاته الواسعة فى أعمال المجمع اللغوى والمجلس الاعلى الإسلامى ، وعدد من الهيئات العلمية خلال فترة أقامته فى القاهرة ، ويبدو أن هذه الفترة كانت خصبة فقد كتب فيها السلجوقى عددا كبيراً من الدراسات وتناول أبعاد الفكر الإسلامى فى اتصاله بالحضارة والعصر على نحو بالغ العمق والقوة والتمكن . وقد امتدت اقامته فى القاهرة حتى عام ١٩٦٣ حين اختار العودة إلى بلاده والتفرغ لحياته الخاصة ، ولا ندرى ماذا كتب فى خلال هذه الفترة من بعد إلى أن اختار جوار ربه ، ولكن ما بين أيدينا من آرائه وافكاره كفيل بأن يشكل مفهوما

كاملا لفلسفته وعقيدته .. فهو جامع بين الدراسات الإسلامية والفلسفات الحديثة والقديمة ، متصل بأحدث نظريات العلم وآراء الفلاسفة ، وهو فى كل دراساته وأبحاثه يصدر عن الإسلام نفسه فى أصفى مفاهيمه وعقائده ، من حيث هو حاكم ومسيطر ، ومن حيث خضوع كل هذه المذاهب والفلسفات فى اعماق نفسه لعقيدة التوحيد أساساً .

وسطية الإسلام :

ويقرر السلجوقى وسطية الإسلام بين الفردية والجماعية ، ويقول أن الله سبحانه وتعالى بعث محمدا عليه الصلاة والسلام وأنزل عليه الفرقان الذى قضى على الأفراط والتفريط فى الفردية والاشتراكية ، وهما اللذان كانا فى صراع دائم لا يعرفان الوسط السليم ولا يعترفان به فالفرد فى الإسلام له حق وعليه واجب نحو فرديته ومجتمعه سواء بسواء . فهو يتأمل فرديا ويعمل اجتماعيا ، ويرعى نفسه ويكون مسئولا عن رغبته ، ويشاور الجماعة فى الأمر ، وإذا عزم عند الضرورة توكل على الله ، وله حق الكسب والتملك والتمتع بالمال ولكن عليه أن يؤدى الزكاة والصدقات المتنوعة والتبرعات المتتالية ، حتى لا يدخر رأس مال كبير وبعد موته يقسم ماله بين الورثة ولا يبقى هناك شىء يذكر جدير بأن يسمى (رأس المال) ولا ينسى نصيب نفسه من الدنيا ،فينعشها بالغذاء ، ويقويها بالرياضة ويزينها بالعلم ، ولو كان فى الصين ، ولكن حينما تستدعيه حاجة المجتمع فانه يقدم هذه النفس المكتملة الراضية المطمئنة إلى التضحية ، مؤمنا بأن هذه التضحية هى حياة له ، وأن الهرب منها معناه القاء نفسه بيديه الى التهلكه ومن ناحية أخرى فإن من قتل نفسا بريئة بغير حق فكأنما قتـــل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً .

فالمسلم فرد فى المجتمع ، ومجتمع فى الفرد ، لأنه يكون دائماً مع عشيرته وأهله ، ومع ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، ومع الشعب فى الرأى والحكم والدفاع والتعمير والاصلاح .

وكان هذا هو السبب الاصلى فى نشر الدين الإسلامى واعلاء شأن دولته الق

كانت مبنية على العلم والفضيلة والحق والخير والجمال والكمال ، والتى كان الفرد فيها مقوما للمجتمع ، والمجتمع محصلا للفرد ، لأنه إذا لم يكن هناك فرد لا يوجد حق ، وإذا لم يكن مجتمع فلا يتحقق واجب .

فالإنسانية التى تعيش بجناحين جناح الحق وجناح الواجب ، لا يمكن لها أن تطير بجناح واحد ، لأن الفرد المندمج فى المجتمع أجير مثقـــل بالواجبات ومسلوب الحقوق ، وليس من المتوقع منه أن يكون حراً فى تصرفاته ، ويكون المجتمع المؤلف من هؤلاء الافراد أشبه بخلية النحل ، لا أمل لهم فى الرقى ، وهكذا الفرد الذاهل ، الناسى للمجتمع ، يكون منتفخا متورما بالحقوق دون أن يكون لديه أية نزعة لأداء الواجب . ولا يمكن من قبل هؤلاء الأفراد أن يتحقق مجتمع متناسق ، اللهم إلا أن يكون محشرا للظلمة والمظلومين ، ومن أجل هذا نجح الإسلام فى بناء مجتمع أسلامى زاهر ، شعاره الاعتصام بحد الوسط بين الفرد والمجتمع ، والجمع بين الحق والواجب ، بل أن هذا الشعار امتدنوره كشبه ظل على الأمم غير الإسلامية ، وتلدت من بين ماقلدت من أنكارنا ، هذا الشعار أيضاً . وكان التناسق بين الفرد والمجتمع ملحوظا فى الدول غير الإسلامة ، لأنها بعد ماشاعت تلك الفكرة لم يكن من المستطاع لاية دولة أن تصرف النظر عنها » .

ويخلص السلجوقى من هذا العرض الشيق إلى أقرار حقيقة واضحة هى :

بدأ الإسلام بأول كلمة منه — إلا يعبد إلا الله ولا يخضع لأى حول أو قوة فردية أو جماعية غير حول الله وقوته وألا يطمع أو يخاف إلا من الله الغنى القوى ، لأن أمة الإسلام هى الوسط ، وهى خير أمة أخرجت للناس بين الأمم ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولا تقول غير الحق ، ولا تعمل إلا للخير ، ولا تشترى بآيات الله من الحرية والدفاع عن الحق والخير والتعاون على البر والتقوى — ثمناً — قليلا .

أخوة العروبة والإسلام .

ويتحدث العلامة السلجوقى فى ابحاثه عن أخوة العروبة والإسلام : ويصور

محبة الافغانيين للعرب ومفاخرتهم بالقرآن الكريم ، فالافغانيون لم يأخذوا العقيدة التي حملها لهم العرب فحسب ، بل أخذوا لسانهم العربي المبين وحتى القرن الرابع للهجرة كانت اللغة العربية هي اللسان الرسمي ولا تزال اللغة العربية حتى يومنا هذا لساننا الديني والعلمي .

« لقد فتح جنكيز خان أفغانستان عنوة وغصبا ، وبعد معارك عنيفة ومذابح دموية ، وكذلك دخل الانجليز البلاد ، ومالبث الافغانيون أن أبادوهم على بكرة أبيهم . ولكن العرب حملة لواء الإسلام فتحوا ديارنا بمبادئهم السامية ففتح لهم الافغانيون قلوبهم وصدورهم ، متقبلين لهذه التعاليم ، حتى أنه عندما ضعف مركز العرب ومركز الخلافة ، وتوقفنا عن نشر الحضارة الإسلامية ، كنا نحن معشر الأفغانيين المبشرين بهذه الحضارة والناشرين لها والمجاهدين في سبيلها في أنحاء العالم » .

والعرب هم أخواننا الذين سبقونا بالايمان . .

وثقافة أفغانستان الآن عربية ،وفي اللغة الأفغانية نحو ثلاثين في المائة من الألفاظ العربية ، ولا توجد هناك غير لغة علمية واحدة ، وهي اللغة العربية ، وكل كتب العلم والدين والفلسفة والمنطق والحكمة والكلام والمحاضرات باللغة العربية .

اللغـــة العربية .

ويعنى العلامة السلجوقي باللغة العربية ويرى أنها ليست لغة العرب وحدهم ، « أنها لعلى يصلى ويدعو بها أكثر من خمسمائة مليون مسلم ، أنها لغة القرآن الكريم الذي أنزل على المسلمين كافة ، أنزل عليهم وهداهم ، إلى صراط مستقيم . وكما أن على جميع المسلمين واجبات نحو لغة القرآن فان له أيضاً حقوق علينا لأننا معشر الأعجام خدمناها أكثر من العرب ، وأفغانستان التي كانت معروفة صدر التاريخ بإسم (خراسان) قد اعتنقت عن طواعية الإسلام الذي جاء به أصدقاؤها العرب وحاولت أن تتحد بالشعور والعقيدة معهم .

فهذا القرآن الكريم معاشر العرب يجمعنا واياكم بل يحفظنا واياكم كما حفظ

كيانكم وحمى اللغة العربية من الاندثار ، وأنا كمسلم لا اعتقد بفضل العربى على العجمى أو بالعكس ، ولكى لا أنكر أن المركز اللغوى والثقافى هو بين العرب لا بين العجم ، وإذا مافقد المركز جاذبيته ونقطة ارتكازه فلاشك فى أن المحيط يتلاشى المركز .

* * *

ويدعو السلجوقى إلى القضاء على العامية فى اللغة العربية « هذه العامية تنزل بمستوى اللغة العربية المبين ، وتقضى على مافيها من عذوبة وسعة نطاق ونظام ، وتحلق برزخا واسعا بينكم وبين القرآن وبينكم وبين ثقافتكم والألوف من علمائكم والملايين من كتبكم التى كتبها لكم آباؤكم الكرام من العرب واخوانكم الاعزة من الأعاجم . وفضلا عن ذلك فهى توسع الهوة بين الأمم العربية يوما فيوما ، إلى أن تنقسم إلى أمم متباينة فى الفهم والأفهام ، كما هو واقع الآن بين الأمم الآرية .

واللغة العربية فى ديار الإسلام شأنها كشأن اللغة اللاتينية فى أوروبا ، والفارق بينهما أن اللغة العربية ستدوم ، وستظل دعامة للعلم والأدب فى هذه الديار مادام القرآن والدين والصلاة وملايين الكتب تؤيدها من بين يديها ومن خلفها .

فلسفة الوجودية :

ويتحدث العلامة السلجوقى عن فلسفة الوجودية فيقول : أن الوجودية آخر معركة فاشلة قامت بين الفردية المفرطة والإشتراكية المحضة ، وهذا الصراع بدأ بين أفلاطون وأرسطو ولكن بطريقة علمية ومن غير أفراط .

الوجودية فكرة مأخوذة من « وحدة الوجود » ولكنها نسخة ممسوخة مشوهة منها لأنها تنعقد على شعار (أنا الأعلى) ولكنها تنزله من العلو إلى أسفل سافلين ، والعجب أن (أنا الأعلى) الذى يجب ألا يكون مسئولا يعتبر مسئولا فى عقيدتهم ، والأعجب هو أن (أنا الأعلى) مع كمال مسئوليته أباحى

محض ، فهــــذه ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض فالوجودية موت لعلم الإجتماع والانحلال للفلسفة .

الفن فى مفهوم الإسلام .

ويحدد العلامة السلجوقى مفهوم الفن فى الإسلام فيرى أنه أبعد عن التماثيل والأنصاب والمجسمات المنحوتة وأنه أقرب من الشعر وعلوم البلاغة .

« أن الإسلام قلب قائمة الفنون رأسا على عقب ، ووضع فن الشعر والبيان والأدب فى مقدمة القائمة ، لأن بحر التفكير الزاخر ، ومحيط التأمل الفائض ، وبسيط القلب الذى لم يخلق الله عالما أوسع منه ، لا يمكن أن تصاد حيتانها المارقة الشاردة من أى ملامس حسية وملابس عادية ، ألا بشعر « القلم » وشبكة « مايسطرون » فالرائد والقائد لشعبات الفن عند الإسلام هما فن البيان وصناعة الشعر ولا غرو فان من البيان لسحرا وأن من الشعر لحكمة » .

ويتصل حديثه عن الفن الرخيص المعاصر فيقول :

أنا لست أنكر الفن ولكن ليس كل مايكتب على الورق أو يظهر على المسرح ، يسمى فنا بمعنى الكلمة ومن جهة أخرى ، لا ينبغى أن يكون كل شيء فنا ، أو أن يكون الفن كل شيء ، فإذا ماطغى الفن الرومانسى وتغلب على شئون الحياة فمعنى ذلك موت روح الحكم على الأشياء وخنق الانتحاب الأخلاقى فى الإنسان زد على ذلك أن الفن الرخيص يهبط بمستوى الفكر وصفح البرهان .

وهناك فى هوليود متجر كبير ليوسف الفن ، يبيع ويشترى بثمن بخس ، بقصد استغلال القرائح الشابة الغائرة فى العالم وتمنده من ورائه سياسة هوجاء ، ووراء هذين غرائز هائجة ملتهبة ، ظلمات ثلاث ، بعضها فوق بعض ، فعلى المجتمع أن ينأى بجانبه عن هذه السفاسف ، وأن يتوجه إلى الآثار الطيبة الخالدة ، سواء فى الشرق أو فى الغرب ، لا إلى قصص الأولين وأساطيرهم ، أن فى الشرق لآثاراً خالدة عظيمة الفائدة يطلق عليها أعداء اللغة العربية اسم (الكتب ذات الأوراق الصفراء) وفيها جواهر ثمينة ، أنا لست أنكر أنه يوجد

الغث والسمين فى كل أثر شرقى أو غربى . ولكن علينا أن نعمل بالمثل (خذ ماصفا ودع ما كدر) .

أن الحضارة الغربية النشيطة قد نفذت ، مع الأسف ، إلى كياننا الثقافى وأثرت فيه ، بل لقد أثرت فى تقاليدنا ولذا فليس لنا أن نبذل جهودا أخرى فى ترجمة إنتاج الشعراء والقصصيين والمسرحيين الغربيين ، بل علينا أن نولى وجوهنا شطر المشرق ، وأن نعمل على المحافظة على آثارنا القيمة التى تموت بموتها ، وأن نحميها من أن تسقط صريعة زحف الحضارة الأوروبية » .

* * *

هذه جماع فلسفة العلامة صلاح الدين السلجوقى ، وهى فلسفة إسلامية أصيلة عميقة الجذور ، كاشفة لإيمان عميق بالإسلام واستشراف للفكر الغربى الحديث ، وقدرة واضحة على رسم منهج صحيح ، يعيش به المسلمون والعرب فى نطاق فكرهم ومزاجهم النفسى دون أن ينعزلوا عن مجتمعهم أو يذوبوا فى مجتمعات غيرهم .

ومن هنا تبدو أصالة فكر السلجوقى وسلامة عقائده ومفاهيمه رحمه الله رحمة واسعة .

الدكتور هيكل

فى أخبار عام ١٩٧٠ أن كتاب حياة محمد الذى الفه الدكتور محمد حسين هيكل قد ترجم إلى اللغة الإنجليزية بعد أن لقى اهتماما كبيراً فى المناطق الإسلامية التى تتكلم بالإنجليزية ولقد كان الدكتور هيكل قد أوصى بترجمته وبذلك تحققت رغبته ، ومايزال هذا الكتاب العتيد معلما من أعلام النهضة الفكرية الإسلامية الحديثة ، ولقد كان هو بالذات بالنسبة لمؤلفه تحولا خطيراً ، واتجاها عميقا بعد أن مر صاحبه بالدعوة إلى الفكر العربى ثم الدعوة إلى الفرعونية ، ثم تبلورت دعوته إلى إنهاض المسلمين والعرب إلى الطريق الصحيح المنبعث من تراث الإسلام وتاريخه ومقوماته .

والمراجع لتاريخ الدكتور هيكل يلاحظ هذا الإتجاه الاصيل فى عديد من كتاباته السابقة لتأليف حياة محمد وكأنما كانت أرهاصا به . وأمامى مقال له كتبه عام ١٩٢٨ فى الهلال عنوانه : « النور الجديد : أيان يكون مطلعه » .

ولقد كان هذا المقال بعيد الأثر فى حياة الكثيرين وفكرهم ، وقد قرأته وعمرى لم يكتمل ثلاثة عشر عاما وتأثرت به ، بل لعلى اعتبره من مطالع التوجيهات التى وجهت حياتى إلى الدراسات الإسلامية .

فانمد إلى هذا المقال نرى كيف اتجه فيه الكاتب فأثر فى نفس الشاب الغض الذى لم يكن قد وصل بعد إلى شواطىء هذا المحيط المتلاطم من البحث الفلسفى التاريخى : لقد تحدث هيكل عن الغرب والحضارة والالحاد الذى ارتبط بثمرات العلم الحديث حين وصل الإنسان إلى الثمرات المادية التى لم يكن يحلم بها من قبل، حتى لقد ظن الإنسان أن العلم وصل إلى الكشف عن أمر القوة الخالقة المدبرة الكون غير أنه عجز عن ذلك ، بينما انبعث الشرق بعد الحرب ، الشرق الذى قام فيه موسى وعيسى ومحمد ، أن هذا « البعث » فى نظر هيكل سيكون مصدراً

لإنبعاث عصر الإيمان ، وعنده أن هذا الشرق الذى انبعث ليستوعب ماجاءت به الحضارة الغربية ويلتهمها التهاما سيخرج للناس من هـــذه الحضارة وعلمها إيمانا جديداً .

ويقول الدكتور هيكل : هذا القلق المنبعث عن حاجة الإنسان إلى الأطمنان لصلة بينه وبين الوجود يستريح اليها ويؤمن بها طبيعى ولا سبيل إلى زواله ، إلا إذا سدت هذه الحاجة فمنذ القدم جهد الإنسان يبحث عن صلته بالوجود وأثره وتأثره به ، وقد كشف العلم عن كثير ولكنه مازال إلى اليوم برغم اتساع ميدانه إلى اضعاف ما كان فى الماضى ولما يصل إلى هذا السر ولما يكشف عن مستور الغيب عما جهد الإنسان فى البحث عنه منذ أول وجوده ، لذلك اتجهت طائفة من مفكرى الغرب وعلمائه إلى الشرق وعقائده وفلسفته يأملون أن يجدوا فيها مادة الإيمان بالغيب عن طريق هدى الالهام والغريزة . على أننا نرتاب فى نجاح جهود علماء الغرب ومفكريه لا ستلهام الشرق سندا معنويا جديدا يسد من النفس الفراغ التى عجزت الحضارة المادية عن سده ، ذلك بأن الإيمان لا يمكن أن يكون نتيجة بحث علمى : الشك أساسه ، وقد تغلبت الروح العلمية على الغرب حتى صار عسيرا أن لم يكن مستحيلا أن يعرف نور الالهام طريقه إلى نفس غربية وما دام الشرق يتلقى اليوم آثار الحضارة الغربية ويلتهمها التهاما ، فأكبر الظن أن تورى شرارة الالهام شرقية اجتمعت فيها اثار حضارة الغرب جميعا كما تجتمع الألوان السبعة فى نقطة واحدة فينبعث منها نور الهدى وينطق صاحبها بالحقيقة الإنسانية المقدسة فى هذه العصور : عصور البحث والعلم . فإذا صح حديثنا فقد يطمع الشرق فى انبعاث هذه الرسالة القدسية الكبرى من خلاله قبل عشرات السنين وقبل أن يجتمع له علم الغرب وحضارته . ولن يكون ذلك عجبا وقد كان الشرق مهد الوحى ومنبت الهدى ، ففى مصر نزلت الديانات الأولى فى العصور الميثولوجية ثم انتقلت إلى فينيقيا وإلى الأغريق وروما وإلى أشور واوسط آسيا ومن مصر خرج الحكيم موسى داعيا إلى الله وهداه ، وفى بيت المقدس قام عيسى برسالته وفى مكة هبط الوحى على محمد ، وهذه الأراضى المقدسة : أراضى مصر وما حول مصر كانت منذ أول عهد الإنسان بالوجود منبت الحق الإنسانى الاقدس ، وكان هذا الحق ينبعث منها كما يستضىء ، العالم

كاما تشعب أهل العلم شعبا فى تصور الحق ، واليوم وقد ذهب الناس فرقا فيما يتصورونه وجعل أهل كل فرقة لمبادئهم طقوسا مما يزعمون ، فلعل الساعة التى يجتمع الناس على حقيقة تنجيهم من قلقهم النفسانى آتية ، ولعل مطلع نور هذه الساعة يكون من مصر صاحبة مدنية العالم الأول ويومئذ يفرح المؤمنون بما أفاد العالم من هذه القرون الماضية من علم وبما عاد العالم اليه بعد علمه من ايمان بالحق يهديه سبيل السعادة . .

وهذه هى أفكار هيكل التى قذفها هذا المقال فى نفسى ونفوس الشباب فى فى مطالع الصبا الغض ، فمازالت تهزه إلى اليوم وقد مضى عليها بضعة وأربعون عاما ، فكأنما هذا النور الجديد قد اضاء الطريق وأثر فى اتجاه الفكر والإنتاج .

ولعل القارىء يدهش إذ يرى (هيكل) يقول هذا فى السنوات التى كانوا يصورنه فيها قائداً لحملة التجديد على صفحات السياسة الأسبوعة مع طه حسين ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق وغيرهم وقد وجهت إلى هذه المدرسة اتهامات كثيرة تصورها بأنها تدعو إلى (التغريب) ذلك أن هيكل كان فعلا (قلقا) فى هذه المرحلة ، وكل مقالاته تحمل هذا الطابع من بعد ، حتى ليقول مثلا : أزمة الحضـــارة ازمة خلق ، ويقول : كل حاضر لا ماضى له لا مستقبل له ، ولكنه مع هذا الضوء الكاشف فى نفسه كان مسوقا إلى الطريق الغربى ، ثم يتبين بعد خطاه حتى صدمته أزمة عام ١٩٣٢ ، وهى أزمة التبشير الكبرى التى هزت الأوساط الفكرية والسياسية وعندها وجد هيكل نفسه على مفترق الطريق فمضى يكافح عن فكر واضح صريح ، وكان ذلك فى عشرات من المقالات الافتتاحية لجريدة السياسة اليومية كانت موضع الغرابة والدهشة من الناس جميعا ومن زملائه فى مدرسة التجديد .

وكانت هذه طلائع دراسته لحياة محمد وكتابته الموسعة فى السيرة وحياة أبى بكر وعمر وعثمان مما حفلت به هذه المرحلة من حياته الفكرية .

وبينما كانت الصورة فى مقال (النور الجديد) مموهة ، بدأت تتضح من بعد فى مقالات (الشرق الجديد) وزادت قوة وصقلا حين قرأ كتاب جب والمستشرقين زملائه الذين أطلقوا عليه (وجهة الإسلام) وكتب فصلا مطولا عنه وأشار إلى الخطر الذى يكمن فى حركات التبشير والاستشراق من دعوة سافرة إلى التغريب : تغريب الشرق .

وعندما يصل هيكل إلى « بيت الله الحرام » فى مكة ، ويقف حيث وقف رسول الله ويسعى حيث سعى تنطلق من نفسه تلك الكلمات البارة التى تصور نفس رجل مؤمن ظلت تضله سنوات طويلة دعوات متعددة حتى هدى إلى الحق ووجد أن الإسلام هو أمل البشرية وضياؤها وترياقها : يقول هيكل :

حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية ليتخذها جميعا هدى ونبراسا ولكنى أدركت بعد لأى إنى أضع البذر فى غير منبته ، فإذا الأرض تهضمه ولا تتمخض عنه ولا تبث الحياة فيه وانقلبت ألتمس تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلا لوحى هذا العصر ينشأ فيه نشأة جديدة فإذا الامية وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من أسباب ، وروأت فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر . ولقد كنت عظيم الثقة بالعلم والطريقة العلمية الغربية وأنها ستؤدى بالإنسانية إلى معرفة حقيقة الكون معرفة هى مآل سعادة الإنسانية ، غير إنى لاحظت وتفتحت عينى على حقيقة بدأت تقوى صورتها عنها ، هى أن العالم يعانى قبل كل شىء « أزمة روحية » دفعت كتاب الغرب وفلاسفته إلى التماس العلاج لها فى فلسفة الهند الروحية ، وإلى جانب ذلك لاحظت فى اتجاه السياسة الأوربية ظاهرة غريبة تلك التبشير المسيحى فى الأمم الإسلامية ، إذ ذاك رأيت أن أدرس حياة النبى لعلى أجد الوسيلة لعلاج أزمة العالم الروحية ولانهاض الشرق نهضة تبعث فيه حياة جديدة كحياة الغرب بعد القرن الخامس عشر ، ووجدت فى دراسة النبى العربى ودينه وتعاليمه والحضارة التى وضع اساسها فأخلق أمامى عالما جديداً من عوالم التفكير لم يكن ذهنى متجها اليه من قبل » .

فى هذه السنوات صاحبت « هيكل » بالروح والفكر خلال هذه الرحلة الطويلة ، ووجدت منه ماوجد أقرب الناس اليه اتصالا ، ذلك الرجل الذى دعا إلى الغربية الخالصة وإلى الفرعونية ، يجد اخيراً طريقه حتى يقول عنه الصق الناس به : إبراهيم عبد القادر المازنى مايقول :

« كنت فى أول الأمر وقبل أن تتصل أسبابى بأسبابه أرانى فى حيرة من أمره ، ولا أرى له عناية تذكر بالأدب العربى والتاريخ العربى ، وكنت فوق ذلك أسمع أنه ملحد ، وكان ذلك مضافا إلى ذلك يجعلنى أتصور أنه سائح طاب له المقام فاقام ، ولكنه بقى محتفظا بخصائصه ، التى جاء بها ولم يتأقلم ، ولكنى كنت أعود إلى كتبه وأراجع نفسى فى مقالاته السياسية التى يكتبها كل يوم فى « السياسة » فأستغرب ذلك ، أن روحه هى روح المؤمن العميق الإيمان ، لا روح الملحد الذى يجرى فى الحكم على مالا يفهم ، وسألت نفسى يوما : كيف يكون ملحدا من لا يختار من كتاب فرنسى غير « جان جاك روسو » ليترجم فى العربية . لماذا لم يختر فولتيير مثلا وكيف تتطلع النفس وتتجه دائماً إلى المثل الأعلى وصور الكمال فى الدنيا . وتكون مع ذلك نفس ملحد وهيكل ثائر فكيف يتأتى أن تنزع إلى الثورة والتمرد ، نفس ملحد يكتفى من النظر بالكف عن النظر ، ومن عذاب البحث بالراحة من البحث ، ومضت الأيام فعرفته وكتب لى الحظ أن أعمل معه ، وأن أكون احد أعوانه فى السياسة ، فلم أحدثه فى هذا ، فقد اغنانى الأتصال به من السؤال ، فلما شرع يكتب — ونحن فى غمرة ثقيلة من المشاغل السياسية « حياة محمد » وينشرها تباعا فى السياسة الاسبوعية ، كنت واحدا من القليلين الذين لم يستغربوا منه هذا الاتجاه ، ولم يقع منهم موقع المفاجأة ، بل كنت على يقين حازم بأنه — يفضل استيلاء روح الايمان على نفسه — أقدر من يكتب حياة محمد كما ينبغى أن تكتب ، فقد أغتبطت لأن نظرتى لم تخطىء حين اعتقدت من قبل أنى أعرفه ، أن فى نفس هذا الرجل كنزا من ايمان » .

هذا هو هيكل كما يصوره زميل فى رحلة الحياة والفكر : أما أنا فقد التقيت به بعد عام ١٩٥٦ أو خلاله وجلست اليه وكنت متشوقا إلى أن اتحدث مع هذا الرجل الذى ربما أكون قد كتبت له فى مطلع حياتى فى الريف اكتشف له عن رغبتى فى احتراف الصحافة .

كان الدكتور هيكل فى هذه الفترة فى سنواته الأخيرة ، يكتب فصولا فى أخبار اليوم كل اسبوع ، ويعد الجزء الأخير من مذكراته السياسية وكتابه عن عثمان .

وكنت أرى فيه تلك السنوات الطويلة الحافلة التى عشت بعضها على هامش الصحافة وبعضها الأخير من داخلها وتحدثت معه وذاكرته فى كثير مما قرأت له فى السياسة حتى تركها عام ١٩٣٦ تقريباً وفيما نشر من بعد فى السياسة الاسبوعية بعد أن عادت إلى الصدور .

وودعت الرجل وكان يزور ندوة بعض الأصدقاء ، آملا أن تتح لى فرصة أوسع للحديث معه ، ولكنه كان لقاء الوداع .

ولكن ذلك لم يكن أخر العهد بلقاء هيكل ، فقد تابعت دراساتى عن تاريخ الصحافة المصرية ، وعن تاريخ التغريب والغزو الثقافى ، وعدت مرات ومرات إلى جريدة السياسة والى سنوات ١٩٣٢/١٩٣٣ ورأيت هيكل العملاق على نحو يختلف عما كنا نراه فى مجلة السياسة الأسبوعية ، رأيته فى لحظة التحول والانطلاق كالسهم إلى الكشف عن شبهات الاستشراق ودعوة التغريب ، وقد كان معدودا واحدا من رجالها أو على رأس هذه المدرسة ، رأيته يعارض آراء جب وغيره، ورأيت الدكتور طه حسين وصديقه على طريق السياسة الطويل يسخر منه ويتهمه بأن نظرته إلى الأمور قد أصابها التغير ، ولكنه كان التغير إلى الأعمق وإلى الحق وإلى مصدر الضوء الحقيق .

ولقد وجهت نظر إبنه الأستاذ أحمد هيل وكان بصدد جمع تراث أبيه إلى كثير مما كتب فى الصحف والمجلات ووجهت نظره بخاصة إلى هذه الفترة الحافلة ، ولم يلبث أن أصدر الأستاذ أحمد هيكل عددا من آثار أبيه ، وكان من بينها كتابه (الشرق الجديد) وهى مقالات قرأتها فى السياسة الاسبوعية فى سن السابعة عشرة وكانت مرحلة جديدة على طريق (النور الجديد) فقد سألت عنها هيكل رحمة الله فى ذلك اللقاء فأطرق يفكر ، ويتذكر . .

واذا كان هيكل لا يلقى من نقاد الأدب العربى الحديث ومؤرخوه اليوم ما يلقى العقاد مثلا لأنه قد إنتحى ناحية الدراسات الاسلامية فإن ذلك لن ينقص

من قدره إذا وسعنا أفق النظرة إلى الفكر الإسلامى الحديث ، فهنالك تجدهيكلا وقد حقق لنا اضاقات جديدة ليس فى مجال السيرة وتاريخ الخلفاء والحضارة الإسلامية وحدها ، بل أنه كان نفسة اضافة حياة على طريق تصحيح المفاهيم .

فلقد عاد كثيرون إلى ورد الفكر الإسلامى الأصيل ، من أمثال منصور فهمى وزكى مبارك وإسماعيل مظهر وغيرهم ولكنهم عادوا صامتين ، تاركين تاريخهم القديم دون أن يصححوه ، أما هوية الدكتور هيكل فقد كان شريفا غاية الشرف شجاعا غاية الشجاعة فقد كشف عن امده فى صراحة وأشار إلى ما اتجه اليه مرة ومرة فى سبيل أى عمل نافع لامته ووطنه ، حين اتجه إلى الترجمة من الأدب الأوربى ، وحين دعا إلى الفرعونية ، ولكنه عاد إلى الورد الأصيل والمنبع المنير ، اخيرا وحقق الكثير .

لقد تابعت الدكتور هيكل منذ مطالع الصبا ، ومازلت أحس بأنه كان بمقاله عن (النور الجديد : ايان يكون مطامه) قد وضع أمام عقلى وقلبى طاقة من نور ، أعانتنى على التماس الطريق الصحيح ، فأنى قد وجدتها عند المصريين المجددين لاول مرة ، بعد أن عشتها طويلا فى الكتب الصفراء ومن أفواه الصالحين والهداة الذين كانو ينبثون فى مساجدنا وقرانا .

مالك بن نبى

لبى نداء ربه العلامة الجليل مالك بن نبى فى أوائل شهر شوال ١٣٩٣ هـ (نوفمبر ١٩٧٣) عن عمر لم يتجاوز الستين إلا قليلا بعد أن ترك ثروة وافرة من الفكر الاسلامى المتجدد الذى نشره باللغة الفرنسية ، ثم ترجم إلى اللغة العربية وقد أتيح له فى السنوات الأخيرة أن يكتب بلغة الضاد وأن يلقى بها أبحاثه فى مؤتمرات القاهرة ومكة وطرابلس الغرب والجزائر .

وقد عاش مالك بن نبى حياته كلها فى مواجهة تحدى الحضارة الغربية المعاصرة وموقفها فى وجه الفكر الاسلامى ، وحاول أن يقدم صيغة صالحة للرد على هذا التحدى ومواجهته . وكان لعقليته التى شكلتها الدراسة العلمية (الهندسية) بالاضافة إلى الثقافة الفرنسية ، كان لها أثرها الواضح فى بناء نظريته التى ظل يدافع عنها ثلاثين عاما أو يزيد .

ومثل مالك بن نبى بين مفكرى العالم الاسلامى قليل فهو الرجل الذى ورد مورد الغرب وجاءنا منه نقيا صافيا ، وقد حفظ الله له أصالته وأفاد مما وجد ، نصاعة فكر ، ومد نظر ، وعمق فهم ، وقدرة على كشف تلك التحديات والشبهات والاوضاع التى عمد التغريب والغزو الثقافى على نصب شباكها لتدمير الفكر الاسلامى واثارة أجواء الاضطراب والتخلخل بين جوانبه ، ودفعه إلى أن يقع فريسة للحلقة المغلقة الغربية التى تحاول الانقضاض عليه وتطويقه واحتواءه حتى تخرجه عن أسسه وأصالته وقاعدته القرآنية لتقذف به فى تلك البوتقة الخطيرة التى تصهر الثقافات : بوتقة العالمية والأممية .

ولكم ذهب كثيرون إلى أوروبا وعادوا وقد أصبحت أماناتهم للغرب أكبر من أماناتهم لأوطانهم ، واستطاعت القوى الغاصبة : من استعمار وصهيونية وغزو ثقافى وتغريب أن تحميهم وتيسر لهم رغد العيش وتظلهم بظلال الجوائز

والدرجات والنياشين وتسبغ عليهم من معطيات الحياة وترفها وبريقها وترشحهم لجائزة نوبل وتحملهم كل عام إلى المؤتمرات الحافلة . أما مالك ابن نبى فقد عصى هذا ، وتحمل نتيجة عصيانه ومقاومته ، بعد أن كشف عن تلك الجرثومة الخطيرة التى تواجه الفكر الاسلامى وشبابه ومثقفيه وتحاول أن تصطنعهم لنفسها وكأنما كانت وفاته فى هذه اللحظة علامة مقارنة خطيرة بين المعتصمين بالله من أصحاب الحق وبين الذين حملوا رأية التغريب وجروا بها شوطا طويلا فأفسدوا العقول الفتية والقلوب المؤمنة .

ولعل أروع مايصور مالك بن نبى فى موقفه هذا ، تلك الصورة التى يقدمها فى كتابه « الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة » وهو أول كتاب كتبه باللغة العربية مباشرة . حيث يقول :

« عندما تظهر فكرة مجردة ، فان مراصد الاستعمار ترصدها قبل أن يدركها الشعب الذى يريد صاحبها أن ينشرها بينه ، فيبدأ الاستعمار بتوجيه مدفعيته اليها وبما أنه لا قدرة له على مجابهة الفكرة المجردة صراحة والقضاء عليها فإنه يوجه قذائفه نحو الكاتب لتصيب فكرته .

والاستعمار يحاول تجسيد الأفكار المجردة حتى ينصب نقده على الشخص وحتى تصبح العلاقة عاطفية لا عقلية ، أو يعمل على طبخ الدعوات بسرعة لاخراج مولود ضعيف يسهل قتله أو لا يمثل الفكرة الاصلية ، أو ايجاد بديل زائف لكل فكرة شريفة وتحويل الرأى الأول بالثانية ، أو شن غارة على الفكرة وصاحبها واتهام صاحبها من جهات ذات نفوذ وأن الاستعمار قد يواجه فى البلاد المستعمرة فكرة مجسدة فإنه يقصيها بأبعاد من يمثلها ، أن لم يستطع التأثير عليها بالاغراء أو التهديد .

وإذا تبين له أن الفكرة التى أراد اقصاءها قد بعثت بصورة فكرة مجردة استقرت فى ضمير الشعب فإنه يتبع خططا أكثر دقة ، فهو يجتهد فى امتصاص القوى الواعية بأية طريقة ممكنة حتى لا تتعلق بفكرة مجردة ، ويحاول تمثيلها الفكرة متجسدة حيث تصبح أقرب اليه منالا ، لأنه يستطيع مقاومتها بوسائل

الاغراء أو القوة ، وفى الوقت نفسه يحاول حربه ضد الفكرة المجردة بوسائل ملائمة مرنة ، ويستعين بخريطة نفسية للبلاد المستعمرة ويجرى عليها التعديلات اللازمة كل يوم رجال متخصصون بذلك مكلفون برصد الأفكار ، وهو يرسم الخطط ويعطى التوجيهات العملية فى ضوء معرفة دقيقة لنفسية البلاد المستعمرة معرفة تسوغ له تحديد العمل المناسب لمواجهة الوعى فيها حيث توجد مختلف الطبقات والمستويات فيقدم للمثقفين شعارات سياسية تسد منافذ إدراكهم إزاء الفكرة المجردة مستعملا لغة الفكرة المشخصة المتجسدة . . الخ » .

هكذا يصل عمق فهم مالك بن نبى لمخططات الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى والتغريب ولقد أشار هو فى كتابه هذا الى وقائع مثيرة حدثت له هو بالذات فى سبيل القضاء على دعوته وخطته .

ولقد نشا مالك بن نبى فى خضم الثورة الجزائرية التى بدأت فى الحق حين رفع علمها الامام عبد الحميد بن باديس فى الثلاثينات من هذا القرن وحمل لواء تعليم اللغة العربية والقرآن فى وطن كان يحتفل غاصبوه بمرور مائة عام على احتلاله ومصادرة روحه وفكره . نشأ مالك بن نبى فى ظل هذا التحدى وفى احضان هذه الدعوة ، وكان لمطامح التعلم فى فرنسا والأتصال بها عن قرب والتمرس بثقافتها حتى لم يكن يكتب الا بالفرنسية عامل هام فى تكوين هذا العقل المتوقد ، وتوجيه القلم إلى العمل الكبير الذى قدم للفكر الإسلامى المعاصر إضافات حية قوية بعيدة الأثر فى قضية من أخطر قضايا المسلمين هى علاقتهم بالغرب ثقافيا وحضاريا .

وتتلخص نظرية مالك بن نبى فيما يلى :

أن الإنسانية مرت بأكبر تجربتين حضاريتين فى التاريخ : التجربة الرومانية والتجربة الاسلامية وقد كانت التجربة الأولى متخلية فى الروح الامبراطورية التى تقسم الانسان إلى مواطن يتمتع بكامل الحقوق وإلى غير مواطن مسلوب من كل الحقوق . وعلى هذا الاساس حكمت وقننت وعالجت ومنحت ، وهى وأن اخفقت فى معالجة مشاكل الانسان قديما فقد اتيح لها أن تبدو فى صورة جديدة فى عصرنا الحاضر ، فالحضارة الغربية المعاصرة تحمل الحضارة الاسلامية التى

سبقتها فى الزمن وكانت حلقة ضرورية فى سلسلة الحضارات الانسانية ، تخطتها لتتصل بالحضارة الرومانية وتأخذ منها روحها الاستعمارية وتتشرب مبادئها وكثيراً من نظراتها الجوهرية .

ويعرف مالك بن نبى الحضارة بأنها معادلة تساوى (إنسان + تراب + وقت) فكل نتاج حضارى هو نتيجة اشتراك عوامل ثلاثة لا غير .

• التراب : المادة المكونة لهذا النتاج الحضارى .

• الانسان : الذى صنعه .

• الوقت : الذى صنع فيه .

وليس هناك عنصر آخر يستطيع أن يدخل فى تكوين وصنع هـــذا النتاج الحضارى . وعنده أن وجود هذه العناصر الثلاثة ليس بكاف لايجاد حضارة ، وإلا لكان مجرد اوكسجين وادروجين بنسبة معينة كافيا لتكوين الماء ، أنه لابد من مركب لهذين العنصرين كالشرارة الكهربائية ، وكذلك الحضارة فانها تحتاج لمركب،يركب بين عناصرها ، ولهذا المركب أو الشرارة يجب ألا نختلقها اختلاقا ، بل إننا لا نستطيع إيجادها وإنما نبحث عنها فى التاريخ فهو الوحيد الذى يسعفنا بالخبر عن الشرارة المكونة للحضارات والتى استطاعت أن توجد العلاقة بين العناصر الثلاثة ، وعن تلك العلاقة انبثقت المدنية ، هذه الشرارة هى « الدين » فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية وينبغى أن نبحث فى كل حضارة من الحضارات عن أصلها الدينى الذى بعثها وأن للحضارة مدارا تسير فيه . هذا المدار يتكون من ثلاث مراحل :

• مرحلة الروح : وذلك عندما تكون الحضارة فى عنفوان قوتها .

• مرحلة العقل . عندما تبلغ الحضارة أقصى توسعها .

• مرحلة الغريزة : التى تعود بالانسان الى مستوى الحياة البدائية .

فالحضارة الاسلامية مرت بهذه المراحل : ابتدأت المرحلة الأولى من قوله تعالى :

(أقرأ) إلى حرب صفين ومن هناك دخلت فى مرحلة العقل إلى زمن إبن خلدون ، وهنا استسلم العالم الاسلامى لقيادة الغريزة التى لا تزال لها القيادة إلى اليوم .

وأن أوروبا قد بدأت تدخل مرحلة الغريزة على الرغم من هذه الصحوة العلمية الجبارة التى إنفصلت عن الضمير ، ومحاولة تقليدنا لأوروبا فى هذه المرحلة التطورية فى حياتها محاولة تدل على جهل بأسس المدنية وحقيقة بواعثها فالمدنية ليست بضاعة تشترى ولا أشياء تنقل أو صورا تحاكى ، وإنما هى معان نفسية روحية تنبثق من الذات ، من الروح ، من الفطرة .

ومن هنا فان العالم الاسلامى ليس مريضاً بالتفرقة والجهل والاستعمار ، هذه هى المظاهر فحسب ، وهى أعراض المرض ، أما المرض الحقيقى فيجب أن يلتمس وراء هذه الأعراض الخداعة التى شغلت العالم الاسلامى وأتعبته وضللته عن معرفة حقيقة الداء ومن ثم جهل حقيقة الدواء ، والمرض يكمن فى النفس من الذات الاسلامية ويطلق عليه (القابلية للاستعمار) وهذه القابلية هى الجاذبية التى تجذب نحوها الاستعمار ، وللقضاء على الاستعمار يجب أولا القضاء على سببه الجوهرى الذى يكمن فى النفوس أى « القابلية للاستعمار » ومن هنا يصل مالك بن نبى إلى مفهوم جديد عميق لموقف المسلمين من الحضارة المعاصرة ومن مفهوم الحضارة الحقة .

ويتخذ مالك بن نبى التاريخ الاسلامى منطلقا لبحثه وركز على التجربة الجزائرية بالذات فهو يتحدث عن (إنسان مابعد الموحدين) كملامة على سقوط الحضارة الاسلامية ويؤرخ لتلك الظاهرة فى التاريخ الاسلامى بسقوط دولة الموحدين حيث يبدأ عصر التخلف فى تقديره بإنسان مابعد الموحدين .

ويمثل مالك بن نبى مرحلة جديدة هى مرحلة الفكر المغربى الاسلامى العربى بعد الحرب العالمية الثانية ويقف فى هذا مع مجموعة من الاعلام البارزين

ذوى الأثر الواضح وفى مقدمتهم العلامة علال الفاسى والدكتور مهدى بن عبود والسيد الجليل عبد الله بن كنون وابراهيم بن بيوض والفاضل بن عاشور (رحمه الله) .

وقد ولد مالك بن نبى فى الجزائر (مدينة قسطنطينة) عام ١٩٠٥ فى بيئة متدينة ودرس القضاء فى المعهد الاسلامى المختلط ثم توجه إلى دراسة عصرية والتحق بالمعهد العالى للهندسة فى باريس حيث تخرج مهندسا فى الميكانيكا الكهربائية وفى باريس اتصل ببيئات السربون والكوليج دى فرانس ومعهد اللغات الشرقية ونظر فى عمق الفاحص المسلم إلى هذه المؤسسات جميعاً واتصل بعشرات من الباحثين والمفكرين، واستطاع أن يفيد منها دون أن تستوعبه كما استوعبت الكثير من الأسماء اللامعة فى البلاد العربية . ومن أجل موقفه هذا فقد فوجىء بعد تخرجه بأن وجد الأبواب كلها مقفلة فى وجهه فلم يستطع القيام بالتمرينات اللازمة لكل مهندس تخرج حديثاً ، ذلك لأن الاستعمار الفرنسى كان قد أدرك اتجاهه ومفهوم العقلية التى يحملها ذلك ، أنه لم يكن بمعزل عن المراقبة الاستعمارية التى صورها فى كتابه الذى عرضنا له من قبل ، وقد تفطنت إلى نبوغه وإيمانه الراسخ بالاسلام وعجزت عن احتوائه ، ومن ثم لجأت معه إلى سياسة التضييق والتيئيس والخنق وفيما يروى تلميذه الدكتور (عبد السلام الهراس) أن الاستعمار حاول أول الأمر أن يحيطه بجو ثقافى خاص ليوجهه بما يحقق أهداف الاستعمار وفى محاولة لتزييف احساسه واتجاهه ، غير أن العقيدة كانت أرسخ من أن يعبث بها أحد ، فأغلق الاستعمار فى وجهه أبواب الرزق وعزل والده من وظيفته وسلط على مالك من يحاربه من بنى جلدته .

غير أن الله الذى اتجه له مالك بالعمل ، لم يدع الظالمين يأكلونه وإنما فتح له من الآفاق ما مكنه من أن يقول كلمته وكتابه (مشكلة النهضة) الذى أصدره عام ١٩٤٨ هو دعامة أبحاثه كلها ومنطلق دراساته المختلفة التى ضمت أكثر من ثلاثين كتابا فقد أتيح له أن يتجه إلى المشرق وأن يزور مكة ويقيم فى القاهرة سبع سنوات (١٩٥٧ — ١٩٦٣) حيث أصدر معظم آثاره وإنتاجه وكانت مجالس حافلة بالعلم والفكر فى ضيافة زميله المهندس أحمد عبده الشرباصى العالم الفقيه ، وقد حضرنا بعض هذه المجالس وأعجبنا بهذه

الشخصية الفذة القادرة على استخلاص القوانين من الظواهر الاجتماعية المختلفة . وقد عاد إلى الجزائر منذ عشرة أعوام تقريبا وولى بها بعض المهام الكبرى فى الثقافة والتعليم وشهد عديدا من المؤتمرات الاسلامية وجلسات مجمع البحوث فى القاهرة وغيرها فى مكة والكويت ودمشق وطرابلس الغرب .

وكانت له فى سنواته الاخيرة دراسات جديدة عن الاستشراق والتغريب .

وقد سجل صفحات من ذكرياته فى كتابه (شاهد القرن) حيث رسم بقلم مشرق مضىء تاريخ الجزائر فى أوائل هذا القرن وكيف بدأت النهضة فيه واستفاضت حتى حققت الثورة ذلك النصر المؤزر بإسم الاسلام أولا وآخراً .

رحمة الله على مالك بن نبى كفاء ماقدم للمسلمين والاسلام .

فى الأعوام الأخيرة لحياة العلامه مالك بن نبى قدم خلاصة لمفهومه فى النهضه الاسلاميه اشار فيه إلى أن الامه الاسلاميه فى القرن الاخير حاولت ولاتزال أن تعود إلى حلبة التاريخ بطريقة ضمنية ولكنها ترى أن محاولاتها لم تثمر النتائج المرجوه فى الوقت الملائم خاصه إذا قارناها بوضع المجتمعات الأخرى مثل اليابان أو الصين والنتائج التى حققتها هذه الدول التى كانت منطاقه من نفس الأوضاع المتخلفة ومع ذلك حققت حضارتها ونهضتها فى فترة وجيزه لذلك فإننا يجب لذلك أن « نعيد النظر » فى الطريق الذى نسير فيه أو بعبارة أخرى « بمنهج سيرنا وفقا لمقتضيات التاريخ » .

ومن هنا تصبح القضيه فنيه ، وتتطلب دراسه قائمه على قواعد يستخلصها العقل من قوانين التاريخ .

(ثانيا) إن الاسلام قد وضع حلولا لمشكلات العالم الاسلامى ومايعانيه إنسان العصر الحديث من قضايا ومواقف وأن القرآن الكريم قد وضع حلولا لهذة القضايا والمواقف ، كما أن القرآن يضع فى اعماق عقيدتنا الاستعدادات التى تؤهلنا لتطبيق المعاملات المتعدده ويحفزنا على الابداع والابتكار .

(ثالثاً) حصيله دراستي : أن الحضارة لا تصنع بمنتوجات حضارية مستوردة بل هى التى تصنع وحدها المنتوجات الحضاريه وهذا يؤدى بنا إلى تساؤل تقليدى عن شروط الحضارة فى جوهرها العام : شرط الحضارة أن تتكون من ثلاث عناصر :

« الانسان — التراب — الوقت » .

هذه العوامل تتطلب إلى جانبها « العامل النفسانى » الذى اصطلح على تسميته « العقيدة » أو الايدلوجية . والشروط اللازمه لتكوين الحضارة موجودة فى ايدينا بمعنى أن عندنا أكرم وأفضل العناصر الموجودة فى العالم وعندنا اخصب المساحات وعندنا الساعات الزمنيه الكافيه للابداع والابتكار .

والذى ينقصنا هو العقيده أو الايدلوجيه : الذى ينقصنا هو العمل بموجب العقيدة الاسلاميه ، الاسلام وحده هو الذى يمكن أن يعيد المسلمين إلى عالم الحضارة الخلاقه ويدخلهم فى حالتها شريطة أن يعتبروا هذه العقيدة رساله هامة وضرورية ولا غنى عنها . العقيدة لا يمكن أن تحرك الطاقات إلا بقدر تسخيرها لحاجات أبعد وأسمى من الحاجات اليومية . إننا نعيش اليوم من أجل تلبيته حاجاتنا اليوميه (ماكل — مسكن — ملبس) لهذا لا نرى لعقيدتنا الاسلامية هيمنة على طاقاتنا الاجتماعية ، لهذا فهذه الطاقات معطلة تماماً لأننا جعلنا من الاسلام وسيله للحياة الاخرويه بينما كان فى عهد الرسول (وسيلة النجاة فى الأخرى ووسيلة المجد والعز والحضارة فى الدنيا) .

(٢)

بين مالك بن نبى وطه حسين

جرت محاولات كثيرة فى الأيام الأخيرة لعقد مقارنة بين مالك بن نبى وطه حسين فى مناسبة وفاتهما فى وقت قريب ، وقد لقى مالك بن نبى اجحافا لاحد له من كتاب الصحف العربية بينما وجد طه حسين تقديرا عميقا وهذا مؤشر خطير يدل على أن شباننا ومثقفينا لم يكتشفوا بعد أبعاد الأخطار التى ساق اليها طه حسين الفكر الاسلامى الحديث ولقد اقتضى الحال أن أعقد مقارنة بين الكاتبين فأقول أن السؤال هو :

هل من الممكن ايجاد أرضية للمقارنة بين مالك بن نبى وطه حسين .

ومع البحث الواسع والتأمل العميق نجد أن هذه الأرضية يمكن أن تتمثل فى كلمة « القضاء » فبالرغم من أن البدء يوحى بالتشابه فان النتائج تختلف اختلافا واسعاً .

ذلك أن مالك بن نبى وطه حسين هما عربيان مسلمان قصدا إلى الغرب وتعلما فى فرنسا وأن اختلف الوقت قليلا فان طه حسين ذهب فى العقد الثانى من هذا القرن الميلادى حوالى ١٩١٤ — ١٩١٩ م .

بينما ذهب مالك بن نبى إلى فرنسا فى العقد الرابع فى حدود عام ١٩٣٩ أن مالك بن نبى وطه حسين هما من أبناء العرب المسلمين الذين لهم فى اطار الفكر العربى الجامعى مفهوم خاص ، ومعاملة خاصة . أما أحدهما فهو قد قدم إلى فرنسا من قطر تسيطر عليه فرنسا منذ أكثر من مائة عام وتسعة أعوام فى ذلك الوقت .

أما الثانى فقد قدم إلى فرنسا من قطر تسيطر عليه بريطانيا منذ أكثر من بضعه وثلاثين عاما فى ذلك الوقت ولكن لفرنسا فى مصر تاريخ ثقافى طويل متصل بالحملة الفرنسية .

٢ — أما مالك بن نبى فقد تخرج فى المدارس المدنية وسافر إلى فرنسا ليدرس الهندسة والعلوم ؛ أما طه حسين فقد تخرج فى الأزهر الشريف وسافر إلى فرنسا ليدرس التاريخ . وكيف كان لقاؤهما لهذه البيئة الجديدة الغريبة .

أما مالك بن نبى فقد كان قد عاش منذ ولد سنة ١٩٠٥ فى تحديات الاستعمار الفرنسى وواجه منذ رأى الحياة ذلك المنظر القاتم ، فضلا عن أنه شهد فى مطالع حياته تلك النهضة التى حمل لواءها الأمام عبــد الحميد بن باديس .

أما طه حسين فقد عاش فى ظل الإستعمار الإنجليزى وشهد كرومر فى عنفوانه واتصل بالأزهر الذى كان يشتعل بالحماسة الوطنية والدينية ضد الإستعمار وعاصر حركة الشيخ محمد عبده الداعيـــة إلى تجديد الإسلام بالعودة إلى منابعه الأصيله .

* * *

٣ — أما مالك بن نبى فإنه منذ اليوم الأول إلى اليوم الأخير لاقامته فى فرنسا فقد التزم ايمانه بدينة وامته وفكره وحاول أن ينتفع بذلك العلم التجريبى الذى ينقص المسلمين ليجعل منه أداة صالحة للعمل فى اطار مفهومه الإسلامى .

ولقد شهد اساتذته كيف أنه كان صارما فى هذا الألتزام وكيف عجزوا عن كسبه إلى صفوف أصدقاء الثقافة القرنسية .

ولكن ذلك لم يمر دون عقاب ، بعد المحاولات المتعددة التى أجريت لاغرائه واحتوائه .

كان الثمن معروفا هو أنه بعد أن حصل على احازته بتفوق اقفلت فى وجهه كل الأبواب ، وعجز عن الحصول على أى فرصة التدريب ثم لم يتح له فرصة

العمل ، بل أن والده الكهل أقصى من عمله ، وقطعت عنهم وسائل كثيرة من الرزق ، وذلك عقابا على ذلك الموقف .

ولكن مالك بن نبى كان مؤمنا بما حدد لنفسه من موقف منذ شبابه فما يهم ذلك المتاع الفانى من متاع الدنيا فى سبيل الحيلولة دون رفع لواء الجهاد فى وجه الإستعمار ومخططاته ، ومن هنا كان اتجاهه إلى ساحة القلم ، ودعوته إلى فهم موقف الغرب من الإسلام والمسلمين والكشف عن أخطار الغزو الثقافى والتغريب .

٤ — وإذا كان مالك بن نبى لا يملك الاداة العربية ليقول كلمته فليكتبها بالفرنسية يجبه بها هؤلاء واعوانهم وكثيراً من العرب الذين لا يقرءون إلا اللغات الأجنبية .

وكان لابد أيضاً لمالك بن نبى أن يقوم بدور آخر غير دور الدفاع وتصحيح المفاهيم ذلك هو دور تقديم الإسلام إلى العقل الغربى واصحاب اللغة الفرنسية واصحاب الأديان والايدلوجيات . وكان صادقا فى خطته ولذلك فقد وفق فى عمله إلى أبعد حد : دافع أصدق الدفاع وهاجم مخططات التغريب والغزو الثقافى . وأهدى الإسلام إلى الفكر الفرنسى على النحو الذى جذب اليه الكثيرين من المستنيرين فاسلم على كتبه عدد من الاعلام منهم السيد على سليمان بنوا الفرنسى الحاصل على الدكتوراه فى الطب : ولقد اتيح له فى السنوات الأخيرة أن يتقدم مرحلة أخرى إلى الأمام حين أخذ يكتب باللغة العربية وقدم بها عددا من إنتاجه منها (الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة) وإنتاج المستشرقين ،مذكرات شاهد القرن ، افاق جزائرية .

ولقد اثبتت هذه المؤلفات قدرة هذا الكاتب على أداء رسالته بالفصحى : لغة القرآن بعد أن كان يكتب بالفرنسية وتترجم مؤلفاته إلى العربية .

• • •

٥ — وهذه الصورة تختلف اختلافا كبيرا مع الصورة الأخرى المقابلة ذلك أن طه حسين تعرف إلى المستشرقين الفرنسيين فى مصر وهم يلقون محاضراتهم فى الجامعة المصرية القديمة ولما أتصل بهم وقف من الأزهر موقف العداء والخصومة. وتنكر لكل ما تعلمه فيه وأعلن أنه لم يعرف العلم الحقيقى إلا على ايدى المستشرقين .

فلما سافر إلى فرنسا القى بنفسه فى أحضان الفرنسيين والاستشراق الفرنسى القاءاً كاملا ، حتى لقد تحول تحولا كاملا بأن اصهر اليهم ، وارتبط بهم اجتماعيا ولغويا وثقافيا .

ولم يتوقف عن تبنى اراء الاستشراق ومفاهيمهم كاملة ، بل أن هذا الرباط بينه وبين الفكر الاستشراقى الفرنسى كانت له نتائجه الحاسمه فى دراستيه الاوليين : عن ابى العلاء حيث أعلن ايمانه بالجبرية التاريخية (فى هذا الوقت الباكر) وفى رسالة عن ابن خلدون حيث انتقض الرجل الجليل انتقاصا شديداً وكان فى هذه وتلك على ولاء صادق مع آراء المستشرقين .

فلما عاد إلى مصر حمل لواء العمل فى حقل التغريب والتبعية الثقافية وتوسع فيه فلم يدع مجالا من المجالات دون أن يسهم فيه (التاريخ ـ الادب ـ التراجم ـ الثقافة ـ السيرة) .

ومن حيث كان مالك بن نبى يعمل على تحرير الفكر الإسلامى من شبهات الاستشراق وزيف نظريات التغريب ، كان طه حسين يعمل على غزو الفكر الاسلامى فى مختلف مجالاته بالفكرة الوافدة .

٦ — أما فى التاريخ فقد واجه طه حسين الفكر الإسلامى بنظرية الشك فى نصوص التاريخ فى محاولة لانتقاص أمجاد التاريخ الإسلامى وبطولاته أما فى التراجم فقد اعتمد منهج النظرة المادية إلى العظماء ومحاولة تبرير اعمالهم بوراثياتهم وعنصريتهم وتجاهل اثر الفكر الإسلامى القائم على التوحيد الذى غير النفوس والعقول .

أما فى الآدب فقد اعتمد مذهب سانت بيف وتين وهما يقرران أن الإنسان شيء مادى كالحشرة والحيوان وينكران جانب النفس والروح ولا يعتدان بهما فى مفهوم الآدب أو نقد الآدب . أما فى الثقافة فهو يحاول أن يعلن أن الثقافة الإسلامية نتاج هلينى يونانى وأن مصر جزء من العالم الرومانى اليونانى القديم .

أما فى السيرة فانه يعلى شأن الاساطير والقصص الخيالية التى نحيت عن السيرة منذ زمن فأعاد احيائها .

• • •

٧ — وحين يرى مالك بن نبى أن الفكر الإسلامى وليد القرآن الكريم يرى طه حسين أنه جزء من الفكر اليونانى وأن الاسلام لم يغير شيئاً من العقلية المتوسطية التى فرضت على مصر وسوريا وغيرها . وحين يرى مالك بن نبى إننا لابد أن ننقل العلوم التكنولوجية إلى اللغة العربية بأعتبار أن اللغة قاعدة الفكر ، يرى طه حسين أن نفنى فى الحضارة الغربية وأن نتقبلها خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحمد منها ومايعاب .

وحين يرى مالك بن نبى أننا لابد أن نخرج من الحلقة الضيقة التى وضعنا فيها الإستعمار بالتبعية يرى طه حسين أننا يجب أن نكون غربيين أولا وأن ننسى قوميتنا وديننا فى سبيل أن نصل إلى مستوى الأمم المتحضرة .

٨ — تلك مقارنات قليلة ولكنها تمثل أكبر وجهات النظر فى تلك المواجهة الخطيرة بين رجل آمن بامته وعقيدته فوقف فى وجه الاستعمار والغزو الثقافى حتى لم تتح له الفرصة لأن يباشر عملا يتصل بخبرته العلمية ورجل مهدت له كل الوسائل من استاذ للآدب إلى عميد لكلية الآداب إلى مدير للجامعة إلى مستشار لوزارة المعارف إلى وزير لها بالرغم من كل الصيحات التى عارضت وجوده فى هذه المناصب لأنه زاوج بين نفسه وبين الفكر الغربى وتقبل آراء المستشرقين ونقلها إلى اللغة العربية كأنها من نتاجه الخاص .

٩ — ويمكن القول أنه حين جاء الموت كان الموقف كالآتى :

كانت كل أفكار مالك بن نبى تثمر وتورق لأنها تعتمد على الحق وكانت تفتح الطريق أمام المثقفين إلى معرفة الأخطار وإلى مواجهة التحديات وإلى الانطلاق إلى كسر هذه الحلقة التى وضع التغريب فيها فكرنا الاسلامى .

وكانت فكرة الكومنولث الإسلامى التى تبناها مالك بن نبى قد اخذت طريقها إلى التطبيق .

وكانت نظريته فى فصل العلوم عن الحضارة المادية وإلى اعلاء مفهوم القرآن كأساس للفكر الإسلامى واللغة العربية كمصدر للنهضة كل أولئك قد امتد وساد ونمته أقلام كتاب جاءوا من بعد مالك بن نبى وساروا فى طريقه .

أما طه حسين فانه مات بعد أن تحطمت كل أفكاره ودمرت كل نظرياته وكشف البحث العلمى زيف كل معطياته وتعرف الناس على مدى الأخطار التى يحملها هذا الفكر .

١٠ — فإذا اردت ايضاحا أكثر قلنا .

(أولا) أن نظرية طه حسين فى الشعر الجاهلي قد نقضت علميا على أيدى عديد من الباحثين ولم تثبت للبحث الصحيح وظهر فيها الهوى والغرض ، بل وتكشف أنها من نتاج المستشرقين وأن المستشرق اليهودى مرجليوث قد سبق طه حسين إلى هذه الآراء ولعل خير مايمكن مراجعته فى هذا الصدد رسالة الدكتور ناصر الدين الاسد عن الشعر الجاهلى .

(ثانيا) أن نظريته فى مستقبل الثقافه عن أن العقل العربى الإسلامى هو عقل يونانى قد ثبت بطلانها وكشف عوارها عدد كبير من الباحثين وفى مقدمتهم الإمام حسن البنا وسيد قطب خاصة فى كسر عنق حقائق التاريخ بانكار صلة بالعرب والإسلام وارتباطها بالبحر المتوسط واليونان واوربا .

(ثالثاً) منهجه فى هامش السيرة التى استباح لنفسه فيـــه اعادة الأساطير والإسرائيليات مرة أخرى إلى السيرة النبوية بعد أن نقاها منها الباحثون ، بل وما سمح لنفسه به من التزيد والاضافة فى هذه الأساطير كان عملا خطيراً شجيه

كثير من الباحثين وفى مقدمتهم صديقه ورفيقه فى طريق دعوةالتجديد الدكتور محمد حسين هيكل مؤلف كتاب حياة محمد بل أن الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى قال عن هذا الكتاب أنه « تهكم صريح » .

(رابعاً) نظريته فى كتاب (الفتنة الكبرى) اعتمدت على كتاب قديم مجهول الأصل ، هو كتاب انساب الأشراف الذى فقد منه خمسة أجزاء ثم جاء يهودى فى القدس المحتلة فطبع الجزء السادس منه دون غيره ولا بد أنه كان يستهدف من ذلك عرضا واضحا هذا الكتاب هو المصدر الأكبر فى الشبهات التى أثارها طه حسين حول الصحابة وقد عارض هذه الأفكار الاستاذ محمود محمد شاكر فى بحوث مستفيضةيمكن الرجوع اليها فى الصحف وفى كتابنا (المساجلات والمعارك الأدبية).

(خامسا) موقفه من معارضته العروبة ومؤازرة الفرعونية واعلانه فى صحيفة كوكب الشرق عام ١٩٣٤ أو ١٩٣٥ أن مصر احتلت باليونان والرومان والعرب والفرنسيين والإنجليز كانت له آثار خطيرة فقد احرقت كتبه فى ميدان عام فى دمشق .

وما يدرس الآن فى الجامعات إنما يمثل الرد على زيف تجريد مصر من عروبتها وأصالتها الإسلامية .

(سادساً) جمعت لطه حسين على فترات متباعدة آراء فى اليهودية القديمة تدل على محاولة منه فى القول بأن العرب تلقوا على اليهود ، كذلك كان فيما نقله لتلاميذه فى كلية الآداب من القول بقرآن مكى وقرآن مدنى يوصف الأول بالقسوة ويوصف الثانى بالرقة وترد هذه الرقة إلى الصلة باليهود فى المدينة ، بالإضافة إلى تلك الصيحة المنكرة التى استهل بها حياته الأدبية بالقول (فلتحدثنا التوراه وليحدثنا القرآن عن إبراهيم واسماعيل) وانكار وجودهما .

هذا مع اتصاله بالمستشرقين اليهود دراسة فى جامعة باريس (دور كايم) وسرقه (مرجليوث) بالإضافة إلى تبنيه (إسرائيل ولفنسون) وتقديم كتابه (اليهود فى جزيرة العرب) بمقدمة فيها كثير من الزيف ومحاولة اعطاء اليهود

أثراً فى الآدب العربى ، كل هذا قــد القى على الدكتور طه شبهة الاتصال بالصهيونية العالمية أو على الأقل بالاستشراق اليهودى فإذا اضفنا إلى ذلك أمرين :

(الأول) أنه تولى فى مصر بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة إدارة دار الكاتب المصرى التى كان يملكها اليهود وأصدر عن طريقها مجلة الكاتب المصرى ومجموعة كتب كلها طعن فى الإسلام فى مقدمتها (العقيدة والشريعة) لجولدزيهر .

(الثانى) أنه لم يكتب كلمة واحدة عن فلسطين وعن التحدى اليهودى والصهيونى وأنه كان يتحدث فى مجالسه عن آراء وصفها (الفيلسوف اللبنانى) شارل مالك بأنها شبيهة بآرائه فى العلاقة بين العرب واليهود إذا ذكرنا ذلك عرفنا إلى أى مدى يمكن أن يوضع طه حسين بالنسبة لمالك بن نبى .

(سابعاً) إذا راجعنا رأيه فى (ابن خلدون) وجدناه أول عربى يحمل على هذا العلامة العظيم الذى شهد له اساطين الباحثين الفرنسيين بريادته فى علمى الاجتماع والتاريخ ، ولقد كان طه حسين فى رأيه فى ابن خلدون متابعاً لرجل يحقد على الإسلام والمسلمين هو (دور كايم) اليهودى استاذ المدرسة الاجتماعية الفرنسية ولقد أراد طه حسين أن يرضيه بتبنى آرائه فى رسالته التى كان يشرف عليها دور كايم ولكن الله خيب أمله فقد مات دور كايم قبل أن تناقش الرسالة وباء طه حسين بإثم تبعيته واحتقاره لعلم كبير وباء بأثم فساد مذهبه وتحامله وضغنه على كل مايشرف الإسلام .

(ثامنا) كان من أكبر أخطاء طه حسين موقفه من شاعر العربية البارز « أبو الطيب المتنبى » فقد أدعى زورا وبهتانا أنه (لقيط) ولم يستند فى ذلك إلى نصوص وإنما إلى شبهات شأنه فى كل ما كتب من اعلاء نظرية الشك والسخرية .

وقد تابع طه حسين فى كراهيته وحقده على المتنبى مستشرقا معروفا هو (بلاشير) الذى حمل على المتنبى فى كتاب له صدر قبل أن يكتب طه حسين كتابه بعام واحد .

(تاسعاً) من ابرز اخطاء طه حسين واهوائه المغرضة التى تابع فيها الاستشراق اليهودى انكره وجود شخصية عبدالله بن سبأ واعتماده فى ذلك على مصادر يهودية ومصادر طبعها اليهود ومن بينها كتاب (أنساب الاشراف) المطبوع فى القدس المحتله .

(عاشراً) محاولة طه حسين نقد القرآن وهى عمل ثابت بالدليل القاطع عندنا فيه دليلان :

(الأول) ما حفظته محاضر مجلس النواب المصرى عام ١٩٣٢.

(الثانى) ما نشرته مجلة (الحديث) لسامى الكيالى من نصوص القاها على طلبته فى كلية الآداب وكان محمود المنجورى الذى نشر تلك النصوص فى مجلة الحديث الحلبية طالبا فى كلية الآداب .

أما ماحفظته محاضر مجلس النواب المصرى فهى نصوص قرأها الدكتور عبد الحميد سعيد من كراسة طالب فى كلية الآداب من تلاميذ طه حسين والأمر فى هذا أن طه حسين كان يحرض طلبته على نقد القرآن بأعتباره نصا ادبيا وكان يدعوهم إلى أن يقولوا : هذه اية جيدة وهذه آية (كذا) وكان يشرح لهم ما نشره المستشرقون من فروق فى الأسلوب بين المكى والمدنى الخ .

وقد حطم هذه الفكرة وزيفها بلغاء المسلمين أمثال مصطفى صادق الرافعى ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا والدكتور محمد أحمد الغمراوى .

(حارى عشر) ما أشار اليه من أنه يعتمد مذهب ديكارت فى الآدب وما نشره حول مفهومه لهذا المذهب .

وقد تعرض الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى كتابه النقد التحليلى للآدب الجاهلى فكشف عن أن ما قدمه طه حسين على أنه نظرية ديكارت فهو غير صحيح وغير كامل وكان طه حسين يدعى أنه يكتب فى أشياء لا يعرف عنها الازهريون شيئاً فتصدى له الغمراوى وكشف زيفه .

(ثانى عشر) خطأ مادعا اليه فى قوله أن الدين نبت من الأرض ولم ينزل من السماء متابعاً فى ذلك نظرية اليهودى دور كايم وقد تصدى له الكثيرون فى إنكار رأيه وفساده .

وبعد فهذه بأختصار الأسس الكبرى لفكر طه حسين التى أقام بها شهرته المدوية بمغايظة الجماهير ومعارضة الحقائق والتصدى بالشك والسخرية للاصول الأصيلة للفكر الإسلامى .

وهى جميعها تكشف عن حقيقة واحدة :

هى أن كل الشبهات التى طرحها طه حسين فى أفق الفكر الإسلامى كان متابعاً فيها للاستشراق ومزينا لوجهة نظره الحاقده على الإسلام والقرآن ، وأن هذه الأفكار والشبهات قد دحضت وكشف زيفها .

ولكن بقى طنين ولمعان وبريق من آثار استطالة عمر طه حسين وما كان يكتبه حواريوه فى تكريمه بينما لم يجد مالك بن بنى مثل هذا الخداع بالباطل ولذلك فإنه لم يصل إلى ما وصل اليه طه حسين من الشهرة ولكنه كان ثابتاً بالأصالة قائماً بالحق بما دفع ارائه إلى مجال القوة والنماء .

وللذين مازالوا مخدوعين بطه حسين أقدم إليهم كتابى :

« طه حسين فى مرآة الاسلام » حيث يعرض وجهة نظر علمية صادقة حول فكره وحياته جميعاً .

(٣)

إنما تمثل حياة مالك بن نبي نموذجا خاصا فريداً فى حيوات المفكرين والباحثين والنوابغ فى العالم الإسلامى من حيث خدتها ونموها، ومن حيث التحديات التى واجهتها،ومن حيث روح الصمود على الحق الذى أمن به وأعتقده دون أن يراود تلك النفس الكبيرة التردد إزاء مطامع الحياة ومطامح النبوغ،ذلك أن مالك بن نبى هو ثمرة تلك الاروقة الجزائرية العربية الإسلامية التى تتميز بالأصرار العنيد إزاء ماتعتقد.وقد تمثل هذا منذاللحظة الأولى التىعبر فيها مالك بن نبىالبحر من

شاطىء الجزائر إلى شاطىء فرنسا حيث كانت الجزائر قد أمضت يومذاك تسعة أعوام بعد المائة تحت نير الاحتلال الفرنسى الذى لم يكن يعتبرها مستعمرة فحسب، بل كان يعتبرها حسبما ورد فى الدستور الفرنسى : « فرنسا الجنوبية » .

ولكن مالك كان قد عرف كل شىء واستوعب كل شىء وتجاوز الازمة لأنه منذ نشأ فى رحاب قسنطينة كان يعرف الطريق إلى كسر هذه القيود كما رسمها أمام الجزائر وقائدها الفكرى الأكبر : عبد الحميد بن باديس منذ عاد من الشرق ومن مكة ومن الازهر عام ١٩١٣ ومنذ صدع بدعوته فى رحاب الجزائر وفوق منابر مساجدها سنوات طوالا حتى أعلن عن دعوته فى العام الثلاثين بعد التسعمائة والألف، فى نفس الوقت الذى كانت صيحة الإستعمار تردد كلمتها الحاسمة : نحن نحتفل بمرور مائة عام على احتلال الجزائر . الجزائر التى « تفرنست » ، هناك قال ابن باديس : اللهم لا ، بل استيقظت الجزائر كيانا مستقلا هو غير فرنسا ، عقيدة ولغة ووطنا . .

ولقد عاش مالك بن نبى منذ صباه هذه المعركة حتى أوفى على الثلاثين وعبر إلى فرنسا ليؤكد أن الشخصية الجزائرية العربية المسلمة قادرة على أن تصل إلى أعلى درجات العلم التجريبى فدرس الهندسة والتكنولوجيا سنوات طوالا حاول خلالها الإستعمار أن يختبره أو يحتويه ولكنه عجز أمام ذلك الأصرار العجيب ، الذى لم يكن يبالى شيئاً إزاء تمسكه بأيمانه بدينه وأمته ووطنه . ومن ثم لقى من العنت الشىء الكبير . .

ولما أتم دراسته وأحرز أجازته وعاد ، كانت تنتظره تلك الصورة القاتمة المظلمة، حيث أغلقت فى وجهه كل أبواب التدريب والعمل جزاء على أنه لم يستسلم ولم يمض فى ركاب الاستعمار حيث يشاء . . وما أبعد الفارق بين هذا وبين أولئك الذين استسلموا وتابعوا بالولاء والعبودية لأوطانهم وأنفسهم وحملوا من بعد على أرقى الوظائف وأعلى الدرجات ، أما مالك بن نبى فقد عزل وعزل والده عن كل نفوذ ...

ولم يكن يملك التردد أو يحاول أن يغير أسلوبه فذلك كله فى نظره فتات تافه لا أهمية له ، وإنما هو تعلم ودرس ليكون صاحب إداة قادرة على أن يقدم الإسلام إلى الغرب بلغة يعرفوها وبأسلوب رفيع يهز نفوسهم .

وكذلك انتقل مالك إلى مكة فاعتكف فى البيت الحرام يدرس الإسلام فى أصوله الأصيلة ويستقصى قيمه ومفاهيمه ، ثم يبدأ كتاباته التى كانت فتحا جديداً فى بابها ليس للغربيين فقط ، وإنما لأبناء وطنه المسلمين أيضاً ، فلم تلبث هذه المؤلفات أن ترجمت واعجب بها الباحثون. واليوم وقد انتهت تلك الحياة العريضة الخصبة ، لا نقول أن الإنسانية فقدت أو أن يد المنون اختطفت وإنما نقول كما علمنا الإسلام أن رجلا أتاه الله علما وقد أوفى إلى الغاية وقدم ماعنده وأتم الله له النعمة ، وانتهت رسالته مع أخر أنفاسه . وقد قدم الكثير والخصيب ، وقدم نموذجا من الحياة هو أعظم أثراً ومثلا للذين يؤمنون بالقيم ويضعونها فوق كل المغانم والأهواء . .

ولقد هدت كتابات مالك بن نبى الكثير من المثقفين الغربيين ، وخاصة كتابه « الظاهرة القرآنية » الذى وصف بأنه أوقد شرارة فى أعماق الفكر الاوربى ، وأنه فتح نافذة أطل منها العديد من المثقفين والقراء الفرنسيين على القرآن الكريم وعلى الدين الإسلامى ثم اعلنوا اسلامهم مسجلين فضل مالك بن نبى ، ومن هؤلاء الدكتور على سليمان بنوا المسلم الفرنسى الحائز على درجة الدكتوراه فى الطب حيث يقول فى شرح العوامل التى قادته إلى اعتناق الإسلام :

« أما مركز الثقل والعامل الرئيسى فى اعتناق الإسلام فهو القرآن الكريم الذى بدأت قبل أن أسلم فى دراسته بالعقلية الغربية المفكرة الناقدة ، وأنى مدين بالشيء الكثير للكتاب العظيم الذى ألفه المفكر مالك بن نبى وسماه « الظاهرة القرآنية » ، والذى أقنعنى بأن القرآن كتاب وحى منزل من عند الله » .

دعوة إلى الثقافة الإسلامية .

ويحمل مالك بن نبى فى تضاعيف إنتاجه دعوة إلى إنشاء الثقافة الإسلامية التى تتشكل فى قالب تربوى وتتضمن قيما أربع هى :

القيمة الأخلاقية ـ القيمة الاجتماعية ـ القيمة العملية ـ القيمة التكنية . ويقرر مالك بن نبى أن القيمة الأخلاقية هى عامل أساسى فى مختلف المجالات وأن فقدانها من شأنه أن يدمر النظام الاجتماعى كله ويحول بينه وبين الصعود والاستمرار والتقـــدم .

ويقرر مالك بن نبى أن العالم الإسلامى اليوم يعيش مرحلة (مابعد الحضارة) وأن المسئولية الملقاة على الجيل الإسلامى المعاصر هى العودة بالمجتمع الإسلامى إلى (عالم الحضارة) بحسبان أن المسلمين أمة رسالة وأمة مسئولة تجاه نفسها وتجاه الإنسانية ككل . ويرى أن القضية اليوم تنحصر فى ايجاد الدوافع والمبرارات الجديدة التى تجدد فى المسلم شعور الطموح والرسالة : شعورايجعله ينظر إلى نفسه كصاحب رسالة وإلى نبيه كنقذ ، ذلك لأنه يرى أن الإنسانية فى سيرها الحاضر إنما تتجه نحو الايمان أكثر من اتجاهها نحو الالحاد .

ويوضح هذا المعنى حين يقول : « لقد تبين لى من خلال مانشاهده اليوم من مظاهر الحيرة والقلق فى نفوس الشباب فى البلاد المتقدمة أن المستقبل لن يحقق استقرار الجيل المقبل إلا بمراجعة القضية الإنسانية بحيث أن من المتوقع أن الدراسات والاهتمامات ستتجه أكثر إلى الدين وإلى البحث عن الحقيقة فى الأديان ، وأن لدى الإسلام منهجا حيـــويا متكاملا لتحقيق الخير والعدالة والمساواة للانسانية جميعاً » .

ويرى مالك بن نبى أن المذاهب والأيديولوجيات التى تحاول أن تعالج المشكلة الإنسانية من الجانب المادى وحده قد عجزت وستعجز عن أن تحقق مطالب الأجيال الحاضرة والمستقبلة .

ولذلك فإن الإسلام وحده هو أمل الأمم والشعوب اليوم بعد أن فقدت هذه الأمم أملها فى الايدلوجيات الغربية بشعاريها .

يقول : أرى أن الامة الإسلامية مختفية اليوم ، أما مستقبلا فإن المستقبل لها لانها الأمة التى تحمل فى صدرها وأرواحها تجسيد وعد الله : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

ويرى مالك بن نبى أن رسالة المسلم اليوم ، وبوجه خاص المسلم المثقف ليست رسالة علوم ولكنها رسالة أخلاق.

ويرد مالك بن نبى عوامل الضعف القائمة الآن فى العالم الإسلامى إلى عوامل عدة أهمها :

أولا : أننا فقدنا الصلة بيننا وبين ثقافتنا الأصيلة .

ثانياً : أن طليعتنا المثقفة لم تذهب للجامعات الأجنبية لتستكشف أفاقا ثقافية وإنما ذهبت من أجل العودة بشهادات تحقق لها مراكز إجتماعية مرموقة ، هذا على أحسن تقدير — أو لتجد فى أوربا فرصا ومناسبات للتسلية بكل أنواعها ، هذا على أسوأ تقدير . وفى كلا الحالين فإن الطالب المسلم اليوم محروم من ثقافة ماضية ، غير متصل بالثقافة الإسلامية الأصيلة .

نظرية الإنسان والتراب والوقت :

ويقرر مالك بن نبى أن الحضارة تبنى من عناصر ثلاثة هى الإنسان والتراب والزمن . . . ولكن هذه المواد لا تستطيع أن تلتئم وتحقق عملها إلا إذا تحركت فى إطار الدين فهو الذى يربطها فى الحركة ويعصمها فى نفس الوقت من الأنهيار .

وقد رأى مالك بن نبى فى القرآن الكريم النص المبدئى لتكوين الأمم والمجتمعات وذلك فى قوله تعالى : (أن الله لا يغير مابقـــوم حتى يغيروا مابأنفسهم) :

ويستطرد فى توضيح مفهومه للحضارة فيقول « من المعلوم أن جزيرة العرب لم يكن لها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوى يعيش فى صحراء مجدبة يذهب وقته هباء لا ينتفع به لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة : (الإنسان والتراب والوقت) راكدة خامدة ، وبعبارة أصح مكدسة لا تؤدى دوراً مافى التاريخ حتى إذا ماتجلت الروح بغار حراء ـ نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة ، فكأنما ولدتها كلمة (أقرأ) التى أدهشت النبى الأمى وآثارت معه وعليه العالم ، فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ حيث ظلت قرونا طوالا تحمل للعالم حضارة جديدة وتقوده إلى التمدن والرقى . .

« ومما هو جدير بالاعتبار أن هذه الوثبة لم تكن من صنع السياسيين ولا العلماء الفطاحل بل كانت بين أناس يتسمون بالبساطة ورجال لا يزالون فى بدأوتهم ، غير أن أنظارهم توجهت فى هذه اللحظات إلى ماوراء أفق الأرض أو إلى ماوراء الأفق القريب ، فتجلت لهم آيات فى أنفسهم وتراءت لهم أنوارها فى الافاق .

ومن هنا ندرك سر دعوة القرآن الكريم المؤمنين إلى التأمل فيما مضى من سير الأمم وذلك حتى يدركوا كيف تتركب الكتلة الخصبة من الإنسان والتراب والوقت .

وينطلق مالك بن نبى فى دراسته لأزمة الفكر الإسلامى المعاصر من واقع الجزائر ومن قضية كبرى ذات خطر وهى مدى قدرة الجزائر على التحرر من القالب الحديدى ، والدائرة المغلقة التى حاول الإستعمار الفرنسى أن يفرضها عليه ويصهره فيها . وقد استطاعت دعوة ابن باديس أن تكسر هذا القيد بأسلوب مختلف عن الأساليب التى عرفتها الأمم ، فقد كانوا يقولون أن اللغة هى منطلق القدرة على استعادة الذات والكيان ولكن تجربة الجزائر خالفت ذلك وأثبتت أن العقيدة هى أقدر وأقوى وأشد عزما ونفاذاوأن اللغة تابعة لها .

أن صدق مالك بن نبى فى فهم الإسلام : دينا ونظام مجتمعوفهم القرآن كرسالة شامله للبشرية ، وعمق ايمانه بقدرة الإسلام على تجديد هذه الأمة ، ومقدرة القرآن على اعادة صياغتها من جديد ـ هو وحده الذى حفظ مفاهيمه من أن

تنصهر فى مفهوم التغريب الذى سيطر على الكثيرين ، وبالرغم من أن دراساته لم تكن فى معاهد الدين أول الأمر فإنه كان خيراً ممن درسوا فى هذه المعاهد، ثم جرفتهم زيوف التبشير والاستشراق ، فبرروا مفاهيم الغرب وحولوا مفاهيم الإسلام إلى ماهو بعيد عن أصالته ومنابعه الأصيلة .

ويبدو مالك بن نبى قريباً فى منهجه من محمد اقبال ، فكلاهما واجه مفاهيم الفكر الغربى والفلسفات الأوربية وحاول أن يكشف عن أن مافى الإسلام أصدق منها وأعمق منها ، ليس للمسلمين وحدهم ولكن للبشرية كلها .

(٤)

الدكتور محمد عبد الله العربي

كان الدكتور محمد عبد الله العربي قطبا من أقطاب الفكر الإسلامى ، وعالما جليلاله نظرية كاملة فى الحياة والمجتمع مستمدة من مفهوم الاسلام ،طرحها فى عديد من مؤلفاته وأبحاثه ، وحاول بها تقديم « ايدولوجية » إسلامية للامة العربية فى مواجهة الأيولوجيات المختلفة .

والدكتور العربى واحد من ذلك الرعيل الذى بدأ حياته الفكرية فى الثلاثينيات من هذا القرن بعد أن أتم دراسته كلية الحقوق فى القاهرة وأحرز أرقى الشهادات من جامعتى أكسفورد بأنجلترا وليون بفرنسا فى دراسات النظم الدستورية والادارية والماليه ،وعمل فى سلك الجامعة المصرية، ومعاهد العالم العربى المختلفة وقد انتشرت مؤلفاته العديدة فى مجال القانون والاقتصاد كما عنى بأعداد موسوعة ضخمة فى مبادى علم المالية العام فى ٤ مجلدات .

وبدأت مؤلفاته تشق طريقها منذ عام ١٩٢٦ تقريباً ، ولكنها اتسمت فى الخمسينات بأتجاه جديد حيث اتصلت بالدراسات الاسلامية والعربية فكان من أهمها (ديمقراطية القومية العربية بين الشرق والغرب) والاقتصاد الاسلامى وسياسة الحكم وحرب الانسان ضد الجوع وسوء التغذية والملكية الخاصة وحدودها فى الاسلام والاقتصاد العالمى بالمقارنة إلى الاقتصاد الاسلامى .

كما رأس فى السنوات الأخيرة معهد الدراسات الاسلامية وعمل عضوا بمجمع البحوث الاسلامية وساهم بقدر كبير فى الدراسات المختلفة حول النظم الاسلامية والنظام الاقتصادى العالمى .

وكانت دعوته الكبرى إلى تصحيح الفكرة الخاطئة التى أشاعها الغرب والاستعمار عن ربط انحطاط الامم الاسلامية بالأستمرار فى التمسك بدينها الاسلامى ودحض ماحاوله كثير من المستشرقين من تشويه تعاليم الاسلام ،

وعرض مفاهيمه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى أطار من الجمود والركود حتى يصلوا إلى القول بأنها لا تلائم العصر الحديث وحتى يتسرب هذا التصور الخاطىء إلى عقول الشباب المثقف ولذلك فقد كانت رسالته إلى الشباب فى معهد الدراسات الاسلامية هى إبراز التعاليم الاسلامية فى وضعها الصحيح سواء فى مجال الاقتصاد أو النظم أو الدولة بعيدة عن تشويهات عصور الانحلال والاستعمار ، وذلك مساهمة منه فى تكوين نواة من الباحثين تتوفر فيهم القدرة على وضع الحلول لمشكلات هذا العصر فى ضوء تعاليم الاسلام الاساسية .

وهو يرسم مفاهيم الاسلام إزاء قضايا العصر فى مختلف دراساته ومؤلفاته على نحو يدل على عمق الايمان وسلامة الأداء العقلى والعلمى ، ووفق أحدث مستويات البحث العلمى فيقرر (أولا) أن الاسلام خاتم الديانات الالهية للبشر لم يترك جانباً من جوانب حياتهم إلا وضع فيه تعاليم تناولت تنظم الشئون الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ففى ملكية المال فرض التكاليف على مالك المال التى تؤدى إلى نفعه ونفع المجتمع على السواء وكذلك فرض على مالك المال أن يحسن استثماره لأن الاسلام يبغض الفقر ويكافحه وحث على أن يتبع المالك أشد الأساليب فى استثمار ماله ثم فرض ضريبة الزكاة التى تؤدى إلى تداول الثروة فى المجتمع وتخلق جوا من التراحم والمودة بين الأفراد والجماعة وفرض عليه ثالثاً أن ينفق فى سبيل الله فوق الزكاة وفرض عليه رابعاً أن يتجنب الاسراف والتقتير على السواء وإلا يستعمل مايملكه فى الحاق أى ضرر بالمجتمع وأن يمتنع عن المعاملات التى تؤدى إلى تنمية ماله بطرق غير مشروعه كالغش والاحتكار والربا ويقول : هذه الفرائض لو قارناها بالاقتصاد الغربى لوجدنا أنها تختلف عنه اختلافا جوهريا ففى اقتصاد الغرب أن حق ملكية المال مطلق من كل قيد ، ولذلك يتصرف أصحاب المال فيه دون أن يراعوا مصلحة المجتمع ويركزون همهم فى مكاسبهم الخاصة فينشأ عن ذلك اشتعال البغضاء بين الطبقات المحرومة وقيامها بالثورات والاضطرابات .

هذا عن الدعامة الأولى للاقتصاد وهى دعامة المال أما الدعامة الثانية للاقتصاد

وهى دعامة العمل فإن الاسلام بحث على العمل الانتاج وبحث المسلم وهو يعمل على إبتغاء مرضاة الله والسعى إلى تحقيق فلاح الدنيا والآخرة .

وعنده أن هناك بديلا إسلاميا للربا يسمى (عقد القراض) أو المضاربة ، وكان من المشغولين فى الدعوة اليه وتنفيذه بديلا عمليا فى المصارف الاسلامية والعربية .

ويستكمل الدكتور محمد عبد الله العربى نظام حكومى يجب التقيد به ، هذا النظام هو الديمقراطية السياسية فى اسمى أوضاعها وأصول هذا النظام هى : أولا : إختيار رئيس الدولة أو الخليفة بالمبايعة أو الانتخاب العام ، ثم تقييد هذا الخليفة فى تصريف شئون الدولة بالشورى ، ثم قرر فى عديد من الآيات ومتواتر الاحاديث تلك المبادىء الأساسية التى على هديها إنفجر بركان الثورة الفرنسية وثورات أخرى سابقة ولاحقة (مبادىء الحرية والأخاء والمساواة) ثم قرر إلى جانب ذلك ، تلك الأصول الدستورية التى بدونها يكون النظام البرلمانى اسما على غير مسمى (حرية القول والرأى والنقد) .

وقد تم للانسان بمقتضى الاسلام أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له إنسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ماهيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها ، حين قرر الاسلام حرية الارادة وحرية الرأى والمساواة ودعمها بثوب طهور من الأخلاق ، أسبغه على سلوك الأفراد والجماعات ، لتكون الوقاية المنيعة لهذا البنيان الديمقراطى الرفيـــع .

والأخلاق عند باحثنا الكبير هى علة العلل فى الديمقراطيات الحديثة ومصدر أزماتها الخانقة بل الداء الوبيل الذى ينخر فى هيكلها حتى لتوشك أن تنهار فقد ارتبط النظام الديمقراطى السياسى الغربى بضعف الوازع الدينى .

وأشار إلى إنحراف الغربيين عن تعاليم الأديان ، وانكبابهم على المادة انكبابا كليا حتى صارت فى حياة الناس غاية ولا وسيلة واشار إلى الوسطية التى

امتاز بها الاسلام والتى قضت بمداومة التوفيق بين الروحية والمادية القوتين الدافعتين فى حياة الانسان .

(ثالثاً) ويقرر الدكتور العربى أن الفكر السياسى الغربى يرى أن الأديان السماوية ليست لها رسالة فى أمر الدولة أو شئون الحكم ، فهذه من شئون الدنيا التى ينفرد البشر بتنظيمها على أساس أن ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

ولكن الاسلام وهو خاتم الأديان وهو البصير بما سوف يفضى اليه التطور الانسانى كان لابد له أن يستكمل هداية الانسانية فى جميع شئونها فى الجانب الخاص والجانب العام من حياة المجتمعات الانسانية ووضع الأصول إلى يجب على كل مجتمع إنسانى أن يسير فى نطاقها فى الجانبين على السواء ثم أطلق لكل مجتمع حرية البناء على هذه الأصول والتفريع والتفصيل فيما بينه على ضوء تطورات كل زمان مادام ذلك فى نطاق الأصول العامة .

الاسلام يقر الهيكل المادى للدولة (كما يصوره الفكر الغربى فى عناصره الثلاثة (أرض وشعب وحكومة) لأنه يطابق الواقع المادى الذى لا يعارضه الاسلام ولكنه يحيط هذا الهيكل المادى بأطار من روحانياته تتمثل فى الأصول التى فرضت تعاليم (خلقية وإقتصادية وسياسية) ثم يتميز فى أحد هذه العناصر المادية « عنصر القومية » باتجاه أوسع فى أفاقه واعمق فى إنسانيته مما يتخذه التصوير الغربى .

ويركز الاسلام على التعاليم الخلقية التى قوامها الايمان بوحدة الله فلا يعبد المسلم مع ربه أحداً والانسان خليفة الله فى الأرض وبذلك وضع كرامة الفرد على أمتن أساس وجعل قيامه على هذه الفضائل نتيجة منطقية لهذه الخلافة ثم لم يقتصر علي هذا التوجيه الوجدانى ، بل اتجه اتجاها عمليا لتحقيق هذا التوجيه ففرض عبادته وكلها تدريب فعال علي تدعيم هذه الفضائل فى نفس المسلم وأشعار له بالرقابة الالهية على نشاطه اليومى .

(رابعاً) أما نظرة الاسلام إلى المال فالمال كله ملك لله وحده الذى له ملكوت السموات والأرض أما الانسان فى إختصاصه ببعض هذا المال فليس إلا خليفة لله

فيه ، استخلفه فى الانتفاع بهذا المال ، فوجب أن ينهض بأعباء هذه الخلافة وهى أما تكاليف إيجابية تمثل فى فريضة الزكاة التى حدد الاسلام نصابها أو فى فريضة الانفاق فى سبيل الله وهى أوسع نطاقا من فريضة الزكاة لانها تمتد إلى الانفاق فى سبيل مصلحة المجتمع .

وفى وجوب استثمار المالك لماله إذا كان هذا المال من مصادر الانتاج ، وقد قرر الاسلام فى شأن المال :

١ — كف المالك يده فى استعمال ماله فى إلحاق الاذى أو الضرر بمصلحة الجماعة .

٢ — تحريم الربا .

٣ — تحريم الاحتكار إذا كان فيه إضرار بمصلحة الجماعة .

٤ — تحريم الاسراف والشح على السواء .

(خامساً) ويشير الباحث إلى مفهوم الاسلام للتطور فيقول أن التوجيه الاسلامى فى استخدام العقل قام على معايير عامة يهتدى بها فى تفصيل جميع تعاليم الاسلام الكلية أى فى كل مايمس المجتمع الاسلامى فيما عدا الشئون التعبدية .

هذه المعايير العامة تكفل أكبر قسط من المرونة فى التشريع ، وأوسع قدرة على مواجهة كل جديد من أحداث الحياة غير المحدودة بتطوراتها غير المتناهية ، مواجهة تظل دائماً فى نطاق هذه التعاليم الكلية من هذه المعايير العامة (القياس) وما يتفرع منه وما اقترن به من استحسان واستصلاح . . وسد الذرائع والعرف .

هذه المعايير العامة التى يجب الاهتداء اليها وتطبيقها تطبيقا بصيرا مستمراً لوضع التعاليم الكلية موضع التنفيذ ، وقد أقر الاسلام التعاليم الكلية ، وسمح لمجتهدى المسلمين بالنظر فى التفصيلات الجزئية ، وذلك حتى لا يقيد الاجيال

للقبلة بهذه التفصيلات والتطبيقات بل يتركها حرة تقتبس الوضع التى تتوافر فيه الملاءمة العملية لحاجات كل زمان ومكان .

ويرى الباحث أن تعاليم الإسلام ينبعث الاذعان لها من وجدان الفرد ، قبل أن ينبعث من سلطان الدولة .

(سادساً) ويكمل الدكتور عبد الله العربى نظريته الإسلامية الشاملة إلى الحياة والمجتمع بموقف الإسلام من القوميه فيقول :

أن الإسلام يتجه نحو عنصر القومية اتجاها أوسع فى أعماقه وأوسع فى إنسانيته من التصور السائد للقومية فى الفقه الغربى فتعاليم الإسلام الخلقية فى الاخاء الانسانى والمساواة بين البشر الذين خلقهم الله من نفس واحدة تأبى عليه أن يتخذ من القومية المحلية تبريرا لعدوان قوم على قوم ، وبذلك ينفى الإسلام فكرة التميز العنصرى واستغلال رقعة من الأرض لحساب رقعة أخرى أو استغلال طائفة من البشر لحساب طائفة أخرى ، وتعاليم الإسلام تقضى بأن الله استخلف الجنس البشرى كله فى هذه الأرض لعمارتها واستغلالها بلا تمييز فارق بين قوم وقوم والقومية فى نظر الإسلام باعتبارها عنصرا من عناصر بناء الدولة هى رابطة تؤلف بين جماعة تعيش فى رقعة ذات حدود جغرافية متقاربة وليست دعوة للانعزال عن أقوام آخرين يقيمون فى رقعات أخرى أو تناصبهم العداء ، بل هى دعوة إلى التعارف والتعاون بين هذه القوميات المختلفة .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وبذلك جعل التقوى مقياس الصلاحية للافراد والشعوب على السواء والتقوى تعبير شامل لجميع الفضائل التى تهدف لخير الفرد والمجتمع . « ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى .

ويصل إلى القول بأن هذا التوجيه الإسلامى فى أمر القوميـــة يفضى إلى نتائج ثلاثة :

(أولا) أن الأقليات غير الإسلامية التي تعيش في الأوطان ترتبط من غير حرج ولا عسر كالأكثرية الإسلامية برابطة القومية المشتركة مع الأكثرية، ويسوى بينها في التمتع بالحقوق والواجبات.

(ثانياً) أن الإسلام ينزع من فكره القومية تلك الانانية الطاغية التي من شأنها أن تخلق منافسة مدمرة بين القوميات المتباينة وأن تستأثر لذاتها دون سائر الامم بخيرات الأرض « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

(ثالثاً) أنه مادام التآخى والتعاون هو فريضة الاسلام فان تآخى الشعوب الإسلامية وتعاونها فيما بينها أوجب وألزم لاتحادها في العقيدة ومنهج الحياة.

ويرى أنه ينبغي أن تلتقي جميع القوميات تحت لواء الأخوة العالمية ويقارن بين مفهوم الإسلام وبين واقع القوميات الغربية ،وما حاكته من نظريات تبرر به نضالها الدامى وكفاحها في سبيل السيطرة على العالم وما اصطبغت به القوميات الغربية من انانية زجت بها طوال العصور الماضية في ظروف مدمرة.

وعنده أن القومية العربية بمعناها الإسلامي تؤمن بكرامة الإنسان والاخاء الإنساني فهى لا تناصب الامم الأخرى العداء ولا تعتدى عليها وكذلك لا محل في القومية العربية للأخذ بالتفرقة العنصرية ويشير الدكتور العربي إلى (عراقة) القومية العربية وتمسكها بتعاليم الإسلام الذى تهتدى به في كل مناهج حياتها منذ أقدم العصور ، وأنها من أجل ذلك لا يمكن أن تقلد تقليدا أعمى النظم السائدة في الشرق أو في الغرب لأن أنظمتها الرئيسية مستمدة من المبادىء الكلية السامية التي جاء بها القرآن.

تلك محاولة سريعة لتصوير منهج الدكتور محمد عبد الله العربي في فهمه لإيدلوجية الإسلام في نطاق المجتمع ومن خلال مفاهيم الإقتصاد والسياسة القومية وهى في مجموعها تمثل فكر رائد ومصلح إسلامي وصل إلى قمة الفهم للفكر الغربي واستطاع أن يقارن بينه وبين الفكر الإسلامي كاشفا عن جوهر هذا

الفكر وامتيازه وحاجة الإنسانية إليه وهى عجالة نقدمها بمناسبة وفاة الدكتور العربى فى أول يناير ١٩٧٠ م عن اثنين وسبعين عاما ، قدم فيها للفكر الإنسانى أكثر من ثلاثين مؤلفا فى القانون والإقتصاد والسياسة والإجتماع .

وقد قدم الدكتور العربى وقائع حياته على هذا النحو :

تخرجت من كلية الحقوق الخديويه حتى عام ١٩١٨ أى منذ خمسين عاما ثم عملت وكيلا للنائب العام ثلاث سنوات وفى ١٩٢١ أوفدتنى وزارة العدل إلى انجلترا لأدرس فى جامعة اكسفورد النظم الإنجليزية التشريعية والاقتصادية والمالية .

وخلال اجازتى الموسمية فى جامعة اكسفورد وهى تبلغ منتصف العام التحقت بجامعات فرنسا ودرست التشريع الفرنسى والتنظيم الفرنسى، وهكذا أحطت بالنظم الانجلو سكسونية والنظم اللاتينية السائدة يومئذ فى العالم العربى ثم عكفت بعد ذلك على دراسة النظم الشيوعيه .

ثم عدت ١٩٢٤ لا تولى التدريس لهذه النظم الأوروبية فى جامعة القاهرة .

وبعد أن اندلعت الحرب العالمية الثانية بدأت ادرك ـ كما ادرك غيرى من علماء أوربا أنفسهم : أن هذه النظم التى عكفت على درسها وتدريسها أكثر من ثلاثين عاما كانت من أهم الأسباب فى كل ماحاق بالبشرية ولا يزال تحيق بها من ويلات وكوارث وشقاء شامل .

فى وسط هذا الظلام الدامس وفى هذه المحنة الفكرية لبثت ولبثت غيرى ممن تعمقوا فى دراسة الحضارة الأوربية نتلمس مخرج صدق فى ظلمات متاهاتها حتى هدانا الله إلى دراسة قرآنه وسنة خاتم رسله فلجأنا إليهما وتذكرنا قول الرسول فى يوم وداع لأمته « لقد تركت فيكم امرين أن اهتديتم بهما لن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنتى .

فلجأنا إلى كتاب الله وسنة رسوله وعكفنا على دراستهما والعلوم الإسلامية المتصلة بهما فإذا معالم الهداية الآلهيه ـ متمثله فى ايات القرآن ـ يتجلى فى استقامة لا عوج فيها وفى وضوح كامل لا غموض فيه ولا تعقد ، وشعرنا كأنما تنادينا أن نطيل التدبر فما اشتملت عليه من توجيهات ربانية ثم نعمل على تفصيلها التطبيق

تفصيلا يكفل الوفاء بمطالب كل عصر ثم يعكف على وضع الأجهزه التنفيذية التى تنقلها من خيز التعاليم المجردة إلى واقع الحياة .

رأينا قرآننا حافلا بتوجهات من رب العالمين هى أصول ثانية راسخه لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فيستطيع البشر أن يبنوا عليها ويفرعوا منها كل منظماتهم السياسية والحكومية والاقتصادية والدولية بما يكفل لكل جيل اشباع مطالب زمانه والوفاء بحاجات بيئته على أكمل وجة .

هذا علي عكس النظم الأوربية التى عكفت على درسها وبدريسها تلك السنين الطوال فلمسنا مافيها من اضطراب وتناقض لأنها من تفكير البشر ومن صنع البشر الذين لا يرون إلا ماهو مكشوف لهم فى فترة محدودة من الزمان وفى قطاع محدود من الأرض ، رؤيه فيها كل قصور الإنسان وانفعالاته العابرة وشهواته الجامحة فتفكيره من أجل ذلك لا مناض أن يكون تفكيرا جزئياً وتفكيرا وقتيا ومع هذه الجزئية يقع النقص والقصور ومن هذه الوقتية يقع الأضطراب فى التمييز بين الحق والباطل فيكون الباطل حقا فى عصر ويكون الحق باطلا فى عصر آخر .

(٥)

محمد جميل بيهم

هذا رائد من رواد الفكر العربى المعاصر ، من أولئك الذين أمضوا حياتهم الطويلة بالمرض — ومازال أطال الله عمره منذ بدأ يكتب فى الثلاثينات يواصل رسالة منوعة وفق ذلك المنهج الذى عرفه جيل الرواد ، منهج التكامل والشمول المستمد من مزاج هذه الفترة الصاخبة التى تضاربت فيها القضايا والمعضلات بين سياسية وإجتماعية وثقافية وإقتصادية . وحيث كانت « السياسة » هى الطابع الغالب على العصر تلتقى اليها الاقلام وتشغل بها شغلا جما ، كان هناك امثال « محمد جميل بيهم » الذين ينظرون إلى الجوانب الأخرى التى تحتاج العقول إلى الإلمام بها ، والقضايا التى هجرها الباحثون وقد شغل (بيهم) نفسه بدراسات هامة فى هذا المجال : كان ابرزها اهتمامه بالمرأة العربية المسلمة وتاريخها ، وفلسفة التاريخ العثمانى ، وفلسطين اندلس الشرق ، ومن خيرة مؤلفاته ودراساته دفاعه عن الفكر العربى الإسلامى فى مواجهة حملات الشعوبية والتغريب فلا شك أن هذا المجال هو مقياس واضح لشخصية الباحثين وكشف صريح عن موقفهم من الغزو الثقافى والإستعمار الفكرى الذى يجابه الفكر الإسلامى العربى ويحتاج دوما إلى تصحيح المفاهيم .

وقد عارض فى كتابه (العرب والشعوبية الحديثة) ماحاول (أمير بقطر) و (سلامة موسى) (١) أقراره من غض لدور العرب والمسلمين فى الحضارة الإنسانية . أما الدكتور أمير بقطر فقد قال فى مقال له : مر بالحضارة الإنسانية ثلاث مراحل :

١ — عصر الأنهار .
٢ — عصر البحر المتوسط .
٣ — عصر الحضارة الأطلنطية .

وعنده أن عصر البحر المتوسط هو الفترة التى ازدهرت فيها الحضارة الاغريقية والرومانية أى من ٨٠٠ سنة قبل الميلاد إلى ٤٠٠ سنة بعد الميلاد ، ثم يرى أنه قد استولى على الحضارة ثانية سبات عميق حينما ارخت عليها العصور المظلمة سدولها منذ سنة ٤٠٠ بعد الميلاد تقريباً إلى ١٣٠٠ بعد الميلاد حيث نهضت الحضارة من هذا السبات الطويل .

وقد علق (جميل بيهم) على هذا الرأى فقال : أن كاتب المقال لم يكتف بأنكار وجود ألمدنية العربية الإسلامية فحسب ، تلك المدنية التى كانت حلقة متينة فى سلسلة الحضارات العالمية ولم يقتصر على مازعم سلامة موسى بأن عصر العرب كان عصر تجميد للحضارة ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فزج عصر العرب بين العصور المظلمة حيث استولى ـ على قوله ـ سبات عميق على العالم إبتداء من سنة ٤٠٠ إلى سنة ١٣٠٠م .

وليس هذا الأفتراء على العرب بجديد ، دائماً يرجل إلى صدر التمدن الحديث وكان الضعف حافزا لكتاب الغرب على تجاهل كل حسنة للعرب والمسلمين وظل هذا التحامل قاسيا حتى القرن الثامن عشر ، فإن ماحدث فيه من تحرر فكرى كان حافزا للمنصفين على تبديل آرائهم فى الإسلام والعرب . فقد سخر (سيمون اكلى) الإنجليزى فى كتابه (تاريخ المسلمين) من أولئك المغرضين الذين تعمدوا أهمال ما اسماه (ذلك الجزء من تاريخ المجد البشرى) وهم فضلا عن ذلك ارتكبوا جريمة تشويه بتأثير التعصب وانتهى إلى القول «أنى التزم تكريس حياتى لمحو ذلك العدوان الكبير الذى وجه عمداً للعرب وحضارتهم وجرى مجرى (أكلى) كثيرون منهم (ريلاند) الهولندى و (كاينيه) و (لولانفليه) الفرنسيين و (غوتيه) الألمانى و (درپير) و (ريمون لوزرج) و (سيديو) و (لامرتين) و (كارليل) و (تولستوى) و (جوستاف لوبون) و (استوريس) و (برنارد شو) و (يونج) .

وأشار جميل بيهم إلى ماذكره توماس كارليل فى تاريخ الأبطال حيث يقول: فلقد آن أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأفتراءات السخيفة المخجلة . أما برنارد شو فقال «لا بد أن تعتنق الإمبراطورية البريطانية النظم الإسلامية قبل نهاية

هذا القرن ولو أن محمدا بعث فى هذا العصر ، وكان له الأمر المطاع لنجح تماما فى حل المشاكل العالمية وقاد الناس إلى السعادة والسلام » .

وتحدث يونج عن أثر الإسلام فى مدنية الغرب فقال أن تراث المدنية الإسلامية يرجع إلى الفارسية ، وقد كان له أشد الأثر فى حضارة الغرب ، فقى بلاطات بغداد وبالرمو وقرطبه وجد علماء أوربا ، فى القرون الوسطى ، كنزا ثمينا من العلوم اشتمل على تراث اليونان العلمى الذى احتضنه العرب ، ذلك التراث الذى أضافوا اليه ما اضافوا وظلوا سدنته إلى أن خرجت أوروبا من ظلمات القرون الوسطى واقبلت عليه وشرعت تنتفع به) .

هكذا مضى (بيهم) فى الدفاع عن الفكر العربى الإسلامى بروح علمية مليئة بالإيمان، وكذلك كان موقفه فى كتابه ذلك إزاء كثير من خصوم الإسلام والأمة العربية . وإذا كان لكل كاتب سمة واضحة تميزه ، فأن سمة جميل بيهم هى تصحيح المفاهيم والدفاع عن الحق وتغطية الفجوات فى تاريخ العرب والإسلام المعاصر .

ومن آفارة المتعة التى لم يسبقه اليها سابق كتاب (فتاة الشرق فى تاريخ العرب) وقد حاول أن يؤرج للمرأة المسلحة من خلال مراحل التاريخ الاسلامى مرحلة بعد مرحلة ، على نحو جديد باهر ، يدل على جهد بالغ فى حصر نشاطات المجتمع ودور المرأة المسلمة فى كل مرحلة ، وهو تاريخ مشرق للمرأة المسلمة التى كانت تعقد الحلقات فى المساجد وتعطى أجازات العلم ولم يخل عصر من نساء عظيمات فى مجال العلم والفقه والتصوف ، وقد تناول هذا الدور من خلال تاريخ المشرق والمغرب والأندلس فى عصور الامويين والعباسيين وفى مصر والشام والجزيرة العربية. والحق أن جميل بيهم قد أولى اهتمامه بدراسات المرأة فألف فى ذلك عددا من الكتب فى مقدمتها (المرأة فى التاريخ والشرائع) الذى ترجمه من اللغة الأوردية العلامة أبو الوفا عبد الحميد النعمانى ، وكتابه (المرأة فى التمدن الحديث) .

كما درس بكبير عناية انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها فى كتاب من جزئين بعنوان (فلسفة التاريخ العثمانى) وله كتاب ثالث انتفعت به كثيراً فى

دراسات الإسلام والعرب فى العصر الحديث ذلك الذى أطلق عليه (العرب والأتراك فى التاريخ) عرض فيه للعلاقات التى قامت بين الترك والإسلام منذ دخوله الإسلام إلى قيام دولتهم الشامخة التى عاشت أكثر من خمسة قرون وحملت لواء الإسلام إلى أوروبا والبلقان.

وقد ولد (محمد جميل بيهم) فى بيروت ١٨٨٧ م وتلقى علومه الإبتدائية والثانوية فى مدرسة الشيخ عباس الأزهرى . (الكلية العثمانية) وأخذ العلوم الدينية والآدب والمنطق عن الشيخ حسن المدور أمين الفتوى فى بيروت . وقد ظل يتدرج فى العلوم حتى اعدا طروحة الدكتوراه فى معهد الآداب من جامعة باريس عام ١٩٢٨ م عن (الانتدابات) وقد زاول التجارة فى مطالع حياته وعلى الرغم مما أصاب فيها من نجاح فإن محبة العلم والآدب لم تلبث أن شغلته عنها فأنصرف إلى التحرير فى الصحف والمجلات، ثم إلى التأليف فى الدراسات الإسلامية والعربية وقد صدر له ١٩ كتابا فى اللغة العربية كان أخرها (عالم حر حديث فى آسيا وأفريقيا والوطن العربى) وله كتاب هام عن (عروبة لبنان فى ماضيه وحاضره) وقد انتخب عضوا فى عدد من المجامع منها المجمع العلمى اللبنانى ثم رأسه عام ١٩٢٩. كما أنتخب عضوا مراسلا للمجمع العلمى العراقى عام ٢٩٥٢ والمجمع العلمى العربى بدمشق عام ١٩٦٦.

كما اشترك فى أكاديمية التاريخ العالى بباريس والمجلس العلمى بجامعة لاهور بپكستان.

وقد اتيح للعلامة محمد جميل بيهم الرحلة والسفر إلى انحاء العالم المختلفة، وقد انتخب عضوا فى المكتب العالمى لإلغاء الاتجار بالانسان.

وقد شارك فى الأهتمام (بقضية فلسطين) منذ العهد العثمانى فى سبيل مقاومة الصهيونية وظهرت له مقالات فى جريدة الرأى العام يحذر فيها من الخطر الصهيونى. وسافر إلى الامريكتين على رأس الوفد العربى الفلسطينى عام ١٩٣٨

للدعوة لهذه القضية فى الأوساط الشعبية والحكومية . ولما عاد أصدر سنة ١٩٤٦ كتابة (فلسطين اندلس الشرق) الذى تنبأ فيه بالكارثة قبل سنتين من وقوعها ، وذلك على ضوء دراساته فى فلسطين وخارجها ، وعلى ضوء المقابلة بين الأوضاع العربية والأوضاع الصهيونية . ولكنه لم ينله اليأس مع ذلك بل ظل على رأس جمعية اتحاد الأحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية .

فلما وقعت مأساة سنة ١٩٤٨ ولجأ أصحاب فلسطين إلى البلاد المجاورة خف مع زوجته السيدة (نازك العابد) إلى المساهمة فى تخفيف وطئة الأغتراب عنهم فأنشأ فى بيروت (جمعية تأمين العمل للاجىء فلسطين) وقد ظلت هذه المؤسسة قائمة بعد وفاة المرحومة نازك . وقد ظل الأستاذ (محمد جميل بيهم) مرموقا للمشاركة فى عديد من جمعيات النهضة ثقافية وإجتماعية، وخاصة فيما يتعلق بالشباب وخدمة المجتمع ولم يمنعه ذلك من العمل بالتأليف والكتابة فى الصحف ولا سيما بالنسبة لمراحل التاريخ التى عاشها فقد حرص أن يوفيها بدراسة شاملة فى مختلف مؤلفاته .

وبالجملة فقد قدم محمد جميل بيهم للفكر العربى الاسلامى المعاصر والثقافة العربية أثاراً عديدة، حق له من أجلها أن يذكر ويقدر ، وبالنسبة لى وبالنسبة لدراساتى فى الآدب العربى المعاصر ، وتاريخ الاسلام الحديث ويقظة الفكر العربى فقد انتفعت كثيراً بأثاره ودلنى على الكثير من الجوانب التى كانت تنقص البحوث والدراسات ووجدت عنده هذه الحلقات المفقوده ولا يعرف فصل الباحثين فى هذه المجالات إلا من كابد النظر فى الحوانب الغامضة التى لم تكشف عنها الأبحاث أو الدراسات .

ولطالما أرسلت اليه اسأله فى امر أو أخر فأجد عنده وفى خلال ابحاثه مايعيننى على التعرف على وجهات النظر الدقيقة فى تاريخنا العربى الاسلامى المعاصر .

* * *

شعل الأستاذ بيهم مناصب فكريه متعددة : المجمع العلمى اللبنانى (١٩٢٩)

حيث أختير رئيسا له وانتخبته الهيئة العربية العليا لفلسطين (٢٩٣٨) رئيساً للوفد العربى الفلسطينى، ومثل لبنان رسميا بالقاهرة أمام اللجنة الانكليزيه الأمريكية للتحقيق فى قضيه فلسطن : مثل لبنان فى مؤتمر كراتشى ، وانتخب مراسلا لبعض المجامع العربية والأجنبية .

وفى السنوات القريبة شغل الاستاذ بيهم نفسه بدراسات جديده ، اهمها كتابه عن عروبة لبنان ، كما كشف عن حقيقة موقف السلطان عبد الحميد ودفاعه عن فلسطين . توفى عام ١٩٨٠

(٦)

عمر رضا كحالة

من ذا الذى لا يعرف العلامة ـ كحاله ـ وفضله على دراسات الآدب والثقافة ، ونحن كل يوم نفتح موسوعته ـ أعلام المؤلفين ـ حين نبحث عن آثار كاتب من الكتاب أو علم من الأعلام ، أنه ذلك الفيض الذى يمدنا بما تريد من مرجع حول الشخصية التى ندرسها والآثار التى تتصل به والمجلات التى كتبت عنه .

ومعجم المؤلفين عمل ضخم جبار استوجب جهد السنين وعصارة العمر ، فهو يضم خمسة عشر مجلدا تضم أكثر من خمسة الاف صفحة وتضم أكثر من عشرة آلاف كاتب وقد استوعب كلا من الف كتاب فى كتاب فى اللغة العربية منذ فجرها إلى اليوم .

ذلك هو العمل الذى وهب له ـ عمر رضا كحالة ـ حياته مخلصا صادقا حتى تحقق له انجازه ، وقد أعانه عليه عمله فى دار الكتب الظاهرية حيث استطاع أن يلم الماما واسعاً بأثار هؤلاء الآدباء وينشىء هذا العمل الضخم الواسع .

وقد أضاف الأستاذ كجالة إلى عمله هذا عملا آخر بعيد الآثر فى خدمة الباحث العربى هو كتابه ـ أعلام النساء ـ الذى وضعه فى خمسة مجلدات وقد ضم أكبر عدد يمكن للباحث جمعه من شهيرات النساء اللاتى خلدن فى مجتمعى العرب والإسلام وتركن أثراً بارزاً فى العلم والحضارة والآدب والفن والسياسة والدهاء والنفوذ و .

ولا شك أن هذه الموسوعة تكشف عن الادوار المختلفة التى مرت بها المرأة فى تاريخ العرب والإسلام .

وله إلى ذلك معجم قبائل العرب القديمة والحديثة : وهو مرتب على حروف المعجم فى ثلاث مجلدات أورد فيها المؤلف القبائل العربية وأفخادها قبل الإسلام

وبعده إلى عصرنا هذا فى ـ نجد واليمن والحجاز وعمان والعراق ومصر وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن وأفريقيا الشمالية وغيرها من البلدان العربية والإسلامية ـ .

وقد أستقصى المؤلف أغلب العشائر والبطون فذكر أصولها وفروعها وجبالها وأوديتها ومياهيا وتاريخها وعاداتها .

وقد أضاف إلى ذلك ابحاثا عن جغرافية شبه جزيرة العرب مما يعد من أهم الكتب الضرورية فى اللغة العربية ومنه تطرق المؤلف إلى دراسة للعالم الإسلامى فى مجلدين وأولى بالأهتمام الدول التى قامت فى كل منطقة من مناطق العرب والإسلام منذ أول البعثة حتى مابعد الحرب العالمية الثانية .

وقد أضاف إلى هذا كتابه حضارة العرب والإسلام الذى يبحث فى تعريف الحضارة والعرب ومهدهم وتكوينهم الجسمانى والمعنوى وأنساب العرب ـ ومايزال هذا العمل الذى سيستغرق عدة مجلدات ـ فى ادواره الأولى .

وفى هذه الموسوعة الجغرافية التاريخية العربية يضيف الأستاذ كحالة كتابه ـ أفريقية الغربية البريطانية ـ وكان باكورة عمل المؤلف الذى رحل فى شبابه إلى أفريقية الغربية ـ البريطانية ـ للاطلاع والتجارة فدرس أحوال أهلها الإجتماعية والإقتصادية وبحث فى طبيعة وجغرافية وتاريخ بلدانها فكان أول كتاب فى بابه باللغة العربية .

هذا تعريف سريع للعمل المضنى الذى أولاه هذا الرجل الكادح الباحث المؤمن زهرة شبابه وعمره وهو الآن فى العقد السابع من عمره الخصب، وقد اتاح للدارسين والمثقفين خدمات جلى لا نستطيع تقديرها ولا تقييمها إلا للذين اتيحت لهم الفرصة للاشتغال بهذه الدراسات .

فهو فى مجالين هامين : مجال التراجم والأعلام ومجال ـ مادة ـ عرب قبائل وتاريخ وجغرافية وحضارة يقدم هذا الجهد الضخم الذى يزيد عن عشرة آلاف صفحة أو مايقرب من ٤٠ مجلدا ومع ذلك فمن ذا الذى يقدر عمر رضا كحالة

قدره وهو يعمل منزويا فى دارة المجمع العلمى العربى فى دمشق وقد انتفع المثقفون العرب بأثارة وبالخدمات الجلى التى قدمها لهم ويسر لهم بها المراجع وأتاح لأصحاب إلا طروحات المختلفة والمؤلفات المتعددة قدرة وسرعة اختصرت من وقتهم الكثير ودفعتهم إلى الإمام بقوة كبيرة فمن حق — عمر رضا كحالة — علينا أن نذكره وأن نتحدث اليه :

يقول : ولدت بدمشق عام ١٩٠٥ وتوفى والدى وأنا فى السابعة وكانت دراستى فى المدرسة التجارية ثم المدرسة السلطانية التركية ثم المدرسة الوطنية بعالية بلبنان ثم التمست طريق التجارة ولكنى اخفقت فصرت اتردد على الجامع الأموى بدمشق وانزويت بأحدى المدارس الملحقة بالجامع الأموى وانكببت علي قراءة — احياء علوم الدين — للغزالى فأثرت تعاليم هذا الكتاب فى نفسى أعظم الأثر وانصرفت إلى الزهد والورع والعبادة فبدأت الصوم ، فصمت مايقرب من عامين لا أفطر فيهما إلا قليلا ، وكنت قد لازمت بعض مشايخ دمشق فقرأت عليهم بعض كتب النحو والصرف والحديث ، واعتقد أن هذه الفترة قد تركت أثراً كبيراً فى حياتى واتجاهاتى من بعد بالناس وحضور الحفلات والولائم .

وقد اتيحت لى رحلة طويلة فى قاب أفريقيا أمضيت فيها عامين متنقلا بين أفريقيا الغربية البريطانية ونيجيريا وسيراليون ، واتيح لى فى هذه الفترة أن أزور إنجلترا وفرنسا وقد اتاحت لى هذه الرحله تفتحا واسعاً فى مجالات البحث والدراسة والتجربة ، ولما عدت إلى دمشق كتبت عدداً من الابحاث فى جريدة الف باء الدمشقية عن شعوب أفريقيا المسلمة والقيت محاضرة عنها فى مدرج المجمع العربى هنالك توثقت صلتى بالعلامة محمد كرد على رئيس المجمع الذى اختارنى للعمل بدار الكتب الظاهرية ، ومن هنا بدأت حياتى الأدبية على نحو علمى منذ عام ١٩٢٩ وللقارىء أن يعلم أن ذلك كان منذ أربعين عاما مازال الأستاذ كحالة يمضيها فى العمل فى مجال الموسوعات المجهد الشاق دون توقف .

يقول الأستاذ كحالة : كم كانت مجلدات دار الكتب الظاهرية بعيدة الأثر والفضل فى كل كما كتبت وما الفت من ابحاث ، وقد قمت بأدارة المكتبة الظاهرية

زهاء ستة عشر عاما والسهر عليها وعلى حزائنها وعلى تغـــذيتها بالمطبوعات والمخطوطات من كتب ومجلات ونشرات دورية وتنسيقها فاشتريت مايقرب من ستة آلاف وخمسمائة مخطوط .

وإذا سألنا الأستاذ كحالة عن واقعة وراء هذا ال العمل الضخم وجدناه الإيمادن الصادق العميق بالإسلام واللغـــة العربيه والفـــكر العربى الإسلامى والتراث .

يقول : إنما دفعنى إلى تأليف هذه المراجع إيمانى القوى بالواجب الملقى على عاتقى والذى أشعر به دائماً وهو فى مخيلتى اين ما حلت ، وهو دافع نفسانى عظيم يدفعنى إلى أن أعمل ما استطعت إلى ذلك من سبيل بالرغم من المثبطات التى تحيط بى . أما لماذا اخترت هذه الفنون بالذات للتأليف فيها فأننى أفكر قبل أن أعمل عما ينقص هذا الأمة من الدراسات التى تستطيع أن تسد تلك الثغرات وتكمل الجوانب التى مازالت شاغرة بين الماضى والمستقبل . وقد وجدت أن من خير ماينفع هذه الأمة هو أن نقدم أكبر عدد ممكن من الأبحاث والموضوعات فى مناهج موجزة العبارة ماحة ، تمكن الباحثين من أن يجدوا بين أيديهم فى لمح البصر مصادرهم الهامة . ولقد حاولنا فى مؤلفاتنا أن نحقق ذلك ما أمكننا خوفا من القضاء على تراثنا والاستغناء عنه بتراث آخر ، نظراً للمشقةأو صعوبة البحث التىقد تزيد الباحثين حين لا يجدوا المصادر والمراجع بين ايديهم سهله ميسورة فى عصر السرعة :

وبعد فإن العلامة كحالة هو الآن عضو فى عدد من اللجان الهامة فى المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم والإجتماعية فى دمشق والجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى القاهرة والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ لجنة احياء التراث ـ بالقاهرة والمجلس الأعلى للعلوم بدمشق وله فى مجال المجمع العلمى العربى جهد لا ينكر فقد أعد فهارس كاملة لمجلة المجمع التى تصدر منذ عام ١٩٢٠ حتى اليوم وكنا قد طالعنا فهرس السنوات العشر الأولى فى معهد الدراسات العربية

بالقاهرة فحبذا لو تفضل وأهدى هذا المعهد العتيد المجلدات الباقية من الفهارس للانتفاع بها بين الباحثين فى القاهرة .

ومايزال للعلامة كحالة ابحاث أخرى ومؤلفات فى مقدمتها كتابه عن خالد بن الوليد وتحقيقه لكتاب المعرى للاستاذ محمد سليم الجندى والبقية تأتى .

أطال عمر أستاذنا وعلاقتنا ومكنه من مواصلة عمله النافع الذى سوف تستطيع الاجيال المعاصرة أن تقدره حق قدرة .

اثار كحالة المؤلف

١ — معجم المؤلفين فى ١٥ جزءاً وهو مرتب على حروف المعجم وخاصة لمصنفى الكتب العربية من عرب وعجم ممن سبقوا إلى رحمة الله ، منذ بدء تدوين الكتب فى العصر الحاضر وقد الحق به من كان شاعراً وأديباً وجمعت آثاره بعد وفاته .

وقد بدىء بذكر إسم المترجم وشهرته وبجانبه ولادته ووفاته بالتاريخين الهجرى والميلادى ثم نسبته وكنيته ولقبه ثم اختصاصه فى العلم ، ثم مكان ولادته وزمنها ونشأنه ورحلاته ومن أخذ عنهم أن كانوا من المشهورين ثم المناصب التى تولاها كالقضاء والفتيا والتدريس والوزارة والكتابة الخ . . .

ثم مكان وفاته وزمنها . ثم مؤلفاته وقد ذيلت كل ترجمة بالمصادر التى اعتمد عليها المؤلف من فذكر المصادر المخطوطة والمطبوعة والمجلات والجرائد وهذه المصادر هى باللغة العربيـــة والأجنبية كالفرنسية والإنكليزية والألمانية والفارسية وغيرها .

٢ — أعلام النساء فى خمس مجلدات . هذا المعجم مرتب على حروف المعجم فذكر المؤلف بعد البحث أكبر عدد يمكن للباحث جمعه من شهيرات النساء اللاتى خلدن فى مجتمعى العرب والإسلام أثراً بارزا فى العلم والحضارة والآدب والفن والسياسة والدهاء والنفوذ والسلطان والبر والاحسان والدين والصلاح والزهد والورع الخ . . . مما يميط اللثام عن الأدوار المختلفة التى قضتها المرأة فى تاريخ العرب والإسلام وقد ذيلت كل ترجمة من هذه التراجم بالمصادر التى أعتمدها المؤلف من مخطوطات ومطبوعات ليرجع اليها من آراء الرجوع اليها .

٣ — معجم قبائل العرب القديمة والحديثة وهو مرتب على حروف المعجم فى ثلاث مجلدات ذكر المؤلف فيها القبائل العربية واخاذها قبل الإسلام وبعده إلى عصرنا

هذا فى نجد والحجاز واليمن وعمان والعراق ومصر وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن وأفريقية الشمالية وغيرها من البلدان العربية والإسلامية .

ذكر المؤلف عدداً كبيراً من العشائر وبطونها فذكر أصولها وفروعها وجبالها وأوديتها ومياهها وتاريخها وعاداتها الخ ... وقد ذيلت كل قبيلة واتخاذها بالمصادر التى اعتمدها المؤلف .

٤ — جغرافية شبه جزيرة العرب: الف هذا الكتاب فى وقت كان الباحث لايجد أبحاثا مستفيضة موثوقة فى اللغة العربية ، وإذا احتاج إلى شىء من ذلك يرجع إلى بعض المصادر الأجنبية فاقدم المؤلف على تأليف هذه الجغرافية وقد بذل الجهد فى ذلك ولاقى الصعوبات فى تأليف هذا الكتاب لجاء هذا المؤلف فى مجلد كبير ضخم فى مايقرب من ستمائة صفحة وقد الحقت به فهارس للموضوعات والرجال والنساء والشعوب والقبائل والمذاهب والحكومات والأمكنة والبلدان والكتب مما سهل على الباحث بحثه بدون عناء وتعب .

٥ — فهارس مجلة المجمع العلمى العربى فى خمس مجلدات لثلاثين مجلداً لكل عشرة منها فهرس خاص فى مجلدين فبدأ واضعه بفهرسة للموضوعات وفهرس لكتب المقرظة والمنتقدة ، وفهرس للالفاظ المعربة والموضوعة وفهرس لكتاب المقالات ومؤلفى الكتب القديمة التى نشرت فى المجله وفهرس لأعلام الرجال والنساء وفهرس للكتب والمجلات والجرائد التى ورد ذكرها . وفهرس للشعوب والقبائل والدول والأسر ، وفهرس للبلدان والأمكنة ، وبهذه الفهارس التى وضعها مصنفها سهل للباحث أن يعثر على الموضوع الذى يبتغيه بكل سهولة وبذلك قد أحيا تلك المجلة الكبرى التى تعد من أوثق المصادر للباحث والمطلع فى الشرق والغرب على السواء .

٦ — العالم الإسلامى فى مجلدين وقد بدأ المؤلف بتاريخ العرب قبل الإسلام ثم بتاريخ البعثة المحمديه والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ثم ذكر الدول التى قامت فى كل منطقة من مناطق العرب والإسلام حسب التسلسل التاريخى حتى ارخ الدول العربية والإسلامية التى قامت بعد الحربين العامتين الأولى والثانية .

٧ — خالد بن الوليد : هو صنف هذا المصنف فى مجلد عدد صفحاته مايقرب من ثلاثمائة فذكر سيرته قبل الإسلام وبعده وحروبه وغزواته وفتوحاته وذيل بحثه فى ذكر المصادر التى استقى منها ابحاثه .

٨ — أفريقية الغربية البريطانية وهو باكورة عمل المؤلف فقد رحل المؤلف فى شبابه إلى أفريقية العربيـــة البريطانية للاطلاع والتجارة فدرس أحوال أهلها الإجتماعية والإقتصادية وبحث فى طبيعة وجغرافية وتاريخ بلدانها فكان أول كتاب كتب باللغة العربية .

٩ — تحقيق كتاب المعرة للاستاذ محمد سليم الجندى فى ثلاث مجلدات وقد نشرته وزارة الثقافة وقبل البدء فى تحقيقه رحل المحقق إلى معرة النعمان للاطلاع على معالمها وتحقيق بعض حوادثها التاريخية ، وأخذ معلومات وثيقـــة من بعض الدوائر الرسمية والهيئات الشعبية فجاء هذا الكتاب بعد تحقيق نصه والتعليق عليه بما جاء من موضوعات وأبحاث كتابا جامعا لتاريخ المعرة وقد الحق به فهارس مطولة للموضوعات وأعلام الرجال والنساء ، وفهرس الكتب والسجلات والجرائد وفهرس للشعوب والقبائل والمذاهب وفهرس للامكنة والبلدان .

١٠ — حضارة العرب والإسلام وهو فى عدة مجلدات قد أنتهى منها مايقرب من مجلدين وهى مخطوطة وهما يبحثان فى تعريف الحضارة ، والعرب وأصل لفظة العرب ومن : أصل العرب ومهدهم تكوين العرب الجسمانى ، صفات العرب المعنوية ، أنساب العرب ، البعثة المحمدية ، محمد بن عبد الله (ص) وتعاليمه فى الأخلاق والسياسة والقضاء ، ثم الفتوحات العربية ، ثم حضارة العرب والعصور التى مرت بها . ثم الترجمة والتعريب وماترجم من البلدان والآداب والفنون ، ثم نشأة التدوين والتأليف وتطورهما وأسلوب العرب فى التأليف ثم المكتبات فى بقاع العالمين العربى والإسلامى ثم الموسوعات ودوائر المعارف ثم الفلسفة ونشأتها وتطورها ثم ذكر الفلسفة الطبيعية ونشأتها وتطورها ثم ذكر علم الآلهيات وما وراء المادة

ثم يتعلم الكلام وهو يتابع بحثه حسب تسلسل العلوم والآداب والفنون على منهج علمى وإذا تم هذا الكتاب الضخم النافع وعمل له فهارس مسهبة سيكون من أعظم المراجع للباحث فى تلك الحضارة الزاهرة وسيكون بلا ريب دائرة معارف إسلامية كبرى يجد فيها الباحث أكثر المباحث العربية والإسلامية وإلى جانب العظم المصادر العربية والأجنبية من كتب ومجلات بلغات مختلفة .

(٧)

محمد غرة دروزه

لمع إسم العلامه محمدغره دروزه فى الخمسينات من هذا القرن بمؤلفاته عن قضية الوحدةالعربية وكتاباته الموسعه عن تاريخ العرب وقضاياهم التى برزت بصورة واسعة بعد الحرب العالمية الأولى . وكانت لتجاربة ومشاركته الواسعة فى هذه القضايا وخاصه ما يتصل بالتحدى الخطير الذى واجهه العرب بعد وعد بلفور وقيام الوجود الصهيونى فى فلسطين .

غير أن الأستاذ دروزه لم يلبث أن تخطى هذه المرحلة سريعاً فى السنوات العشر الأخيرة إلى المركه الكبرى وهى معركة التحدى الذى قام به الاستشراق والتشير والغزو الثقافى للفكر الاسلامى وفى هذا المجال برزت خاصيته هذا الكاتب على نحو غاية من البراعة والعمق والأحاطة .

١ — بدأ هذا بدراسته الواسعة العميقة عن الدستور القرآنى (وهى موسوعة ضخمة فى ٨٠٠ صفحة) استوعب فيها الأصول العامة للنظام الإسلامى كما رسمها القرآن ومنه إنتقل إلى المواجهات الواضحة مع الاستشراق والتبشير فى عدد من مؤلفاته : القرآن والمرأه ، القرآن والضمان الإجتماعى .

٢ — وكان للتحدى الصهيونى أثر كبير فى دراساته فقد كتب فى موضوعه ابحاثا متخصصة ـ منها تاريخ بنى إسرائيـــل من أسفارهم ، مأساة فلسطين ، جهاد الفلسطينيين .

٣ — وكان لعلاقات العروبه بالإسلام مجال فى دراساته حيث كتب : تاريخ الجنس العربى (فى ثمانيه أجزاء) العرب والعروبه (ثلاثة أجزاء) عروبه مصر قبل الإسلام وبعده ، والوحدة العربيه .

٣ .— وقد إختص رسول الله صلى الله على وسلم وعصره بدراسات هامة هى سيرة الرسول ، وعصر النبى وبيئته قبل البعثة .

هذا بالإضافه إلى مؤلفات ودراسات أخرى متعدده بدأها منذ عام ١٩١١ تقريباً ومازال بفضل الله مستمراً فى إداء رسالته ومازال إنتاجه فى الأخير أكثر جودة ، وأقرب صله بالتحدى الذى يواجهه المسلمون إزاء غزو التغريب والفكر الوافد ، وإذا كان المترجم له قد اهتم خلال سنوات طويلة بالقضية العربية وحشد لها جهده وفكره وقلمه حوالى أكثر من أربعين سنة فإنه إنما كان يعبر عن التحدى القائم فى عصره والمرتبط به كعربى وفلسطينى ، ثم انداحت الدائرة فأصبحت قضية التحدى الفكرى الإسلامى هى قضية العصر ولذلك فإنه سرعان ماخاضها بقوة واصالة .

ويرد الأستاذ دروزه هذه الحصيلة الضخمه من المادة القرآنية التى اعتمد عليها فى دراساته إلى سنوات الهجرة والأغتراب والسجن التى قاساها فى سبيل جهاده الوطنى فقد اتيحت له الفرصه واسعة لمراجعة آيات القرآن الكريم وتفصيصها على أبواب الدراسات الكثيرة حول العرب والرسول والشريعة الإسلاميه وبنى إسرائيل وغيرها من دراسات .

وقد تحدث الباحثون عن مدى أهمية كتابه (عصر النبى وبيئته قبل البعثة) فقد استطاع أن يصور هذا العصر معتمدا على القرآن الكريم وحده وبذلك جاء غاية فى الأصالة والقوة وأعطى صورة كاملة صادقه بعيداً عن المصادر التى حاولت أن تعطى هذه المرحله من تاريخ العرب صورة مبالغا فيها أو متنقصا من حقها .

يقول : أنه فى ابان اعتقاله حفظ القرآن وقسمه إلى ثلاث مجموعات : واحدة فيها صوره عن حالات العرب الإجتماعية والإقتصادية والمدنية والسكانية فى عصر النبى وبيئته قبل البعثه وواحدة فيها صور عن سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة والمدنيه وثالثة فيها المبادىء والقواعد والنظم القرآنية فى مختلف شؤون الحياة ثم شرحها ونبه على مافيها من صور فصارت أصولا لكتبه القرآنية الثلاثة : عصر النبى ، سيرة الرسول ، الدستور القرآنى .

يقول : ويكون الكتابان الأولان بخاصة أصح صور لبيئة النبى وعصره قبل البعثة وسيرة الرسول ومنهما كثير من الصور الإجتماعية والآدبية والدينية والعقلية والسكانية التى لم يكن متنبها لها وعلى جانب عظيم من الأشراق والروعة ، وله إلى ذلك (التفسير الحديث) : الذى رتبه حسب ترتيب السور فى النزول وقد حرص « على أن تظل فصول القرآن الأخرى من قصص وجدال وحجاج ومشاهد الكون والحياة الأخروية والملائكة والجن لها فى نطاق ماوردت من أجله وهو تدعيم النصوص لمحكمة دون شروح وتفصيلات لذاتها يخرجها من هذا النطاق ، ومما يجعل القرآن بسببها عرضه للجدل و الاخذوالردبدون ماضرورة ، كذلك له كتاب (القرآن المجيد) الذى أراد أن يكون بمثابه مقدمه للتفسير شرح فيه ومحص مختلف القضايا القرآنية وأساليب التفسير والطريقة المثلى فى تفسير القرآن وهى التى جعلها خطة فى مسودات التفسير .

عمل العلامة دروزه فى مجالات مختلفة :

أولا : قيضه فلسطين .

ثانياً : قضيه العروبه .

ثالثاً : الفكر الإسلامى .

وفى قضية فلسطين كان يعبر عن وجوده وتجربته الخاصة التى شارك فيها مشاركة فعلية منذ فجر حياته بوصفه من مواليد نابلس عام ١٨٨٨ (١٣٨٥ هجريه) وقد كان مسئولا عن الأوقاف الإسلامية فى فلسطين حتى عام ١٩٣٧ عندما وضع الإنجليز يدهم عليها ثم جرفته أعمال السياسة معارضا للاتحاد والترقى الذى سلم فلسطين لليهود ، وعاملا فى مجال التعليم واللغة العربية وشارك فى مقاومة وعد بلفور فى المؤتمرات العربية الفلسطينيه من بعد وكان من البارزين فى جميع الأجهزة والمنظمات التى قامت على النضال ضد وعد بلفور والهجره اليهودية والحكم الإنجليزى ، وفى الناحية الأخرى لإستقلال سوريا فى تلك المرحلة الدقيقة حيث

كان الصراع بين الفرنسيين والبريطانيين . وظل فى دمشق قائما على أمر الثورة الفلسطينيه حتى إعتقله الفرنسيون بتحريض من الإنجليز فى حزيران ١٩٣٩ وحاكموه أمام محكمة عسكرية وحكموا عليه بالسجن ثم افرج عنه فى أوائل عام ١٩٤١ حيث غزا الإنجليز والديجوليون سوريا فغادر إلى تركيا لاجئاً حيث قضى فيها نحو خمسين شهراً ، وعاد مره أخرى أواخر عام ١٩٤٥ عاملا فى مجال فلسطين لا يتوقف ولا يريم .

ومن هنا تجىء دراساته الواسعة عن فلسطين وعن القضية العربية وعن الاستعمار عميقه موثقة لأنه عاش المعركة ودرسها وهو فى داخل دائرتها فكان ملما بكل دقائقها وتفاصيلها .

٢ — أما فى قضية العروبة فقد كان قادراً على التعرف إلى الأنساب والعروق العربية وخاصة حين تناول عروبة مصر .

وفى كتابة تاريخ الجنس العربى يبرز اقتداره فى ربط حلقات هذا التاريخ القديمه والحديثه معاً وقبل الإسلام وبعده وإبراز آثار ومآثر هذا الجنس فى كل البلاد التى حلت فيها موجاته وقد انطلق من فكرة عدم صحة التسمية (السامية) لهذه الموجات وترجيح تسميتها بالجنس العربى لأنها إنما جاءت من الجزيرة العربية وكانت متشاركة بمقياس واسع فى اللغـــة والأفطار والعقائد والتقاليد .

وقد سمى بحثه (تاريخ الجنس العربى فى مختلف الأطوار والأدوار والأقطار) تناول منه تاريخ هذا الجنس من أقدم الأزمنه التاريخيه إلى ماقبل العروبه الصحيحة أى من قبل أن تصبح اللغة الفصحى لغة له وإسم العرب اسما له .

ثم تناول تاريخ هذا الجنس بعد العروبة الصريحة قبل الإسلام ، حيث أحصى الموجات العربية الجنس المتجهة إلى وادى النيل وإلى بلاد العراق والشام .

وقد كانت الآثار والمدونات القديمة من المستندات الرئيسية لهذه الأبحاث ثم تناول تاريخ الجنس العربى فى دور الإسلام .

ثم كان كتابه (عروبه مصر قبل الإسلام وبعده) من الإضافات البارزة فى هذا المجال حيث شرح الأسباب التى كانت تحجب الرؤية عن المصريين لإدراك حقيقة عروبهم وما كان من زوال الحجب .

وفى مجال العروبه كشف عن مفهومه لإرتباط الإسلام والعروبه :

يقوم « أن عدم انفصال العروبه عن الإسلام والإسلام عن العروبه ووجوب تلازمهما فهو عقيدة رسخت فى نفسى من عشرات السنين حيث اعتقدت أن فصل العروبة عن الإسلام يجرد العرب من أعظم ميزة صارت لهم بها ، ومن حظورة شأن الرسالة الإنسانية الخالده الشاملة التى يحق لهم أن يدعوها .

كما أن فصل الإسلام عن العروبه يفقده العنصر الإنسانى الذى إنبثق منه وفيه وقد جعل الله العرب شأنا فى الإسلام فى آيات عديدة ورتب عليهم مسئوليات عظمى إزاءه منها حمل مشعله والدفاع عنه واعزازه .

وخلد به لغتهم وقدسها وخلد به مهبط النبوة العربيةفى أصل موطنهم فى جزيرة العرب بالكعبه التى يتجه اليها مئات ملايين البشر مراراً كل يوم والحج الذى يقوم به مئات الآف البشر فى كل سنة ، وليس من تعارض بينهما بل كل الضرر والحمق والخطأ فى فضاهما عن بعضهما .

وأنى وأن كنت لم أفرد فى شرح هذه العقيدة رسالة خاصة ، فانى قد تطرقت اليها ونبهت عليها ونوهت بها وأوردت النصوص المؤيده لها فى أكثر من كتاب من كتبى » .

(٢)

ثم يجىء مجال دراساته الإسلامية وهو أوسع هذه المجالات وأخرها وأكثرها حيوية وقوة :

وقد دخل هذا الميدان من أوسع أبوابه وبأدوات قادرة ورصينة ولذلك كانت موسوعته المسماة بالدستور القرآنى من ابرز الأعمال فى مجال التعريف

بناء المجتمع الاسلامى المؤصل ثم جاءت بعد ذلك دراساته فى الرد على المبشرين ثم على الملحدين من خلال موقفهم من القرآن الكريم وهى ابحاث خصبة قوية فى مرماها وفى جدلها وفى أدلتها وفى دحضها للشبهات وشجبها للسموم التى آثارها التبشر والتغريب والاستشراق .

فهو من ناحية قد ناقش فى كتابة القرآن والمبشرون جملة ماعرضه رجال التقسير من شبهات ورد عليها وصفاها تماما ، أما فى كتابه القرآن والملحدون فقد تناول شبهات الماركسين وكشف عن زيفها تماماً ، وفى كل منهما قدم مبادىء الإسلام التى هى أحسن وأوفى بديل تضمن بها العدالة الإجتماعية والاقتصادية أفضل ضمان مع ضمان إنسانيه الإنسان وكرامته وحرية وروحانيته . يتساوى فيها الناس فى الحقوق والواجبات دون أى تمايز طبقى ويتفادون مافى تلك الماركسية من مصادمة مع غرائز البشر ومصالحهم وطمأنينيتهم وما تنشره من احقاد تؤدى إلى حمامات الدم عبر صراع الطبقات ويفقد فيها الإنسان إنسانيته وحريته ويصبح مسماراً فى عجلة الدوله فحسب .

ويقول الأستاذ دروزه : أن الملحدون العرب يغفلون عن أنهم يدعون امتهم من حيث يدرون أولا يدرون إلى قطع صلاتهم بتراثها الباذخ الذى صارت وظلت به أمه واحدة ذات رسالة إنسانية خالده، والذى برزوا به وحده بين الأمم بحضارة لاتزال آثارها تشهد على ماوصلت اليه من شأو بعيد فى كل ميدان ومجال لتصبح بين الأمم مجردة عن ايه هويه وغير سائره فلك غيرها واهنه مستضعه مما لايمكن أن يدعو اليه مخلص لقومه وإنسانيته وتكون هذه الدعوة والحالة هذه عونا للمستعمرين والصهيونيين ومقاصدهم لأنها ستؤدى لو تفاقمت — لا سمح الله — إلى تحلل أمتهم من كل قيمه وضياعها أو على الأقل إلى بث البلبلة فى صفوفها وتبديد طاقاتها وكبت مطامحها وتطلعاتها واضعاف الحميه والأمل والحيويه فيها دون أن يكون لهذه الدعوة فائدة أو ضروره ماقوميه أو إجتماعية أو إنسانية من حيث أن القرآن والإسلام يضمنان لأصحابهما وللعرب الذين أكثرتهم الساحقة

مسلمة كل أسباب السعادة والنجاح والنشاط والحيوية وليس فيهما أى عائق دون أى شىء من ذلك » .

ويمثل كتاب [الدستور القرآنى والسنة النبويه فى شئون الحياة] أعظم اعمال العلامه محمد عزة دروزه — فى تقديرنا فى أكثر من الف صفحة اخرجه ١٩٦٦ وتناول فيه النظام السياسى والمالى والقضائى والجهاد كما تناول التضامن الاجتماعى والحرية والأخاء المساواه فى الإسلام ونظام الأسره والأداب السلوكيه والأخلاق ولما كان هذا الكتاب يمثل تحولا ضخما فى حياة الكاتب حيث أخلص الوجهة للفكر الإسلامى بعد أن استوفى دراسات التاريخ القومى وقضايا المجتمع العربى وحيث اتسعت نظرته فوجد إنه لا مشاحة أمام الأمة العربية لكى تحقق هدف تحررها وصمودها وتقدمها من التماس منهج القرآن « ولقد كان القرآن هداها الذى إهتدت به فى صدر الإسلام واستمدت منه نشاطها وحيويتها فكان لذلك الأثر الأكبر فى تلك الصوره الرائعه القوية التى كانت لها ، وليس من ريب فى أن القرآن سيظل أقوى مؤثر فى حياة الأمة العربية ، لأنه كتاب دين أكثريتها العظمى ، ومن واجب كل مخلص لدينه وقومه وإنسانيته منها ، أن يبذل جهده فى سبيل ذلك ، لأن القرآن قد احتوى من النظم والقواعد والمبادىء والتلقينات مامن شأنه أن ينهض بها إلى ذرا الكمال فى كل مجال من مجالات الحياة ، ويوجهها فى أحسن السبل واشرفها وأنزهها وأعدلها واتمها صفاء وسناء وكما لا وحقا ، ولأن الدين الإسلامى الذى يمثله القرآن : ليس دنيا روحيا أو أخلاقيا أو عنصريا او محليا فحسب ، كما هو جل الديانات والأخرى ، بل هو دين كيان وسياسة ونظام وعمل وواقع ، ثم هو دين إنسانية شامله ، يدخل فى نطاق الناس جميعهم على أختلاف اجناسهم والوانهم وطبقاتهم ومواطنهم فلا جرم أن يكون مدد الأمه العربية فى حياتها الجديدة ، تستمد منه نشاطها ومغالبتها وحيوتيها وتستبين منة طرقها المقيم الذى تسير عليه فى شئوونها السياسية والاجتماعية والأخلاقية والشخصية حتى تكون لها تلك الصورة التى تتوق لها والمركز الذى تتطلع اليه » .

وهو يدعو إلى الاستمداد بالقرآن والأهتداء به والسير عليه لأن هذه الدعوة تحتوى جميع عناصر الإستجابه لما احتواه من تلك النظم والقواعد والمبادىء

والتلقينات لا يستطيع أى فرد أن يرتاب فى قوتها وتأثيرها النافذ العميق فى نفس الأمة ، إذا ماصدرت عن قوة وجد وإيمان وحسن فهم .

ولا ريب أن هذا جهد ضخم بارع فقد احاط المؤلف بتعاليم القرآن وفصلها فى منهج كامل وعرضها عرضا عصريا واضحا ، وهو واع لأن الأجيال الجديدة بدأت ترى أن اتخاذ المنهج الإسلامى هو الضرورة التى لا سبيل غيرها أمام المسلمين والعرب وثانياً فى مواجهة حركة التغريب الضخمه التى تريد أن تفسد « الوجه الاسلامى » للأمه العربية .

يقول : أننا إذ ندعو إلى القرآن الذى نزل قبل أربعة عشر قرنا ، لا ندعو إلى رجعة وقهقرى ، وإنما ندعو إلى تجديد وثورة علي مانحن فيه من جمود ، لأنه قد انطوى علي سعة من الأفق ومرونه فى التطبيق وسمو فى الأسس والأهداف مايكفل تقدمنا إلى الأمام قدما إذا نحن تفهمناه وسرنا عليه .

وهو يؤكد أرتباط هذا الإتجاه الإسلامى بالإتجاه العربى القومى ويكشف عن أنه ليس هناك من خلاف بينهما ، وأن الدعوه إلى العروبة لا تستتم إلا إذا كانت جزءاً من مضمون إسلامى وأطار إسلامى وهدف للوحده الإسلامية :

يقول : ليس من تعارض بين تعاليم القرآن وبين الطموح إلى الأمجاد القومية العربية ، بل أنه ليصح أن يقال أن هذا من مقتضى تلك التعاليم لأن فى قوة العرب ومجدهم قوة للاسلام ومجده ، يضاف إلى هذا أن خلود اللغة العربية وتقديسها علي اعتبارها لغة القرآن والعبادات الإسلامية التى يجب علي كل مسلم أن يفقهها ويقدسها وما فى هذا من الوسيلة إلى نشر النفوذ العربى وسيادة اللغة العربية وخفقان رايات العرب الأدبية والروحيه والثقافة بل والسياسية فى مختلف انحاء الارضين مما تبذل الدول الكبرى فى سبيله طائل الاموال وعظيم الجهود دون أن تناله كما تشتهى فى حين أن القرآن قد أوجبه كواجب دينى يندفع فيه المسلم اندفاعا دينيا ووجدانيا وقد اثبتت ووقائع التاريخ أن العرب فى صدر الإسلام وقد فهمو هذا فهما صحيحا وطبقوه على الوجه الذى فهموه ولم يرو بينه وبين تعاليم القرآن أى تناقض وأثبت كذلك أن ما كان من استعلاء غير العرب على العرب إنما كان

لعوامل سياسية أخرى لم تعد خافيه . ولا تمت بسبب إلى تعاليم القرآن والإسلام ولا يصح القول أنها نتيجة لها ، هذا إلى أن الفخر القومى بالإسلام ونبى الإسلام وقرآن الإسلام فخر عام للعرب مسلميهم ومسيحييهم ولا نعتقد أن هناك عاقلا لبيبا من هؤلاء لايندمج ، فيه »

هذه هى وجهه نظر الأستاذ دروزه وهى وجهه ترفع من شأن العروبه وتدافع عنها ولا تستصفى الوجهة كلها للقرآن والإسلام وأن كانت تعتبر فلاح العرب وصلاحهم بأتجاههم إلى الشريعه الإسلاميه عامل هام فى بناء المجتمع الإسلامى كله .

ولقد كان الأستاذ دروزه قد راجع آيات القرآن الكريم وبوبها تحت عناوين مختلفة ، وقد اعانه ذلك على كتابه هذا وعلي كتابية (عصر النبي وبيئته قبل الإسلام) و (سيرة الرسول) ويرى الباحث : أن اشتداد ما أخذت متعرض له بلادنا وباشئتنا وشبابنا بخاصة بعد الحرب العالميه الثانية من تيارات الألحاد والتحلل فى مختلف القيم والروابط الدينية والأخلاقية والإجتماعية والوطنية والجنسية والتقليد الأعمى لكل تافه سخيف مخل بالدين والخلق والمروءه ، كل هذا دفعه إلى توسيع شقه البحث بحيث يؤدى خدمه فى هذا المجال تغطى الفراغ المتخلف من عدم وجود الكتاب الجامع الجيد . ويرى أن هذا العمل ضرورة دينيه قوميه يدعو إلى كبح جماح إنحراف الناشئة ، وعودتها إلى تراثها العظيم .



(٨)

على على منصور

تقنين الشريعة الإسلامية

من حق شبابنا أن يعرفوا كثيراً عن أولئك الرواد الذين مهدوا الطريق أمامهم فى مختلف مجالات الفكر والثقافة والتشريع والتربية فى عصرنا الحديث وفى جيلنا المعاصر. وحين يتصل الأمر بالشريعة الإسلامية يبرز إسم المستشار على على منصور وقد كان رئيس المحكمه العليا بالجمهوريه الليبية ورئيس لجنة الخبراء بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وهو اليوم رئيس اللجنة العليا للشريعة الإسلامية فى دولة الإمارات من بين قلة قليلة من العاملين فى هذا الحقل، ومن أبناء الجيل السابق: أحمد إبراهيم وعبد الوهاب خلاف أبو زهرة وغيرهم من أعلام التشريع الإسلامى ودعاته الابرار.

ولقد وهب المستشار على على منصور قلمه للفقه الإسلامى منذ سنوات طويلة، فالف فيه عدداً من الدراسات العلميه المتخصصة كانت كلها قائمة على أساس المقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الغربى، ومدى افضلية الشريعة وشمولها.

بل أنه ليمكن القول بأن المستشار على منصور كان حفيا بذلك الأمر، منذ مطالع شبابه وقبل أن يحرز اجازة القانون من كلية حقوق القاهرة عام ١٩٢٦. وقد حدثنى فى ذلك فقال: منذ أن سمعت الآية الكريمة فى القرآن « مافرطنا فى الكتاب من شيء » وأنا على يقين بأن هذه الشريعة الخاتمة أتت على جميع نظم الوجود وعلى خيرى الدنيا، والآخرة، إلا أن الإستعمار قد فرض علينا نظاما فى التعلم جعلنا نحيا حياة ثنائية مسلمين متدينين فى بيوتنا، علمانين متفرنجين فى دراستنا ومجتمعنا، وكانت تمر فى الخاطر بعض المتناقضات بين ما أعتقده من كمال هذا الدين وبين بعض مظاهر الحياة فى مجتمعنا.

وسرعان ما كان البحث فى كتب الشريعة الإسلامية يرفع عنى هذا التناقض ويهدينى السبيل فازداد يقينا وأذكر قول الله تعالى:

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ثم جاءت الكشوف العلميه فى الآيات الكونية فى هذا الزمن بكثير من الأمل على أعجاز القرآن وعلى أنه كتاب « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » وأنه « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

« وكم كنت منذ الصغر اتمنى أن القى بدلوى بين الدلاء ، وأن أقوم بواجبى نحو ربى ودينى وامتى ، وشاءت الظروف أن ادرس القانون ، وهو قانون وضعى مستعار من الغرب(فرنسا) فأخذت منذ الدراسه اتدبر وابحث واقارن بين نظريات ومبادىء القوانين الوضعية وبين مثيلاتها فى الشريعة الإسلامية ،وكم كان يزدهينى ان أجد أن أحدث النظريات التى يتيه بها فقهاء الغرب عجبا ويظنون أنهم أول من قال بها موجودة فى الشريعة الإسلامية مؤصلة ومفصلة . كنظرية الظروف الطارئة ونظرية اساءة استعمال الحق ، ونظرية الضرورة وغيرها » .

تلك هى مطالع حياة المستشار على علي منصور الذى اشتغل بالمحاماه وسلخ فيها عشرين عاما من بعد لم ينقطع خلالها عن البحث والقارنة وكان لاينى من حين إلى أخر أن يصعد إلى منبر الهيئات الإسلامية فى القاهرة والزقازيق ويتحدث للناس تحت عنوان .

« خواطر محام يتلو القرآن » .

هذا العنوان الذى تحول بعد سنوات إلى مقالات متواليه فى المجلات الإسلامية : مثل منبر الإسلام ، والوعى الإسلامى بالكويت ، ورسالة الإسلام ومجلة المحاماة تحول إلى « خواطر مستشار » .

ومن الحق أن يقال أنه استهدائه للطريق إلى الشريعه الإسلامية قدفتح له الآفاق فى أعمال قانونيه متصلة بالشريعه ، فعمل فى قضايا الأوقاف ، وفى مجلس الدولة ، وفى محاكم الأستئناف ، والجنايات ، ولما الغيت المحاكم الشرعيه أختار عمله فى محكمه استئناف القاهرة فى الدائرة الخاصة بالأحوال الشخصية والوقف متابعا بحثه عما اسماه « كنوز الشريعه الإسلامية » .

ثم اتحت له الفرصة فى أمرين هامين يتصلان بذلك العمل :

أن ولى رئاسة لجنة الخبراء فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وأنه دعى لتدريس مادة القانون الدولى فى كلية الشريعة بالأزهر الشريف .

وهنا بدأ عمله الذى تطلع اليه منذ مطالع الشباب فى دراسات علميه خصبة قوامها المقارنة والمفاضلة بين الشريعة الإسلامية والقانون الغربى وقد انتجت هذه الدراسات مؤلفات رئيسه فى هذه الدراسات أهمها :

« الشريعه الإسلامية والقانون الدولى العام » .

« نظم الحكم والإدارة فى الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية » .

« المدخل للعلوم القانونية والفقه الإسلامى » .

وقد اضافت هذه الدراسات إلى الأبحاث الخاصة بالشريعة الإسلامية إضافات هامة وجاده وكان فى مقدمة ماعرضت له وكشفت عنه :

(أولا) الرد على الشبهات الموجهه إلى الشريعة الإسلامية وخاصة فى صدد التفرقة بين القوانين الوضعة وبين أوامر الدين ، وقد عنى بأظهار أن ذلك لايصدق فى شأن أوامر الدين الإسلامى ، وعرض إلى ما نال الأديان السماوية السابقة على الإسلام من تحريف مما دعا الدول الأوبية إلى فصل أمور الدين عن أمور الدنيا وأن هذا الفصل غير سائغ بالنسبة للاسلام لانه دين ودنيا وعقيدة وشريعة ، ولأنه تضمن جميع ماتحتاجه الجماعات من نظم قانونية حيث حد الحدود ونظم المعاملات بين الأفراد والدول ، ثم تميزت الشريعة الإسلامية فوق ذلك بخصائص لا مثيل لها فى الأديان والشرائع الأخرى .

(ثانياً) قرر أن أغراض القانون فى الإسلام تمثل الوسطيه المثلى : الوسطية التى توائم بين الروح والجسد وبين الفرد والجماعه وتجعل الملكية الفردية وظيفة إجتماعيه لا يجنح بها صاحبها إلى الاستغلال والسيطرة ولا تنحط بصاحبها إلى العدم وفقدان الحوافز على الإنتاج والإبتكار .

(ثالثاً) كشف عن القضاء فى الشريعه الإسلامية وتحدث عن كتابى عمر بن الخطاب وعلى ابن ابى طالب كدستور مثالى للقضاء والقضاه ، وبين أن القضاة فى الإسلام يتمتعون بأكبر نصيب من الأستقلال ، وأن الإسلام يخصص القضاء بالزمان والمكان والأقضية ، وأن القاضى فى الإسلام ضامن إذا أخطأ ، وكشف عن أن قضاء الحسبه وقضاء المظالم فى الإسلام سابقان علي القضاء الإدارى العصرى واعم منه واشمل ، وأعلن أن الإسلام يبيح للمرأة أن تتولى منصب القضاء .

(رابعاً) كشف عن سبق الإسلام بالقول بقاعدة شخصية القوانين فى مجال تطبيق القانون من حيث المكان والأشخاص والزمان ، حيث أباح أن يخضع الأجانب مستأمنين وذميين لقواعد شرائعهم .

* * *

وفى ضوء هذا العمل الذى قام ومايزال يقوم به المستشار علي على منصور ، يمكن القول بأن الشريعة الإسلامية فى الفقه المعاصر قد اضافت اضافات بناءه ، وامتدت فى هؤلاء الرجال الذين يحملون الأمانه كابرا عن كابر منذ بدأ ذلك محمد قدرى وعمر لطفى وعبد السلام ذهنى وعدد من أعلام القانون فى أول هذا القرن وكشفوا على منابر الجامعات فى أوربا عظمة الشريعة الإسلامية وحملوا علماء القانون فى المانيا وفرنسا إلى الأعتراف بفضل هذه الشريعة وسبقها لما قدموه من قوانين مستحدثه ، ويتصل هذا بما هو معروف من أن القانون الفرنسى مأخوذ فى معظم مواده من فقه الأمام مالك الذى وصل إلى الفرنسيين عن طريق البلاد المغربية ، وقد سار علي هذا الخط كثيرون منهم عبد الرازق السنهورى وكامل مرسى وزهير جرانه وأحمد إبراهيم وعبد الحميد بدوى ومحمد أبو زهرة وعلى الخفيف ومصطفى الزرقا وعلى منصور وأحمد موافى وتوفيق شحاته ومحمد سلام مدكور وكثيرون غيرهم .

وهذه مدرسة عريقة فى الشريعة الإسلامية ولها تراث ضخم يحتاج إلى عرض شامل ويكشف عن وجوه الحق التى كشف عنها العصر الحديث فى الشريعة الإسلامية بأعتبارها أصدق أسلوب الحياة المجتمع الإنسانى .

وهكذا نجد المستشار على على منصور على ثغرة من ثغور الإسلام ومتصلا بجيل ضخم من الأعلام الذين جمعوا بين فهم القانون الغربى الحديث وبين الشريعة فلم يستطع القانون الغربى أن يطمس فى نفوسهم عظمه الشريعة كما كان يطمع النفوذ الغربى والغزو الثقافى ومن هنا تأتى أهمية تراث هذه المدرسة وحاجته إلى الدراسه والمراجعة والإبراز فى صورة كاملة ليكون بين يدى المثقفين وهو مانرجو أن نتمكن بعون الله من القيام به ، وتحيه لحماة الشريعة ودعاة الفقه الإسلامى .

— ٢ —

أن أكبر علامات الصدق فى حياة الدعاة إلى الله أن تنتظم حياة المفكر قضه واحده كبرى تكون همه حياته كلها ، ينام عليها ميستيقظاها ويذهب من أجلها إلى كل مكان من أجل أن يحقق الأمل ، فإذا كانت هذه القضيه هى « أعاده تطبيق الشريعه الإسلاميه » بعدأن توقفت خلال قرن كامل من الزمان كان ذلك التصميم دليلا على الإيمان العميق فإذا كان صاحب القضيه مريضا بالقلب ، وقد جاوز العقد السابع ومازال حقائبه التى تحوى جذا ذاته وقصاصاته لم ترى النور بعد ، مؤثراً عليها أن يحول هذا الفقة الإسلامى وهذه الشريعه الغراء إلى قوانين عصريه يمكن أن نجد طريقها إلى التنفيذ كان ذلك كله مدعاة لتقدير هذه الشخصية المؤمنه .

ولقد سالت علامتنا المستشار على على منصور عن سر ذلك الأطرار وتلك المماسه وهذا الإيمان العميق فعلمت أن روح الإمام حسن البنا قد مسته فى مطامع الشباب حين زاره الشيخ فى داره وزكى فى قلبه أوار هذه النار المقدسة من أجل إحياء الشريعة الإسلامية وكان ذلك قبل خمسين عاما ومنذ ذلك وإلى اليوم والرجل ماض على الطريق ، الذى عمل فيه كثيرون أمثال عبد القادر عودة وأحمدموافى وتوفيق الشاوى وعيسى عبده .

والمستشار على على منصور واسع الأفق فى دراسات التحدمات التى تواجه الإسلام فهو كاشف عن تلك الشبهات مدافع عنها يقول : كذبوا على أنفسهم وقالوا : انتشر الإسلام بحد السيف وهى دعوى باطله . وكيف لمنصف أن يغذى على الإسلام يمثل هذه القاله بعد أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى يرسم لنبيه الكريم الطريق الذى

يدعو به إلى الدين الجديد وهو طريق التدبر وأعمال الفكر مع الصبر وترك الأذى « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى احسن » و « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » و « لا اكراه فى الدين » و« من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » أن طبيعة الدعوة الإسلامية تقرر أنه ليس من طبيعتها التعقيد أو الغموض أو المسنة العقلية ماتحتاج معه إلى اكراه جلى وهو ما كان بالقوة المادية كالحديد والنار أو اكراه خفى وهو ما كان بالخوارق الحسية التى تخضع لها الأعناق. كذلك فإن الدعوة الإسلامية أخذاً من كتاب الله تبارك وتعالى لا تخالف سنه الله من حيث ترك الناس وما يختارون لأنفسهم عن طريق النظر والاقتناع . كذلك فان الشريعة الإسلاميه أخذاً من كتاب الله لا تبيح اتخاذ الأكراه وسيلة من وسائل الدعوة إليها ، كما أن صاحب الدعوة الإسلاميه ليس مسئولا أمام ربه إلا عن مهمه الرسالة التى بينها القرآن وهى التبليغ والأنذار ، وليس مطالبا بإيمان الناس حتى يسمح لهم بأكراههم والعنف عليهم ، ومن ذلك أن كتاب الله تبارك وتعالى مصدر الدعوة الإسلامية لا يحترم إيمان المكره ولا يرتب عليه اثاره يوم التعب وللجزاء فكيف يأمر بالأكراه أو يبيح اتخاذه وسيله من وسائل الإيمان بهذه الدعوة .

— ٢ —

ويقول المستشار على على منصور : أن من الدعاوى الظالم الأعداء الإسلام ، تلك الدعوى القائله بأعلان الإسلام الحرب ضد جميع الأديان والأجناس حرب شاملة دائمة حتى يدين به كل من فى الأرض طوعاً أو كرها ، وهى فرية كبرى ندحضها الوقائع الصحيحه : وقد اصطلح فقهاء القانون الدولى على أن الحرب المشروعه تكون فى أحدى حالتين أولاهما : أن تكون دفعا لأعتداء واقع بالفعل وهذا هو الدفاع عن النفس والقرآن يقول فى ذلك (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) والآية الشريفة تقيد رد الأعتداء بالقدر اللازم لذلك دون مجاوزه أو تنكيل (والثانية) أن تكون الحرب لحماية حق ثابت للدولة انتهكته دولة اخرى دون بدر وهذه من قبيل الجزاء الذى تجمعا به الحقوق ، أما الحرب غير المشروعه فتلك التى يقصد بها الفاتح فى الرغبة والسيطرة وبسط السلطان

فرق الفقهاء فى القانون الدولى الحديث بين الحرب العادله والحرب غير العادله فأباحوا الأولى وحرموا الثانيه والإسلام لا يجيز الحرب إلا فى حالات محدودة وماعداها يعتبر جريمه ، وبذلك يكون قد سبق أوربا فى ذلك إذ أن أول من نادى بفكرة الحرب العادلة والحرب غير العادله هو القديس توماس فى القرن الثالث عشر الميلادى .

ثم جاء فيتو ربا وسوارسى وفيتوريا نفسه يعترف للاسلام بالسبق فى هذا المضمار ويعترف أيضاً بأن مبدأ وجوب أعلان الحرب وعدم المباغته مبدأ إسلامى نقله فيما بعد فقهاء القانون الدولى الآوربى ويذهب ابن خلدون إلى أن الحرب المشروعه نوعان وغير المشروعه نوعان : حرب المنافسة والغيره ، وحرب العدوان بين القبائل المتجاورة وقد حرمهما الإسلام وحرب الجهاد وحرب الدول مع الخارجين عليها والمانعين للطاعها وقد إذن بهما الإسلام .

ويقول على على منصور : لقد ارجف المرجفون من فقهاء القانون الدولى وكتاب التاريخ فى أوربا وافتروا على الإسلام بما هو براء منه ، واتهموه بما ليس فيه وصوره فى صورة كريهه بشعه ، صوروه بأنه يقدم علي القهر والغليه ، يريد أن يفرض نفسه على مخلوقات الله من جميع الاجناس والاديان قوة واقتداراً وأن الإسلام فى سبيل نشر دعوته اعلن الحرب ضد جميع الشعوب والاجناس من مختلف الملل والنحل ، أعلنها حربا عامه شامله دائمه لا تمهد ولا يخفأ وارها ،ولا تضع اوزارها حتى يدخل سكان العالم كله فى الإسلام طائعين أو مكرهين فهو يسعى والسيوف تمهد له السبيل وتذل له الجباه وأن الحرب هو أصل الصلة بين الاسلام وبين جميع الامم والدول والسلم لا يكون الا موقوتا لضرورة قائمه، وكذلك زعم هؤلاء المرجمون من كتاب العرب أن الاسلام لآ يرعى العهد ولا يحفظ الذمه ولا يحترم المواثيق والماهدات .

وأنى لا ألتمس لهؤلاء بعض العذر اذ أن من بين فقهاء المسلمين الذين عاصروا الحرب الضروس التى كانت مشبوبه بين المسلمين والدول الاخرى فى القرنين الثانى والثالث الهجرى والثامن والتاسع الميلادى من وضعوا أحكام فقههم على أساس الامر الواقع ، اذ ذاك فقسموا الديار الى دارين ، دار اسلام ودار حرب فتقل عنهم

كتاب الغرب هذه الاحكام مهملين ماجاء من أصول ثابته ونصوص بينـــه فى الـكتاب الـكريم والسنه النبوية دالة فى وضوح قام على أن الرسول والخلفاء الراشدين ماسلوا سيفاً ولا شرعوا رمحا إلا فى سبيل الدفاع عن النفس وتأمين الحريات العامه للمسلمين وهو مايسميه الفقهاء القدامى المسلمون بتأمين الدعوه ومايسميه فقهاء القانون الدولى العام الآن بأنه در «حمايه الحقوق الثانية لدوله ما » والتى تـكون قد انتهـكت من دوله أخرى دون مبرر ، وقيام الحرب من أجل ذلك يكون من قبيل الجزاء الذى تحمى به الحقوق والفقه الدولى الحديث يعتبر هذين النوعين من الحروب مشروعـــين دون غيرهما من حروب الفتح والغزو والبغى والعدوان .

على أن الأنصاف يقتضينا أن نشير إلى أن نفرا قليلا جداً من كتاب الغرب عرف للاسلام حقه أو بعض حقه وفهم مافيهمن مبادىء قانونيه دوليه كانت مصدر معظم مافى القانون الدولى الحديث من قواعد ومنهم فيتوريا وسوار يس والبارون مسيشيل دى نوب ومنهم المؤرخ سيديو فى كتابه تاريخ العرب ص ١٥٢ حيث عدد الـكثير من فضل الإسلام على الحضارة الغربية وعلى الأخص فى القانون الدولى: وقد شهد بأن هذه « المبادىء » أسبق بأمد طويل من « الأفـكار » القانونيه الماثله فى الحياة الأوربية .

وقد تكونت للأستاذ علي على منصور حصيله فائقة من المفاهيم بشأن تطبيق الشريعه الإسلاميه بعد أن ظل يعمل فى هذا الميدان منذ الثلاثينات وهو دائب على الدراسه والمقارنه وتقديم هذه المادة للطلاب فى الجامعات والعمل فى اللجان الرسميه فى الحكومات والمجالس العليا فى مصر وليبيا وخاصة حين رأس اللجنة العليا لتقنين الشريعة فى دولة الأمارات منذ (١٩٧٨) يقول : أن شريعتنا غنيه بكل شيء وحرام أن نتسول ونحن أغنياء .

وقد اعترف علماء القانون فى الغرب بأن الشريعة الإسلامية من أهم مصادر التشريع ، ولذلك فما أحوجنا نحن المسلمين إلى تقنين الشريعه الإسلامية وخاصه بعد أن أخذتنا القوانين الوضعيه نحو المزالق المهلكة والفوضى والضياع ، ونحن نتباهى بأننا أخذنا عن أحدث القوانين الوضعيه فى الغرب يشدنا سراب خادع اسمه الحرية الشخصية لدرجة أن « الزنا » وهو أبشع الجرائم اعتبرته بعض القوانين الوضيعة من قبيل هذه التجربة الشخصية وكذلك الحال مع شرب الخمر والإتجار فيها .

أن من أخطر مناقص القوانين الوضعيه أنها ترن أن مما قبة الزوجة على ارتكاب جريمة الزنا وهى جريمة فى حق الدين والمجتمع كله — أمر متروك للزوج وحدة يقرره أو يمنعه ، فهو أن تنازل امتنع على القضاء أن يوقع ايه عقوبة على الزوجة الزانيه ، حتى إذا عوقبت بالسجن كان من حقه أيضاً بعد ذلك أن يتنازل ويخرجها من السجن ، والزوج الذى زنت زوجته من حقه أن يزنى حلال مدة خمس سنوات منذ تاريخ ارتكاب هذه الجريمة دون أن تطوله يد القانون . وهذا كله لأننا بعدنا عن الدين وانحرفنا نحو الغرب ولذلك كانت حاجة المسلمين إلى تقنين الشريعة الإسلامية ضرورة .

ويقول المستشار على علي منصور : أن المسلمين فى حاجة ملحة إلى ذلك حاجة بدن إلى الروح ، فهذا الأمر لازم لهم ليكمل به اسلامهم فالشريعه الإسلامية أهمل أمرها فى بلاد المسلمين فالعبادة بالصلاة والصوم فقط هى عبادة العجائز ، والشريعه الإسلامية قادرة على مواجهة جميع الأحداث فى كل زمان ومكان وفيها الكفاية كل الكفايه لحل مشاكل البسرية جمعاء إلى يوم الدين .

وفى الإسلام الملكية الفردية ليست مطلقة . ولكنها ليست معدومة ، والمال مال الله والناس عيال الله ، وللفقير فى هذا المال حق ، كما اشتملت على قواعد حفظ السلام بين الدول .

وقد جاءت الشريعة الإسلاميه بأحكام قاطعة ملبية لحاجات الناس فى كل مكان وزمان وجاءت قاطعة فيما يتعلق بالعبادات والعقائد وتركت الباقى للاجتهاد لتكون مرنه على اختلاف البيئات والأزمنه وأعطت الحريه لأحكام العقل البشرى احتراماله فالله يعبد بما شرع ولكن الفروع التى لا يضر الخلاف حولها لا يصلح الأمر على توحيدها حتى لا تصطدم يالزمان والمكان ، وهذه هى التى فتح فيها باب النظر والاجتهاد ككل الفتاوى التى صدرت عن الائمة وهى التى تكونت منها المذاهب والفقه الإسلامى .

وقد يتساءل البعض : لماذا التقنين مادامت الشريعه موجودة فعلا من خلال كتاب الله والأحاديث النبويه وسنه الرسول ويقول : حتى تصبح فى شكل مواد مرتبه ومبوبة وفى شكل مجموعة من التشريعات يسهل على الإنسان معرفتها والرجوع اليها ويسهل على القضاة والمحامين الأهتداء إلى مايريدونه منها من أقصر طريق ، وفى النهاية لتصبيه الإداة الرسميه التى تحكم كافـــه معاملات الناس فى الحياة من خلالها .

وقد اعترف اساتذة الغرب أنفسهم بأن الشريعة الإسلامية هى أهم مصادر

التشريع وشهدت المؤتمرات الدولية بذلك أهمها مؤتمر لاهاى للقانون الدولى عام ١٩٣٢ الذى قرر اعتبار الشريعه الإسلاميه مصدراً من مصادر التشريع العام كما اعتبرت جمعية القانون الدولى الأمام محمد بن الحسن الشيبانى هو الرائد الأول للقانون الدولى ، وصدر قرار كلية حقوق باريس ١٩٥١ بأن مبادىء الفقه الإسلامى لها قيمة قانونية وتشريعه لا حدود لها حيث أنها تستجيب لمطالب الحياة كلها وهناك نظريات كثيرة عرفها الغرب مصدرها الشريعة الإسلاميــــة منها : « التعسف فى إستعمال الحق » : بمعنى حريه التصرف بحيث لا يسبب التصرف ضرراً للغير : ونظريه الحوادث الطارئة التى تخفف ممن وطأة قاعدة العقد شريعة المتعاقدين .

أن حاجتنا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية هى حاجتنا إلى طاعة الله فما لم يحكم بما أنزل الله فنحن كافرون طاغون فاسقون .

وقد عاش الفقه الإسلامى أربعة عشر قرنا ومازال صالحا لكل زمان ومكان بينما التشريعات فى أوربا وليدة قرن واحد والتشريعات الشيوعية الماركسية وليدة نصف قرن ومن المعجب أن قضاء المظالم عرفه الإسلام منذ أربع عشر قرنا وهو المسمى الآن « مجلس الدولة » .

وقد استدعت دولة الامارات العربية المتحدة المستشار على على منصور لمراجعة القوانين واللوائح المعمول بها ثم وضع مجموعة قوانين كاملة أخذ من الشريعة الاسلامية فاستجاب لذلك وشكل عدة لجان لتعيد هذا العمل وقد أمكن فى فترة مجموعة قوانين يسره وضع مجموعة قوانين شملت ٢٢ مشروع قانون بلغت موادها نيفا وأربع آلاف مادة، وسمحت دولة الإمارات لدول الخليج وغيرها من الدول الاسلامية الانتفاع بهذا الجهد .

ولا سبيل إلى تحقيق الامن الا بتطبيق الشريعة وتطبيق الحدود وقد قطعت المملكة السعودية فى عهد الملك عبد العزيز سته عشر يداً كانت ثمنا لتحقيق الآمان

الكامل فى هذه البلاد الشاسعة ولبلايين البلايين من البشر القادمين من الحجاج على مدى خمسين عاما ».

والعالم الإسلامى الذى يموج اليوم بالحركة نحو تطبيق الشريعة الإسلامية فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى ، فى باكستان ومصر والأردن والكويت، يتطلع إلى هذا العمل الكبير الذى تحقق فى دولة الأمارات العربية والذى سيكون ولا شك بالغ الأثر فى التحول الكبير نحو الإسلام خلال القرن الوليد .

وجزى الله على على منصور جهاده ونضاله من أجل احقاق شرعه الله فى الأرض ومن اعان على ذلك وفتح الباب لتحقيق هذا الهدف العظيم من أهداف الإسلام .

علال الفاسي

(٩)
عـلال الفاسى

فى شهر ربيع الثانى ١٣٩٤ عبر إلى الشاطىء الآخر ملبيا نداء ربه علم من أعلام الإسلام والوطنية وزعيم سياسى ومصلح اجتماعى لم يعرف عصرنا نموذجا مثله فى جمعه بين الجهاد السياسى الوطنى وبين الدعوة إلى الله والقدرة فى مجال الدراسات الإسلامية ولقد يبدو هذا غريبا على الأجيال الجديدة التى ترى دائما الفصل بين الزعيم السياسى وداعية الإسلام بينما جاء هذا الفصل نتيجة سيطرة المفاهيم الغربية فى أنشطاريتها ودعوتها إلى عزل ميادين العمل الفكرى والاجتماعى مما لم يعرفه المسلمون على طول تاريخهم ولذلك فقد كان العلامة علال الفاسى مثلا مجددا لمفهوم الإسلام فى القائد والزعيم .

وإذا كان علال الفاسى له تاريخه الطويل فى ميدان العمل السياسى والجهاد الوطنى مشاركا فى حركة تحرير المغرب وقد احتمل فى سبيل ذلك السجن والنفى والتشريد فإن جانب الفكر فيه هو ماتركز عليه فى هـــذه الدراسة أملا فى استصفاء قيمة الفكرية ونقديمها المسلمين من جديد لتكون نبراسا للعاملين فى مجال الإصلاح والدعوة الإسلاميه .

ولقد نشأ « علال الفاسى » فى أحضان حركة اليقظة الإسلامية التى أحتضنت المفكرين المسلمين جميعا فى مراحلها المختلفة منذ صدع الأمام محمد بن عبد الوهاب بالدعوة فى قلب الجزيرة العربية فى القرن الثانى عشر الهجرى متقدما وسابقا لكل حركة يقظة أخرى مما جاء من الغرب وقبل الثورة الفرنسية والحملة الفرنسية وكل مايتصل بالارساليات والمدارس الغربية بأكثر من خمسين عاما .

ومن منطلق دعوة التوحيد إمتدت كل حركات اليقظة فى الهند فى مصر وفى سوريا وفارس وجاء جمال الدين الأفغانى إلى مصر عام ١٨٧١ ليحمل نفس اللواء الذى حمله السنوسى والمهدى والشوكانى والألوسى والطهطاوى وخير الدين التونسى ثم جاء محمد عبده ومدرسة المنار فامتدت حركه اليقظة إلى المغرب حيث ظهر

كنون والدكالي ومحمد العربي العلوي أساتذة علال الفاسي والرصيد الذي استمد منه ثقافته ودعوته وإنطلاقه إلى آفاق العمل الوطني الإسلامي جميعا ، ذلك أن المغرب العربي لم يعرف التقسيم بين العمل الوطني والعمل الإسلامي بل أن العمل الوطني نفسه قد إنطلق من قلب حركة اليقظة ومفاهيم السلفية بوصفه جهادا للاستعمار ومقاومة للغزو الأجنبي .

ولقد أشار العلامة علال الفاسي إلى هذا المعنى في كتابه :

« الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » : حين قال :

« لئن كانت السلفية في باعثها الحنبلي[1] ترمي لتطهير الدين من الخرافات التي الصقت به والعودة إلى روح السنة المطهرة فإنها لاتقصد من وراء ذلك إلا تربية الشخصية الإسلامية على المبادىء التي جاء بها الإسلام بصفته المتكفل بصلاح الأمة في دينها ودنياها ، لكن هذا الأعداد الفردي لايقصد منه إلا تقوية التضامن بين الجماعة الإسلامية على أساس الإخاء الإسلامي أولا والإنساني ثانيا ، وذلك مايستوجب كثيرا من التسامح مع المخالفين في الوقت الذي يدعو للوقوف صفا واحدا في الدفاع عن الإسلام وعن الأمة الإسلامية كلها والدفاع عن الإسلام وأممه يستدعي بالطبع قبول المبادىء التي تعطي للفرد حرية العقيدة وحرية الفكر وتعطي للأمم حق تقرير مصيرها .

غير أن الوصول لهذه الوسيلة لايتحقق إلا إذا تحررت البلدان الإسلامية من سيطرة الأجنبي المادية والمعنوية ولذلك فالعمل على الاستقلال شرط أساسي لاكتساب الحرية التي لابد منها لتحمل المسئولية » .

وهكذا يرى العلامة علال الفاسي أنه في سبيل تحقيق أهداف حركة اليقظة الإسلامية لابد من تحقيق التحرر الوطني وتحرير التراب الإقليمي ، ولذلك فهو

---

(١) ترد كل حركة اليقظة الإسلامية بمنطلقها السلفي الذي دعا إليه محمد بن عبد الوهاب إلى أحمد بن حنبل وابن تيمية .

ينظر إلى دوره الوطنى وجهاده للاستعمار الفرنسى كجزء من خطة العمل الإسلامى الكبير — وهذا هو أصدق مفهوم — فإذا تم تحرير التراب المغربى أتجه علال الفاسى إلى العمل من أجل (اليقظة الإسلامية) وهذه هى المهمة التى جرد لها نفسه منذ إعلان الاستقلال عام ١٩٥٤ فأمضى مايقرب من عشرين عاما فى هذا المجال ولم يكن عمله الفكرى الإسلامى ومحاضراته فى جامعة فاس الا جزء من عمله السياسى بوصفه رئيسا لحزب الاستقلال وقد جرى عملة الفكرى الإسلامى فى ثلاث قنوات واسعة :

الأولى : تقنين الشريعة الإسلامية والاقتصاد الإسلامى على النحو الذى يمكن المسلمين من معرفـــة عظمة شريعتهم فى مواجهة تحديات الغزو الفكرى الغربى وبالمقارنة مع القانون الوضعى والاقتصاد الرأسمالى والماركسى ..

وله فى هذا بحوث متصلة موسعة أهمها : بحثه : « مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها » وبحثه عن (التنمية الاقتصادية فى الإسلام) بالإضافة إلى (تقريراته على مشروع مدونة الأحوال الشخصية) .

الثانى : فى مجال التاريخ الإسلامى والتاريخ المغربى بوصفه جزءا من تاريخ الإسلام وله فى ذلك دراسة هامة عن مكان التاريخ الإسلامى من التاريخ العام للبشرية ، بالإضافة إلى دراساته المختلفة :

٢ — الحماية الفرنسية فى المغرب من الوجهة التاريخية القانونية .

٢ — حماية أسبانيا فى مراكش .

٣ — السياسية البربرية : عناصرها ومظاهر تطبيقها .

٤ — مفاخر العلويين : موجز تاريخ الدول العلوية .

٥ — الكتاب الأحمر عن القضية الموريطانية والحدود المغربية (بالفرنسية) .

٦ — الاستعمار الفرنسى فى الجزائر .

(ثالثا) فى مجال ترشيد وبناء الشخصية الإسلامية العربية .

وأهم أبحاثه فى هذا المجال كتابه (النقد الذاتى) الذى حظى باهتمام الباحثين فى كل مكان والذى ترجمت أقسام منه إلى اللغات المختلفة .

ودراسته عن مستقبل اللغة العربية فى المغرب .

وبحثه عن الحرية بالمقارنة بين النظريات الفلسفية المختلفة والإسلام وبحثه عن محمد عبده وموقفه من الشبه والتشابه .

ودراسته عن التبشير المسيحى وبعض الوثنيات الطائفية الهندية ودراسته عن مهمة علماء الإسلام .

ومن خلال هذا الحصاد الضخم الواسع المنوع نجد شخصية (علال الفاسى) كمفكر إسلامى واسع الأفق ، عميق الرؤية ، متمكن من معرفة أبعاد الفكر الإسلامى مع مقدرة كافية للمقارنة مع الفكر الغربى بشقيه فى إيمان واضح بالتميز والذاتية والأصالة الواضحة فى الفكر الإسلامى .

وانذهب معه إلى مفهوم الإسلام ، وعندئذ نجده واسع الأفق ، واضح الفكرة عميق الدلالة :

ماهو الاسلام ؟

« الإسلام ثورة على الجاهلية ، هو نقيضها ، هى شرك وهو توحيد وهو ايمان وهى شكوك وأوهام ، هى فوضى وهو نظام ، هى تقاليد وعادات ما أنزل الله بها من سلطان وهو شرعة ومنهاج ، هى جبت وطاعوت وهو عدل وحرية والدين هو مجموع ماشرعه الله من أحكام سماوية منزلة على أنبيائه ، وهو جامع للايمان والإسلام والإحسان كما فى حديث جبريل ،هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم قال البخارى فجعل ذلك كله دينا .

والدين عند الله الإسلام وإذن فالإسلام والدين بمعنى فى الاصطلاح الإسلامى والإيمان هو أعتقاد فى النفس وتعبير عنه باللسان وإثبات له بالعمل ، والمناسك هى التعبدات التى تعبد الله بها عباده من صلاة وصيام وحج وقربان ، وهى مظاهر الإيمان ، وتدخل فى مدلول الدين ، والشرع فرع من فروع الدين ، وهو دستور الفرائض والسنن والمباحات والمحرمات التى جاء بها الدين بأحكام عامة أو خاصة منها المعاملات ومنها دستور الحكم الشرعى والتحكم السياسى فى الأمة والدولة .

والشرعة هى السبيل المستقيم ومنها ضرورات الحياةوتدخل فيها الشرائع السياسية فالشرعة إذن هى الدستور القويم لكل ماهو سبب الحياة فالاسلام هو الانقياد لله الناشىء عن الإيمان به ومحبته وطاعة النفس لامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

وقد حاول الغربيون أن يجعلوا من كلمة الإسلام مايدل على معنى الاستسلام الأعمى وبنوا على ذلك تصورهم الخاطىء لفكرة القضاء والقدر عندالمسلمين ورتبوا على جميع ذلك تعبير ماواصات المسلمين من إنحطاط وكسل بهذا الاستسلام الذى يعنى بزعمهم الإيمان بأنه لاحاجة لعمل شىء من شأنه أن يغير أحوال المسلمين لأن كل شىء مكتوب وإذن يجب الخنوع والاستسلام وكل محاولة لغير ذلك عبث ، مع أن الإسلام يعنى الإنابة لله فى طاعته وهده تعنى القيام بكل مافرضه الإسلام ودعـــا إليه من أعمال دينية ودنيوية لضمان السعادة والهناءة فى هذا الحياة وفى الأخرى » .

العرب بعد الاستقلال

ويصور علال الفاسى موقف الأمة العربية بعد أن خرج المستعمر ، وبدأت مرحلة الاستقلال : —

« أمتنا العربية آمنت بالإسلام دينا واتخذت أحكامه خلقا ورأت آثار ذلك فى كل تاريخها فعاشت معه عزيزه حرة كريمة مصونة حتى إذا هاجمها المستعمرون الغربيون فى عهودها الأخيرة وغلبوها بقوتهم الماديـــة وجدوا عندها من طاقة

الإيمان ، وخلق الدين، مادفعها للاستمرار فى النضال والثبات فى المقاومة فاستطاعت أن توحد صفها وتلتف حول الخيرة من أبنائها وتقسر الاستقلال من يد العدو يسرا ، وكانت تسير بعد الاستقلال فى طريق معبدة تفضى بها إلى « ثورة المؤمن» الذى يتحرك ليثبت عقيدته وينقلها من عالم الضمير إلى ميدان الواقع ، وذلك باقرار مبادىء العدالة الاجتماعية كما أرادها الإسلام لاضرر فيها ولاضرار حتى إذا قاربت الثورة أن تبدو ونورها أن يشرق قامت ردود الفعل فأوقفت الأمة عن سيرها وشغلتها بنفسها وأحدثت بينها الفرقة وفقدان الثقة .

ولقد صرخنا على أثر النكبة الأولى التى حلت بفلسطين أن لامنقذ لنا غير الإسلام ولإخلاص لشمبنا الابتعاليم القرآن .

ولما اشتدت الفرقة وافضت إلى حروب ومشاجرات نادينا مع المؤمنين فى كل أنحاء الأرض المسلمة بضرورة التضامن الإسلامى علما منا بأن الوحدة المبنية على العقيدة لا على السلالة أو اللغة هى أمتن رباطا وأقوى عملا وأجدىعاقبة ،ولكن خصوم (الجامعة الإسلامية) انضموا إلى طائفة الدول الكبرى فى محاربة هـذه الدعوة البريئة بأنها حلف استعمارى مع أنها وحدها التى كانت قادرة عن إبراز ما للشعوب الإسلامية من قوة وهكذا إنعزل العرب عن بقية العالم الإسلامى وانقسموا .

كل ذلك والأحزاب صهيونية وصلبية تتستر باسم الديمقراطية أو الاشتراكية تفت فى عضدهم ولاتألو جهدا فى تضليلهم وتوقع بينهم العدواة والبغضاء .. » .

وننقل إلى جانب آخر من جوانب فكر « علال الفاسى » ومفاهيمه .

« الغزو الفكرى »

« الذين حبذوا إلغاء الخلافة والتخلى عن فكرة الجامعة الإسلامية ظنوا أن ذلك سيتيح الفرصة للتكتل على أسس تقدمية جديدة، دون التعرض لمعاداة الغربيين الذين زعموا أنهم تخلوا عن التعصب الدينى وفتحوا صدورهم لملاقات إنسانية كما

شبه للعرب أن إنهاء الخلافة العثمانية سيتيح لهم أقامة سلطان عربى موحد : هذا كله لم يكن إلا استدراجا لنفوس العرب والمسلمين للتحلل من مثلهم العليا وأخوتهم الدينية التى لامثيل لقوتها . ولقد نجح الصهيونيون والصليبيون والمستعمرون فى إفساد الروح الوثابة التى أخذت تنمو فى نفوس العرب والمسلمين منذ الصرخة الأولى التى أعلنها جمال الدين ومحمد عبده وغيرهما من قادة الفكر فى عالم الإسلام الجديد ومن غير أن تزول قداسة هؤلاء القادة فى نفوس المسلمين يصبه إليهم دعاة الإعداء أن أفكارهم أنما تمثل مرحله من مراحل النضال ضد الرجعية وأن النتيجة الحتمية لها هى هذه الأفكار الإنحلالية التى ضيعت على المسلمين طاقاتهم ومعنوياتهم فى سبيل مثل بعيدة عنهم ولاتفضى الا إلى زوال الكيان العربى الاسلامى . أن النكبة من هنا بدأت من الاحتلال الفكرى الذى تغلغل فى نفوس أجيال من قومنا باسم التقدمية والديمقراطيه والاشتراكية دون تعمــق لمعانى الأشياء ونفوذ لفحواها » ..

مستقبل الإسلام

وكان العلامة علال الفاسى صادق الإيمان بمستقبل الإسلام إذا ما تسلح المسلمون بالوعى والإيمان :

« أن ضعف تمسك المسلمين بالإسلام والإبقاء على بعض منه فقط فهذا صحيح مع غاية الأسف ، ولكنه لايدعو إلى اليأس وأن ذلك من طبائع الأشياء . قال الله تعالى فى كتابه العزيز . (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) فالصعود للانسان ثم الهبوط ثم الصعود ثم الهبوط شيء ضرورى ولكن الثلة المؤمنه التى تظل تعمل الصالحات ولاينقطع أجرها هى التى تعود بالمسلمين وبالإنسان إلى ماخلق عليه من أحسن تقويم وترفعه من أسفل سافلين إلى أعلى عليين ، فضعف المسلمين أو تخليهم شيء موقوت لابد أن يزول ولن يزيله خروجهم من ملتهم أو قبولهم مبدأ اللادينية بل بقيام طائفة ظاهرة على الحق بواجباتها لرد المسلمين الى حظيرة الإسلام الحق أن علمائنا اليوم مسئولون عن تربية شبابنا وأرشاد أمتنا ، ولكن عليهم لكى

ينجحوا أن يعطوا الدليل العملى من سلوكهم وقيامهم بالنضال المستميت فى سبيل الحق فى بعث الإسلام ثقافة وحضارة وشريعة ولغة كتابة » .

. . .

(وبعد) فقد كانت حياة علال الفاسى حياة خصبة عامرة بالكفاح والنضال ، قضى طرفا منها فى القرويين متعلما ومعلما ، وقضى طرفا منها فى الشرق ومصر مهاجرا وقضى طرفا منها فى الصحراء منفيا وقضى طرفا منها فى السجن معتقلا ، ثم عاش سنواته الأخيرة بعد الاستقلال مجاهدا بالكلمة واستطاع أن يرسم صورة واسعة لأصول للثقافة العربية الإسلامية فى المغرب كواحد من قادة الفكر وأئمة الدعوة الإسلامية « رحمة الله » .

محمد إقبال

إذا ذكر تاريخ التجديد فى الإسلام فشمل فى القديم . ابن تيمية والغزالى وابن حزم وابن خلدون ، فإنه فى العصر الحديث يضم : جمال الدين ومحمد عبده والكواكبى وإقبال وفريد وجدى . وقد أخذ (إقبال) مكانه فى هذه الطبقة الأولى من المجددين لأنه وصل الإسلام بالحياة ، وكشف عن جوانب الإيجابية والتقدمية الواضحة فى تعاليم الإسلام ، وأنه احس فى ضوء الحضارة البشرية الضخمة أنه لابد من تجديد لمفاهيم الإسلام ، مستمدة من أصوله وقيمه ومفاهيمه الأساسية التى أصابها ركام من الجمود والتقاليد والهوى خلال فترة الضعف التى مرت بالعالم الإسلامى ، ولقد كان إقبال منذ تطلع إلى دعوة اليقظة ينظر إلى الأمة العربية على أنها مصدر النور ، وأمل المستقبل ، وأن فى نهوضها يقظة للعالم الإسلامى كله ، وتنبأ بأنها كما كانت فى الماضى ينبوع التوحيد فستكون فى المستقبل مصدر الوحدة والحرية .

أمة الصحراء ياشعب الخلود   من سواكم حل أغلال الورى
أى داع قبلكم فى ذا الوجود   صاح لا كسرى هنا أو قيصرا
من سواكم فى حديث اوقديم   أطلع القرآن صبحا للرشاد
هاتفا مع مسمع الكون العظيم   ليس غير الله ربا للعباد

ومنذ البواكير الأولى لحياة (إقبال) كان طابع فكرة وحياتة جميعا يرسم الصورة التى عاشها من بعد ، فقد وجهه أبوه فى مطالع حياته فقال له : « أقرأ القرآن كأنه أنزل عليك » يقول « ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ما أقتبست ومن بحره ما نظمت » . « من الخطأ الظن أن الثقافة الإسلامية نشأت تحت تأثير الثقافة اليونانية ، فواقع أن أخذ العرب والمسلمين بالفلسفة اليونانية قد آخر ظهور العلم العربى وإنطلاق الثقافة الإسلامية خلال قرنين كاملين وحين ولدت الثقافية الإسلامية بعد أن تحررت من الروح اليونانية ، كان معنى ذلك ولادة

الروح الاستقرائية وبالتالى (الطريقة التجريبية) التى ترجع إليها نشأة العلوم الوضعية، والرياضية والفزيائية وغيرها ، وانتقلت من العرب إلى الغرب ، وأرساء قواعد الطريقة التجريبية الاستقرائية هذه فى العلوم التى أخذتها مدرسة اكسفورد وروجر بيكون من بعد كانت مساهمة للعرب فى نهضة الغرب ، بل وأكبر من أية نظرية علمية أبدعها الغرب وقد تميزت روح الثقافة الإسلامية بأمرين : الإيمان بوحدة الجنس البشرى الذى كان دعوة وعقيدة أكثر مما كان فى غيره من الأديان ، وانتشار الجنس التاريخى وخاصة بعد ابن خلدون » .

ومن هذا الإيمان بأن الفكر الإسلامى هو صاحب القاعدة العلمية التى قامت عليها الحضارة وعنده بناء على هذا أن المدنية المعاصرة استمرار لروح الإسلام ، وأن مولد الإسلام كان مولد العقل الذى يبحث بطريق الاستقراء ، وقد كان العقل القديم عقلا استنتاجيا وأن الإسلام هو مصدر الفكر المعاصر ، والعالم المعاصر ، غير أن إقبال يعقب على ذلك بأن هذه الحضارة قد انحرفت عن مقوماتها الأصيلة ، وأن محنة الغرب هى فى حقل الأخلاق والسياسة العملية وأن أوربا فشلت فى علم الاجتماع وأنها لم تعط هذه الحضارة إنسانيتها ، بل أقامتها على أساس والتفرقة والعنصرية ، واستذلال الشعوب التى سقطت فى قبضتها ، وأن الفكر الغربى وضع حلولا لمختلف القضايا جردتها من الروح ، وقصرتها على المادة ، وبذلك إنفصلت عن مقومات الروح الإسلامية ، التى تجمع بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة والتى تسوى بين البشر ولاتفاضل بينهم .

ومن عجب أن هذا الرأى الذى يدين به (إقبال) لم يسبقه إليه أحد ، ولايشاركه فيه إلا العلامة « فريد وجدى » ولا أظن أن أحد منهما قرأ للاخر ، وإنما استمد هذا الرأى من عمق النظر لاغير .

وعنده أن تربية الذات لها مراحل ثلاث : الطاعة ، وضبط النفس ، والعناية الإلهية ، ودعا إلى التأليف بين الفرد والقوى والذات الكاملة ، وبين الجماعة التى تعيش فيها ، فالأمة تنشأ من أختلاط الأفراد وكمال تربيتهم ، وقال : أن الأمة الإسلامية قامت على ركنين : التوحيد والرسالة ، والتوحيد من شأنه أن يزيل

اليأس والخوف والحزن ، ومقصد الرسالة المحمدية : الحرية والإخاء بين بنى آدم « فهى أمة لا يحدها زمان ودوامها موعود ، وقانونها القرآن .

كان إقبال فى دعوته إمتدادا لجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى، ولكن طريقه كان جديدا ، كان فهمه للفكر الغربى وأيغاله فى دراستة قد أعطاه مفتاحا جديدا للتجديد الإسلامى لم يصل إليه من سبقوه فى الدعوة ، ولقد كان فى يقين إقبال وهو ينظم شعره ويكتب رأيه ماشاع بين المسلمين من ضعف وتخلف واتكالية جرتها عليهم المفاهيم الدخيلة فى مذاهب الحلول ووحدة الوجود، فكانت صيحته (أن من يصبح قريبا من الله هو شخص متقن (ولطالما ردد فى شعره كلمة (الرجل المتقن) مؤمنا بالعمل الجماعى الإيجابى) أن النفس البشرية تستطيع فقط أن تنمو بالمشاركة مع النفوس الأخرى وليس بالعزلة) ولطالما أعلن إقبال أن باب الاجتهاد لم يغلق ، وأنه مبدأ الحركة والنمو فى الإسلام ، وكشف عن الفرق بين التعصب والتدين فقال (أن التعصب يقف حائلا بين المرء والآخرين ، أما التدين الواعى المسئول فهو بمثابة جسر يوصل بين المرء وبين غيره يمكنه من أن يرعى مواطن الجمال فى الكون والآخرين).

ولقد كشف عن أراء المسلمين فقال: لقد أكد الإسلام (الحرية) ولكن غابة الأغراض السياسية أشاعت فى عامة المسلمين « جبرية » مشئومة .

بين إقبال والمفكرين من الغرب :

وقد جرت أحاديث عن ارتباط إقبال بالفكر الغربى فى نظريات كانت أو برجسون ورسل . وليس هناك مايمنع من أنه قد أستوعب كل هذه الفلسفات ، غير أن جذور كل الدعوات الإنسانية إلى الحرية وإلى العقل وإلى الدين إنما تستمد من الفكر الإسلامى كأساس واضح .

وقد وافق « كانت » فى نقده للعقل الخالص وإيمانه بعجز العقل وحده عن

التوصل إلى الحقيقة المطلقة ، وهذه هى فكرة الإسلام أساسا ، يقول إقبال : لابد لإدراك الحقيقة من الادراك الداخلي الذى يسميه « القرآن » القلب ، وليس القلب والعقل متناكرين ، وليس الفكر والالهام متنافرين ، فالدين لايقنع بالتصور المجرد ، بل يطلب إتصالا بمقصوده ووسيلة ذلك « العبادة والصلاة وسيلة استنارة روحية تعرف بها الذات الإنسانيه أنها موصلة بحياة أوسع ، وكل طلب للمعرفة هو فى حقيقته صلاة فالباحث فى العلم الطبيعى هو الصوفى فى صلاته ، وتزيد الصلاة قربا من مقصودها بالإجتماع ، والعباده (فردية أو جماعية) هى أعراب عن تلهف الوجدان الإنسانى إلى استجابة فى صمت السكون الهائل .

ولم تكن رسالة إقبال مقصورة على قومه فى الهند أو العالم الإسلامى وحده بل أقد قدم « الإسلام » للفكر الانسانى كله وللغرب الحائر باعتباره القادر على حل مشاكله وأزماته ومعضلاته ، ومضى يقول : أن الإنسان العصرى قد أغشاه نشاطه العقلى ، وكف عن تغذية روحه ، ومن هنا واجه صراعا مع نفسه ، ومع مجتمعه » .. وقال : أن هدف الحضارة هو إرتقاء الإنسانية والسمو بها وأن على الإنسان أن يؤمن بنفسه وأن يفرض على الحياة ، لا أن يخضع لها » .

وقد أنتزع إقبال تقدير الباحثين ولقيت فلسفته الإسلامية قبولا من الدوائر المختلفة ووصف بأنه متميز له طابع بين دعاة الإسلام ومصلحيه . يقول المستشرق هاملتون جب « أنه حين تميزت كتابات المفكرين المسلمين الجدد بأنها أقرب إلى أدب الدعاية والسياسية والدفاع والتبرير تغلب عليها العاطفة أحيانا كثيرة ، فإن كتاب إقبال يتميز بالمعالجة العلمية الرصينة والفكر العميق والثقافة الفلسفية العلمية الواسعة الدقيقة » .

وبعد فإن إقبال لم يكن شاعرا وفيلسوفا فحسب ، ولكنه كان سياسيا وداعية إلى تحرير مسلمى الهند من الاستعمار البريطانى . وهو صاحب فكرة إنشاء الباكستان التى حققها القائد الأعظم « جناح » وقد دعا اليها سنة ١٩٣٠ وقامت الدولة ١٩٤٧ ولاريب أن فلسفة إقبال فى الإسلام هى الجزء الثانى من المقاومة للاستعمار ، وهى مقاومة دعوات الفكر التى كانت تحاول أن تصور الهنود المسلمين ، وأهل الشرق كله بأنهم قوم متخلفون طبيعيا ، وأن الأجناس غير البيضاء الأوربية لاحق لها فى

الحياة. ولد إقبال فى سيالكوت بالبنجاب عام ١٨٧٣ من عائلة تعيش على الزراعة نزح جدها الأكبر من كشمير وتلقى تعليمه فى طفولته على أبيه ثم أدخل مكتبا لتعلم القرآن ثم مضى فى أكمال تعليمه حتى أحرز أرقى الدرجات العلمية ومن هنا فقد مجد (إقبال) الأمومة التى عليها بقاء النوع ، وحيا المرأة فى شعر رائع . « خلقتك الطاهرة لنا رحمة ، وأنت قوة للدين وحصن الملة يا من تفطمين فينا الوليد ، على كلمة التوحيد ، أن حبك لينجب أطوارنا ، و صور أعمالنا وأفكارنا وذوقنا الذى رباه سحابك الوضاء الذى غشى الجبال وطوى الصحراء ، ياأمينة على الشرع المبين ، أن فى أنفاسك حياة الدين. أحذرى الزمان فى سيرك وضمى أولادك إلى صدرك »..

ويقول : « أن شفقة الأم كشفقة النبى فى أنها تقرر المنهج لمسيرة الأقوام ، إنما تتقوى نشأتنا بالأمومة ويبدو طالعنا فى خطوط وجهها »

ولقد اتخذ إقبال الشعر سلاحه فى إذاعة فلسفته ، والشعر يفعل فعل السحر إيقاظا للامم ، وتحيينا للعزائم ، وأعادة الثقة بالثقافة الإسلامية يقول : « على رماد الثقافة الغربية المحترقة يمكن أن تولد ثقافة أفضل وأبقى متى استمسكنا بعرى القرآن ، لئن أصبح أحد العوالم بائدا ، أعطى القرآن عالما أخر » .

وهكذا كان إقبال داعيا إلى بعث الإسلام فى ثوب جديد ، وبعث للحياة القوة فى قومة ، ودعوة إلى النهوض ، والاسلام عنده (دين مفتوح) . رسالته الانسانية ليس لها حدود زمانية أو مكانية ، وبه قوة كافية تستطيع أن تحرر النفوس البشرية من قيود الفصبيات والألوان والأجناس .

وإقبال مؤمن بأن الحضارة الحديثة هى من صنع الفكر الاسلامى . يقول : أن الحركة فى الجماعه الاسلاميه تكون بالاجتهاد ، وأن أقوى أسباب ضعف المسلمين هو ترك الجهاد . وأعلن أن (الغايه القصوى للنشاط الإنسانى هى حياة مجيدة فتيه منتجه وكل فن إنسانى يجب أن يخضع لتلك الغاية ، وقيمه كل شىء يجب أن يحدد بالقياس إلى تلك القوة على إيجاد الحياة وازهارها ، وعلى فن هو

ذلك الذى يوقظ الإرادة النائمه فينا ويشجعنا على مواجهة الحياة فى رجولة ، وكل مايجلب النعاس ويجعلنا نغمض عيوننا عن الحقيقة الواقعـــة فيما حولنا هو إضلال وموت) .

هكذا فهم (إقبال) الإسلام ، ودعا إليه ، وحمله شعره ، وجعله نشيده وصيحته الإيجابية إلى البناء والقوة والحياة والعمل ولكن فلسفة القوة عنده ليست عنفا ولا إيذاء ولا إنكارا للضعفاء ، بل هى فلسفة الإسلام نفسه سموا وأخوة وتضامنا وعنده أن تحول الأمم لايكون إلا بتحول أعماق نفوسها «على أمم الشرق أن تتبين أن الحياة لاتستطيع أن تبدل ماحولها حتى يكون تبدلها فى أعماقها وأن عالما جديدا لايستطيع أن يتخذ وجوده الخارجى حتى يوجد فى ضمائر الناس قبلا ، هذا قانون القرآن « أن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » أنه قانون يجمع جانبي الحياة كليهما « الفردى والاجتماعى » .

والدين عنده « ليس أحكاما ولا كهنوتية ، ولاأذكاراً ، ولا يتيسر تهيئة الإنسان المعاصر لحمل العمل الثقيل الذى يحمله أياه تقدم العلوم فى عصرنا ، والدين وحده يرد إليه الإيمان والثقة اللذين ييسران له اكتساب شخصيته فى هذه الدنيا والاحتفاظ بها فى الآخرة » .

وعنده أنه لابد للانسان من الارتقاء وأنه لذلك لابد من تصور جديد لماضيه ومستقبله ليستطيع التغلب على المجتمع المتنافر المتصادم ، ويقهر هذه المدنية التى نقدت وحدتها الروحية بالتصادم الباطنى بين الدين والمطامع السياسية .

وعنده أن سير (الدين والعلم) على أختلاف وسائلهما ينتهى إلى غاية واحدة ، بل الدين أكثر من العلم اهتماما ببلوغ الحقيقة الكبرى .

ولقد أكمل إقبال دراسته الجامعية فى الكلية الشرقية بلاهور ، والتقى هنالك بأستاذه « توماس أرنولد » الباحث المنصف مؤلف كتاب (الدعوة إلى الإسلام) ثم قصد إلى أوربا فالتحق بجامعة كمبردج فى لندن وهيدلبرج فى ميونخ وأحرز أعلى الدرجات فى القانون والفلسفة ، وعاد إلى وطنه عام ١٩٠٨ .

ومنذ ذلك التاريخ وحتى توفى فى إبريل ١٩٣٨ كانت دواوينه النسعة ترسم فلسفته الإيجابية التقدمية المستمدة من الاسلام فى فهم عميق للحضارة والفكر الغربى وأحساس كامل بحاجة أمته إلى النهضة والانفلات من قيود الإحتلال .

كان إيمانه بأن « الإسلام » يستطيع أن يعطى أمته كما يعطى الإنسانية ذلك الضياء الذى يصنع القوة والحياة والحرية ، ومن هنا أطلق على كتابه الذى ضمنه فكرته (إعادة بناء الفكر الدينى فى الإسلام) وليس تجديد الفكر الدينى فى الاسلام (كما أطلق على الترجمة العربية) أطروحته للدكتوراه فى الفلسفة برسالة فى « تطور الفكرة العقلية الفارسية » .

وقد عمل بالتدريس فى الجامعة غير أنه لم يقو على قبول نفوذ الاستعمار فاستقال . ولما سأله خادمه لماذا استقلت قال : « أن خدمة البريطانيين مهمة صعبة ، والاصعب من ذلك هو البقاء فى خدمة البريطانيين » وفى مجال السياسة عمل عضواً بالمجلس التشريعى بالبنجاب وزار القاهرة سنة ١٩٣٢ وهو فى طريقه للاشتراك فى مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن ، وكان رئيسا لجمعية حماية الإسلام التى كانت تشرف على عدد من المؤسسات ، واتيح لإقبال أن يزور أكثر أجزاء العالم الإسلامى فقصد الحجاز وأفغانستان وإيران ومصر كما زار الأندلس « الفردوس المفقود » .

وإذا كان إقبال لم يجد فى حياته فهما واسعا لنظرته وفلسفته ، فانه كلما أمعن فى الإبتعاد عن عالمنا كلما أخذت مفاهيمه تتضح وتبرز ، لقد آمن هذا الرجل بإيجابية الإسلام وتقدميته ، والآخذ بالحضارة الغربية علي قاعدة فكرنا ، وكان أمله فى العرب ووحدة العرب إيمانا أكيدا بأنه هو السبيل إلى الحرية والوحدة .

« لك الحمد يارب إذ لست من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين ولقد رزقتنى حكمة وفراسة لم أبعهما للملك من الملوك ، إنى فقير قاعد علي قارعة الطريق ولكننى غنى النفس أبى » .

* * *

« لايتيسر تهيئة الإنسان المعاصرة لحمل العبء الذى يحمله إياه إلا بالدين وتقدم علوم العصر ، والدين وحده هو الذى يرد إلى الإنسان الثقة فى نفسه ويضفى عليه

شخصية واثقة حتى يستطيع التغلب على المجتمع المتنافر المتصادم ويقهر هذه المدنية التى فقدت وحدتها الروحية بالتصادم الباطن بين الدين والمطامع السياسية » .

. . .

« أن فلسفة أوربا المادية أسفرت عن ذاتية منخرفة تحاول تحقيق نفسها عن طريق ديمقراطيات متنافرة متباغضه ، أن أوربا اليوم لهى أكبر عقبة فى سبيل التقدم الأخلاقى فى حياة الإنسان » .

. . .

(١١)

فريد وجدى

نحن بإزاء شخصية خصبة ، غاية الخصوبة ، عميقة غاية العمق ، — شخصية مفكر وفيلسوف وباحث متجرد لفكرة واحدة عاش لها حياته كلها . وما أطولها بعيدا عن مجالات الشهرة والتألق ، أو إحداث الدوى ، كأنما هو زاهد ، لايتطلع إلى أى شىء فى هذه الحياة ، غير أمر واحد ، هو أن يقول كلمته ، أنه من النماذج القلائل التى تظهر فى تاريخ الفكر الإنسانى ، بين آن وآخر . لتكون مهيأة بالعقل والقلم على أداء دور كبير ليس على مسرح الحياة وإنما فى أعماقها. من أولئك القادرين على استيعاب مفاهيم عصرهم من أجل الدفاع عن دعوة انسانية رفيعة يحملون لوائها مــدى حياتهم . لايصيبهم اليأس ولا التحول ، ولاتزيدهم الأيام والأحداث الا قوة على الاستمرار ، فكأنما هذه الحياة عندهم مجرى طويل ممتد يبدأ أول أمره عاديا لايلفت النظر ثم لايلبث أن يزداد عمقا ، ومايزال يمتد ويتسع ويعمق حتى اذا أوفى على الغاية اكتمل وتضخم وأحال كل ما حوله خصبا وحياة .

كذلك كانت حياة « فريد وجدى » فى مطالعها قبل أن ينتهى القرن الماضى بخمس سنوات . شاب فى العشرين فى عمره ، ولد فى الاسكندرية وتنقل بينها وبين دمياط ثم استقر فى السويس مع والده الذى يلى منصب وكيل المحافظة بها . قد اكمل تعليمه فى مكتبة والده متفوقا فى اللغة الفرنسية . وقارئا بها ، مازجا ذلك بثقافة عربية الإسلامية أصلية قوامها دراسات الأدب والعلوم والفقه والتاريخ والسنة والشرائع والقرآن ، موجها قلمه إلى قضية عصره : مواجهة تحديات الفلسفة المادية داعيا الى الايمان بالأديان ، مقدما الى أهل عصره عصارة الثقافات القديمة المستحدثة الشرقية والغربية على السواء . من أجل بناء ثقافة عربية اسلامية عصرية . وكان قمة عمله فى هذا « دائرة معارف القرن العشرين » .

وتجرى حياة فريد وجدى الطويلة العميقة التى امتدت قريب الثمانين عاما من الأعوام على أرجح الأقوال فى أربع مراحل كبرى :

أولا : مرحلة بناء الشخصية .

ثانياً : للعمل الصحفى الوطنى .

ثالثاً : الموسوعة والاعمال الكبرى .

رابعاً : الصحافة الإسلامية ومجلة الأزهر .

. . .

١ — أما فى المرحلة الأولى فقد أخذ فريد وجدى يكتب رسائله التى تتناول الكون وإثبات وجود الله ، وتطبيق الديانة الإسلامية على النواميس المدنية وفى هذه المرحلة أصدر عددا من المؤلفات ، كما أصدر مجلة الحياة التى كان يضمنها هذه الأبحاث على هيئة مقالات ثم يعود فيصدرها فى مؤلفات .

وتتسم هذه المرحلة بوضوح الفكرة وعذوبة الأسلوب والقدرة على الأداء فى مجال الدراسات الروحية والدينية والإسلامية على نحو عصرى ، يختلف اختلافا واضحا عما كان عليه أسلوب الكتاب فى اللغة العربية فى هذه المجالات ولقد أفاد من طريقة الشيخ محمد عبده ومنهجه فى فهم الإسلام وزاد أنه استطاع أن يستشهد من كتابات الغربيين بما ذهب إليه من وجود الخالق وفضل العرب والمسلمين على الحضارة الحديثة .

غير أنه فى نهاية هذه المرحلة أخذت نفسه بعمل موسوعتين كانتا علامة على طريقة فيما بعد ذلك هو كتابة « كنز العلوم واللغة » الذى أصدره عام ١٩٠٥ وحشد فيه فنونا من عصارات الآداب والعلوم والفنون والفلسفات التى تضمنها الموسوعات وأستفاد فى إعداده من الموسوعات العربية القديمة ودائرة معارف لاروس ، ثم كتابة (صفوة العرفان فى تفسير القرآن) وهو تفسير مختصر القرآن يشرح على كل صفحة منه : كلماته ومعانيه فى إيجاز ويسر .

٢ — ثم لم يلبث فريد وجدى أن انتقل الى المرحلة الثانية وهى العمل

الصحفى الوطنى وذلك بإنشائه عام ١٩٠٧ جريدة الدستور التى عاشت بضع سنوات وتوقفت عام ١٩١٠ وكانت مدرسة جديدة فى الصحافة اليومية من ناحيتين. من ناحية كرامة الكلمة وإرتفاعها عن اللغو والجدل والمرآء فى الهجاء، ومحاولة إدخال شذرات مختلفة من الصحف العالمية عن الحضارة وتطور العلم والمذاهب والأفكار الحادثة فى الغرب بأسلوب سهل مبسط يقربها للقارىء.

كما قدمت الدستور عددا من الكتاب، كان فى مقدمتهم الأستاذ العقاد الذى عمل فى هذه الصحيفة محررا أساسيا طوال فترة حياتها.

٣ — ولم يلبث فريد وجدى أن أوقف صحيفته، حيث لم تطاول نفسيته السمحة المطبوعة على الدراسات العامية العمل الصحفى فى أضطرابه ومشاقه وزواياه المختلفة وعاد إلى فطرته فى العمل الموسوعى والعلمى بعد أن كسب من وراء العمل الصحفى اليومى شهرة واسعة فى العالم الاسلامى كله. كانت فى ذاتها تعميقا لعمله الفكرى وإمتدادا له. ولم يلبث بعد أن وآصل أيامه فى مشروعه الضخم «دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى والعشرين الميلادى» فانتهى منها عام ١٩١٨ وكان يواصل إصدارها على إجزاء صغيرة باشتراكات زهيدة ومن أجل دعم هذا المشروع اشترى مطبعة خاصة أطلق عليها مطبعة (دائرة معارف القرن العشرين) ثم أعاد طبعها مرة أخرى بعد ذلك بقليل عام ١٩٢٣ مما يؤكد مدى أهمية هذا العمل فى هذه الفترة كمرجع سريع منوع لثقافات العصر والسلف ممتزجة مرتبطة من وجهة نظر عربية تؤمن ببناء الفكر الاسلامى الحديث على أساس من قيمه ومفاهيمه مع إنفتاحه لتقبل كل جديد وحادث فى مجريات النهضة وتطور الحضارة الإنسانية.

وفى هذه المرحلة ملأ فريد وجدى الدنيا وشغل الناس فقد كتب فى مختلف الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية وفى مقدمتها الأهرام والمقتطف والهلال وعالج عشرات من القضايا فى مقدمتها قضية وجود الروح. وواجه مختلف تطورات العصر الفكرية والسياسية والاجتماعيه ودخل كثيرا من المساجلات والمعارك فى إعتزاز بالعلم وترفع عن الكلمة النابية وكان خط فكرة فى مختلف كتاباته تغليب العلم والعقل على ما سواهما.

٤ — وفى عام ١٩٣٣ بدأت المرحلة الرابعة من حياته وهى أشرافة على تحرير مجلة الأزهر . وكانت تسمى (نور الاسلام) ثم أبدلت باسم مجلة الأزهر وقد امتدت هذه المرحلة حتى عام ١٩٥٢ ظل خلالها دائبا على العمل فى ذلك المجرى الذى يتصل بدراساته وفكرة . وقد قدم فى هذه المرحلة مايقرب من خمسمائة بحث فقد كان يكتب مقالين أو ثلاثة فى العدد الواحد وأبرز ماتتمثل به هـــذه المرحلة هى اهتمامه بموالاة كل مايكتب عن الثقافة العربية والإسلام والشرق والروحية فى صحف الغرب . وفى مؤلفات كتابه ، فيعرض له وينتفع به فى مجال دعوته إلى الروحية ومقاومة الفلسفة المادية أو يرد على مابه من شبهه أو خطأ .

. . .

وفى خلال هذه الحياة الفكرية العقلية من حياة فريد وجدى التى بدات عام ٢٨٩٩ بكتابه الفلسفة الحقة فى بدائع الأكوان وانتهت عام ١٩٥٢ بآخر مقال له فى مجلة الأزهر تبدو صورة باهرة لعمل ضخم أمتد خلال سبعة وخمسين عاما لم يتوقف ولم يفتر من أجل رسالة التنوير واليقظة وبناء الفكر العربى الإسلامى المعاصر على أساس العلم والعقل . ومقاومة الجمود من ناحية ومقاومة الفلسفة من ناحية أخرى ورد هذا الفكر إلى مقوماته الأساسية التى تمتزج فيها الروح والمادة والعقل والقلب . والدنيا والآخرة .

ولم تكن مؤلفات فريد وجدى المنشورة باسمه وهى تربو على عشرين كتابا هى كل آثاره وإنتاجه بل أن آثاره المطمورة فى بطون الصحف والدوريات لتزيد عن هذا القدر . ولعلها أكثر أهمية وخطرا . فقد اتصلت بالقضايا الفكرية والوطنية التى دارت فى العالم الإسلامى خلال هذه الفترة من حياته فقد شهد حربين عالمتين وتابع تطور الفكر الإنسانى فيما قبل القرن العشرين وخلال نصفه الأول متابعة راشدة يقظى ، من خلال زاوبته الإنسانية الروحية الدافعة على الدين المشدودة إلى حاجة البشرية إليه ، المتخذة من سلاح العلم والعقل وسايتها إلى كل رأى تراه أو وجه نظر تصل إليها .

وإذا أضيف إلى هذا موسوعته (دائرة معارف القرن العشرين) التى صدرت

فى ٨٤١٦ صفحة فى عشرة مجلدات وضمت آلاف المواد فى العلوم النقلية والعقلية والكونية وتاريخ المذاهب والتفسير والحديث والتاريخ العام وتراجم مشهورى الشرق والغرب والجغرافيا والطبيعة والسياسية والكيمياء والفلك والفلسفة والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والروحية والطب والعلاج وقانون الصحة والفوائد المنزلية وخصائص العقاقير والاحصاءات ، يتبين مدى هذا الجهد الضخم الذى استطاع به باحث فرد دون معونة من أى نوع أن يقدم هذا العمل للفكر الاسلامى المعاصر فى أوائل العقد الثانى من هذا القرن . ومازال هذه الموسوعة مرجعا حيا نافعا .

. ١ .

ولا يمكن أن تكتمل صورة هذه الحياة العريضة الخصبة التى امتدت طولا وعمقا الا حين تواجه « شخصية » هذا العالم الباحث السمح ، وحياته المضطردة كالنهر الجارى ، لاصخور ولا جنادل ، تتمثل فى شخصيته مفهوم صاحب الوسالة الذى يقول كلمته ولايطلب عليها أى جزاء ، لامن الشهرة ولا المادة ، بل ربما ينفق عليها مما يملك حتى تصل إلى الناس . ولطالما فعل ذلك فريد وجدى ، ولقد أتيحت له بعض الموارد التى حققت له الارتفاع عن حاجة الرزق الماسه . واستكفاء مطالبه العاجلة . وكان فى أغلب أمره عازفا عن ترف الحياة مكتفيا بالقليل الذى يقيم الاود وفق فلسفة صادقة الإيمان بالمذهب النباتى ، وبإيمان كامل بأن المفكر والكاتب يكفيه مثل زاد الراكب حتى يظل عقله يقظا محررا من أبخرة الأطعمة التى تفسد عليه منطلق فكره . ومن هنا كان ذلك الاستعلاء الرفيع المتواضع أن صح هذا التعبير عن مطالب الحياة ، ومجالسها ومناعمها ، مكتفيا فى ذلك بمتاع الفكر وغذاء الثقافة ، وفى مجالها لايبخل بشىء على شراء ما يستحدث فى أبحاث العلوم والمعرفة . كما عرف بتنظيم حياته تنظيما دقيقا ، فى مواعيد طعامه ونومه ويقظته وكانت رياضة المشى على الأقدام من الأمور الأساسية فى حياته لايتخلف موعدها ثم بعد ذلك حفاظ على طاقة الحياة من أن تتبدد فى السهرات أو الأطعمة أو المشارب أو الملذات ، غير مسرف ولا شحيح ، ولكن فى اعتدال واضح ، وتوسط وسماحة فى كل أمره وكذلك كان فى كتاباته وآثاره ومعالجته للامور . ومن عجب أنه

كان غاية التواضع مع كل من يعرف ويعامل . ويقابل زائرة واقفا ولو كان عامل المطبعة . وكان مجلسه يضم عشرات من المثقفين والاعلام ، ويزوره كثير من أبناء العالم الإسلامى وقد عاشت معه زوجه التى قضت قبله بقريب من عام ، دون أن ينجبا ذرية ، وكان له فى مجال الإنجاب الفكرى خير عوض .

* * *

وقد كان للنهج الذى سلكه فريد وجدى فى حياته ، منهج الاعتدال فى مقارنة الحياة أبعد الأثر فى تلك القدرة الوافرة على العمل العقلى حتى الأيام الأخيرة من حياته ومازال كتاباته فى الأعوام الأخيرة تكشف عن تألق هذا العقل وقدرته على المتابعة والبحث والعمل . وهذا فى بابه غاية العجب إذ لم تضطرد القاعـــدة فيه للكثيرين من المعمرين ، وقلما عرفنا معمراً استطاع أن يستمر قادراً فى مجال العقل والبحث كما نجد فى فريد وجدى ، وليس العبرة بطول العمر ولكن بالقدرة على العمل العقلى فيه . ولقد شهدنا معمرين فى مجال الفكر إنتهت حياتهم الفكرية قبل عمرهم بأكثر من عشرين عاما ولم تكن لهم بعدها آثار أو دراسات .

وقد كان فريد وجدى مؤمنا بحاجة المفكر إلى تخليص (دماغه) للعمل الذهنى ومن هنا حرر نفسه من قيود كثيرة . هى قيود العمل الوظيفى الذى رفضه فى أول حياته وقيود العمل الرتيب فى الصحافة ، وهو عمل شاق مرهق يقتل الأعصاب ، وأمضى حياته منطلقا إلى غايته فى البحث عن المعرفة والتماس الحقيقة ، فيلسوفا لا يذهب مذهب الأغراب ، وباحثا لا يستعلى بعلمه ، ومساجلا سمحا ، ما أن يدخل فى جدل مع كاتب أو باحث حتى تراه مثلا عاليا للخلق والإنصاف ، فهو يستقبل باحثه بالتحية ، ويعرض آرائه فى تلخيص واف أمين يسبق به الرد ، ثم يرد على كل جزئيه ، دون أن يثير حفيظة أو يبدو فى مظهر الاستعلاء ، حتى استطاع أن ينتزع من أكبر المصاولين المجادلين عنفا وهو الدكتور زكى مبارك ، قوله : « لا يسعنى إلا أسداء الثناء للاستاذ وجدى على أسلوبه فى الجدل . ذلك الأسلوب المهذب من شوائب الغرض والعناء وتلك سجية عرفناها له منذ أمد بعيد » .

فهذا التمديد لأعصابه وتحريرها من أندفاعات الصراع كان بالغ الأثر فى قدرته على الأستمرار هذا العمر الطويل على العمل الذهنى ، فضلا عن زهده فى مطامع الجاه أو — الشهرة أو المنصب أو احداث الدوى . وهو فى هذا المجال يرقى إلى مجال الزهادة فى المظهريات يقابلها إيمان عميق فى المخبريات والجوانيات ، مع إيمان راسخ ، لا يراوده شك ولا قلق ، بأن الإنسانية مقبلة إلى دعواه . بالغة طريقه ، غلب عليها إيمان الفطرة بالله والروحية . وأن البشرية لن تقف عند مطارف الحضارة وزخارفها ، ولكن العلم سيغلب أمره فيدفعها إلى الأصالة ويحول بينها وبين الأنهيار .

وقد عاش فريد وجدى حياة بسيطة ممتدة ، لا نتوء فيها ، ولا أحداث بارزة حياة عالم باحث متجرد ، لا تعرف له رحلات واسعة ولا تقلبات ضخمة ، ولا أصطدامات بأهل عصره . أو اندفاع فى مجال الصحافة أو الصراع السياسى . كان يمر عليه الصيف بقيظة لا يغادر القاهرة ، وقلما يذهب إلى ثغر من الثغور ، وقته كله مالك للعلم والمعرفة ، أمامه كتابه وقلمه ونظارته ، يقرأ ويبحث ، لا يضيق بالوقت الطويل أو العمر الممتد وله وقت راحته ووقت عمله . وكانت له مراسلات واسعة مع أعلام الفكر فى العالم الإسلامى وكثير من الباحثين من الغرب وطالما كانوا يرسلون اليه بعض إنتاجهم ينظر فيه ويبدى — ملاحظاته . كما كان حفيا بكل مايكتب فى باب الروحيات والدين فى الفكر الغربى كله ، يشترى من الكتاب نسختين من باب الاحتياط ، ويشترى كل طبعاته ويراسل أعلام هذه الدراسات مؤمنا بإنسانية الفكر البشرى فى سبيل دعم الحضارة بالدين والتوفيق بين العلم والدين .

ولا شك كان فريد وجدى رائد مدرسة فكرية عصرية سليمة ، تجمع بين القديم والجديد والشرق والغرب ، والحضارة والدين وتحاول أن تزاوج بينها على منهج جديد يختلف عن منهج الباحثين من رجال الدين أو العلم على السواء ويمكن أن يقال أن كتابات الدكتور محمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد ومحمد أحمد الغمراوى ومحب الدين الخطيب هى امتداد لمنهجه واستمرار لفكرته .

ولا يضير فريد وجدى أن أمضى أكثر من نصف قرن يعمل فى حقل واحد

ولا ينقص ذلك من قدره مادام ذلك الحقل واسعاً عريضاً منوع البذور والأثمار ، حفى بأن تستقبل جهود عشرات من الباحثين والدارسين ، منوعا حيا ليس بالطريق المسدود .

فإذا ذكرنا أن فريد وجدى كان مجدد الروح والفكر ، قادراً على أن يتطور مع العصر دون أن يتخلف أو يقف ، قد يسبق خطوة خطو أهل جيله دون أن — ينحرف عن قيمة ومقوماته الأساسية القابلة للتلقى والمتفتحة دائماً لكل جديد .

(١٢)
مبشر الطرازى

صفحة عريضة من النضال فى سبيل الحرية والدعوة إلى الله ولسان من ألسنة الحق ومبلغ رصين جاهد بقلمه ووهب حياته وماله فى سبيل إعلاء كلمة الله العليا ما وهن حتى أوفى على الغاية فى شهر ربيع الأول ١٣٩٧ (١٩٧٧م) بعد ساعات من ختم القرآن وأتمام كتابه عن رسول الله ، وكان سماحة العلامة أبو النصر مبشر الطرازى الحسينى كبير علماء تركستان قد أختار الأقامة فى القاهرة منذ عام ١٣٦٩ الهجرى الموافق ١٩٤٩ الميلادى بعد أن هاجر من بلاد تركستان وبخارى إلى أفغانستان عام ١٣٤٨ حيث قضى فى كابل عاصمة الأفغان مايزيد على عشرين سنة ثم قدم القاهرة فأقام بها مشاركا فى كل ألوان النشاط الإسلامى كاتبا وخطيبا وعاملا فى مختلف ميادين الدعوة الإسلامية ، حتى لحظاته الأخيرة ومايزال كتابه (المرأة فى الإسلام) فى المطبعة تجارب وسلخا وهو واحد من مؤلفات جاهزة للطبع اتمها رحمة الله وهى : الأخلاق ، القرآن ، تعاليم الإسلام العامة وقد ترك مع أهله وقفية لهذا العمل الذى ظل يواصله حيث كان يهدى مؤلفاته إلى القراء دون أن يحصل على ثمنها وكان يتبرع بمكافأة مقالاته فى المسجد إيمانا منه بأن مبلغ الإسلام لا يأكل من قلمه .

ونحن حين نراجع حياة هذا المجاهد المسلم نجد صفحات مشرقة من الجهاد والعمل فى مختلف ميادين العمل الإسلامى وهى حياة استمرت بضعا وثمانين عاما وتوزعتها ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى فى تركستان : حيث ولد الشيخ ونشأ وتعلم : فقد ولد فى مدينة (طراز) وتعلم فيها وفى طشقند تخرج من جامعة أبى القاسم خان ، ثم أتم دراسته فى جامعة بخارى وتخصص فى علوم التفسير والحديث والأدب العربى وحصل على سند الحديث الشريف .

وكان نسبة موصولا بالعلم والسياسة فوالده شيخ الأمة فى الفقه الحنفى والطريقة النقشبندية، وجده من ناحية أمة آخر أمراء الدولة الإسلامية فى تركستان الشرقية التى أسسها جده الأمير (هداية الله خان) المعروف فى التاريخ بلقب أفاق خوجم التى دامت ثلاثا وتسعين سنة .

وفى هذه المرحلة كان الطرازى مدرسا وصحفيا وسياسيا وممثلا للتركستان فى المجلس التشريعى يقول :

« دامت تركستان بإماراتها الثلاث فرغانة — بخارى — خيوه تحت حكم الروس وبعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٧ قامت حكومة كرينسكى وحان الوقت للحصول على الاستقلال فقامت الحركة الوطنية وكنت بحسن الحظ من القائمين بها وأنا فى عنفوان شبابى لتحرير تركستان واستقلال بلادها ولكن خابت الحركة الوطنية لأسباب أهمها الاختلاف بين كبار زعماء الوطن وخطاهم فى سبيلهم التى مشوا عليها نحو الغرض المنشود ولا سيما تدخل الروسى الأبيض إلى أن تسلط الروسى الشيوعى على بلاد فرغانة وطشقند ١٩١٨، كما تسلط على بلاد خيوة ١٩٢٠ فقامت الحركة الوطنية ضد الروس الشيوعيين فى نواحى فرغانة وسمرقند ودامت من ١٩١٨ — ١٩٢٦ ومرة أخرى وفى خلال الحرب العالمية الثانية دبرنا التدبيرات اللازمة فى الحدود المتاخمة بين أفغانستان وبخارى وتركستان للجهاد على خلاف المستعمر ولكن التغييرات الأخيرة فى الجبهة الغربية بين الروس والألمان خيبت آمالنا وكانت هذه الحركة آخر حركة وطنية لتحرير تركستان وبخارى من براثن الشيوعيـــة والحصول على استقلالها ولا يزال الشعب التركستانى فى المحنة (٢٧ مليونا من مسلمى روسيا) تحت الاضطهاد الروسى ومظالم الشيوعية منذ تسعة وخمسين عاما .

ولم يتوقف الجهاد فى هذه المرحلة عند العمل الوطنى بل أنه امتد إلى مجال الدعوة الإسلامية فإن الشيوعية استطاعت أن تتصيد من يهاجم الاسلام والنبوة فصدر كتاب (القرآن والنبوة) بالتركية من تأليف نعمت حكيم الدهرى عام ١٩٢٠ فى تركستان يثير الشبهات حول مفاهيم الاسلام وسرعان ما تصدى له الشيخ مبشر فى خطبته بالمسجد وفى كتاب كامل للرد عليه لم يلبث أن صودر من قبل

السلطة الشيوعية ثم حبس على أثر ذلك ونفى إلى طشقند وصودرت مكتبته وظل سجينا حتى شمله العفو العام ثم أعيد إلى الحبس مرة أخرى وظل مضطهدا لأنه لم يتوقف عن اعلان كلمة الحق إلى أن هاجر إلى أفغانستان .

٢ — المرحلة الثانية فى أفغانستان بين سنة ١٩٣٠ إلى ١٩٤٨ وقد كرمته أفغانستان ومنحته الجنسية الأفغانية وعين عضوا بالديوان وعضوا فى الأكاديمية الأدبية الأفغانية وعضوا فى دائرة المعارف الأفغانية ، وأتيح له أن يشترك فى عقد معاهدة الصداقة بين المملكتين السعودية والأفغانية ثم سافر إلى الهند قبل استقلالها وتقسيمها حيث التقى بكبار علمائها وزعمائها المسلمين وألقى محاضرة فى جمع حاشد عن (وجوب الاتحاد الاسلامى) فى المؤتمر السنوى لجمعية حماية الاسلام فى مدينة لاهور بدعوة من رئيسها الدكتور محمد اقبال فيلسوف باكستان ، سئل ماهو العلاج ضد الاستعمار ؟ قال : الأخوة والاتحاد !

وقد حمل العلامة الطرازى لواء الدعوة إلى الوحدة الاسلامية وعنده أن الوحدة العربية جزء من الوحدة الاسلامية ، وأنه ليس هناك قضية عربية وقضية إسلامية ، وله فى هذا عبارته المعروفة : (العروبة والاسلام قضية واحدة) ! !

وقد أولى هذه القضية اهتمامه الكبير فى أفغانستان وفى مصر بعد أن هاجر اليها لم يتوقف عن الدعوة اليها والكتابة إلى الملوك والرؤساء وسائر زعماء العرب والمسلمين يدعوهم إلى توسيع نطاق الوحدة العربية إلى الوحدة الاسلامية الشاملة .

٣ — وفى المرحلة الثالثة قدم الطرازى إلى القاهرة عام ١٩٤٨ فأقام بها مبلغا عن دعوة الاسلام مشاركا فى العمل الاسلامى فى قضايا الجزائر وفلسطين وقضية موطنه الأصلى تركستان وقد التفت فى هذه الفترة الخصبة الحاسمة فى حياته إلى التبليغ فكان عاملا على تحقيق عدد كبير من القضايا الحاسمة فى حركة اليقظة الاسلامية وأهمها الاتجاه إلى الشباب والدعوة إلى الجهاد وتصحيح المفاهيم حول حقيقة الاسلام والكشف عن جوهره الأصيل وخاصة كتابه الضخم (إلى الدين الفطرى الأبدى) فى أكثر من ستمائة صفحة فى جزئين كما عنى بتقديم السيرة النبوية إلى شباب الاسلام كاشفا عن محاذير العصر وضرورة العمل على تقديم الاسلام إلى المسلمين من جديد .

يقول :(لقد تغير شأن الأمة المحمدية فى هذا الزمن وشاعت فيهم المفاسد والفتن حيث انساقت أكثريتهم الساحقة نحو مظاهر هذه الحياة الخلابة ومدنية الغرب الزائفة الجلابة لتلك المظاهر التى خلبت أفئدة الضعفاء وهددت ميول الأقوياء وتلك المدنية الزائفة التى خلبت قلوب الشباب طائفة أثر طائفة نحو تقاليدها البراقة الفاسدة حتى كاد الشيوخ أن ينخدعوا فى أسواقها الكاسدة وبهذا وذلك اقتربت الأمة من المهالك وكيف وقد تغلبت على عقولهم الشهوات وسادت على دينهم الطقوس والعادات فلم يبق من الدين إلا اسمه فمضوا هائمين حيارى وكأنهم فى مخاطر البوادى والصحارى يمشون مشية العميان ويعيشون عيشة الحيوان ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نرى فى هذا العصر الذى يعيش فيه الانسان بين تيارات التطور الخارجية وأمواج التجدد المتدفقة نرى طائفة من الجيل الناشىء فى صفوف أبنائنا المسلمين (وبناتنا المسلمات) يبتعدون عن تعاليم دينهم المتين وذلك كلما تتجدد الأيام وهى تأتى ضمن أحداثها بجديد أثر جديد ، وهو براق يكاد يخطف أبصار المفتونين بمظاهر المدنية الغربية ويقتربون خطوة بعد أخرى نحو التحرر والانحلال . هذا الظن خطأ فاحش لأنه يخالف شعور الفطرة البشرية واحساس الطبيعة الانسانية ، ذلك لأن الفطرة هى التى تقتضى التقيد بالدين والتعلق بالعقيدة وبالخالق : خالق هذا الكون العظيم وبالأخص بدين الاسلام (فطرة الله التى فطر الناس عليها) .

والمجتمع الاسلامى والجيل الناشىء فى أمس حاجة إلى مزيد من التذكير والتثقيف فى شئون الدين وتعاليمه ومعرفة الله ورسوله فإن هذا هو العلاج الوحيد لقيادة الامة نحو ساحل النجاة .

ثم يقول : ولقد قمت بهذا الواجب عن طرق شتى ، منذ أن بلغت رشدى رغم مجافاة الزمن وتوالى الفتن والمحن والحمد لله على ذلك وكنت أشعر بهذا الواجب أخيراً أكثر من ذى قبل وذلك نظراً لما فيه الأمة ومنهم تلك الطائفة . ولما وفقنى الله بالسفر إلى المدينة المنورة وشرفنى بتأدية سنة الاعتكاف فى المسجد النبوى العشر الأواخر من رمضان ١٣٨٧ أقمت أياما بين بنى قومى المهاجرين

المقيمين فى تلك الأماكن لاحظت أن الواجب قد حان وقته فنذرت على نفسى بالكتابة عن السيرة النبوية ولما عدت إلى القاهرة بدأت الوفاء لما نذرت .

ولقد أتاح الله للعلامة الطرازى فسحة من العمر والوقت للكتابة عن الاسلام ورسوله وعن الاتحاد الاسلامى وشهر رمضان والاسلام فى اليابان والتصوف وترك تراثا ضخما بالعربية والفارسية (له خمسة عشر كتابا بالفارسية) .

وقد عايش فى هذا التراث مشاكل أمته الاسلامية وقضاياها وتحدياتها .

ولقد كان من أخطر هذه الاعمال وأوفاها بالكتابة وأبعدها أثراً تصحيح موقف عمر الخيام العالم التجريبى الاسلامى الذى نسب اليه ما أطلق عليه (رباعيات الخيام) ، فقد كشف الطرازى عن الهدف من وراء هذه المؤامرة الخطيرة وهى تدمير الاخلاق الاسلامية ودفع الشباب المسلم إلى طرائق الانحلال عن طريق شخصيه لامعة تدعو إلى التحلل والاباحة والخمر والاهواء . هذا الذى ينسب إليه الامر مسلم ولامع يخدع الاجيال والواقع أن الامر كله مؤامرة خطيرة وقد ظلم فيها عمر الخيام ظلما شديداً .

وقد لخص كتاب العلامة الطرازى « كشف اللثام عن رباعيات الخيام » الاستاذ سعيدالعامودى فى ملحق جريدة الندوة الزاهرة واعتبره من عدد لا يزيد عن ثلاثين أو أربعين كتابا ذات دلالة هامة فى النهضة الاسلامية المعاصرة .

يقول الاستاذ الطرازى : أن أكثر الباحثين عن حياة الحكيم عمر الخيام عرفوه عن طريق مانسب أو نسبوه اليه من رباعيات مزعومة عبروا عنها برباعيات عمر الخيام فمنهم من قاله أنه أبيقورى النزعة والميول ومنهم من ذهب إلى أنه معرى المذهب كما طعن فيه بأنه دهرى أو تناسخى أو باطنى أولا أدرى وتشاؤمى وجبرى ، هكذا ذهبوا كل مذهب فى شأن هذا الحكيم وليس لهم من ذلك كله

دليل إلا تلك الرباعيات المزعومة التى نسبت أو نسبوها إلى شخصيته البريئة وظنوا أنها من الحكم التى نسجتها قريحته وكان يمكن أن يهتدوا إلى انتحال تلك الرباعيات بدلائل كثيرة ولا سيما بالتناقض بين معانيها واتجاهاتها التى لا تخفى على الباحث وكان فى وسعهم تطبيق تلك الرباعيات على تلك الآثار الثابتة والمقولات الصحيحة حتى يظهر الموضوع من الصحيح ويميز الخبيث من الطيب والسبب هو اعتماد الشرقيين على ترجمة (ادوار فيتز جرالد) الشاعر الانجليزى لتلك الرباعيات سنة ١٨٥٦م ونشرها فى الشرق والغرب على أوسع نطاق ولم يفطنوا إلى ما كان هناك من أغراض مذهبية أرادها المغرضون ومكايد استعمارية كادها المستعمرون، وكانت طائفة من أبناء المسلمين أشد بها انخداعا وأعظم بها إبتلاء ، لأنهم انساقوا نحو تلك الفلسفة المزعومة الخداعة وتأثروا بما فيها من المعانى المثيرة والاتجاهات والتخيلات الباطلة وكنت من الذين يتأسفون كل التأسف لذلك فأعتقد أن كشف الغطاء عن وجه الحقيقة من واجبات المصلحين والقضاء على الأغراض والمكائد من فرائض المجاهدين » .

وقد فصل العلامة الطرازى هذه القضية تفصيلا ضافيا ووافيا نشر ذلك فى مجلة منبر الاسلام على فصول وتحدث به فى محاضرات وضمه كتابه المشهور الذى قال عنه « أعلم أن كتابى هذا سيكون عرضه لمعارضة الخياميين وهدفا لسهام المستعمرين وأنه لا يعجب كتاب الغرب والغربيين الذين يعظمون عمر الخيام لا لعلمه وحكمته وإنما يعظمونه لرباعياته » وصدق ولكن الله جلى الحق على يديه .

وهكذا نجد أن الرجل فى كل مراحل حياته عاملا مجاهدا مبلغا مدافعا عن الاسلام بالكلمة المكتوبة والمقولة فى كل مجال أو مكان يمكن أن تذهب اليه ، عاش عازفا عن مغانم الدنيا ومطامعها ومهاجراً فى سبيل الله وقد أتاه الله قدرة البيان العربى فكان سلاحه فى ابلاغ وجهة نظرة الاسلامية إلى كل قراء الضاد فى أى مكان ، وكانت رحلته طويله وشاقة من كردستان إلى أفغانستان إلى مصر محفوفة بالأزمات والمخاطر ولكنه كان مصراً على الجهاد لله والوقوف فى وجه

الخطر وكان حريصا على إبلاغ الشباب المسلم مفهوم الاسلام فى القرآن والرسول والعقيدة وفى أمور المجتمع والمرأة فكتب فى ذلك فصولا ضافية خلال عشر سنوات فى مجلة منبر الاسلام فأفضى إلى ماقدم مخلصاً خالصاً وقد اتم ختمة القرآن وأعد فهرس كتابه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم الروح بساعات ، رحمة لله رحمة واسعة وجزاه عن الاسلام والمسلمين خيراً .

(١٣)

مصطفى صبرى

شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية

آخر شيوخ الإسلام فى الدولة العثمانية ورأس العلماء السبعين الذين أخرجهم مصطفى كمال اتاتورك من دولة الخلافة قبل اسقاط الخلافة فهاجر إلى القاهرة عام ١٩٢٢ فاقام فيها حتى توفى عام ١٩٥٤ وقد كانت هذه المرحلة الأخيرة من حياته اخصب مراحلها فقد عكف على دراسة محاولات التغريب والغزو الثقافى وكشف زيف دعوى المجددين فى إنكار المعجزات والتفسير المادى لسيرة الرسول وأحداث التاريخ الإسلامى فى كتاب ضخم :

« موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين » فى أربعة مجلدات ،
كما أولى اهتمامه كل القضايا المثارة فى البلاد العربية والإسلامية فى هذه الفترة هى مسألة ترجمة القرآن والمرأة والإيمان بالغيب .

ولعل من ابرز اعماله التى يحتاج اليها كل دراس للدولة العثمانية ولدورها فى تاريخ الإسلام والمحنة التى المت بها على ايدى الاتحاديين ثم الكماليين والتى شهدها بنفسه وأرخها تأريخ عالم قريب من الأحداث معتصم برأى الإسلام فى كتابه (النكير على مفكرى النعمة) .

ولقد شغل مصطفى صبرى خلال ثلاثين عاما دوائر الأزهر والعلم الصحافة وشارك فى الابحاث العلميه وعارض كبار الباحثين الذين كانوا يملأون الحياة الفكريه والسياسية والإجتماعية فى ذلك العصر من أمثال المراغى والدكتور هيكل ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا وفريد وجدى .

أما المرحلة السابقة لذلك فقـــد حفلت بنضاله وجهاده ، فقد كان مسلما قوى الإيمان صادق العزيمة وكان خلال عمله شيخا للاسلام يحس بالأخطار

التى بدأت تهدد الخلافة والإسلام فكان حذراً يقظا لايتوقف عن المراجعه والتوجيه وقد سجل هذا المعنى حين قال موجها كلامه إلى ذكرى والده الكريم :

« لورأيتنى وأنا أكافح سياسة الظلم والهدم والفسوق والمروق فى مجلس النواب وفى الصحف والمجلات قبل عهد المشيخة والنيابة وبعدها وأدافع عن دين الأمة وأخلاقها وآدابها وسائر مشخصاتها وأقضى ثلث قرن فى حياة الكفاح معانيا فى خلاله الوان الشدائد والمصائب ومغادراً المال والوطن مرتين فى سبيل عدم مغادرة المبادىء مع اعتقال فيما وقع بين الهجرتين غير محس يوما بالندامة على ماضحيت به فى هذا السبيل فى حظوظ الدنيا ومرافقها لأوليتنى إعجابك ورضاك » .

يقول فى مسرد حياته : أخذت العلم فى القيصرية عن الشيخ محمد أمين الدوريكى الشهير بداماد الحاج طروق أفندى وقبلها فى بلدنا (توقاد) عن تلميذ استاذى فى القيصرية الشيخ احمد أفندى زولبيه زاده إلى آخر الفصول من شرح الشمسية للقطب الرازى وأخذت فى الأستانه عن محمد عاطف بك الاستانبولى وأحمد عاصم أفندى الكوملجنوى الذى كان وكيل الدرس فى المشيخة الإسلامية والذى زوجنى ابنته بعدأن توليت التدريس فاولئك اساتذتى وشيخى وتغمدهم الله برحمته »
وقد كان والده من علماء الدين وكان من اعظم أمانيه أن يرى ولده مجتهداً فى طلب العلم وقد استاذنت له والدته للسفر لاول مره إلى قيصرية المشهورة بعلمائها (وكان قد ولد فى توقاد ١٨٦٠ م وسرعان ما أصبح مدرسا فى جامع محمد الفاتح فى استانبول يهز اعواد المنابر وقد اشير اليه بالبنان لنبوغه وجرأته فى الحق ، وقد قدم والده إلى الاستانة فرآه متربعاً على كرسى التدريس ولما يبلغ الثانية والعشرين من عمره وهش لذلك وقال : ماأولاه أن يستمر فى طلب العلم حتى يبلغ الثلاثين على الأقل . يقول : أن استعجال القدر فى أمرى قد ظهرت حكمته بعد أن عانيت ما كان ينتظرنى من وقائع الحياة العامة ، لقد كان مالم يسرك من موقفى يومئذ « أننى توليت وظيفة التدريس بمرتب من الحكومة ، كان على الرغم منى ، لأنك لست بذى ثروة تكفلنى وأسرتى المستقبلة » .

وتكشف صفحات تاريخ الشيخ مصطفى صبرى عن اقتدار عجيب وصمود لا مثيل له فى وجه الأحداث بعد أن تولى منصب المشيخة الإسلامية فى الدولة

العثمانية حيث أمضى « ثلث قرن » فى النضال قبل أن يستقر فى القاهرة عام ١٩٢٢ وذلك فى مواجهة تلك المحاولات التى بدأت منذ وقت باكر للقضاء على الإسلام والخلافه ، عن طريق مؤامرات حزب الاتحاد والترقى بالاشتراك مع الدونمه والمحافل الماسونية ، وقد شهد تلك المرحلة الخطيرة من حكم السلطان عبد الحميد التى حفلت بالأحداث حتى أقصى السلطان المسلم بمؤامرة الصهيونية عام ١٩٠٩، وشهد مابعد ذلك على أيدى الاتحاديين الذين كانوا تمهيداً للكماليين من بعد الحرب العالمية الأولى .

ولعل الشيخ مصطفى صبرى هو من أوائل من كشفوا هذه الصفحة الخطيرة فى صحافة مصر فى الوقت الذى كانت المحاولات تبذل فى الصحافه المصرية لتصوير هذا الدور الخطير بالنهضة والتقدم ودحر الجمود والتخلف ، فقد كان قلمه بعد عودته خنجرا موجهاً إلى صدورهم، كاشفا تلك الخدعه الاثيمة والمؤامرة الماكرة التى كانت تدبر للاسلام والخلافة والدوله العثمانية ، وقد كشفت كتاباته حقائق كثيرة كانت غامضه فى تلك الفترة وكانت القوى الإستعمارية والصهيونية تحجبها عن المسلمين عامه والمصريين خاصة ، حيث كانت الصحافة المصرية تجرى فى ركاب النفوذ الاجنبى ، مصورة ذلك التحول الخطير بأنه نهضة كبرى .

بل لقد كشف الشيخ مصطفى صبرى فى هذه الفترة (عام ١٩٢٢ وما بعده حتى سقوط الخلافة عام ١٩٢٤) حقائق لم تعرف ولم تدرس إلا بعد ذلك لسنوات طويلة منها موقف كتاب التاريخ المعاصر من السلطان عبد الحميد من ناحية ومن الاتحاديين الذين حكموا منذ ١٩٠٩ وسلموا طرابلس الغرب للايطاليين كما فتحوا أبواب فلسطين لليهود وأدخلوا الدولة العثمانية الحرب العالميه بغير حاجة لها إلى ذلك لسحقها والقضاء عليها واسلامها إلى الكماليين لتمزيقها وإزالة وجهها الإسلامى: وعندما بدأت الخلافة تتأرجح وقف كتاب الشعوبية المصرية يؤيدون تركيا ويهللون لها فتصدى لهم الشيخ مصطفى صبرى ليضع لهم مقامع من حديد ويكشف زيفهم واحداً بعد واحد فى كتابه (النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والامة) شواظ من نار عليهم ليس فى مصر وحدها بل فى القاهرة وبيروت ، يقول : لا تؤخذ الامة التركيه بذنوب الاتحاديين والكماليين ،وحسبها

ماقاسته منهم ولاتزال تقاسيه ، فأن أنقذها الله وفيها حشاشة نفس بقيت قبل أن أجهزوا عليها فتجد أنها على العهد القديم فى محبة أخوانهم المسلمين وها أنا واحد من تلك الامة مثال حى: جاهدتهم قبلكما وجاهدت من يتعصب لهم من أخوانكم بالعصبية العمياء قبلكما حتى انتقضى واحد منهم فى جريدته بأنى أريد التقرب إلى غير جنسى ، وماهجرت جنسى ولا حرمت قومى الاتراك المسلمين وإنما حرمت فئة تعيب عليهم وعلى الخلافة الإسلاميه واحبت اللادينية على الايمان والجنسية على الإسلام فان فعلت العرب كذلك وفضلت جنسها على أسلامها فسأحرمهم أيضاً » .

فهو يناقش الأمور بهذه الروح : روح الإيمان بالإسلام أو الجامعة الإسلامية يؤيد من يؤيدها ويعارض من عارضها سواء فى تركيا أوفى مصر ، بل أنه يذهب إلى تفضيل العرب على قومه الترك من وجهه أنهم الذين تزلت فيهم الرسالة المحمدية يقول : تكلمتا فى المفاضلة بين الأقوام فإنى فضلت العرب على قومى الترك وأعلنته قبل موقفى الحاضر مهاجرا من تركيا — أعلنته فى البرلمان العثمانى يوم كنت عضوا فيه وسمعه إعضاؤه العرب السوريون والحجازيون والعراقيون واليمنيون وأنا اليوم ثابت على رأيى القديم فى تفضيل العرب لأن القرآن نزل على لغتهم وبقى محفوظاً كما نزل فأصبحت هذه اللغة بفضل القرآن وبأهتمام علماء المسلمين بها من كل أمة وبذلك الفضل قد وضعوا علم النحو العربى الذى ليس له مثيل فى أى لغة فى الدنيا — أصبحت لغة العرب افصح جميع اللغات وافضلها ولأن منهم أى العرب فضلا عن محمد بن عبد الله العربى المبعوث إلى الناس خاتم النبيين ورحمة العالمين رجالا ممتازين مثل ابى بكر وعمر ولا يوجد ولا يمكن أن يوجد فى نظرهم فى الإسلام والإنسانيه من غير العرب » ولهذا المعنى حديث طويل له فى تقدير عظمة التراث الإسلامى .

ولقد حاول الشيخ مصطفى صبرى أن يصحح مازيفه دعاة التغريب فى الصحافه المصريه من تشويه لحقيقة الموقف فى الدولة العثمانيـــة إزاء الخلافة وما حاوله الاتحاديون لسلب هذا الطابع الإسلامى ودحره ، ليضع الناس على المفاهيم الحقيقية فكشف وجه كثير مما كان خافيا ومما كان مغلوطا مما كانت تذيعه دوائر الإستعمار والصهيونية إذ ذاك .

وكانت أكبر الحقائق التى كشفها هو العلاقة الجذرية والأكيدة بين الاتحاديين

والـكماليين حيث كان الهدف إخفاء هذه العلاقة ، حق يشعر الناس بأن الـكماليين
حين جاءوا كانوا شيئاً آخر مختلفا ، بينما لم يكن الأمر أكثر من توزيع للادوار
بين جماعه واحدة حاقدة على الإسلام، تربت فى احضان المحافل الماسونية وعملت
على تحقيق هدف الصهيونية فى هدم الخلافه الإسلامية والدولة العثمانية من أجل
وصول اليهود إلى فلسطين بعد أن حال السلطان عبد الحميد بحزم دون وقوع ذلك .
وله فى ذلك كتابات مستفيضة تفصل هذه الوجهه يقول : أن الذين وضعوا ايديهم
على الإمبراطورية العثمانية الضخمة قبل بضعة عشر سنة وتسلموها من يد المغفور
له عبد الحميد خان — وهى إذ ذاك تمتد من بصره إلى سراى بوسنة ومن اليمن والحجاز
إلى طرابلس الغرب ومالهامن الجزر الـكثيرة فى بحر ايجه — فتصرفوا فيها كماشاءوا
ولم يقبلوا بصحة ولا شركة رأى من أمه أو خليفة مع كون حكمهم مشروط فى
الأدعاء واساءوا المعاشرة بين أبناء الوطن فاوقدوا نار الحرب فى داخل المملـكة
وبين عناصرها من البانها واكرادها وشراكسها وعربها بل واتراكها ثم أنهم لما
اساءوا وافسدوا المعاشرة فى الداحل افسدوها فى الخارج فبدلوا فى عشر سنين
أكثر من عشرة أصدقاء وأعداء لهم من الدول حتى دخلوا الحرب الـكبرى من
غير ضرورة وغلبوا فيها إلى أن أسلموا (الأستانة) وهى عاصمة والإمبراطورية بإيديهم
إلى عساكر الأعداء ولم تبلغ سائر الدول المغلوبة مبلغنا فى اضاعة النفوس والبلاد
ولم يصل الأعداء إلى عاصمتهم ومع هذا فهم لم يرو غير الخضوع لأحكام المغلوبين
ومنهم الألمانيون . بل أن توقيع هدنه (مندروس) وتسليم العاصمة إلى جنودهم ،
هذه الحالات والخسارات كلها وقعت بأيدى الاتحاديين والـكماليون معهم فى
ذلك حق لما فروا عقب الهدنة من الأستانة وتركوا الوزارة فتولاها مخالفوهم
العائدون من المنافى فوجدوا البلاد فى جرف هار وأولادها جرت بلا حدوى من
دمائهم الأنهار . ويقول : بعدم الغيرية بين الـكماليين والإتحاديين ،بل هما عبارتان
عن شرذمة مختلفى العروق والأجناس اتفقوا على اختلاس سلطة الدولة العثمانية
وحصرها وحكرها لهم بقصد المنافع الذاتية اياما أصبح الحال فى نتيجة ذلك الحصر
والحكر ولو باضمحلال الدولة وخراب بلادها . لقد تسموا إلى نهايه الحرب
الـكبرى بعنوان « الاتحاد والترقى » وانساقوا خلف اشخاص مثل طلعت وأنور
وجمال وبعد الهدنة جمعوا شملهم المشتت فى حاشية(مصطفى كمال) فتسموا بالقوى
الملية والـكماليين وجمعيه مدافعة الحقوق وضرب الخلق وتناسوا إسم الاتحاد

وتناكروه وهم هم بأعيانهم ولم يدع واحد من الفريقين شيئاً من التغاير والتنافر بينهما بل هما بأجمعهما حصرا كل جهدهما فى معارضة المخالفين المنسوبين إلى حزبى الحرية والأئتلاف ومخاصمتهم أشد الخصومة. ثم حدث فى معرض الانتخاب حديث الخلاف والمنافسة بين الاتحادين والكماليين حتى شنع الكماليون على الاتحاديين ورموهم بخيانات ثقيلة وطنية طالما كان يرميهم بها معارضوهم القدماء، قال أحدهم فالح رفقى : أن حزب الاتحاد والترقى بعد ما محا السلطنة العثمانية فى المؤامرة الأخيرة عن طريق يوسفور وسلم الأمة إلى الأعداء (جنود إنجليز فرنسيين وايطال ويونان). هذا الحزب هو الذى أشقى الأستانه فى معاهدة لوزان وتركها مع المضايق من غير دفاع وكان دخوله الحرب الكبرى هو رأس كل خطيئة. ويقــول : أن هذا الحزب المشئول المجرم بهذين الوضعين مبحث مهم ومستقل فى تاريخ الترك العمومى وأن هذا هو أول اعتراف من الكماليين بذنوب أخوانهم الاتحاديين مع ما يرون أنفسهم برئاء منهم ومن ذنوبهم، وكذلك السخرية من براءة الكماليين من الاتحاديين وأفعالهم وهم شركاؤهم فيها بل هم انفسهم المتناسخون عنهم، « اين كان مصطفى كمال وفتحى ورأفت ورءوف وعصمت وكاظم قره بكير وغيرهم من الذين تخضع لهم رقاب الأمة وتتقلب بين أصابعهم الدوله أن شاءوا عصوا السلطان وبغوا عليه وانزلوه من عرشه وعزلوا جميع آل عثمان من السلطة وتلاعبوا بالخلافة الكبرى الإسلامية وخلوها من نفوذها، لماذا لم يعصوا الاتحاديين ولم يخرجوا عليهم عندما راوهم يجرون على الوقت مضرات وخسارات اعترفوا بها بعد خراب البصرة وبغداد والشام وحلب والموصل والحجاز وطرابلس غرب، وبعدما احلوا القوات الأجنبية الاستانه والدردنيل بالفعل وازمير بالقوة، وهل كان أصحاب الأيدى الأثيمة التى فعلت هذه الافعال الجسيمه، عبارة عن طلعت وأنور وجمال فقط، كلا، بل زعماء الاتحاد كهؤلاء فعلوا ما فعلوه مستندين إلى قوة الحزب الكامن بين القواد العسكريه وهو عين القوة الآن التى يمثلها مصطفى كمال. ومع هذا الاختلاط والامتزاج الصميم والعميم بين رجال الكماليين والاتحاديين لا فرق بينهما من حيث المبدأ. فكلاهما متفق على نزع السلطة من الخلفاء والسلاطين ومنحها الصنائعة تحت ستار منحها للامه، كلاهما لا دينى يترائى للناس بوجه طورانى متعصب الجنسيه وتاره بتقحمات البلشفيه، وتاره كالمجاهد فى سبيل الإسلام وكلاهما مفرط فى دعوى

الحرية بلفظه وقاتلها بفعله ، وكلاهما مولع بالحرب والقهر وطرائق الهرج والمرج غير باذل من كل ذلك عن نفسه وماله .

وهكذا فالكماليون ليسوا بأغيار الاتحاديين : أن النهضه الكماليه مرتبه ومدبره لأحياء مبادىء الاتحاديين بل لاحياء أشخاصهم الذين كانوا قد ماتوا عندما أماتوا الدولة العثمانية الكبرى فى الحرب العالميه ، وأن الاتحادين الذين هدموا الامبراطوريه العثمانيه على ما اعترف به لدى الكماليين ، لو لم يكن الكماليون منهم ومعهم فى أفعال الهدم على ماابينا ثم لم يزيدوا عليهم بهم الخلافة الإسلامية أيضاً كان لهم حق التبجح على الاتحاديين ، وكلا الحزبين فى الحقيقة من جنس واحد وكلاهما غير مستند إلى القوة المشروعة التى تستند اليها الاحزاب السياسية وهو القوة الغير مسلحه ، أعنى بها قوة الشعب والانتخاب المبنى على المحبة العامة بل منبع القوة فى كليهما عبارة عن الجيش » .

وقال الشيخ مصطفى صبرى أنه إذا كان هناك وجه المقارنة بين الكماليين والاتحاديين فان الكماليين أخبث واشنع وبلية على الدوله والامه أشد منهم فالاتحاديون غاصبوا الوزارة والكماليون غاصبوا السلطة . الاتحايون لادينيون والكماليون مجاهرون فى الالحاد .

(٤)

وسجل الشيخ مصطفى صبرى على الاتحادين موقف الخيانة فى قضية طرابلس الغرب فأشار إلى أنه فى بدء الحرب بين تركيا وبين الإيطاليين فى طرابلس قرأ محمود ناجى نائب طرابلس الغرب رساله أرسلها أخوة كتبت قبل بدأ الحرب بعشرة أيام يقول فيها جردت بلادنا من ادوات الدفاع فسحبت المدافع الكبرى عنها ودعت الوالى وقائد الجيش إلى الاستانة ولم تقم مقامها غيرهما وصحف إيطاليا تحث الحكومه على احتلال طرابلس ، ويقول أن هذا مشروع جميع الاحزاب فى إيطاليا لا يخالفهم إلا الفريقان وهم البناءون الاحرار (الماسون) ويتبعهم الاشتراكيون وهم يقولون : لا يجدر بنا أن نصول على الإتراك حال كون حكومتها فى أيدى البنائيين الاحرار لان ذلك يفضى إلى تزعزع مراكزهم هناك » .

وكشف الشيخ مصطفى صبرى بأن فتح أزمير الذى كان يتشدق به مصطفى كمال اتما تم بقوه المسلمين من أهل السنه والجماعة : أولئك الشراكسه المستوطنون فى الأناضول ورابطتهم بدينهم أقوى وأقــوم من رابطه الـكماليين اللائيكيين « وحقيقة الأمر أنهم وكذا من ثار على الـكماليين من الأتراك الأناضولين ماطاقوا أن يصبروا على طيشهم وبطشهم واعتدائهم على الاموال والأنفس ، واحيوا حركاتهم اللادينية بأسم الحركات المليه وخروجهم على السلطة العثمانية والخلافة الإسلامية فثاروا عليهم وانتصروا منهم (ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ماعليهم من سبيل) هذا الفتح الأزميرى ، الذى استملى به الـكماليون واستـكبروا وخرجوا على الخليفه والخلافه بأخراجها من وضعها الشرعى وعلى الحكومة بجعلها لادينية . ويقول أن كثيراً من الضباط العسكرية والأحتياطية بعد الهدنه ارتحلوا إلى الأناضول والتحقوا بمصطفى كمال لأكتساب الغنى والتخلص من ضيق المعاشر فى الأستانة فنالوا ما أرادوا مما كان سببا لخذلان حكومة السلطان وحيد الدين .

وكشف الشيخ مصطفى صبرى عن نحله الـكماليين الذين خدعوا المسلمين فى أول الأمر : لقد أعلن مصطفى كمال أنه عازم على قهر هذه الطائفة المعممة الباحثه عن الديانة وأصدروا قانونا يحكم على من يخالفهم فى خطة فصل الخلافة عن السلطنة بالأعدام أرغاما لا نوف أهل الإسلام ومناقضة لحكم الشريعة الغراء وقد بدأ اضطهاد علماء المسلمين فى عهد الاتحادين وبلغ كماله فى زمن الـكماليين . وقد داست معارك الدردنيل من شبابهم وكهولهم الوفا ودستهم فى التراب وبعد هدنه الحرب العظمى كم قتل الـكماليون أو شنقوا وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله ورسوله أن المحافظين المتدينين هم الأكثرون فى الأتراك وأن استضعفهم مصطفى كمال ، إذ الأن الأقلية اللادينية بأيديهم الحكم والحكومه والصحف وكل النفوذ .

ويشير الشيخ مصطفى صبرى إلى الأهداف الخفية والتى يسميها « المقاصد المضمره » التى كان مصطفى كمال اداة تنفيذها فيقول : أنهم اليهود ، ومعلوم عداوتهم للمسلمين وفتنتهم المتصاعدة إلى عهد الخلفاء الراشدين وأنه لا توجد شبهة من أنمله فى دور اليهود فى أغتيال أكثر الخلفاء الراشدين وفيهم الخليفة الأعظم : عمر بن الخطاب ولا سما فى دم عثمان بن عفان التى كانت مبدأ كل

فتنة حدثت فى الإسلام ، أننا معاشر المسلمين الحاضرين لمقصرون فى التنقيب عن تلك الوقائع الهامه تدرس مسائلها فى مدارسنا ليتعلم الطلاب والشباب قبل تعليمهم تاريخ الإسلام وما يحوط بحياة النبي وخلفائه من الشئون تفاصيلها .

ولنتعرف عما كتب عن عبد الله بن سبأ بل وكعب الاحبار ، ثم أنى احس فى هدم ملك عبد الحميد وقد ابلغه قرار خلعه (قره صو) الاتحاد الإسرائيلى تمام ظفر اليهود الذين ابتدأت فتلتهم فى صدر الإسلام على الحكومة الإسلامية ضد من عد جمهوريه انقرة إنشاء واحياء ماهدمته واعدمته واقعه (صفين) فى الحكومه الإسلامية الراشده .

«لتجدن أشد الناس عداوة للذين أمنوا اليهود: والذين اشركوا» والاتحاديون والسكماليون اللادينيون من للذين اشركوا فأتفق هذان الخصيان الالدان وعهدا إلى قطع دابرنا ودابر دوله الخلافه . ولن تجد ملة أو قوما فى خارج بلاد نلو داخله دامت عودة الاتحادين والكماليين معهم إلا اليهود ولم يسلم من انهامهم فى تركيا مابين البانها وعربها واكرادها وأرمنها وارروامها وشركسها واتراكها إلا اليهود وحتى أنه لم يستطرد اتخاذهم وليجة ولأوليا من مشايخ الإسلام اطراد اتخاذهم من رؤساء الى خدم .

وهناك دلالة الالسنة والاقلام المستاجرة بأموالهم وأموال من تمهد مظاهرتهم من الجمعيات السرية النافذة فى سياسة العالم ولقد عمر الاتحاديون والسكماليون وما يتذكر فيه من تذكر وحدث كثير من الحادثات وبعد .

— ٥ —

لم يتوقف الشيخ مصطفى صبرى عن كشف هذه الصفحات الزائفة التى حمل لوائها فى الصحافة المصريه أمثال محمود عزمى وحسين همت وغيرهم فى المؤامرة التى قام بها السكماليون استكمالا لمؤادة الاتحاديين بفصل الخلافه عن السلطنه ثم الغاء الخلافه والادعاء بأن هذا النظام الذى استحدثه مصطفى كمال عودة إلى النظام الشورى الإسلامى الاول ، ثم كشفت الحقائق التى ظهرت فساد التدين

حيث الغى مصطفى كمال الخلافة وحول تركيا إلى دوله لادينية ، وحاولوا المقارنه بين استبداد بعض الخلفاء وبين الغاء الخلافة وهو فرق قال عنه الشيخ مصطفى صبرى أنه فرق بين عصاة المؤمنين وبين الفجار وقد أشار الشيخ مصطفى صبرى إلى ظاهرة خطيرة هى أن أعضاء المجلس الوطنى لمصطفى كمال نهو عن بيع الكحول من شاء من الناس ليكونوا هم البائعين فيخصص ربحا لهم وقال أن كثير من أهل تركيا يعلم اشتغال بعض اعضاء المجلس الوطنى بهذه التجارة واتخاذ بيوتهم معامل المسكرات ومخازنها وكذلك يعلم كل من فى تركيا أن مصطفى كمال أشهر مدمنى الخمر لا يمر عليه وعلى اصحابه وأحبابه يوم وليلة بلا مسكر كذلك فقد كشف عن حقيقة الكاتبة التركية (خالده اديب) التى جاءت إلى مصر واحتفل بها إحتفالا عظيما بوصفها من دعاة الحرية فقال أنها كاتبة إسرائيلية النسب رفعها مصطفى كمال إلى درجة أن جعلها وزيرة المعارف فى حكومه انقره وكتابها (قميص من نار) هى قصة انشأتها لبيان كنه الحركة الوطنيية فى الأناضول التى انشئت لمقاومة سلطة الأستانة واخراج اليونان من البلاد ، قال ولم نر فيها كلمة واحدة تدل على فكرة الجهاد الإسلامى ولا الروح الدينى الذى يتمثل فى حقيقة هذه الحركة كذلك فقد كشف الشيخ مصطفى صبرى فساد اتجاه يوسف اشقورا واغا أوغلى وأحمد ضيا كوك الب وحمد الله صبحى وجلال نورى وأمثالهم إنما كانوا دعاة الشعوبية وأعداء الإسلام ، وأن خطتهم هى خطة مصطفى كمال نفسه، وهو الذى يحميهم ويشجعهم ويجعلهم نوابا لبلاد لايعرفهم أهلها ولا يرضون مبادئها وليس من حدهم أن يجاهروا بدعوة مسلمى الأناضول إلى الأنفصال عن الجامعة الإسلامية .

وكشف كيف كان هدف هؤلاء هو أحياء الفكرة الطورانية الجاهلية ، حتى أنهم وضعوا الذئب الأبيض على طوابع البريد ، يقول الم يكفيهم ما كتبه (أحمد اغايف) يندد بالقرآن والتعاليم الإسلامية ويعتبرها من التعاليم التى لم يعد يمكن تطبيقها وما أعلنه جلال نورى من أسف لعودة الأتراك إلى اسماء العرب أمثال عثمان ومحمد وعمر فاطمه وعائشه مقام اسمائهم الطورانية أمثال تيمور وجنكيزخان والب وبيكسوم واليجان » . .

ثم هو يقول موجها كلامه للكتاب التغريبين : «أن كان كبرت عليكم معاتبتى والفيتموها شديدة بل سيئة فاعذرونا فانا قد أصبنا منكم ومن أوليائكم من الأتراك الاتحاديين والكماليين ظلما وهضما . وأنه لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الأمن ظلم ، وأنا رأينا كم اجرأ الناس على الفتيا حسب ما يقضى الهوى من القضايا فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم وتجادلون فى الحق بعد ماتبين » .

ولم يلبث الشيخ مصطفى صبرى بعد عام ١٩٢٤ والغاء الخلافة أن دخل فى معركة أخرى مع كتاب التغريب كان فيها وهو المهاجر الغريب آية فى الصلابة والقوة فى الحق والاستمساك بكلمه الله فقد رأى كيف حاول هؤلاء انتقاص الدولة العثمانية فى تاريخها وأعلاء أسلوب التفسير المادى للتاريخ لاستنقاص الإسلام من حيث أنه ايمان بالغيب والروح وكيف بدأ تيار كتاب الإسلام يعمل على أحجب هذه الجوانب والغض من شأنها وقد تمثل ذلك فى كتابات الدكتور محمد حسين هيكل وفريد وجدى ، بل أنه لم يتوقف عند هذا بل انتقد ما حاول محمد عبده ورشيد رضا والمراغى القائه من شبهات فى هذا المجال .

(٦)

وكشف فى جرأة بالغه ما اسماه محاوله أخراج الإسلام عن ساحة العلم كالنصرانية وكما ادعاه فرح انطون فى مناظرته مع الشيخ عبده ، وقال فى صراحه أن محمد عبده ورشيد رضا والمراغى ينكرون معجزات الأنبياء ويسعون لتأويلها بأمور عاديه ، ومن ذلك قولهم أن انكار المعجزات ليس إلا رمزاً لإنكار النبوات وأن أساس الدافع إلى هذه الانكارات هو العلم الحديث الذى لايقبل الخوارق ، وقال . أن شيطان العلم الحديث قد أضل مبرزى كتاب مصر وعلمائها ، وأن نوابغ الكتاب والشعراء فى البلاد الإسلامية يستبطنون الألحاد ويهيئون الأذهان لقبوله دساً فى مقالاتهم وقصائدهم ، وأن مافى تركيا قد استتب أمره جبرا من الحكومة وفى مصر إختياراً من كتابها وعلمائها بعد البحث والتفكر فيما بينهم .

وأنا نحن المهاجرين من تركيا المتغلبه ، ولو وجدنا حريه القول فيها من غير خطر على حياة القائل لما فاتنا الغلبة بالحجة على دعاه الأنقلاب ولما احتجنا إلى مغادرة البلاد . وقال أن حقيقة الموقف ليست معارضة العلم المذكور بل معارضة طائفة من علماء الغربيين الذين يستخرجون منه مضادة الدين ومناوءته ، ومعارضه

مقلديهم من ملاجده الشرق إذ لا يمكن أن يكون أى علم من العلوم الناصبة نفسها لا كتشاف الحقائق مناوئا للدين الصحيح ، فهل لى أن أكون القائم بهذه المهمة على الرغم من شتات بالى بعد شتات شملى فى حياة المهاجره وضعف صحق بعد مفارقة شبابى مفارقة بعيدة .

فى الله من كل ماضيعته خلف   وليس لله أن ضيعت من خلف

ويقول : أن دولة الترك الماضية الشامخه الوارثة لحكومة الإسلام قد حفظت تراثها مدة حياتها الطويلة بقوة سيفها ثم شابت ثم ماتت ولكل أمه أجل ، وبعد إنتهاء الدولة العثمانية لم تظهر دوله أخرى تقوم مقامها فى الذود عن حياض الإسلام بسلاحها فأنتهت قوة السيف فى الإسلام ، وفى مصر وجدت قوة الإسلام العلمية فى حالة النزع بعد نزاع دام مدة بين أنصاره واعدائه .

أن الحق يمرض ولا يموت ، وكما أن الدولة العثمانية ودعت الحياة مساولة السيف فى الدفاع عن الإسلام منتاقرون ، فقد عزمت على أن أدافع حق آخر عمرى عن قوة هذا الدين العلميه ، على أن بى ضعف آخر ، هو ضعف اللغه يقول : رأيت كثيراً من كبريات الصحف والمجلات الواسعة الإنتشار واقعة تحت سيطرة كتاب مناورين فى السعى لإضعاف نفوذ الدين فى المجتمع متلاعبين باحكامه وقواعده ولهذا لايتسع صدور تلك الصحف والمجالات لمقالات الذود عن الدين برغبة صحيحة ، وقد رفضت جريدة الأهرام فى عهد انطون الجميل استقبال ما كتبته ، إلى حد أنها ابت الإعلان عن كتابى المسمى (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب ولا يؤمنون) وقد ضاق نطاق استطاعة مصر الحاليه إلى الآن عن تأسيس جريدة يومية إسلامية ، ومن علامات عدم اتساع صدور المجلات المعروفة بين العصريين بمصر لمقالات الذود عن حمى الدين وكرامة أهله ، لقد وجدت بعد أن هاجرت إلى مصر أن العلم الحديث الغربى الناظر إلى الأديان نظره إلى الأساطير انطق لسانا من علم أصول الدين الإسلامى وأعلى صوتا ، ولو كنت سايرت فى خدمه الدين والعلم الإعتبارات الخارجة عنها لقلت مع القائلين العصريين أن العلم والدين ضدان يجتمعان وانصرفت عن تأليف هذا الكتاب (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين) هذا الكتاب الذى كرست فيه حياة مشيبى حق كان لى أزرل العمر

بروح مستمدة من ايمانى والذى أرجو أن يكون كتاب أعمالى يوم عرض الأعمال ، والغاية التى أهدف اليها مكافحة الشبهات المصريه المسلطة على مسائل تقوم عليها دعائم عقيدة الإسلام وغيره من الأديان فى مكافحة اشخاص المثيرين لتلك الشبهات من العزبيين ومطبقها على عقائدنا من الشرفين » .

لقد كانت كبرى القضايا التى عالجها الشيخ مصطفى صبرى هى « الاتجاه الذى ينكر الكرامات وخوارق العادات ويؤول المعجزات بحيث تبدو متفقة مع منطق العقل متمشية مع سنن الكون ومسايرة لطبائع الأشياء وبهذا يمتنع وصفها بالخواق » .

يقول : هذا الإتجاه الجديد المفكر للكرامات وخوارق العادات والمؤول للمعجزات بما يخرجها عن اعجازها ويرجع الى إنكارها أيضا : إتجاه إلى رفض أساس من اسس الدين ، ذلك لأن تأويل المعجزات بما يخرجها عن خوارق المادة يخرجها أيضاً عن كونها معجزات ويؤدى إلى انكار نبوات الأنبياء مع المعجزات لما فى أنزال الوحى والكتب عليهم وأرسال الملك اليهم خرق لسنن الكون ولا تكون المعجزات معجزات بدون خرقها . ويقول : اليس واضع هذا النظام المسمى (سنة الكون) هو الله تبارك ونعالى ، فكيف يقيدون (الله تبارك وتعالى) بالنظام الذى هو واضعه ويقدرتة وارادته واختباره فهل يكون القادر المختار عاجزاً عن تغيير ما وصع فيما شاء ذلك ، أمل أنه لم يغيره فما رأيناه وهو سنة الله التى لن تجد عنها تحو يلا فذلك بالنسبة إلينا ومعناه آنالا نقدر على تبديل سنة الكون فلا تكون النار إلا حارة محرقه لكل مامن شأنه الأحراق بموجب نظام العالم ومصلحتنا فى استمرار نظامه ، فالله تبارك وتعالى هو خالق النار وواضع نظامها وليس بمانع أن يجعلها الله بركة وسلاما على نبيه إبرهيم . وإذا كان القرآن حجة قاطعة على نبوة رسولها لزم أن يكون حجة أيضاً على أن معجزات الأنبياء غير القرآن حجة على نبواتهم بشهادة القرآن فى ياته .

— ٧ —

ويواجه الشيخ مصطفى صبرى محاوله القائلين بالتجديد فى أحكام علم الفقهاء

طلبا للسهولة ويرى أنهم يريدون الخروج على الدين نفسه «لأنا نراهم قديجترئون أيضاً على تغيير وتجديدفى عقائد الإسلامالثابتة بالكتاب والسنه ومثاله إنكارهم المعجزات الكونية للانبياء ، فهل فى ذلك تسهيل على المسلمين وخدمة لمصلحتهم ، أو فى الأحتفاظ بالعقائد سالمة عن التغيير تشديد عليهم كأنهم أنفسهم يأتون بتلك المعجزات وكان فى أنظارها أو تأويلها بما يخرجها عن الأعجاز تخفيفا وتسهيلا على الله الذى هو مظهرها على أيدى انبيائه وكان الشيخ المنكر لرفع عيسى عليه السلام إلى السماء المنصوص عليه فى كتاب الله ونزوله فى آخر الزمان المنصوص عليه فى الأحاديث النبويه يصعد بنفسه إلى السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، لو اعترف بالرفع والنزول فيضطر إلى تأويل القرآن برفع روحه ورفض ستين حديثاً فى نزوله رواها ثلاثون صحابياً .

كذلك أشار إلى محاولات رد النبوات إلى العبقرية « لكون النبوة ومايلازمها من المعجزات خوارق والتباس خوارق العادة عليهم بخوارق العقل المستحيله ، لا يدركون مبلغ خطورة الضلال فى الأعتقادات معرضين عن درسها وتمحيصها إلى أن ينجلى لهم الحق ويمتاز من الباطل » .

كذلك عاب على المراغى قوله : أن العقول تنظر إلى الأديان نظرها إلى شىء تاريخى خال من الحياة ، قال المراغى هذا لبعثه أزهريه مسافرة إلى إنجلترا وأشار إلى ماقاله الشيخ محمد عبده لمناظرة (فرح انطون) أن الدين يخالف العقل والعلم لأن الإيمان بخالق واحدغير منظور وأخرةغير منظورة ووحى ونبوءة ومعجزه وبعث وحشر وحساب وثواب وعقاب وكلها غير محسوسة . . وأن العدو الحقيقى للاديان فى هذا الزمان لم يعد منها بل صار خارجا عليها فهو عدو جديد اخرجه التمدن الجديد » .

ويجمع الشيخ مصطفى صبرى هذه اللامح جميعاً ليرد عليها ويدحضها ويقول أن هناك خطراً يواجه المسلمين من ناحية الأعتقاد وليس فقط من ناحية العمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، أى من ناحية الأعتقاد والأعتراف بأصول الدين المحضة فى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، وأن من أخطر هذه الظواهر أن

معجزات الأنبياء المعدودة من الخوارق التى تستند اليها نبواتهم غير معترف بها عند المبرزين من العلماء (محمد عبده ، رشيد رضا ، المراغى ، هيكل ، ووجدى أيضاً الذى يعد ايات المعجزات بل آيات البعث بعد الموت أيضاً من المتشابهات غير المحكمات .

وأشار كذلك إلى أن تعريف الشيخ محمد عبده للنبي خال من خصائص النبوة المعروفة مثل الوحى والملك المرسل والكتاب المنزل والمعجزة والنبوة المنهارة تتحول فى لسان الإتجاه الحديث إلى (العبقرية) فتفيد أنها ما خسرت من ميزتها .

وقد أخطأ فريد وجدى فى قوله : أن الدين قضى عليه قضاء لا يرجى له البعث وأن كان الدين يعيش الأن فأنما يعيش فى قلوب السذج من العامه » .

وقد أيدت حركة اليقظة من بعد ايمان الشيخ مصطفى صبرى ودحضت قول وجدى ويرى وجدى أن هذه علامه من علامات عدم الأعتراف بوجود الله كذلك هاجم محمد حسين هيكل فى قوله : أنه لم يلجأ إلى اثبات رسالته إلى ماالجأ اليه من سبقه من أصحاب الخوارق ، وخطأه فى سعيه لتنزيه النبى عن الخوارق ، وقال أنه وفريد وجدى من منكرى المعجزات بدعوى أنها مخالفه للعقل وسنن الكون وقال أن القرآن لم يتحد أحد ببلاغته وإنما تحدى الأنس والجن أن يأتوا بمثله فى حكمه وشريعته، وأن منكرو المعجزات يفرقون بين الكتاب والسنة فيعولون على الكتاب ولا يعولون على السنة توسلا إلى إنكار احاديث المعجزات لنبينا صلى الله عليه وسلم وهم يفرقون بين لفظ الكتاب ومعناه فيمسكون بمعناه ويخذلون لفظه ويتمسكون بلفظ ويخـــذلون معناه على حسب مايقضى به هوى التجديد العصرى المتسكع .

وبعد ذلك القول بأن النبوة لاتزيد على مرتبه العبقرية هى ليست بمرتبة النبوة المعروفة فى الإسلام وفى سائر الأديان كما أن النبى الذى عرفه الشيخ محمدعبده بإنسان فطر على الحق علما وعملا بحيث لا يعلم الاحقا ولا يعمل إلا حقاً على مقتضى الحكمة فالنبوة مقضى عليها عند أصحاب القول السائد فى مصر الحديثة من الكتاب العلماء منحله فى بوتقة التأويل وبالجملة فإن الدين بكلا ركنيه الأساسيين

مقذوف به فى نظر الأوساط المثقفة المصرية بين العلم الحديث الذى لا يؤمن بغير ما تثبت التجربه الحريه إلى عالم الاساطير ولا فرق بين مصر وتركيا الحديثتين فى غلبة الالحاد على الديانة .

ولم يتوقف الشيخ مصطفى صبرى عند هذا الحد بل أنه ذهب إلى معارضه ترجمة القرآن وعارض ما أورده المراغى من جواز القراءة فى الصلاة للاعاجم بترجمة القرآن إلى لغاتهم مع القدرة على قراءة الاصل . ويقف الشيخ مصطفى صبرى فى جبهة الفضلاء الذائدين عن حمى القرآن كالشيخ محمد سليمان والأستاذ محمد الهلباوى ، وقد فند الشيخ مصطفى صبرى الأخطاء التى أوردها المراغى والتى من جملتها عدم أصابته فى فهم أقوال الفقهاء الأحناف إلى استند اليها .

وقد أشار الدكتور أحمد فواد الأهوانى إلى معارضة الشيخ مصطفى صبرى لما ذهب اليه الشيخ محمد عبده فى نظريته التى تقول بأن هناك فى العقائد اموراً لا يمكن أن نصل اليها بالعقل بل نسلم بها تسليماً مثل مسائل الصفات والملائكة وما إلى ذلك وقد تبعه فى ذلك الشيخ رشيد رضا وقد نهض مؤلف كتاب (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين) يخطىء الشيخ محمد عبده فى ذلك ويعده مسئولا عن الزيغ فى عقائد المثقفين فيا بعد وناقش رأيه فى التسلسل ، وعارض ماذهب اليه أمثال الدكتور هيكل فى كتابه (محمد) والعقاد فى كتابه عن (الله) وفريد وجدى فى مقالاته المتعددة فى شتى الصحف والمجلات ولم يسلم أى واحد منهم من نقد المؤلف فيما يتصل بإنكار الوحى والنبوة والمعجزة ، وكما رفض المؤلف مسالك الشيخ محمد عبده وهيكل وفريد وجدى والعقاد ، كذلك رفض مسالك أحمد أمين لأنه نشر مقالات فى الثقافة بعنوان (فى الحاله الروحيه) طعن فيها على علم الكلام وامتدح طريق الصوفيه ومجمل القول أن صاحب الكتاب يؤيد الرجوع إلى علم الكلام لأنه يؤيد العقيدة بالعقل ويقف بالإنسان سدا يحول بينه وبين الالحاد بعد ظهور العلم الحديث .

وفى كتاب الشيخ مصطفى صبرى (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) يواجه الحملة المركزه على النبوة والغيب والمعجزة .

يقول : لا يخفى أنه بعد أن سادت المادة فى الغرب وأخذ الشرق يهتدى بهدى الغرب ما طرأ على القلوب الضعيفة من إنكار المعقولات والمغيبات التى فى رأسها رب المشرقين . ورب المغربين، وابرز مميزات هؤلاء الكتاب والعلماء أنهم ينكرون المعجزات الكونية ويعتبرونها من المستحيلات ، ويقون أن كتاب حياة محمد قد اخلاه مؤلفه من المعجزات وتراهم يسعون أن يقيموا مقام نبوة محمد عبقرية يجعلونها موضع عنايتهم يكتبون عنها بدلا من نبوته ويقدمون تفصيلا لمناقبه التى يتفق على تعظيمها من يدين برسالته الدينية ومن لا يدين له برسالة ؛ فهل نبوته صلى الله عليه وسلم متيفنة عندهم يتقن عبقريته ، والأفما الدافع إلى إنساء نبوته فى ترويج عبقريته أن لم تكن العبقرية أفضل واسمى من النبوة والعبقرية وهم ربما بقارنون بين النبوة والعبقرية مدعين للعقرية الآعجاز اللازم للنبوة ، وهذا كونهم مجتهدين فى إهمال النبوة وترويج العبقرية بدلا منها ومؤلف عبقرية محمد من دعاة العبقرية ومروجها بدل النبوة ومعجزاتها ، ومن هنا خطأ انكار المعجزة وأقامة العبقرية مقام النبوة ،ومن شأن هذه الفتنة أن تؤدى إلى إنهيار عقيدة كون القرآن كلام الله ، هذه الجرأة علي القرآن أن لم تكن فى تكذيب رواته ففى تأديه معناه . ذلك ان القرآن أن كان معجزة وكان أفضل ماوصل الينا من محمد فهو معجزة نبويه لامعجزة عبقرية لأن العبقرية لا معجزة لها .

— ٩ —

وقد أولى الشيخ مصطفى صبرى اهتماماً كبيراً بالكشف عن دقائق تاريخ الدولة العثمانية فى مهب الرياح التى حاولت أن تجتاحها طالما لا تترك وجها للانصاف أو كلمة الحق . فقد شهر الكماليون على الدولة العثمانية وعلى الإسلام ، حربا شديدة الوطأة فى محاولة لتبرير الأنقلاب الذى قام بها الاتحاديون والدونمة والكماليون وصولا إلى تحطيم الدوله والغاء الخلافة فكشف الشيخ مصطفى صفحات مشرقة من تاريخ العثمانيين وكيف بنى عثمان سياسته على مشورة فقهاء المسلمين وحكم الناس حكما عادلا مستمدا من تعاليم الإسلام (كما أشار إلى ذلك المؤرخ فيشر فى كتابه تاريخ أوربا فى العصور الوسطى) فقد أسس دولته على إنقاض الدول البيزنطيه ، مجاهدا فى سبيل الإسلام ، وأكمل أورخان الرسالة ، بالدعوة والجهاد ، وصدر

أمره إلى أبنه سليمان بعبور مضيق الدردنيل وهكذا اتجهت الغزوات العثمانية نحو أوربا، وتمكنت الدولة العثمانية فى مطلع القرن السادس عشر من تكوين إمبراطورية اسيوية أوربية بعد أن اتمت سيطرتها على الأناضول والبلقان ونتج عن ذلك تدعيم لمواردها الإقتصادية وقوتها البشرية والعسكرية وفى نفس الوقت كان شعب الدولة العثمانية فى الأناضول قد قطع شوطا كبيراً فى تجانسه وبدأت السمة التركية تبرز إلى الوجود واشار الشيخ مصطفى صبرى إلى الدور الذى قامت به الدولة العثمانية من حماية وجود الإسلام والدفاع عنه خمسة قرون وأشار إلى أن السلطان عبد الحميد هو آخر من تولى السلطنة العثمانية بمعنى الكلمة وحكم مدة ثلث قرن على البلاد الواسعة التى ضمتها الأقطار العربية إلى أن خلع فى ثورة دبرها حزب الإتحاد والترقى وتفرقت تلك البلاد بعده ايدى سبا فى حروب متعاقبه ، « كان هذا السلطان سداً منيعا لنزول المهاجرين إلى فلسطين ؛ وكان من المصادفات التى لها مغزى أن بلغ السلطان قرار البرلمان على خلعه (قره صور) اليهودى نائب سلانيك الذى اختارته لهذه المهمه الهيبة المختارة لها من طرف البرلمان المؤلفة من خمسة رجال من الشيوخ والنواب المختلفى الدين والعنصر ، والذى سبق له الحصول قبل اعلان الدستور فى تركيا على مقابلة السلطان مندوبا عن اليهود الصهيونيين فاتجه فيها برجاء المتعلق بمسألة الهجرة إلى فلسطين مع تقديم هدية موعودة قدرها خمسون مليونا من الجنيهات الذهبية لخزينة الدولة وخمسة ملايين منها لخزينة السلطان الخاصة على تقدير قبول المسئول ، فلقى رجاءوه رداً عنيفا من السلطان مقرونا بأخراجه من حضوره فى سخط واحتقار فهل يعرف أخواننا هذه المواقف السابقة لفلسطين فى الماضى القريب ويقارنوا بها الحالات الحاضرة .

ويرد الشيخ مصطفى صبرى على ما كتبه محمد عبد الله عنان فى كتابه (مصر الإسلامية) من قوله بأن مصر لم تعرف رغم ماتوالى عليها من عصور الأضطراب والفتنة ومن الخطوب والمحن نكبة أعظم من الفتح العثمانى ... الخ .

ويدحض الشيخ مصطفى صبرى هذه الدعاوى الباطلة ويقول أن مقصود السلطان سليم من الفتح لم يكن ألا توحيد مصر الإسلامية بتركيا الإسلامية وأشار إلى

هدف هذه الحملة التى تعتبر امتداداً للخطط الإستعمارية التى أشار اليها دجوفاراً فى كتابه « مائة » مشروع لتقسيم تركيا ، وكيف ظل الاوبيون المسيحيون يعملون خلال ستة قرون لقلب تركيا، هذه العداوة التى كانت من جانب النصارى للمسلمين بالرغم من تسامح المسلمين فى الحريه الدينية التى كان يتمتع بها المسيحيون فى السلطنة العثمانية وهذا هو ماشهد به (دجوفاراً) نفسه حين قال : أن أعظم اسباب إنحلال الدولة العثانية هو مشربها فى أعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للامم المسيحية التى كانت خاضعه لها ، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تثبت دعائمها القومية وتتماسك وتنهض وتتمالا وتسير سيراً قاصداً فى طريق الأنفصال عن السلطنة العثمانية » .

وهذا — فى رأى الشيخ مصطفى صبرى — .مايزيف قوله ملاحده أنقره الذين الأولى يقولون أنه لولا مراعاةهذه الشريعه لكانت السلطة التركية بقيت على عظمتها ولم يطرأ عليها من المصائب التى لزمها مدة قرون بسبب كون الثلث من سكانها وربما أكثر من الثلث مسيحية وبان الشريعة كانت تمنع السلاطين من إجبارهم على الدخول فى الإسلام أو الجلاء .

ويقول رتشار ولوج فى كتابه تاريخ أوربا الحديثة(أن سر نجاح الترك يرجع إلى استبسالهم فى تضحية نفوسهم وهى عاطفة الجهاد التى غرسها الإسلام فى قلوبهم وكذا يرجع بالأخص إلى حسن إدارتهم المدنيه والحربية .

وقال الشيخ مصطفى : أنه لولا حمايتها للاسلام ووقوفها طول حياتها فى وجه اعدائه لعاد الإسلام غريباً قبل ستة قرون من غربته الحاضرة الظاهرة للعيون ومن هنا يصل الأمر إلى أن المؤامرة نجحت أخيراً على يد الإتحاديين والكماليين ، وكان لهذا العمل أثره على العالم الإسلامى كله ، وهو مصدر استعلاء شأن هذه الخطط التى ترمى إلى تزييف العقيدة وتدمير الفكره الإسلامية .

يقول : استمر تقهقر الدولة التى تولت الجهاد فى سبيل الله من استمرار تألب أعدائه عليها واستمر معه تقهقر مكان العلم القديم الذى تولى قرونا طويلة المحاجة لانتصار عقائد الإسلام أمام العلم الحديث المبنى على الحس والتجربة ولم يكن هذا

تقهقرا ناشئا من نفس العلم القديم بل من نظر الناس أحداث متزلفين إلى العلم الحديث تزلفا إلى الأمم الغالبة بأسلحتها المستفادة من ذلك فالتبست عليهم الغلبه بالسلاح بالغلبة بالحجة . واستمر تقهقر المسلمين من الناحيتين حتى أنه لما حتمت الدولة العثمانية أنفاسها وانسلخت الدولة المحتلة مكانها من صيغتها الإسلامية ، استتبع هذا الأنقلاب الخاص بتركيا انقلابات كثيرة فى البلاد الإسلامية الأخرى أيضاً فلم يقتصر تعرى النساء من جلابيبهن وخمرهن على نساء تركيا المقلدة للغرب فى الظاهر والباطن ولما هاجرت إلى مصر وجدت العلم الحديث الغربى فيها الناظر إلى الأديان نظرها إلى الأساطير انطق لسانا من علم أصول الدين الإسلامى وأعلى صوتا حتى عند الأزهريين، ولولا تقهقر دولة تلك الأمم أمام سلاح الدول المعادية للاسلام لماتسنت مزاحمة العلم الحديث المادى وفلسفته الوضعيه المادية لعلم الكلام الإسلامى وفلسفته وتقهقر سلاح هذا العلم أمام سلاح ذاك المنتهى إلى احتلال العلم الثانى مكان الأول فى قلوب المتكلمين . ولما كنت فى بلادى كافحت هذين السلاحين (الألحاد والقوميه) على طول فترة إنتقال الحكم فيها إلى أيدى الملاحدة وكان ظنى عند مغادرة تركيا مهاجراً إلى بلاد العرب التى جاء نور الإسلام الينا منها أن أستريح من مجاهده الملاحده ولكنى وجدت الجو الثقافى بمصر أيضاً مسموما من تيار الغرب فشق هذا على نفسى أكثر مما شق على موقف تركيا الجديدة من ذلك التيار، كما شق على أن أخوانى العرب الذين يفضلون تركيا هذه على تركيا القديمة المسلمة فرأيتهم توغلوا فى تقليد الغرب وسابقوا الترك فى الأمتنان به والأنقلاب الثائر على فى تركيا حصل عندهم فى شكل هادىء من طريق التأثير والتجديد فى الأزهر » .

وهكذا يكشف الرجل فى صراحه ووضوح عن الأخطار التى يتردى فيها المشرق الإسلامى بعد الأنقلاب الكمالى الذى الغى الخلافة الإسلامية وفتح الباب واسعاً أمام التفسيرات المادية للاسلام وهو الخطر الذى اثمر من بعد تلك الحركة الضخمة التى حمل لوائها الأستشراق والتبشير والتغريب ، وما كان لرجل مهاجر لاجىء إلى مصر أن ينبرى لذلك كله لولا ذلك الإيمان العميق الذى يملأ جوانح نفسه ويدفعه الى مواجهة الخطر ، حتى تركلنا هذه الوثيقة التى تؤرخ بها حركة اليقظة الإسلامية فى مواجهة تحديات الغزو الثقافى .

« فكرت فيما وجب على الأخضاع بما اعتقده حقا وأن كان أقوى ظنى أن أكثر الناس لا يقبلونه ليكون ذخيرة لى فى الأخرة وحجة عليهم أخذهم بهاهناك وأن كان لسانى قاصراً فى العربية فليعذرنى كرام القراء ، على أن لحن اللسان ليس كلحن القلب » ثم يصل إلى الغاية حين يكشف عن النتائج التى حققها الانقلاب الكمالى : هذه النتائج التى كتب عنها منذ أكثر من خمسين عاما (١٩٢٤) ونحن نرى الآن (١٩٧٩) كيف تواجه تركيا الأعاصير والأزمات والأضطراب نتيجة هذا الأنهيار حين القت بنفسها بدون إرادة الغالية المسلمة فى أتون التغريب يقول الشيخ مصطفى صبرى : أنى أخاف أن تسعد بلاد تركيا وترقى بهذه الإدارة الحديثة اللادينية رقيا دنيويا وأن كان ذلك فى غاية البعد والأستحاله فيفتن بها المسلمون — الذين قلما سلموا من أن يعجبوا بها وهى توغل فى سبيل الأفلاس والأندراس وتكون فتنتها عليهم أكبر مما تقدم واشئم .

« ربنا لا تزع قلوبنا بعد إذ هديتنا ونقول للشيخ مصطفى من وراء القبر ، لقد صدقت ولقد أثبتت الأيام فساد التجربة ونقول له أن تركيا اليوم قد عادت إلى الإسلام مره أخرى فى قوة وعزيمه ونقول له أيضاً : لقد كنت أول من أنصف السلطان عبد الحميد وكشفت زيف مصطفى كمال اتورك ، ونحن الآن نرى عشرات الكتابات التى تكشف مزيداً من هاتين الحقيقين ، وخاصة كتاب « الرجل الصنم » الذى صدر أخيراً فى تركيا يكشف عن دخيله هذا الغادر الذى أودى بالدوله والخلافة .

والحق أن مصطفى صبرى فى كتابه « النكير على منكرى النعمة » قد وضع النقط على الحروف فى كل هذا التاريخ واكمل هذا فى كتابه « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين » .

وقدم عشرات من الحقائق التى لا غنى عنها فى التعرف على هذه المرحله التاريخية حيث تحدث عن موقف إنجلترا التى كانت وراء الدونمه واتاتورك والأنقلاب العثمانى من أجل القضاء على الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية ، لتفتح الطريق للصهيونية إلى فلسطين يقول: لقد انتهزت إنجلترا فرصه كون تركيا فى عداد الدول

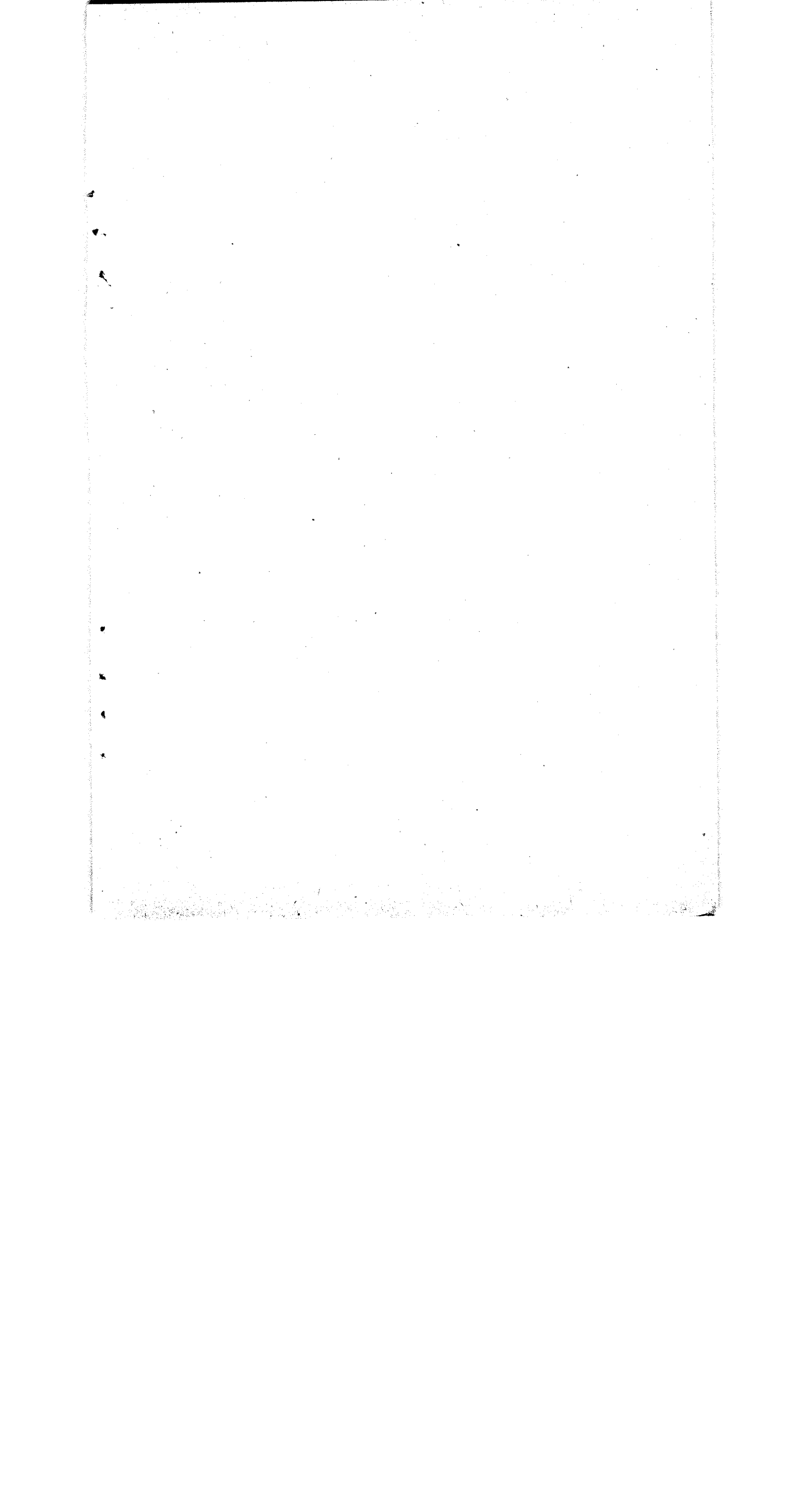
المغلوبة فى الحرب العالمية الأولى فساومتها بواسطة مصطفى كمال الذى وجدته انصع أهل لهذه المساومة مع الأحتفاظ بأستقلالها فى مقابل التنازل عن الخلافة والتجرد عن الدين لتمشى فى السياسة الدولية وراء الإنجليز ، ولقد تسنى إنتشار الألحاد فى مصر تحت حماية الإنجليز من غير ثمن مقابل يذكر ويجلو الإنجليز بعد الحرت العظمى عن مصر لأنها بلغت رشدها فى الابتعاد عن الدين ولم تعد بحاجة الى شيطان الوصاية فالإنجليز عدو الإسلام وعدو الدولة العثمانية وصديقة تركيا الجديده بعد أن أدخل هذا الشيطان النزاع الغربى بين الدين والعقل فى عقول المثقفين من أهل البلاد التى استعمرها .

وأشار الشيخ مصطفى صبرى إلى الحملة الضاريه على الدولة العثمانية وكيف وقف كثير فى وجهها ومنهم « محمد فريد » الذى قال : أنها وقفت فى طريق أوربا حاجزاً منيعا وسوراً حصينا وحالت دون أطماعها والزمتها بكف غاراتها .

وكيف أن الحروب الصليبية قد تجمدت بعد ظهور الدوله العثمانية وانتقال الحرب إلى بلاد الصليبين أنفسهم وأعتزاز الإسلام بهذا التحول العظيم طيلة اعصار مما لا يمكن الجدال فيه وقل أن دوله ال عثمان ورثت الميراث العربى باتنجاب طبيعى فكفت نفوسها ذلك الميراث مما كان يحدق به من المصائب والاحطار . أن ميراث العرب لولا الدوله العثمانية لم يبلغ هذا المقال بل ربما لم يثبت بعد أصحابه ببضعة أعوام فقد بسطوا عزة الإسلام وسلطانه على القارات الثلاث ووضعوا الحصار على (فينا) فى قلب أوربا مرتين وما كانت فتوحاتهم بإسم الترك بل بإسم الإسلام ولم يكن الحاكم فى البلاد التى يحكمونها قانون الترك بل قانون الإسلام الذى أعرضت عنه تركيا الجديده الكمالية فأخذت قانون سويسرا كما اعرضت مصر فأخذت قانون فرنسا ولقد استعمل لفظ الترك أجيالا طويلة على لسان الغربيين كمرادف للمسلمين وقد الف فى أوربا المعادية للاسلام منذ الحروب الصليبية ماينيف على ستمائة كتاب أشادة باسم زعيم الأنقلاب القاضى على إسلام الترك الذين كانت أوربا تستعمل اسمهم كمرادف للمسلمين ، ولقد اعتبرت وربا إنتهاء الدولة العثمانية وإنتهاء الخلافة بفضل مصطفى كمال إنهاء للدولة

الإسلامية ، وماحدث بالنسبة لاتاتورك مذكر لماسبق أن أقامت الدول المسيحية من أعياد المسرة والفرح مع وفاة السلطان محمد الفاتح العثمانى مالم يقم مثلها فى الدنيا على وفاة أجد ثم يوصى الشيخ مصطفى صيرى : عالم الإسلام من نتائج التجربة الكماليه وخطرها : يقول فليفتح عالم الإسلام عينه وليأخذ حذره عن الملحدين الذين دبت عقاربهم ونجحت فى بلادنا تجاربهم فلا ينقذه هذا المسلك الذى سلكه : يتام وينخدع بهم إلى ماشاء الله وشاءوا ، ثم ليعتبر من أولئك الملاحده كيف يجتهدون فى انجاح مبادئهم ساهرين غير ساهين ولتعلم أن الهدى والضلال ليس من الفاكهات التى يرغب فيها الإنسان حين ما أشتهى وهدى ويعرض عنها إذا لم يشته ، وأنى أطلت النقد والشد على الاتحاديين والكماليين فى أوانه لا سمع المسلمين فيتداركوا الخطر قبل تمامه فلم يستجيبوا لى ولم يصدقونى » .

وبعد فهذه صفحات مشرقة من جهاد الشيخ مصطفى صبرى فى مهجره بعد جهاده الأكبر فى موطنه : رحمة الله رحمة واسعة وأجزل مثوبته .

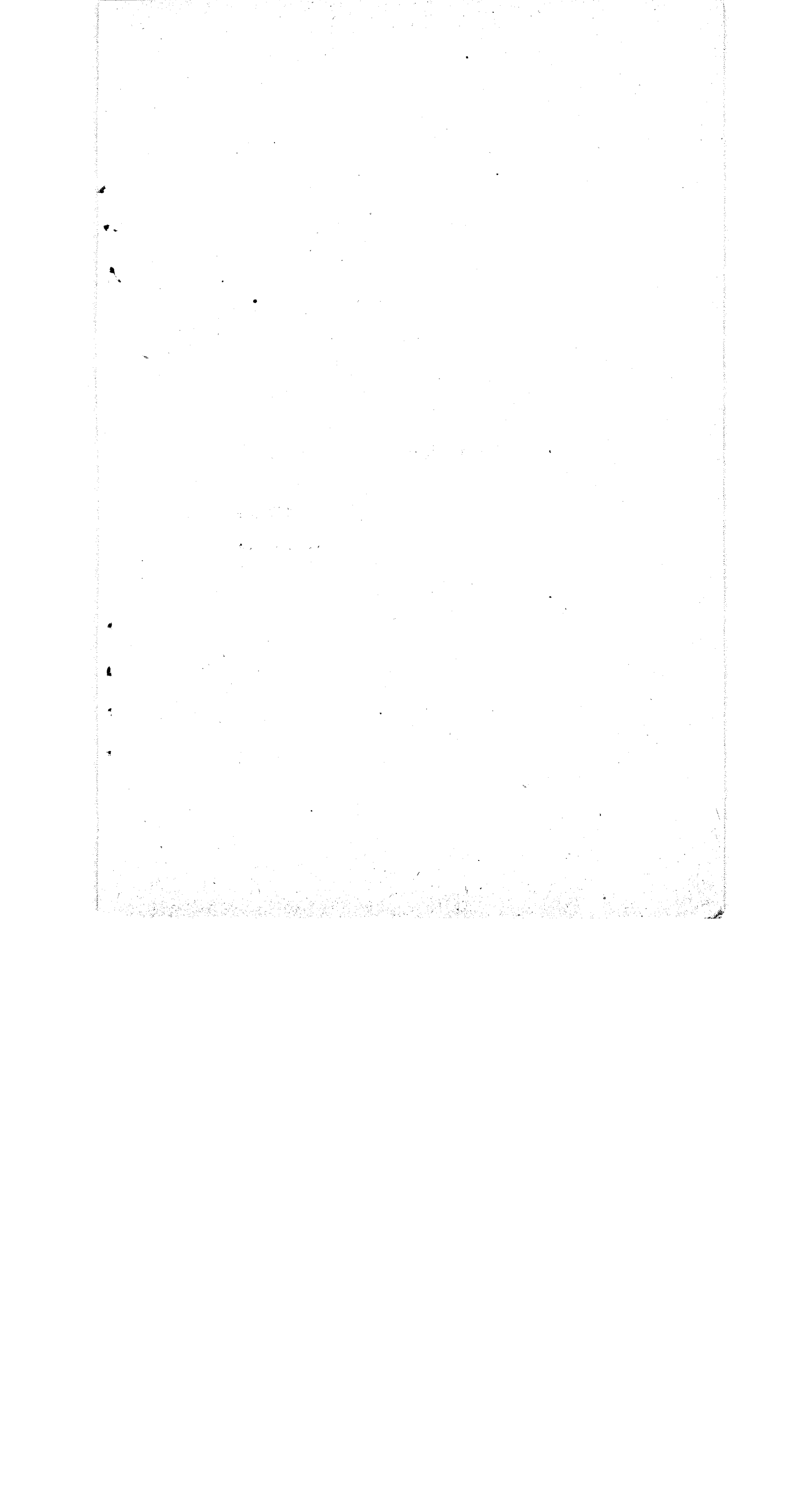


الباب الثالث

أرباب السيف والقلم

عبد الله التل

محمود شيت خطاب



عبد الله التل

لقد أفضى (١) (عبد الله التل) إلى ماقدم وعبر إلى الشاطىء الآخر بعد أن أدى حق الله بالسيف والقلم فكان نموذجا كريما من نماذج المجاهدين المسلمين فى العصر الحديث فقد شارك عبد الله التل محاربا وقائداً عسكريا فى معركة فلسطين عام ١٩٤٨ وفتحت هذه المعركة الحاسمة التى إنتهت بقيام إسرائيل ذهنه وقلبه إلى الحظر الصهيونى العالمى ، ودفعته إلى دراسة واسعة عميقة لهذا التحدى الخطير الذى واجه العرب والمسلمين فى العصر الحديث . وبذلك أنتقل هذا المجاهد المسلم العربى من معركة إلى معركة شأنه فى هذا شأن اللواء محمود شيت خطاب الذى اشترك فى نفس معركة فلسطين عام ١٩٤٠ ومنها انطلق إلى دراساته الإسلامية والسياسية .

ولا ريب أن هؤلاء المجاهدين قد أقاموا فى العصر الحديث صورة صحيحة لمفهوم الإسلام نفسه الجامع بين الجهاد بالسيف والجهاد بالقلم ولقد كان كذلك عدد كبير من مفكرى الإسلام ورجاله .

ويعد عبد الله التل فى مجاله العسكرى حبة من عقد ظهر منه الشيخ عز الدين القسام وعبد القادر الحسينى وأحمد عبد العزيز . يقول : أكرمنى الله تعالى وقدر أن أكون قائداً للقوات العربية التى خاضت معركة القدس أو ستطاعت أن تطهر القدس القديمة من اليهود وتحفظ للمدينتين الإسلامية والمسيحية مقدساتهما التاريخية الخالدة . وانتصارنا فى معركة القدس أبقى للعرب منطقة نابلس ومنطقة الخليل ، لأنه لو قدر لنا أن نخسر المعركة وننسحب من المدينة لما بقى بيد العرب شبر واحد فى فلسطين ذلك لأن مدينة القدس هى الدعامة التى ترتكز عليها الميمنة (نابلس) والميسرة (الخليل) كما أن بيت المقدس هو فلسطين ومن يمتلكه وما فيه من مقدسات خالدة يعد مالكا لفلسطين ومن يخسره يخسر فلسطين كلها .

وقد استطاع عبد الله التل عرض القضية فى دراساته المختلفة : وأولها (كارثة فلسطين) ، الذى أصدره عام ١٩٥٩ وكان قد هاجر إلى القاهرة فى أكتوبر ١٩٤٩ وبدأ يدرس هذه القضية دراسة متأنية واسعة شاملة . ثم أصدر كتابه الضخم (خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية) عام ١٩٦٤ ثم اتيحت له فرصة أخرى لإعداد دراسة ضخمة قصد بها نيل الدكتوراه من جامعة الأزهر نشرها فيما بعد تحت اسم (جذور البلاء) والأفعى اليهودية فى معاقل الاسلام (عام ١٩٧١) .

وفى كل هذه الدراسات التى استمرت أكثر من عشرين عاما لم يدع (عبدالله التل) شاردة ولا واردة حول هذه القضية فى أفقها الواسع المتصل بالصهيونية العالمية وبالاستعمار وبتاريخ اليهود منذ الوف السنين حتى اليوم ، كل ذلك فى أسلوب دقيق ومنطق علمى .

وكان (عبدالله التل) هو فى مقدمة المفكرين والقادة الذين أعلنوا الحقيقة التى أوصلهم إليها علمهم وتجربتهم وهى : « أن قضية فلسطين هى قضية إسلامية مقدسة فى المقام الأول وأن أية معالجة لها لا تكون على أساس دينى جهادى مكتوب عليها الاخفاق لا محالة » .

يقول : « وإيمانى هذا مبنى على تجارب عسكرية عشتها وحقائق تاريخية لمستها ووعيتها » .

ويشير فى هذا إلى تجربة الجزائر التى قامت على هذا الفهم الواضح .

« لم أنس بعد تجربة الثورة الجزائرية الكبرى التى هزمت الاستعمار الفرنسى وقضت على خرافة فرنسة الجزائر يوم خيل للاستعمار أنه استطاع القضاء على عروبة الجزائر فجاءت الثورة وسلاحها الأول : (جهاد دينى فى سبيل الله) مخيبة لآمال الغرب ومؤكدة عظمة الطاقة الكامنة فى الإسلام فتمت المعجزة واستقلت الجزائر بعد استعمار فرنسى بشع دام (١٣٠) عاما كاد خلالها أن يهلك الحرث والنسل وأن يقضى على اللغة العربية ، بيد أنه أخفق فى القضاء على الاسلام » .

وقد هاجم عبد الله التل منذ ذلك الوقت البعيد تلك الدعوات المنحرفة التى

كانت تخرج معركة فلسطين من مضمونها الأصيل ومفهومها الصحيح يقول :

« ويتناسى دعاة العلمانية الذين يسقطون من حسابهم العامل الدينى فى قضية فلسطين : أنها القضية الوحيدة فى العالم التى قامت منذ ثلاثين قرناً ومازالت تقوم على أسس دينية روحية ، وأنه أن صحت معالجة أية مشكلة على أسس مادية فإن قضية فلسطين لا تعالج الا على أسس دينية بالدرجة الأولى وأسس مادية بالدرجة الثانية ويناسى قادة الأحزاب والحركات العربية العلمانية أن جميع المعارك الحاسمة فى تاريخ العروبة والاسلام من القادسية واليرموك وحطين وعين جالوت إلى بورسعيـــد والجزائر كانت صيحة الحرب فيها دينية مقدسة : الله أكبر » .

ولقد صدق الله وعده فكانت معركة العاشر من رمضان على النحو الذى تمناه لها (عبد الله التل) ولعل روحه قد قرت ورضيت بأن تيار الفكر الاسلامى العربى قد تحول نحو هذه الحقيقة وأصبح موقنا بها .

كذلك أشار (عبد الله التل) فى دراساته إلى القوى المادية فى الوطن العربى مثل البترول وقال أنها أسلحة خطيرة لابد من استخدامها لكسب المعركة وقد تحقق ذلك .

ولقد كان على قدر كبير من الوعى والإيمان حين قال :

« أما إذا اقتصرنا على استخدام السلاح المادى فى المعركة فإن قوى الأعداء المادية تفوق قوانا ولا يمكن التغلب عليه فى مجال المادة وحدها فإذا ما ضممنا « القوة الروحية الكامنة فى الإسلام » إلى قوانا المادية نتج عنها قوة عظيمة وسلطة جبـــارة » .

ولقد كان فهم عبد الله التل — رحمة الله عليه — لهذه القضية الحاسمة فهما عميقا وحاسما فلم يكن من أولئك الباحثين والمؤرخين الذين يقفون عند الأحداث وحدها ولكنه كان قادرا على النفاذ إلى الأعماق وتحليل الأزمة على نحو لم يعرف إلا عند عدد قليل من المقتدرين فهو من ناحية يصل إلى أعماق الايدلوجية التلمودية قديما منذ خصومة اليهود للاسلام فى المدنية ويتحدث عن الدور الذى قام به اليهود

فى المنفى البابلى حين أعادوا كتابة التوراة على طريق المطامع والأهواء على النحو الذى كشفه القرآن الكريم ، وقطع بالرأى فى علاقتهم بسيدنا إبراهيم عليه السلام وكيف كانوا يخفون الجانب الاسماعيلى العربى من تاريخه ليقصروه على جانبهم الإسرائيلى وحده واستطرد إلى فهم اليهود للحياة وعبادتهم للذهب واشتغالهم بالربا وكيف كانت أقامتهم الأولى فى فلسطين سوداء الصفحة مفعمة بالقتل والذبح والنهب والسلب والبطش والأرهاب والغدر والأسر والسبى وكيف أن عمليات القتل الجماعى والفتك بالناس دون النظر إلى الجنس والتمييز بين الرجال والأطفال والشيوخ قد أوجدها اليهود أنفسهم ولم يسبقهم إليها شعب من شعوب الأرض ومن يقرأ سفر أستير فى التوراة وهو سابق على عهد الرومان فى فلسطين يجد كيف أن اليهود قد ذبحوا (٧٥) ألف نسمة فى يوم واحد بايعاز من هذه اليهودية الجميله التى استغلت جمالها عند ملك الفرس وهم يعتزون بهذا اليوم ١٤ مارس ويعتبرونه عيدا قوميا لهم .

ثم يتحدث الكولونيل عبد الله التل عن التلمود ويورد تاريخا مطولا للاحداث ويكشف موقف أوربا من اليهود وكيف استطاعوا السيطرة عليها بالثورة الفرنسية وكيف أمكنهم احتواء الفكر الغربى المسيحى ثم كيف قاومتهم أوربا وفتحت لهم الطريق إلى بلاد العرب والمسلمين تخلصا منهم .

ثم يصل عبد الله التل إلى كشف جوانب خطيرة من التاريخ الحديث غابت عن كثير من شبابنا ومثقفينا ، مما يختلف عمـــا أوردته كتب التاريخ التى قررها الاستعمار فى مدارسنا العربية والإسلامية . وكيف نشأت الماسونية وجمعية بناى برث ثم كيف ظهرت الصهيونية وحركة التنوير وكيف جرت الحركة من أجل أسقاط الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية وذلك كله مما لم يكشف الستار إلا عن جانب منه كان لعبد الله التل فضل أى فضـــل فى الكشف عنه وخاصة فى كتابه (جذور البلاء) .

ولا ريب أن المسلمين والعرب فى حاجة كبرى إلى أن يعرفوا هذه الجوانب الخفية وأن يصلوا إلى هذه الأبعاد الحقيقة التى تكشف لهم أبعاد الموقف الخطير الذى يعيشون فيه والذى ليس قاصرا على وجود احتلال استيطانى يهودى فى

فلسطين وإنما هناك محاصرة ضخمة للعالم الاسلامي ومخططات خطيرة فى سبيل إحتواء العالم الاسلامى . فكره وتراثه وثروته وكيانه كله . وأن هذه العمل بدا من وقت بعيد واستهدف فى أول الأمر احتواء الفكر الغربى المسيحى وقد تحقق ذلك ثم مضى للسيطرة على الفكر الاسلامى بالحرب العالمية الأولى والثانية وقد انكشف ذلك كله بتسرب بروتوكولات حكماء صهيون عام ١٩٠١ ميلادية ، هذه البروتوكولات التى حجبت عن المسلمين والعرب أكثر من خمسين عاماحتى يظلوا جاهلين مايدبر لهم .

ويكشف عبد الله التل عن أن اليهود هم الذين أضرموا نار الحربين العالميتين الأولى والثانية وتسببوا فى قتل أكثر من ٤٠ مليون مسيحى .

ويصل عبد الله التل إلى أعلان حقيقة هامة حين يقول : لقد كان سقوط الخلافة الاسلامية هو العامل الأول فى انجاح خطة اليهودية العالمية لإغتصاب فلسطين ، صحيح أن الوعد (وعد بلفور) قد صدر فى ٢-نوفمبر ١٩١٧ قبل احتلال فلسطين وأنهيار الخلافة ، إلا أن ذلك الوعد كان نظريا ولم يترجم إلى حقيقة وعمل إلا بعد أن أقتحم الجنرال اللنبى مدينة القدس من باب الخليل وقال عبارته المشهورة : « الآن انتهت الحروب الصليبية » . هذا الجنرال اللنبى الذى ظن أنه ينتقم لهزيمة حطين ويسترد سلطة الصليب على بيت المقدس كان جاهلا لايدرى أنه آلة صغيرة فى الجهاز الكبير الذى تسيره اليهودية العالمية لتحقيق أهدافها الجهنمية : إذ لم تكد تمضى بضعة أشهر على حكم الانتداب البريطانى علي فلسطين حتى أصبح واضحا أن حكومه الانتداب مجندة لخدمة اليهود وتسهيل عملية استيلائهم على مرافق فلسطين لتحويلها إلى دولة يهوديه لإمكان فيها لهلال ولاصليب .

ثم كيف نذكر إنهيار الخلافة الإسلامية دون أن نشير إلى أن اليهودية العالمية التى كانت عاملا قويا فى ذلك الانهيار . فاليهود لم ينسوا أن السلطان قد رد الصهيونى الأكبر هرتسل وايقنوا أنه لا أمل لهم ولا فائدة فى السلطان فقررت الحكومة اليهودية المستورة القضاء على الخلافة وحينما نجح اليهود فى تحطيم الخلافة لم يكتفوا بذلك وإنما رسموا لتركيا خطط المستقبل قرروا أن تتخلى تركيا عن الخلافة وعن اللغة العربية وأن تتخلى عن الإسلام ثمنا لتأييد دول الحلفاء لها فى ثورتها التى قادها

مصطفى كمال باشا ولقد كان الوسيط الذى أشرف على تنظيم إتفاقية الحلفاء مع مصطفى كمال هو الحاخام حايم ناحوم الذى كان فى تركيا قبل انتقاله إلى مصر حاخاما أكبر ليهودها .

وهكذا كشف عبدا الله التل حقائق كثيرة وقدم فى مجال الفكر والعقيدة جهدا بالغا له أجر المجاهد الشهيد ، فكان بالقلم محاربا كما كان من قبل بالسيف وقد جمع الحسنيين مقاتلا بالكلمة ومقاتلا بالمدفع فى سبيل القضاء على أكبر خطر يتهدد الإسلام والعالم الإسلامى فى هذا العصر فجزاه الله أجر العاملين وكتبه فى الأبرار المجاهدين .

يقول صديقه الأستاذ ماجد عرسان الكيلانى :

دخلت عليه بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ وإذا به طريح الفراش وما من سبب للمرض الأشدة الصدمة ووجدت عنده نفراً من وجهاء الضفة الغربية الذين عرفوه سيفا يتردد عن حماهم وعن أعراقهم فى ربى القدس ورام الله والخليل . جاءوا يعودونه من مرضه فزادوا من أسباب المرض إذ أخذوا يبثونه إعتداءات سلطات الاحتلال ومضايقاتها لهم فى القطاع والضفة وعلى الجسر . ذلك أنهم تعودوا أن يبثوه اعتداءات وقد (الهاجانا) و (شتيرن) يوم كان يعسكر على جبال القدس، فيسارع إلى تدمير المستعمرات التى تنطلق منها الاعتداءات ولكنه فى هذه المره ولا معسكر ولا جند وحتى ولا جسداً صحيحا فلقد صدق فيه قول المتنبىء :

إذا كانت النفوس كباراً   تعبت من مرادهـا الأجسام

آمن بأن الجندى القادر على التصدى للهوديه العالمية هو الجندى الذى تربى فى مدرسة الإسلام فيصبح داعيا من دعاته والتحم بأهله وشبابه وشاركهم أمالهم وتطلعاتهم العامة والارتفاع عن زخارف الدنيا والسمو فوق شهواتها والصبر على آلامها وعبد الله التل كان واحد من هذه القلة التى دفعت ثمن الرجولة بأغلى ما يمكن الثمن .

ويشير الأستاذ الكيلانى إلى أن التل كان يتأسى عن وعى وشغف سلوك ملوك قادة المسلمين من الرعيل الأول شجاعة وخلقا ورحمة للانسانية يتعالى على الخصومات ويمسك بعنان النفس ، ففى الوقت الذى تراه سيفا مصلتا على أعناق اليهود القاتلين ونارا تنصب عليهم فى جبهة القتال تراه إنسانا رحيم القلب عالى الهمة فى معاملة الأسرى والشيوخ والنساء والأطفال .

وعندما أستلم رجال الحامية المحاصرة بدون قيد أو شرط لشروطه سمح للشيوخ والأطفال والنساء للحاق بذويهم وأمر جنوده بتقديم الماء والطعام لهم .

ويقول فى هذا : كنت وأنا أرى جنودنا يحملون العجزة والمرضى والأطفال على الأكتاف ويقدمون لهم الماء والغـــذاء ، أتذكر سلوك السلف من المسلمين والفاتحين واتيقن أن هذه الأمه ستظـــل تمثل أرواحهم وأخلاقهم الإنسانية الراقية .

وموقف آخر هو أيضا علامة على خلقه وأسلوبه فى الحياة : يقول :

حين بدأت مكائد الانتداب لتسليم فلسطين لليهود عام ١٩٤٨ لم ينتظر لتصدر الأوامر بالاشتراك فى الجهاد ، وإنما أخذ يذود عن حمى الأهلين ويتعاون معهم حتى إذا أشتعلت أوار الحرب ودخلتها الجيوش رسميا وكان أبرز القادة على ساحاتها وهو مازال فى الثلاثين من عمره ، وحين أجمت الصهيونية قواها جاعلين بيت المقدس وحمى الأقصى من أولى أهدافها تقدم ليقود المركة هناك فدحر العدو ومرغ أنف دايان نفسه فى التراب فقد كتبت صحيفة (هامشكيف) فى ١٩٤٩/٤/٢٧ يقول :

« أن عبد الله التل من المعروفين بالتطرف والتعصب الأعمى وهو السبب الأصيل فى كل اضطراب وهو إلى جانب تعصبه فإنه من مرعاة استئناف الحرب ضد إسرائيل فى اللحظة المناسبة .

* * *

هذه الوقائع تزيد إيماننا بما قررناه عن هذا الرجل ، وهو ومحمود شيت خطاب يمثلان مدرسة الاصالةفى الجهاد والحرب والمواجهة الإسلامية للعدو المقتحم لأراضى المسلمين ولاريب إن ماوضعاه من قواعد مستمده من الفهم الإسلامى العميق ، ستكون نبراسا احركة اليقظة الإسلامية والجهاد الإسلامى بما يحقق لها النصر ، وفد اصطنعت هذا الأسلوب ثوره الجزائر فنجحت م وقد اصطنعها العرب فى معركة رمضان فتحقق لهم نصر لم يكونوا يتوقعوه والمطلوب أن يصبح قاعدة أساسية فى هذا المجال .

(٢)

محمود شيت خطاب

هذا رجل كونه الأسرة بالإيمان وكونته المدرسة بالتربية العسكرية فجمع الله به مثلا عاليا من أمثله الفرسان المؤمنين على نفس المفاهيم والتعليم التى عرفها سعد ابن أبى وقاص والمثنى بن حارثه وأبو عبيده الجراح ، وهذه السمة البارعة الواضحة فى إنتاج محمود شيت خطاب وفكره ومفاهيمه التى جعلت منه نموذجا من الأعلام الرواد فى مجاله .

ولقد تشكل فكر الرجل منذ وقت طويل حين وجد طريقة واضحا وهو أن يحى فى هذا العصر تجربة البطوله الإسلامية فى ميدان الجهاد والحرب بإعادة عرض الشخصيات الإسلامية المحاربه عرضا حربيا عسكريا به كتب التاريخ على هذا النحو بالذات وأن جمعت هذه الكتب صوراً متعددة صالحه لبناء مثل هذا المنهج .

وقد رأى شيت خطاب أن ذلك منطلقا للعرب والمسلمين فى هذا العصر ليفهموا جانبا هاما وخطيرا فى العروبه والإسلام وهو جانب الجهاد ولما كانت الأمة العربية تواجه ذلك التحدى الخطير بالاستعمار والاحتلال الصهيونى فقد كان ذلك العمل كله هو محاوله لبناء الأمه بالفكر قبل أن تدخل المعركة الفاصله .

ولقد كان لاشتراك اللواء محمود شيت خطاب فى معركة فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ بالسيف الاثر الكبير فى هذا الاتجاه بالقلم إلى بناء الأمه فى سبيل معركتها الكبرى ومنذ ذلك الوقت وهذا القلم قد أوقف لهذه المهمة وحدها ، وقصر عليها ثم زادت أعبائه ومسئولياته بعد نكسه حزيران ١٩٦٧ فقد التى عليهم واجب جديد هو أن يدعم مفهوم الحرب والقتال فى الإسلام ويضعه نموذجا حيا أمام الأمه العربية ، ونظريته فى هذا المجال بسيطة ويسيره ولكنها عميقة الدلالة : ذلك أن البناء العقائدى

أولا هو أساس المعركه بالإضافة إلى الفن الحربى وأن الفن العربى وحده لايستطيع أن يحقق — على الأقل فى المجال الاسلامى العربى شيئا ذا بال دون الإيمان بالله وحب الموت والاستماته فى طلب الجهاد ،والرغبة فى الاستشهاد وتوجيه العمل كله لله دون تطلع ما إلى مغنم أو مطمع .

وهو لايقف فى هذا العمل عند نفسه ولكنه يدعو إليه كل من قادة الفكر الإسلامى ، وكل من يحمل القلم ليذود به عن حياض الإسلام إلى أن يبذل قصارى جهده باحثا ومدققا وكاتبا فى تاريخ العرب ومبادىء الإسلام ، مؤمنا بأن « هذا الجهاد وحده » هو الذى ينقذ عقول المسلمين ونفوسهم مما ابتليت به من استعمار فكرى ظل يتغلغل فى أعماقها ويعمل عمله المدمر فى عقولها وقلوبها معامنذ داهم البلاد العربيه والإسلامية الاستعمار القديم والاستعمار الجديد .

ويقول فى سبيل شرح فكرته وتوضيح هدفه :

« لقد أيقن هذا الاستعمار — شرقيا كان أم غربيا — أنه لن ينجح فى الاستحواذ على المسلمين مالم يشككهم فى عقائدهم وتاريخهم وتراثهم ، لذلك عمل جاهدا بكل مالديه من قوة ومال وأساليب خبيثته ظاهرة وخفية على نشر المبادىء المستوردة والتاريخ المستورد والتراث المستورد . حتى ظن كثير من المسلمين — وعلى رأسهم بعض مفكريهم مع الأسف الشديد — أنه لامبادىء أفضل من مبادىء المستعمر ولاتاريخ أفضل من تاريخ المستعمر ولاتراث أفضل من تراث المستعمر ، فلما أستطاع العرب والمسلمون التخلص من الاستعمار العسكرى والاستعمار السياسى والاستعمار الاقتصادى ، بقى الاستعمار الفكرى — وهو أخطر أنواع الاستعمار — مسيطرا على العقول والقلوب ، لأن المسلمين كانوا ويزالون يجهلون محاسن مبادئهم ومفاخر تاريخهم وفضائل تراثهم العريق » ومن أجل ذلك فإن دعوة اللواء محمود شيت خطاب هى « أن على قادة الفكر الإسلامى أن يتحملوا واجباتهم كاملة فى هذه الظروف لمحو أردان الاستعمار الفكرى من دار الإسلام والسبيل إلى ذلك هو بعث عقائد الإسلام وتاريخه وتراثه بأسلوب علمى حديث حتى يملأ المسلمين فراغهم الفكرى بما يقرءون لأن الفكرة كما هو معروف لاتقاوم إلا بفكرة أفضل منها ولأن الهجوم المضاد هو إنجح وسائل الدفاع » .

وهكذا كان اللواء محمود شيت خطاب واضحا فى موقفه وكتاباته الموجهه كلها نحو هذه الغاية وكان قد بدأ هذا العمل ١٩٦٤ واستطاع فى خلال السنوات الثمان أن يقدم حصيله ضخمة فى هذا المجال . وكان هذا العمل فى تاريخه هذا مرتبطا مع وقائع حياة الرجل الذى التحق بالكلية الحربية منذ عام ١٩٣٦ وتخرج فى سلاح الفرسان وشارك فى ثورة العراق ضد الإنجليز عام ١٩٤١ وعمل فى معارك فلسطين حتى نهاية عام ١٩٤٩ .

وهكذا يكون قد شارك مشاركه حقيقة فى أعظم أحداث عصره ، قبل أن يساهم فى ثورة تموز ١٩٥٨ قائدا ثم وزيرا حتى بلغ أرقى المناصب السياسية والرسمية ، ولكنه لم يلبث أن اتجه إلى العمل الذى آمن بأنه « أمانة » فكره وروحه وحياته كلها وهو بناء فكر الأمة العربية على مفهوم الاسلام الصحيح .

ولذلك فقد اتجه إلى دراسة قادة الاسلام وإبطاله وأعاده عرضها من جديد عرضا حديثا وعلميا من خلال فكر رجل محارب أتيح له أن يدرس التكتيك الحربى فى كلية الضباط العظـــام فى انجلترا والم الماما كاملا بأصول الفكر العسكرى الحديث .

وقدم كل هذه التجارب والمعطيات العرب والمسلمين من خلال موسوعة ضخمة عن قادة الفتح فى قطاعات أربعة العراق والجزيرة ، بلاد الفرس ، الشام ومصر ، المغرب العربى ، وجعل على رأس هذه الموسوعه « الرسول القائد » صلى الله عليه وسلم ثم تفرغ من بعد لدراسة بعض الأعـــلام فكتب حياة الفاروق القائد ، وعقبة ابن نافع .

ومايزال القلم المؤمن للفارس المحارب يكمل بحثه الموسوعى فى مجال قادة فتح المشرق الاسلامى فى الهند والسند حتى حدود الصين وسيبيريا شمالا ، ثم قادة فتح الأندلس والبحار مثل صقلية وسردينيا ثم قادة فتح أوربا .

وقد شغل الرجل نفسه فى السنوات الخمس الأخيرة (١٩٦٧ — ١٩٧٢) فى

بناء القاموس العربى الموحد للمصطلحات العسكرية وهو عمل ضخم استهدف توحيد هذه المصطلحات فى بلاد الأمة العربية التى اختلفت مصطلحاتها خلف النفوذين الفرنسى والبريطانى .

وقد ضم هذا المعجم العسكرى الموحد أكثر من ثمانين الف مصطلح عسكرى فى وأضاف الرجل إلى ذلك بحثا عن المصطلحات العسكرية فى القرآن الكريم ومن خلال هذا التاج الضخم الوقير الملتزم نرىفلسفة عربية إسلامية تلتمس مصادرها الاولى من القرآن الكريم وتقدم للعرب والمسلمين مفهوما أصيلا مستمدا من مزاجهم النفسى وتاريخهم وتراثهم وقيمهم الأساسية وكان أبرز هذا البيان فى تفسير التاريخ وشكل العلاقة بين العروبه والاسلام يقول : لقدوحد الاسلام بتعاليمه التى تغرس الضبط والنظام فى النفوس وتدعو إلىتوحيد الله الصفوف أيضا ، وحدالعرب الذين كانت لهم خبرة طويلة فى الحروب والذين لايهابون الموتويتعشقون الحرية فكان فضل الاسلام علي العرب أن جمع شملهم ووحد قلوبهم وأشاع فيهم النظام والضبط وبذلك أصبحوا قوة هائلة وجدت لها متنفسا فى توحيد الجزيرة العربية أولا وفى الفتح الاسلامى ثانيا فحملوا رايات الاسلام شرقاً إلى أقاصى المشرق وغرباً إلى أقاصى المغرب وحملوا أعباء الفتح وحدهم فكان لهم بتوفيق الله وتسديده فضل فى نشر الاسلام فى البلاد المفتوحة .

ولاشك أن هذه التعاليم قد رفعت المستوى العقلى للعرب إلى درجة كبرى ، ونقلتهم من عبادة الأصيام والأوثان ومايقتضيه ذلك من انحطاط فى النظر وأسفاف فى الفكر إلى عبادة إله وراء المادة (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) .

فاستطاع العربى بهذه التعاليم أن يرقى إلى فهم (اله) لامادة له واسع السلطان واسع العلم ، وقد أفهمهم أن دينهم خير الأديان ، والعالم حولهم فى ضلال وأن نبيهم نبى الناس جميعا وأنهم ورثته فى حمل دعوته إلى الأمم ، فكان ذلك من البواعث على دعوة هذه الأمم إلى دينهم .

وكان لعقيدة اليوم الآخر ودار الجزاء والجنة والنار أثر عظيم فى بيع كثير منهم نفوسهم فى سبيل نشر الدعوة .

وكان للاسلام أثر كبير فى تغيير قيم الأشياء والأخلاق فى نظر العرب فارتفعت قيمة أشياء وانخفضت قيمة أخرى وأصبحت مقومات الحياة فى نظرهم غيرها بالأمس. أن الاسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى للحياة فى الجاهلية ، وهذان المثلان لايتشابهان وكثيرا مايتناقضان .

فالشجاعة الشخصية والشهامة التى لاحد لها والكرم إلى حد الاسراف والاخلاص التام للقبيلة والقسوة فى الانتقام والآخذ بالثار ممن إعتدى عليه بقول أو فعل .

كانت هى أصول الفضائل عند العرب الوثنيين، فأصبحت فى الاسلام الخضوع لله والانقياد لأمره والصبر وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين مع القناعة وعدم التفاخر والتكاثر وتجنب الكبر والعظمة وهى المثل الأعلى للمسلم فى الحياة .

أن الاسلام عقيده وعملا مهر نفسية العربى ونقى عنها الخبيث فأصبح العربى المسلم يخلص لعقيدته أكثر مما يخلص لنفسه .

ولقد تصرف العربى المسلم كفرد تصرفا لايزال يعتبر من الأعمال الفذة النادرة، فى حياة الرجال ؛ يحتمل التعذيب والموت راضيا مطمئنا ويترك أهله وماله مهاجرا إلى الله ورسوله، وقدضرب بمصلحة أهله الأقربين وعشيرته وقبيلته عرض الحائط .

وتصرف العربى المسلم ضمن المجموع من أمته تصرفا لايزال يعتبر حتى اليوم مفخرة من المفاخر ، اندفع يجاهد فى سبيل نشر عقيدته وحمايتها فخرجت القوة المؤمنة الباهرة التى أختزنتها الصحراء عبر الأجيال تحمل رآية الله وتبلغ عن أمرة فتتابعت انتصاراتها الباهرة فلم يشهد التاريخ فى أحقابه الجديدة انتصارات مظفرة وفتحا (مستديما)مثلما شهد انتصارات الفتح الإسلامى » .

هذا مفهوم العروبه وكيف صاغها الاسلام من جديد كما صوره اللواء محمود

شيت خطاب فالى أى حد ارتفع الاسلام بالعروبه ووسع أبعادها وعمقها وجعلها أهلا لحمل رسالة عالمية كبرى مدى الأجيال : يقول :

« وكان العرب المسلمون متخلفين بمدينتهم ، متاخرين بحضارتهم ، ضعفاء بحالتهم الاقتصادية جهلاء بأسباب القتال المتطورة ، بعيدين عن الكمال والتسليح والتنظيم والتجهيز ، ولكنهم كانوا شجعانا بالفطرة يحملون عقيدة سامية ندروا أنفسهم لخدمتها وأعلاء شأنها ونشرها بين الناس .

« أن الأسباب التى قضت على الفرس والروم بالهزيمة أمام العرب والمسلمين كائنة ما كانت ليست هى الأسباب التى قضت للعرب والمسلمين بقيام دولة وأنتشار عقيدة ، لأن استحقاق أناس للزوال لاينشىء لغيرهم حق الظهور والبقاء .

كذلك لم يكن انتصار المسلمين على الفرس والروم لأنهم عرب وكفى ، ولم تكن المسأله فى لبابها كفاحا بين الأجناس والعناصر بمالها من المزايا ومافيها من العيوب فقد كان فى أرض الدولتين عرب كثيرن يدينون لهما بالطاعة وينظرون إليهما نظرة الأكبار والمهابة وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة العرب المسلمين عدداً وامضى سلاحا وأقرب إلى ساحات العراق وأرض الشام من أولئك النازحين إليها من الجزيرة العربية ، وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام العرب المسلمين وهم كذلك أوفر فى العدد والسلاح وأغنى بالخيل والإبل والأموال » .

إذن فما هو محصله هذا التفسير الإسلامى للتاريخ .

يقول : إذن فهى نصرة عقيدة لإمراء ، ولكن القول بانتصار العقيدة هنا لايغنى عن كل قول . والواقع أن الذين أنتصروا بالعقيدة كانوا أولى خبرة وقدره يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون على أعدائها .

أن الإسلام عقيدة منشئة آمن بها وزاد عنها وحمل رسالتها شرقاً وغرباً حماة قادرون فما عبرة ذلك للعرب فى حاضرهم ومستقبلهم .

« أما العرب فى حاضرهم ننفصل بين أقدار الوطن العربى الكبير سدود وحدود

عمل الاستعمار الحديث بكل طاقاته على تثبيتها وترسيخ أقدامها . كما عمل أذنابه على تعميق وجودها والاستقتال فى سبيل الإبقاء عليها ، أما العرب أنفسهم فلا إنسجام فكرى بينهم ولاعقيده واحدة تعبر عن أهدافهم ، فلمصلحة من تبقى السدود والحدود بين البلاد العربية .

أن الوحدة لاريب فيها ، وهى سنة الحياة البشرية ونحن لانملك من أمر الوحدة إلا أن تنظم الاتجاه عليها فنسيرها ونعمل بها ، يجب أن نشيع الانسجام الفكرى فى العرب أولا وقبل كل شىء ، وذلك لأن الانسجام العقائدى يوجد الصفوف ويجمع العمل ويبلور الأهداف المصيرية فيطلق الأمة العربية من منطلق واحد نحو اتجاه معين وهدف واضح .

فما هى العقيدة التى تشيع فى العقول والانسجام وتغمر القلوب بالنور .

يقول بعض العرب : أنها العروبة فحسب ، ويقول بعض العرب أنها الاسلام ، والحق أنه لاعروبة بدون إسلام ولا إسلام بدون عروبة ، فالعرب بالاسلام كل شىء والعرب بدون الإسلام لاشىء ، ولا أعرف سببا يبرر تطرف بعض العرب فى عروبتهم فلا يرون الاسلام ضرورة من ضرورات الأمة العربية فى حاضرها ومستقبلها « العربى الحق هو الذى يدعو للاسلام أولا لأن فى دعوته للاسلام قوة ضخمة للعرب وتعزيزا لهم وإسناداً لقضاياهم فهل يفرط بدعم المسلمين من غير العرب مخلص للعروبه حقا .

لقد وردت إحدى وأربعون آية كريمة فى سور مختلفة من سور القرآن الكريم عن العرب بالذات منها (كنتم خير أمه أخرجت للناس) و (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) و (فإنما يسرناك بلسانك) .

وقال رسول الله : لا يكره العرب إلا منافق ، وإذا ذل العرب ذل الاسلام

وقال عمر رضى الله عنه : العرب مادة الاسلام

أما الإسلام ففيه من عناصر القوة طاقات لاتنضب وليست عناصر قوة الاسلام

مقصورة على جانب دون جانب وإنما تتناول جوانب الحياة جميعا من الإيمان بالله إيمانا يحرر الضمير والوجدان وفى الاعتصام بالحق اعتصاما يزهق الباطل أمامه ويندحر ، وفى معرفة الضعف النفسى والتطهر منه تأخذ النفس طريقها إلى العزة والسمو الروحى وفى العلم المقوم لشخصية الانسان والكاشف له عن حقائق الوجود المادى وماوراء هذا الوجود من عالم ماوراء الطبيعة وفى الثروة وتعمير الأرض وإستثمار قوى الكون وفى السلام العام القائم على احترام الانسان وكفالة حقوقه وفى احترام العهود والحفاظ على المواثيق وفى التضحية النبيلة والاستشاد فى سبيل الحق من أجل الحياة الكريمة .

هذه هى عناصر القوة فى الاسلام وهى ليست مثل القوة التى اصطلح عليها الناس ولقد كانت هذه القوى هى العامل الأساسى فى نجاح العرب فى أول دور من أدوار حياتهم بعد الاسلام فما كادت يجتمع إليهم هذه العناصر حتى آل إليهم ميراث الأرض ووضع فى يدهم قيادة الأمم ووكل إليهم إخراج الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده ومن جور الحكام إلى عز الاسلام .

وبعد فهل من يرى بعض العرب الذين يتطرفون للعروبه وللعروبه وحدها أن يصروا على فكرتهم التى تزعم أن الاسلام ليس ضرورة من ضرورات الأمة العربية فى حاضرها ومستقبلها .

أن الذين يفهمون الاسلام عقيده ماديه تنطبق عليها المقاييس المادية مخطئون والذين يفهمون الاسلام عقيدة روحية لاصله لها بالمادة ولا بالحياة مخطئون أن الاسلام فى صميمه عقيدة ترتكز على المادة كما ترتكز على الروح ، فهو دنيا وأخره وسيف وكتاب وجسم وروح ودوله ودين وسياسه وتبتل ، وإيمان بالعمل المادى من أجل الدنيا وإيمان بالعمل الروحى من أجل الآخرة ، إيمان بالحياة وإيمان بالغيب » .

* * *

تلك هي فلسفة الترابط بين العروبة والاسلام، وهذا هو التفسير الاسلامي للتاريخ كما يعرضها اللواء محمود شيت خطاب من خلال عشرات من أبحاثه ومؤلفاته أنه صوت أصيل ، ومفهوم أصيل من مفاهيم الفكر الاسلامي والثقافة العربية التي تأخذ مكانها لتصنع مستقبل العرب والمسلمين ؟

اراده القتال فى الجهاد الاسلامى

محمود شيت خطاب

إرادة القتال هى الرغبة الأكيدة فى الصمود والثبات فى ميدان القتال من أجل مثل عليا وأهداف سامية وإيمان لايتزعزع بهذه المثل والأهداف وثقة بأنها أحب وأعز وأغلى من كل شيء فى الحياة وتحمل أعباء الحرب بذلا للأموال والأنفس واستهانة بالأضرار والشدائد وصبرا فى الباساء والضراء وحين البأس حتى يتم تحقيق تلك المثل العليا والأهداف السامية مهما طال الأمد وبعد الشوط وكثر العناء وإزدادت المصاعب وتضاعفت التضحيات .

مفهوم إراده القتال فى الجهاد الاسلامى : ماده وروح .

فيه الدعوة إلى الخير والسلام وفيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفيه الاعراض من الاستغلال والاستعباد .

ومفهوم إرادة القتال فى الشرق والغرب مادة فقط ، فيه الدعوة إلى التسلط والاستعمار وفيه أشاعه المنكر والفساد وفيه حب الحرب وكراهية السلام .

أن الجهاد فى الاسلام يهدف إلى حماية حرية نشر الدعوة الاسلامية وإلى أشاعة السلام وإلى الدفاع عن دار الاسلام .

أن إرادة القتال التى يتغلغل فى أعماق المسلم الحق مبنية على أسس سليمة رصينة لأن هذا المسلم يؤمن إيمانا عميقا بأنه يخوض « جربا عادله » هذه الحرب هى حافز جديد تجعل من المؤمن مقاتلا رهيبا كما عبر عنه العسكريون المحدثون ولكن

إراده القتال فى الجهاد الاسلامى تسيطر على المسلم فى ميدان القتال إيام الحرب كما تسيطر عليه فى أيام السلام ، أن الهدف الحيوى من الحرب هو تحطيم الطاقات المادية والمعنوية للعدو فإذا انتصر عليه فى ميدان الحرب وأستطاع أن يحطم طاقاته المادية فلابد من جهود أخرى لتحطيم طاقاته المعنوية ليكون النصر كاملا يؤدى إلى الاستسلام .

والسؤال الذى يتردد اليوم هو :

السنا مسلمين . إذا كنا مسلمين فلماذا لاينصرنا الله على أعدائنا .

(وكان حقا علينا نصر المؤمنين) فهل نحن مؤمنون حقا وهلى نصرنا الله حقا حق ينصرنا ويثبت أقدامنا ، أن مقياس الايمان واستحقاق النصر واضح فى قوله تعالى : « ولينصرن الله من ينصره أن الله لقوى عزيز ، الذين أن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » :

كيف ينصرنا الله ونحن لانطبق تعاليمه . هل ورد فى القرآن مايشير إلى أن الله ينصر المسلمين — الذين يتقبلون الاسلام دون تكاليفة فى الجهاد والعمل الصالح . أن هذا الأمر لايصلح الا بما صلح به أوله :

العودة إلى الاسلام وحين ذاك ستقول يهود كما قالوا من قبل أن [فيها قوما جبارين] ويؤمئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

(٢)

لقدعرف تاريخ الأدب العربى الحديث كوكبة من الفرسان الأدباء ، الذين أطلق عليهم أرباب السيف والقلم ، جمعوا بين المقدرة العسكرية الحربية وبين التبريز الأدبى وقد كان اسم محمود سامى البارودى فى مقدمة هذه الأسماء وأضيف إليه حافظ إبراهيم ثم ظهرت أسماء كثيرة فى مجالات الشعر والنثر وغيرها .

غير أننا الآن أمام نموذج آخر ، نموذج اصيل فرضته ظروف التحدى التى تمر بها الأمة العربية فهذا رجل عسكرى محارب وهو فى نفس الوقت كاتب بارع ومؤرخ حصيف ، ولكن فى دائرته فهو يرى أن أزمة العالم العربى وكبرى قضاياه لا تحل إلا فى مجال الوحده العسكرية العربية ومن هنا فهو معنى بهذا اللون من الدراسات على مدى تاريخ الأمة العربية .

ومن هنا كانت موسوعة قادة الفتح الإسلامى التى ستتم فى سبعة مجلدات صدر منها أربعة والباقى فى الطريق ، وهى تضم سيرة كل فاتح ضم بلدا جديدا أو بلدانا جديدة لأول مره بعد الإسلام إلى الدولة الاسلامية إيمانا بأن « قصة هولاء القادة تبهر العقول والأبصار » وأن جهادهم يخرس الأصوات المنكرة المريبة التى تعمل جاهدة لتهديم تاريخنا وتراثنا لنستورد لنا تاريخا وتراثا من وراء الحدود .

وهذه الأجزاء السبعة هى :

١ — قادة فتح العراق والجزيرة .

٢ — قادة فتح فارس .

٣ — قادة فتح الشام ومصر .

٤ — قادة فتح المغرب .

٥ — قادة فتح المشرق (من الصين شرقا إلى سيبريا شمالا إلى المحيط جنوبا) .

٦ — قادة فتح الأندلس والبحار .

٧ — قادة فتح أوربا .

ويؤكد رب السيف والقلم (محمود شيت خطاب) فى أكثر من مقدمه ، وأكثر من مناسبة أنه إنما يندفع إلى هذا العمل فى مواجهة خطر واضح يتهدد الأمة العربية والتاريخ العربى « بعد أن راعه إنفصال الكثيرين من أبناء الجيل الحاضر عن تراث

أجدادهم المشرف المجيد واتجاههم فى حيرة وهوان يستوردون النماذج والمثل والقيم» وهى « أمنية رادوته مايزيد على العشرين عاما خلت » فقد كان يشعر شعوراً عميقاً بعظمة هؤلاء الرجال ويشعر بالحزن والاسى يحزان فى نفسه حين يلمس أن هؤلاء الرجال على عظمتهم وأثارهم وقيمة تضحياتهم لاتعرف حتى أسماء أكثرهم ،وماتعرفه عن بعضهم لايتجاوز بعض المعلومات السطحية المشوشة التى يشيع فيها التناقض ويقارن بين تكريم الأجانب لقادتهم وبين مايلاقيه قادتنا من عقوق ، هذه هى الفكرة التى مازالت تتغلغل فى نفسه منذ انبعاثها حتى أصبح يشعر بمرور الأيام أنها رسالة وواجب وعليه مسئولية حملها وتكليفها للناس .

ومنذ ذلك الوقت وكان ذلك قبل عام ١٩٥٨ بوقت طويل على الأكثر عندما أصدر كتابه الأول « الرسول القائد » كان قد عكف على المصادر القديمة والحديثة وجمع أخبار قادة الفتح من شتات كتب السير والمغازى وطبقات الرجال وكتب التاريخ والأدب .

ولقد كان إحساسه وهو يكتب هذه الصفحات هو ماصورة فى عبارة لاتبارى « كنت أشعر بفيض غامر حين كنت أؤرخ قادة الفتح ، من غبطة وسعاده لاتقدر بثمن ولايمكن وصفهما » .

وهو لايلوم الجيل الحاضر من أبناء العرب والمسلمين على عقوتهم « قادة الفتح » « فقد تضافرت جهود الثقافة الاستعمارية منذ دخول الاستعمار هذه البلاد إلى أغفال كل مايثير فى النفوس روح الاعتزاز بالماضى المشرق المجيد ، كما أن الشعوبيون منذ سيطر بعض رجالهم على الدولة العباسية فى القرن الثانى للهجرة بذلوا جهودا عن عمد وسبق أصرار ولايزال أحفادهم يبذلون جهودهم إلى اليوم لطمس أسماء القادة الذين دكوا عرش أكاسرتهم وقياصرتهم » .

ولكن أى عبرة من وراء هذه الدراسة الفنية الواسعة :

نعم ، يجيب رب السيف والقلم فيقول : أن معرفة الماضى هى التى تطوع لنا تصوير المستقبل وتوجه جهودنا إلى الغاية الجديرة بتراثنا العظيم فى الماضى والمستقبل وحده لاسبيل إلى إنفصالهما ومعرفة الماضى هى وسيلتنا لتشخيص الحاضر ولمعرفة المستقبل ، ذلك أن معرفة حقيقة تاريخنا ومعرفة سيرة روح هذا التاريخ ، وهم قادة فتح وقادة الفكر هى مصل وقائى للعرب والمسلمين يصونهم من الانحراف فى مجرى التيارات الفكرية الدخيلة التى لاتنبع من صميم تربة وطننا ولاتمت بصلة إلى تراثنا وعقائدنـــا « أن معرفة الماضى هى وحدها التى تطوع لنـــا تصوير المستقبل » .

ذلك هو الهدف الذى دفع كاتبنا الكبير إلى تحرير سيرة قادة الفتح الإسلامى وأعلامه ، وقدم هذا الثبت الضخم من المؤلفات المفردة أيضا عن أمثال :

« المهلب بن أبى صفرة الأزدى والاحنف بن قيس التميمى وقتيبة بن مسلم الباهلى ، ومايعده من أبحاث أخرى عن الصديق أبى بكر والأمام على وقادة النبى وسفراءالنبى وشهداء الاسلام فى عهد النبى .

بل أن هذا العالم الفارس ليذهب إلى أبعد من ذلك فيخصص جانبا كبيرا من وقته لدراسة المصطلحات العسكرية فى الآثار الجاهلية والقرآن والحديث ومصادر التاريخ الإسلامى والأدب العربى بعد الإسلام ولايتوقف عن العمل كاتبا ومصححا ومحققا فى مختلف المجلات العلمية ، وهو بعد عضو المجمع العلمى العربى فى العراق ، والمجمع اللغوى فى مصر ، ويواصل كتاباته فى عشرات المجلات الإسلامية والعربية والعسكرية التى تصدر فى مختلف أجزاء العالم العربى حتى ليمكن القول أنه وهب نفسه لهذا العمل وتجرد له .

* * *

ويؤمن اللواء شيت خطاب إيمانا ينتظم كل مؤلفاته وآثاره بالرابطة الأساسية بين العرب وبين الإسلام ويرى أن الإسلام هو الذى جمع شمل العرب ووحد قلوبهم وأشاع فيهم النظام والضبط وبذلك أصبحوا قوة هائلة وجدت لها متنفسا فى توحيد الجزيرة العربية أولا وفى الفتح الاسلامى ثانيا فحملوا رايات الاسلام شرقا إلى أقاصى الشرق وغربا إلى أقاصى المغرب وحملوا أعباء الفتح وحدهم فكان لهم بتوفيق الله وتسديده فضل فى نشر الاسلام فى البلاد المفتوحة .

ولاشك أن تعاليم الاسلام هى التى رفعت المستوى العقلى للعرب إلى درجة كبرى عن عبادة الأصنام والأوثان ومايقتضيه ذلك من انحطاط فى النظر وأسفاف فى الفكر إلى عبادة إله وراء المادة « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » وأستطاع العربى بهذه التعاليم أن يرقى إلى فهم الله لامادة له واسع السلطان واسع العلم ، وكان لعقيده اليوم الآخر ودار الجزاء والجنة والنار أثر عظيم فى بيع كثير منهم نفوسهم فى سبيل نشر الدعوة (أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) .

وكان للاسلام أثر كبير فى تغيير قيمة الأشياء والأخلاق فى نظر العرب فارتفعت قيمة أشياء وانخفضت قيمة أشياء أخرى وأصبحت مقومات الحياة فى نظرهم غيرها بالأمس . ذلك أن الاسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى للحياة فى الجاهلية وهذان المثلان لايتشابهان وكثيرا مايتناقضان ، فالشجاعة الشخصية والشهامة التى لاحد لها ، والكرم إلى حد الاسراف والاخلاص التام للقبيلة والقسوة فى الانتقام والأخذ بالثأر ممن إعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل ، هذه التى كانت أصول الفضائل عند العرب الوثنيين ، أصبحت فى الاسلام الخضوع لله والانقياد لأمره والصبر وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين ، والقناعة وعدم التفاخر ، والتكاثر ، وتجنب الكبر والعظمة وهى المثل الأعلى للمسلم فى الحياة .

وهكذا فالاسلام عقيدة وعملا هو الذى صهر نفسية العربى ونفى عنها الخبث فأصبح العربى المسلم يخلص لعقيدته أكثر مما يخلص لنفسه . ثم لم يلبث العربى المسلم أن تصرف تصرفا لايزال يعتبر من الأعمال الفذة النادرة فى حياة الرجال حيث تحمل التعذيب والموت راضيا مطمئنا وترك أهله وماله وهاجر إلى الله ورسوله ، كما تصرف العربى المسلم ضمن المجموع من أمته تصرفا لايزال يعتبر حتى اليوم مفخرة من المفاخر ، فقد أندفع يجاهد فى سبيل نشر عقيدته وحمايتها فخرجت القوة المؤمنة التى أختزنتها الصحراء عبر الأجيال تحمل راية الله وتبلغ عن أمره ، فتتابعت الانتصارات الباهرة .

وهكذا كان الاسلام للعرب عقيدة منشئة آمنوا بها وزادوا عنها وحملوا رسالتها شرقاً وغرباً حماة قادرين .

ثم يصل الباحث الكبير إلى أن يتساءل عن عبرة ذلك كله للعرب فى حاضرهم ومستقبلهم ويرى أن الوحدة العربية هدف حتمى يستمد مقوماته من وحده اللغه ووحدة التاريخ ووحدة الكفاح الشعبى ووحدة القيم الروحية والانسانية النابعة من رسالات السماء ، ويرى أن الوحدة هى سنة الحضارة البشرية ونحن لانملك من أمرها إلا أن ننظم الاتجاه إليها ، ولايكون ذلك إلا بدعم الانسجام الفكرى فى العرب أولا وقبل كل شىء ، ذلك لأن الانسجام العقائدى يوجد الصفوف ويجمع الشمل ويبلور الأهداف الحيوية فتنطلق الأمة العربية من منطلق واحد نحو اتجاه معين وهدف واضح .

وأن هذه العقيدة التى تشيع فى العقول الانسجام وتنمر القلوب بالنور هى الاسلام وعنده أن العرب بالإسلام كل شىء والعرب بدون اسلام لاشىء فلقد وردت إحدى وأربعون آية كريمة فى سور مختلفة من سور القرآن الكريم عن

العرب بالذات « كنتم خير أمة أخرجت للناس » « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » « فإنما يسرناه بلسانك » .

وقول الرسول : إذا ذل العرب ذل الإســـلام وقول عمر : العرب مادة الإسلام .

وعنده أنه لاتوجد عقيدة غير الإسلام بإمكانها أن تفرض الانسجام الفكرى المتغلغل فى أعماق القلوب والعقول . فالإسلام هو الذى أشاع هذا الانسجام بين العرب فى الصدر الأول من تاريخهم بعد الإسلام فوحد صفوفهم وجمع كلمتهم ولما كان حاضر العرب ومستقبلهم يدعوهم إلى الوحدة الشاملة لخيرهم وخير المسلمين وخير الإنسانية جمعاء فإن وحدتهم لن تكون رصينة إلا إذا ساد أنظارهم الانسجام العقائدى وليس بإمكان غير الإسلام أن يؤمن لهم هذا الانسجام .

تلك هى رسالة محمود شيت خطاب ودعوته التى بثها فى موسوعة الضخم :

« قادة الفتح الاسلامى » .

ولد محمود شيت خطاب بالموصل عام ١٩١٤ والتحق بالكلية العسكرية ١٩٣٧ وأشترك فى دورة الضباط العظام فى انجلترا وكان الأول على مائة ضابط من مختلف جيوش العالم وكان من بين أساتذته فى كلية الحرب البريطانيه المارشال « مونتجمرى » القائد المعروف الذى هزم الايطاليين فى صحراء مصر — ليبيا . خاض غمار حرب فلسطين ١٩٤٨ ضابطا فى الجيش العراقى ، شارك فى ثورة ١٤ رمضان ١٣٨٢ وأشترك فى الوزارة ، ووضع دستور العراق وكان من أعظم أعماله اهتمامه بدراسة قادة الحرب المسلمين ، وأولى هزيمة ١٩٦٧ اهتماما كبيرا فكتب بعدها عشرات الفصول فى أخلاقيات القادة وضمنها كتابة (بين العقيدة والقيادة) .

وقد كان صاحب نبوءة وقوع الحرب بين العرب وإسرائيل عام ١٩٦٧ وهو

أول من أعلن قبل الحرب بأيام أنها سنقع يوم ١٩٦٧/٦/٥ بالذات وأرسل للمسئولين ينبئهم باستنتاجه الذى أقامه على فهم عميق لاستراتيجية الحرب فى إسرائيل وله فى هذا المجال دراسات واسعة انتفعت بها الجيوش العربية وكانت عاملا من عوامل النصر فى حرب رمضان وهو يشغل عدداً من المناصب العلمية : كعضو المجمع العلمى العراقى واللغة العربيه فى دمشق ومجمع البحوث الاسلامية فى الأزهر ورابطه العالم الإسلامى فى مكة المكرمة وله ٦٤ كتابا .

الباب الرابع

كتاب وأدباء

١ — محمد مسعود

٢ — إبراهيم عبد القادر المازني

٣ — كامل كيلاني

٤ — على أحمد باكثير

٥ — أحمد عطية الله

٦ — عثمان السكماك

٧ — عدنان الخطيب

(١)

محمد مسعود

تلك مدرسة انقرضت أو كادت ، كان قوامها أحمد زكى « الملقب بشيخ العروبة » وأحمد تيمور ، وصادق عنبر ، وكامل كيلانى ، وطاهر الجزائرى ، وأنستاس الكرملى ، وعبــد القادر المغربى ، وشكرى الألوسى ، وفارس الشدياق ، ومحمد مسعود : تلك مدرسة جمع الجذاذات والوثائق التاريخية والصحفية

ولم يبق منها فى زمننا إلا قليل من أبرزهم محب الدين الخطيب والأستاذ أحمد عطية الله .. كان محمد مسعود رائدا من رواد الصحافة والترجمة والتحقيق اللغوى والتاريخى ، عمل فى هذا الميدان خمسين عاما كاملة ، منذ مطلع شبابه حين اشترك فى تحرير « المؤيد » سنه ١٨٨٩ وظل يعمل دون توقف حتى توفى عام ١٩٤٠ : وكان يكتب مذكراته الشخصية حتى آخر أيام حياته .

يقول أنه بدأ حياته بالبحث والتنقيب فى مكتبة والده ، فقرأ مجلة « روضة المدارس » التى كان يحررها فى سنواتها الثمانى رفاعه الطهطاوى وصفوة من كتاب مصر ، ومجله « الجنان » التى كان يصدرها البستانى ، كما قرأ « منتخبات الجوائب » لفارس الشدياق ، واتصل فى صدر شبابه بإبراهيم اليازجى صاحب « الضياء » و « البيان » وتأثر باتجاهه الفكرى ، وأخذ عنه أحب أمرين كان اليازجى كلفا بهما وهما : أبحاث الفلك والتحقيق اللغوى .. فيروى عن اليازجى أنه من شدة حبه للنجوم والفلك كان يخرج مع أصدقائه إلى الشوارع الهادئة فى أول الليل ويقف فى بعض الساحات حيث يلفت نظرهم إلى السماء شارحا لهم أسماء الكواكب ومطالعها ومجارى سيرها ، والشىء نفسه كان يصنعه مسعود فيما يرويه عنه إبنه الأستاذ يحيى مسعود .

وقد ظل مسعود وفيا للفلك والكواكب طوال حياته فكتب فى تقويمه أكثر من عشرين بحثا فى دراسات الكواكب والبروج والأفلاك .

وكذلك كان مسعود وفيا للتحقيقات اللغوية والتاريخية يتطلع إلى وضع كتاب عن أخطاء الصحف على نسق كتاب إبراهيم اليازجى « لغة الجرائد » ، بعد أن جمع منها بضعة آلاف .

وفى الترجمة يقف مسعود فى وصف أعلام الترجمة فى بلادنا : أمثال رفاعة الطهطاوى ، وصالح مجدى ، وفتحى زغلول . اما فى ميدان الصحافة ، وكان واحدا من روادها الأوائل ، وهو يحدثنا عن بدء هوايته للصحافة فيقول :

« نشأ من ولوعى بالصحف التى طالعتها أن أحببت الصحافة وتمنيت لوأكون فى مستقبلى صحفيا ، وعكفت على التفكير حتى تجسمت الأمنية فى خيالى ولم يفارقنى شبحها » .

وتعرف مسعود بعد ذلك بالشيخ على يوسف فوجهه ، ولما صدر المؤيد كتب فصولا مترادفة فى الرد على حملة الكردينال لافيجرى الذى هاجم موقف الإسلام من الرقيق ، وهكذا أستهل حياته فى الصحافة ..

وقد أعان مسعود على النجاح فى الصحافة ، أنه كان واحدا من عدد قليل جدا ممن يجيدون اللغة الفرنسية القادرين على الترجمة منها ، فقد تلقى تعليمه فى مدارس الفرير ، وعمل فى مطالع حياته مدرسا للغة الفرنسية فى مدرسة رأس التين بالإسكندرية .

واتصل مسعود بالصحافة الأفرنجية أولا ، وكتب فيها فصولا عديدة عن الأحوال العامة فى مصر .

• • •

وقد ظل مسعود يعمل فى ميدان الصحافة حتى عام ١٩١٠ عندما اختير محررا فنيا بقلم المطبوعات ، ثم عمل فى وزارت الداخلية والتجارة والصناعة ، ورئاسة مجلس الوزراء ، وتولى منصب مدير إدارة المطبوعات حتى أحيل إلى المعاش فى فبراير سنة ١٩٣٣ .

• • •

وفى خلال هذه الفترة التى قضاها مسعود فى مختلف الوظائف الحكوميه لم يتوقف عن التحرير والكتابة والترجمة ، ولم ينقطع عن الاتصال بالصحافة . وقد أجمع معاصروه على أنه كان : كاتبا وصحفيا متنوع القدرات ، بل دائرة معارف حية يكتب التعليق السياسى والبحث الاجتماعى ، والنقد الأدبى ، مع عفة النقد والترفع عن الهوى ، وظل مرحلة طويلة من حياته يصدر « التقويم السنوى » الذى عرف بتقويم المؤيد .

ويمكن القول بأن مسعود كان رائدا فى ميادين ثلاثة : الصحافة والترجمة والتحقيق اللغوى والتاريخى .

فى الصحافة

عمل مسعود فى الصحافة منذ مطالع شبابه حتى عام ١٩١٠ ، وكان قد تطلع إلى مجلة الآداب التى كان يصدرها الشيخ على يوسف منذ « نوفمبر سنه ١٨٨٧ » فبدأ يكتب فيها فى عام ١٨٨٩ مراسلا من الاسكندرية فتنشر له مترجمات متعددة عن موضوعات مختلفة منها الظواهر الهوائية والصفات العمومية للكائنات الحية . والاسترقاق عند النمل . وتاريخ الأديان . وتاريخ المنطاد « مجلد ١٨٨٩ » وكان من زملائه فى التحرير بها : إبراهيم رمزى وحفنى ناصف .

• • •

وفى ٩ نوفمبر سنة ١٨٨٩ أعلن على يوسف فى مجله الآداب عن إصدار جريدته اليومية « المؤيد » التى صدرت فى أول ديسمبر ١٨٨٩ وكان محمد مسعود فى مقدمة الكاتبين بها ، ثم ترك عمله وتفرغ للصحافة عام ١٨٩١ وقد اختص بترجمة التلغرافات الخارجية . كان رفيقه فى هذه المرحلة أحمد حافظ عوض ، وقد امتدت صحبتهما فترة من الزمن فأصدرا معا جريدة المنبر (يوليو عام ١٩٠٦) وعددا واحدا من مجله فكاهيه (هاهاها) ١٩٠٧ .

. . .

كما أصدر مسعود جريدة منفيس عام (١٨٩٥ — ١٨٩٩ نصف أسبوعية) وجريدة النظام ١٩٠٩ ومجلة الآداب التى أصدرها بعد أن شغل عنها الشيخ على يوسف بتحرير المؤيد .

وأشترك مع خليل مطران فى إصدار (المجلة المصرية) ١٩٠٠ — ١٩١٠ ، كما اشترك فى تحرير (اللواء) الفرنسية . كما عهد إليه عام ١٩٣٢ بتحرير مجلة الرابطة الشرقية .

وقد أمضى فى تحرير المؤيد عشرين عاما (١٨٨٩ — ١٩٠٦) يحرر بها جميع مواد القسم السياسى الخارجى ، يقول توفيق حبيب « أنك إذا رجعت إلى إلى الخمسة عشر مجلدا الأولى للمؤيد فتأكد أن كل مافيها من تلغرافات وفصول سياسية أجنبية من صنع الأستاذ مسعود تتجلى فيها الرقة والدقـــة والأمانة فى النقل » .

وقد كانت سياسة مجلته (منفيس) التى أصدرها فى ٥ نوفمبر سنة ١٨٩٥ (سياسية أدبية) تسير على نسق المؤيد فى الهجوم على المقطم وتأييد سياسة الخلافة العثمانية ومهاجمة ابو الهدى الصيادى وأعوانه .

وفى جريدة منفيس نشر خطب صديقه (مصطفى أفندى كامل) نزيل باريس

كما هاجم السيد توفيق البكرى ، وتعرض لقصيدة المنفلوطى التى نظمهافى مهاجمة الخديو (قدوم ولكن لا أقول سعيد) وقال أنه منشئها وأن البكرى هو المغرى بنظامها وطبعها ، وأن المطلع وبيتين فى وسطها من نظم البكرى نفسه ، كما هاجم الشيخ أحمد مفتاح العالم الأزهرى الذى كان يكتب فى المقطم مقالات ضد البلاد .

• • •

وقد كانت مجلة (منفيس) تصدر فى أربع صفحات باللغة العربية ماعدا (الصفحة الأخيرة) التى تصدر بالفرنسية يحررها : ج . لافربير ومن العجيب أنه يؤرخ القسم العربى بالتاريخ الهجرى ، ويحرر القسم الفرنسى بالتاريخ الأفرنجى .

ثم حذف القسم الفرنسى بعد نهاية السنة الأولى معتذرا عن ذلك بأن « حذفه لم يكن إلا إضطراراً لمانع قلة عمال جمع الحروف الأفرنكية فى فصل الشتاء وكان عنوان مجلة منفيس (شارع حوش الشرقاوى بمصر) .

• • •

وأشترك فى تحرير العدد الأول من مجلة (ها ها ها) مع صديقه أحمد حافظ عوض ، وقد صدرت فى عدد واحد فى (٨ مارس ١٩٠٧) (صحيفة هزلية تصويرية أسبوعية) وكتب تحتها :

وكم ذا بمصر من الضحكات   ولكنه ضحك كالبكا

وقال فى تقديمها أنها كأختها — المنبر — وطنية ، أى لخدمة الوطن المصرى ومبدؤها (مصر للمصريين) لذلك نحن نعلن الصور (الاجنبى) مقدما ولا يؤاخذنا فى ذلك أننا متى وجدنا مصورا وطنيا نستغنى عنه .

وقال أن الغرض من هذه الجريدة :

« أن تصور الحوادث والأشخاص فى المسائل السياسية تصوراً يتى تأثيرها فى النفوس ، وأن الصور تؤثر فى المجموع ، وتثبت فى العقل أو على شبكة العين ، بخلاف المقالات فإنها تمتح الواحدة الأخرى ، وتنسى بعد قراءتها ، وبالاختصار أن صاحبى الجريدة يريدأن ان يوجدا شيئا جديدا فى الصحافة العربية هو الرسم الهزلى السياسى .

«والغرض من « الكاريكاتور » على ماأعرف التمكن من تصوير الناس على حقائقهم وراء ستار الضحك والاستخفاف والهزل وقد صار فى أوربا فنا مهما بل هو اليوم من الفنون الجميلة التى لايجيد فيها إلا النوابغ ونوابغ النوابغ الذين لايوجد لهم فى مصر مثيل الخ .. »

* * *

والواضح من مراجعة العمل الصحفى لمسعود خلال هذه الأعوام العشرين (حتى عام ١٩١٠) يظهر أن أبرزأعماله هو الميدان السياسى الخارجى سائرا فى النهج الوطنى المقاوم للاستعمار المرتبط بالقوى الوطنية ، وهو عندما اختلف مع أحمد حافظ عوض سنة ١٩٠٩ . كان هذا الخلاف بشأن التحرر من سلطان القصر على أثر تحويله بعد إعلان سياسة الوفاق فقد آثر أن يكون عمله الوطنى خالصا غير مقيد . وقد ذكر الأستاذ يحيى محمد مسعود ابن المترجم له فى مراجعة لى معه : أن الخلاف بين حافظ عوض ومسعود ، إنما كان بسبب بعض البرقيات التى يرسلها حافظ من بريطانيا لنشرها فى المنبر وأغفال مسعود لها محافظة على اتجاه الجريدة ، وقد أدى الخلاف إلى خسارة مسعود للجريدة والمطبعة ، فقد آثر أن يترك الجريدة لحافظ عوض . وأنشأ جريدة النظام عام ١٩٠٩ ، وقد أحب مصطفى كامل وأيده وعمل معه فى اللواء الفرنسى . وكان مصطفى كامل يراسله من أوربا ويفضى إليه بذات نفسه .

وقد وصفه انطوان الجميل بأنه كان فى خلال حياته الصحيفه كلها :

« الكاتب السياسى النزيه فى وطنيه المخلص لعشيرته وقوميته الصادق النظر فى التعليق على الحوادث ، السديد والرأى فى تقدير الناس وأعمالهم ، على عفة فى النقد وترفع عن الهوى » .

الترجمة

عنى محمد مسعود بالترجمة فكانت أكبر قطاع فى حياته الفكرية سواء فى مرحلة الصحافة (١٨٨٩ — ١٩١٠) أم فى الفترة الباقية من حياته ، بل أن أغلب إنتاجه يمكن أن يوصف بأنه ترجمة . ففى خلال إصداره لتقويم المؤيد فتقويم مسعود منذ عام ١٨٩٨ حتى سنة ١٩١٧ أصدر ١٧ تقويما خلال تسعة عشر عاما كانت أغلب مادة هذه التقاويم من مترجماته عن المؤلفات الأوروبية فى أبواب الفلك والتاريخ والجغرافيا والأعلام الأوروبيين ودراسات الحرب والممالك . هذا بالإضافة عن ترجماته للبرقيات فى الصحف التى عمل بها أو حررها، والمقالات السياسية التى تتصل بمصر ، غير أن هناك أعمالا أدبية كاملة قام بها مسعود تسلكه بجدارة فى عداد أقطاب الترجمة .

وفى دار الكتب من مترجماته المطبوعة :

الطبيب رغما عن أنفه — مطبعة مجلة الآداب — ١٣١١ هـ .

الجاهل المتطبب — لموليير — المطبعة الإبراهيمية — ١٨٨٩ م

مصر فى القرن التاسع عشر : تأليف كاوت بك — القاهرة ١٩٢١ م .

لمحة عامة فى مصر — تأليف إدوار جوان .

الاقتصاد السياسى لشارل جيد بتكليف من وزارة المعارف .

البخيل — لموليير — دار الطباعة الأهلية — ١٩٣٣ م .

معارج الفلاح — تأليف : سليقاز روديس — ١٩٢٧ م .

قصة وردة . فى جزئين — الدكتور جورج ايرس الألمانى — ١٩٢٧ م .

وله مترجمات أشار فى مذكراته منها : السر فى خطـأ القضاء : تأليف جيارميه .

رواية زهرة الشاى « عن بلاد الصين » .

رواية غادة الأهرام : عن موقعة الأهرام بين نابليون والمماليك وهما مسرحيتا « بلانشيت » و « المعطوبون » للكاتب الفرنسى أوجين بريو عضو الأكاديمية الفرنسيه وقد مثلتهما فرقتا جورج أبيض وعزيز وعيد وهذا الكاتب كان من طلائع المسرح الفرنسى الواقعى ومن أعـلام دعاة (الرياليزم) فى مستهل هذا القرن .

وقد زار مصر فى سنة ١٩٠٦ وتعرف إلى محمد مسعود الذى رافقه فى بعض جولاته وراسله فترة طويلة من الزمن ، وقد أهداه الكاتب معظم مسرحياته وعند مسعود أن هذه المسرحيات وترجماتها قداحدثت إنقلابا فى الكتابة المسرحية ومن بين ما كتبه بعد زيارته لمصر وتأثره بما شاهدهمن آثارها الفرعونية مسرحية « الإيمان » La Foi التى ترجمها المرحوم صالح جودت (القاضى) وطبعت ونشرت ومثلتها فى دار الأبرا فرقة جورج أبيض بديكورات فخمة أعدت لها خاصة . وقد كتب أيضا مسرحية « الرداء الأحمر » La Robe rouge التى شجع محمدمسعود ابنه يحيى على ترجمتها فى سنة ١٩١٧ وهو طالب بالحقوق لاتصالها بنقد موضوعى فى ناحية من نواحى الإجراءات الجنائية وأثرها الاجتماعى وقد مثلتها فى دار الأوبرا فرقة عبد الرحمن رشدى فى نفس العام .

ومن مترجمات مسعود الهامة التى لم تطبع كتاب : « حضارة العرب » لجوستاف لوبون . وقد أتمه قبل عام ١٩١٤ واستعد لطبعه وأعلن عن اشتراكات له ، وتوقف عن اتمامه بعد أن طبع ملزمه أو ملزمتين .

ويقول يحيى مسعود أن ميرته فى هذه الترجمة ماألحقه بها من حواش مطولة وتعليقات هامة على آراء الكاتب الفرنسى تبلغ مثل حجم الكتاب ولاتزال أصول الكتاب محفوظة لديه وتقع فيما يزيد على الألفى صفحة .

. . .

وقصة (ورده) التى تقع فى ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير فى جزئين من أهم أعمال الترجمة ، وقد كتبها العالم الأثرى الألمانى : ايبرس الذى زار مصر عام ١٨٧٣ وقضى بضعة أسابيع فى مقابر طيبة ، وهى تصور حياة مصر فى عهد رعمسيس الثانى من الأسرة التاسعة عشرة،وقد جعل محورها حياة الأميرة الفرعونية « ورده » وترجمها مسعود عن ترجمة فرنسية لها عن الألمانية ونشرها فى المؤيد خلال فترة عمله به .

. . .

وقد كان مسعود « فذا فى الترجمة من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ، وكان ذا عزيمة كريمة يشيد بمصر ويشدو بآمالها ويتغنى بمجد العرب وتاريخهم وعظمتهم ويفيض طبعه بدقة الحس والفكر ورقة العاطفة والشعور » على حد تعبير محمد على علوبه :

أجاد اللغة الفرنسية منذ مطالع شبابه فقد تخرج من مدارس الفرير ، وعكف على قراءة بعض الكتاب الفرنسيين وبدأ ينشر مترجماته فى مجلة الآداب التى أصدرها الشيخ على يوسف منذ عام ١٨٨٩ ، وكان بارع التعبير فى اللغة العربية إلى حد مكنه أن ينقل أفكار الكتاب الغربيين وآراءهم فى سهولة ويسر وعمق .

وقد روى عنه توفيق حبيب أنه اشترى من مصروفه الخاص وهو طالب الانسكلوبيديا بالفرنسية وبدأ يقرأها ويترجم منها وكان ذلك مما أعانه على قدرته على الترجمة .

كما أفتى الموسوعة الفلكية الشهيرة للعالم الفلكى كاميل فلاماريون .

أبحاثه وتآليفه

قدم محمد مسعود إنتاجا ضخما فى ميدان البحث والتأليف والمقالة . وأبرز أعماله تقويم المؤيد وتقويم مسعود الذى أصدره تسعة عشر عاما وكان له مكانته فى العالم العربى والإسلامى وله بعد مؤلفاته الموجودة فى دار الكتب .

آداب اللياقة — مطبعة التقدم — ١٩١٣ (عدله باسم الآدب اللائق ١٩٣١) .

والمرأة فى أدوارها الثلاثة « فتاة وزوجة وأما » القاهرة — ١٩٣٥

لباب الآداب — ١٣٢٤ هـ — القاهرة .

مصر والاحتلال « مجموعـــة أعمال مصطفى كامل من مايو ١٨٩٥ — مايو ١٨٩٦ » .

وسائل النجاح — مطبعة أبو الهول — ١٩٣١ .

التحفة الدهرية فى تخطيط مدينة الاسكندرية ١٣٠٨ هـ

الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض « النيل الأبيض » — ١٩٢٢ :

الرحلة السلطانية فى الوجه القبلى ١٩١٧ م المطبعة الأميرية .

ومما ذكره فى مذكراته أنه ألف كتابا عنوانه المرأة فى العين والقلب ، وقصة (العرق دساس) وألف نادرة ونادرة ، وفهرس لكتاب الأغانى فى ٤ مجلدات ،

تقويم مسعود

أصدر مسعود تقويمه منذ عام ١٨٩٨ باسم (تقويم المؤيد) واستمر يصدره

حتى عام ١٩١٧ (١٩ عاما)وقد بدأه فى ١٩٠ صفحة ثم ظل يدخل عليه من الزيادة والتحسينات حتى بلغ (عام ١٩٠٥) ٤٠٠ صفحة وحروفه من البنط الصغير (بنط ١٢) وهو فى حجم الجيب ، ومما يذكر أنه كان يصدره بالتاريخ الهجرى .

وقال فى مقدمة العدد الأول منه : أن فائدة التقاويم لمعرفة الأيام وموافقة التواريخ كفائدة الساعة لمعرفة مقدار ما مضى وما بقى من اليوم . وقد تتضاعف هذه الفائدة إذا قورنت بالمعلومات التى يحتاج إلى معرفتها الإنسان فى أطوار معيشته وقال: كنت أتمنى أن تتيح لى الفرصة إبراز تقويم باللغة العربية جامع لأغلب ما يحتاج الإنسان إلى معرفته والبحث عنه » .

وعاد إلى الحديث عنه فى مقدمة جزء عام ١٩٠٨ فقال « أن التقويم بث منذ صدوره بين طبقات الأمة على إختلاف مذاهبها فى الصناعات وتباين مشاربها فى الميول والنزعات كثيراً من الحقائق العلمية المرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالحها الحيوية حتى لقد طالما استشهد به كبار المحامين فى مرافعاتهم ، ورجع إليه العلماء الباحثون فى تحقيقاتهم » .

وقد حوى التقويم فصولا متعددة جامعة أهمها :

١ — التوقيمات (مطابقة السنوات الهجرية للشمسية والقبطية ومداخل التواريخ ومبادىء الفصول والمواسم والأعياد) .

٢ — علم الفلك .

٣ — العلوم والفنون .

٤ — الاكتشافات والاختراعات .

٥ — غرائب الطبيعة والصناعة .

٦ — الإحصائيات .

٧ — تقويم البلدان .

٨ — الملوك والأمراء والوزراء .

٩ — التراجم .

١٠ — التاريخ .

١١ — أحوال مصر فى عام .

١٢ — القضاء والإدارة .

١٣ — الزراعة .

١٤ — التدبير المنزلى .

١٥ — باب علم الأدب .

١٦ — المعاهدات الدولية .

١٧ — المنتخبات الأدبية .

١٨ — العادات والاعتقادات .

١٩ — المعاهدات والمسائل السياسية .

٢٠ — تخطيط الوجه القبلى والبحرى .

وقد وجه مسعود عنايته فى هذه التقويم إلى عملين كبيرين :

١ — اللغة العربية واشتقاقاتها والاصطلاحات الفنية فيها .

٢ — الفلك ، وكل مايتعلق بالكواكب والأبراج والسيارات .

كما قدم قاموسا للغة العربية (مجلد ١٩٠١) يتضمن تفسير كلمات مايتعذر وضوحه على أفهام بعض العامة عند تلاوة الكتب والجرائد ، كما قدم فى نفس المجلد مرشدا للكلمات باللغات العربية والإيطالية والإنجليزية والفرنسية .

وجمع الأمثال العامية والحكم ووزعها على هوامش صفحات هذه المجلدات .

ومن الأمثال العامية التى تواجهنا فى مجلد سنة ١٩١٤ قوله : اللى مش واخد على البخور يتحرق ، الرجل تدب مطرح ماتحب ، ياويل من داق الغنى بعد جوعة يموت وفى قلبه من الهم داحس ، من دقنه وافتـــل له حبل ، ضيف المسا ماله عشا » . الخ ..

وفى مجلدات أخرى وزع على هوامشه حكما وأمثـــالا كقوله فى مجلد سنة ١٩١٥ :

« أن الحديد بالحديد يفلح ، من سل سيف البغى قتل به ، قبل الرماية تملأ الكنائن ، رب بعيد أقرب من قريب ، إذا عز أخوك فهن » الخ .

وفى سنوات أخرى يورد فى الهوامش شعرا من شعر الحكم وهكذا ..

. . .

وأورد فى هذه التقاويم أسماء الكتب التى صدرت فى أعوامها . والصحف (ومما يذكر أن الصحف عام ١٩٠٨ بلغت ٢٥ صحيفة ومجلة) كما أورد أسماء المحامين الوكلاء أمام المختلط . كما أورد عددا من تراجم المشاهير فى مناسبات وفياتهم ومقتطفات من نثر حمزه فتح الله وعبد الله فكرى وحفنى ناصف وعلى الليثى وإبراهيم اليازجى ومحمد عبده وشعر البارودى وإسماعيل صبرى وشوقى وحافظ إبراهيم .

وأورد دراسات عن الحبشة واليابان وتركيا ومختلف دول أوربا ونظامها السياسى ورسائل لكبار الأدباء العرب وشذرات ومخاطبات من التراث العربى . وعن مصر ونظامها السياسى والمالى فأورد تقارير شاملة عن تجارتها ووارداتها وصادراتها وايرادات السكك الحديدية ، وشئونها الزراعية ، والقطن والقمح والشعير والقصب

ومقدار المنزوع بالفدان وشئون الرى وعدد المدارس والكتاتيب وتعليم البنات والأمن العام ومجالس المديريات والسجون وأحوال الصحة والمستشفيات والمحاكم الأهلية والجنائية والمختلطة والقضاء والأحكام المقررة للمبادىء، والزواج والأحوال الشخصية والمهور وجهاز العرس وعشرات من هذه الموضوعات الاجتماعية الهامة.

وقد عنى فى مجلد (١٩١٤) بإيراد دراسة هامة عن المرأة الحديثة فى أكثر من ٤٣ صفحة عن أدوار نهضتها وأحوال المرأة الشرقية والمصرية ودعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة وقضايا السفور والتعليم والزواج والطلاق.

وبالجملة فتقويم المؤيد ومسعود : دائرة معارف ضخمة، حوت دراسات واسعة فى التاريخ والسياسة والاجتماع والتراجم والقضاء والزراعة والقانون والعلوم والاكتشافات والفلك.

وقد أصدره باسم تقويم المؤيد حتى عام ١٩١٣ ثم أصدره باسم تقويم مسعود وقد شهد بمشقة هذا العمل حيث قال :

« لا ريب أن المتصدى لهذا العمل المتضارب الذى أنتقل فيه بالقارىء من فلك إلى تنجيم إلى طبيعة أو كيمياء إلى طب وتدبير منزل إلى حساب أو هندسة أو اختراع أو اكتشاف لمن المراكب الخشنة والمطالب الوعرة التى لايعلم بعثراتها سوى الذين عانوا المشاق فى تذليل صعابها .. »

وقد حدثنى يحيى مسعود عن عمل والده فى التقويم فقال : أنه كان ينفق من أجله وقتا وجهدا كبيرا، بل أن غلافه المذهب كان يصنع فى تريستا بالنمسا. قال :

حضرت زائرين له من الشرق والهند وقرأت رسائل من هونج كونج والهند الصينية وسنغافورة من قراء التقويم، وكانت ترد له هدايا من هذه المناطق فقد أرسل له بعض القراء حوائج معطرة من سومطرة وزنجبيل وشاى من فارس وكان كثير من رواد القاهرة من أعلام المغرب والمشرق يزورونه من أجل التقويم.

وذكر مسعود فى مذكراته أنه تفرغ لإصداره فأنفل مجلة « منفيس » وأنه نسج فيه على منوال تقويم « هاشيت » الفرنسى من حيث إيراده نتفا وطرفا من العلوم والفنون ولم يقل المطبوع منه عن ١٠ آلاف نسخة سنويا كانت تنفد فى أقل من أسبوعين .

ولاتقف آثار مسعود عند التقويم وحده ،فهناك ثروة مدفونة فى بطون الصحف هى مجموعة مقالاته التى كتبها فى الصحف منذ مطالع حياته ولم تجمع ، وخاصة أبحاثه فى الأهرام منذ سنة ١٩٢٦ — ١٩٤٠ وهى أبحاث تاريخية ولغوية تتصل بمراجعاته لما تنشره الصحف من أسماء البلدان أو المواقع الجغرافية المختلفة وخاصة فى بلاد الأندلس ، وأسماء السيارات والكواكب وبعض الأسماء العربية . وفيها معاركه مع شيخ العروبة أحمد زكى باشا والأب أنستاس الكرملى ، وعلى وجه خاص مع الدكتور محمد شرف الذى جرت بينهما خلافات وصلت إلى المحاكم وفصل فيها القضاء وكانت كلها تتعلق بترجمة بعض الكتب والوثائق التاريخية وخاصة فيما يتعلق بالاصطلاحات المترجمة من اللغات الأفرنجية فى الطب .

مراجعات اللغة والتاريخ

هذا ميدان من أعظم ميادين العمل عند مسعود ، فقد أخذ نفسه منذ مطالع شبابه بدراسات التحقيق اللغوى والتاريخى غير أنه قد وجد فرصة واسعة خلال الحرب العالمية الأولى ليقوم بمراجعات عميقة فى هذا الصدد :

ويقـــول :

أن الحرب فى سنيها الأربع « ١٩١٤ — ١٩١٨ » ألزمت سواد الناس ملازمة بيوتهم وحرمتهم أمتاع النفس بما أعتادوا أن يرفهوا به خارجها فى الهزيع الأول من الليل ، وكانت تطيف بخاطرى دائما فى تلك الأيام ، وأنا فى عزلتى ذكرى

المحاولات المستخذيه التى حاول بعضهم بها منذ ١٨٩٣ أن ينفضوا عن اللغة العربية عار أقفارها عن ألفاظ فصحى تؤدى معانى الألفاظ العامية والدخيلة التى تسربت وفشا استعمالها فى الناحيتين الكتابى والكلامى . وكنت أعتقد أن سد هذه المفاقر لايتأتى عن تصيد الألفاظ المطلوبة من هنا وهناك كما كان يفعل ذلك البعض مسايرة المصادفات والمناسبات بل عن مطالعة المعاجم استقراء واستقصاء لقيد مايكون صالحا لسد تلك الثلمة الفاغرة التى علا نعى الناعين لها فى الغابر والحاضر فتوفرت على هذا العمل زمنا مديدا حتى اجتمع لى منه بضعة آلاف كلمة عنيت برد ما يتصل منها بمختلف العلوم إلى ماهدانى البحث والتنقيب إليه من مقابلها فى اللغتين الفرنسية والإيطالية . وهذه الكلمات وتلك مرودة عندى فى أمام مبين أعاوده بنظرى كلما احتجت إلى تحقيق أو تصحيح » .

ويصور هذا مدى أصالة العمل الذى شغل مسعود به نفسه فى التحقق العلمى ، والذى واجه به عالما ضخما كان له نفوذه الفكرى الواضح ، هو شيخ العروبة أحمد زكى باشا وأنه أدار معه معارك ومساجلات متعددة كشف فيها عن أصالته وقوته .

ومن ناحية أخرى كان مسعود قد أعد لنفسه ذخيرة ضخمة من القصاصات التى عنى بترتيبها وتبويبها ، والتى شهدها الشاعر عبد الله عفيفى منذ عام ١٩١٢ فى أول لقاء معه ، وقال له مسعود إذ ذاك : أنى لاأدع موضوعا فى الصحف العربية أو الأجنبية إلا قصصته وضممته إلى نظائره ، فعندى من كل موضوع خير ما كتب فيه . قال عفيفى : ثم فتح أدرج خزانته وأرانى هذه النظائر المصنفة فى كل باب من أبواب العلم والأدب والتاريخ والاجتماع وكل مايتجه الفكر إليه فى نواحى الحيـــاة وانتهى المطاف إلى « الأندلس » فأرآنى كل ما أبتغى الوصول إليه .

وقد أشار عبد الله عفيفى إلى أن مسعودا لم يكن يجمع هذه المراجع والوثائق

ليعود اليها وقت الحاجة وإنما كان يعى كل مافيها ويستوعبه « ويضمه إلى خزانة صدره قبل أن يضمه إلى خزانة كتبه » .

وكان من أجل ذلك يستخدم كاتبا خاصا منقطعا له ليعاونه فى تصنيف القصاصات وتنسيقها ووضع الفهارس لها .

وروى عبد الله عفيفى عام ١٩٤٠ أن مسعود جمع خمسمائة الف قصاصة وزعها على ملفات وهى تعد « تاريخ جيل كامل وعقل جيل كامل ». ومن عناوين هذه الملفات:

المسألة الدولية . نظام الطبقات . الاحزاب . الامتيازات الأجنبية . الفلاح والتربية . المرأة والزواج والطلاق . قصص الحياة . التاريخ فى العالم أجمع . الفنون الجميلة . التاريخ القديم والحديث لمصر . العمل والعمال . الأناشيد والازجال . المسرح والسينما . الأندية والجمعيات . الأطفال من المهد إلى البلوغ . المسكيفات . التنويم المغناطيسى والأرواح . الفلك والتقويم . الإنسان وتطوره منذ نشأته . العرب فى كل نواحيهم . الإسلام والمسلمون فى العالم. الحشرات . الطيور . المذاهب فى العالم . الأزياء والملابس .

وقال عفيفى أنه شاهد هذه القصاصات فى نيف ومائة وخمسين قسما . وأن مسعود كان يعد نفسه بهذه المجموعة الضخمة ثانى اثنين فى العالم .

هذا وقد نبه عفيفى إلى أن هذا العمل الذى قام به مسعود ميراث مصرى ضخم ويجب المحافظة عليه .

قال هذا عبد الله عفيفى فى حفل تأبين مسعود (٣٠ أبريل ١٩٤١) :

« واليوم عندما نبحث عن هذه المكتبة الضخمة من القصاصات لا نجد منها شيئاً مع الأسف الشديد فقد ضاعت وتناثرت وأكلتها الفيران بعد أن أغلق عليها محبسها فى بدرومات منزل الأسرة أكثر من عشر سنوات ولم تستنقذ منها إلا قصاصات قليلة ، استطعت أن أقضى ليلة كاملة أطالعها وأعجب بمدى ما تعطى من صورة

الجهد المبذول ودقة الأعداد والتبويب ووفرة الأحاطة بفنون الفكر والتاريخ واللغة المختلفة » .

• •

هذه هى الثروة الضخمة التى كان مسعود يغذى بها « تقويمه » ومستنده القوى فى تصحيح الأخطاء اللغوية والتاريخية التى تظهر فى الصحف بين آن وآخر ومواجهة الكتاب والباحثين .

ومما يرويه كامل كيلانى : أن مناقشة أدبية دارت فى دار الكاتبة «مى زيادة» بينه وبين أحمد زكى باشا ، من جراء ترجمة كلمة فرنسية هى Sosie ويقابلها بالإنجليزية كلمة Double أو eougseg وأصر زكى باشا على أن اللغة العربية قد خلت من مقابل لهذه الكلمة ، وأرعد الباشا وعصف –على عادته– حين أنكرت عليه دعواه ، واشتد اللجاج حتى كاد يخرج المجلس عن وقاره وصاح متوعدا :

« هات مايقابلها فى العربية أو سلم لى بصحة ماأقول » .

وثرت مغضبا من هذه الجرأة وقلت له : أن جهلنا بما يقابل هذه الكلمة ليس حجة علينا . وقلت له آخر الأمر « إذا لم يرضك أن تترجمها بكلمة « شبيه » فهل تقبل كلمة « صنو » فزاد غضبه وعدها منى تسرعا . . وفى الصباح الباكر دق جرس الهاتف وكان أول من يحدثنى هو شيخ العروبة وقد هتف : أرأيت المعجزة الفذة ، لكأن « مسعوداً » كان معنا هذه الليلة فأقبل علينا فى «أهرام » هذا الصباح يقضى فى الدعوى التى أثرناها أمس أعدل قضاء : أرأيت كلمة « ليم » التى جاء بها مسعود هى الكلمة عينها التى كنت أنشدها فى مناقشة أمس لأنها تعنى – كما تقول معاجم اللغة – شبه الرجل فى قده وشكله وخلقه ، فإذا قلت عن أحد أنه « لِيمى » فقد عنيت أنه شبيهى فى قدى وشكلى وخلقتى وهو ماتعنيه كلمة Sosie الفرنسية بلا زيادة ولا تقصير » .

مساجلات بين مسعود وزكي باشا

ويتصل بهذا مادار من مساجلات عنيفة بين مسعود وأحمد زكي شيخ العروبة فى مرات متعددة وقضايا كثيرة وهى فيما توصلت اليه ثلاث معارك : نوفمبر ١٩٣٠ فى الأهرام – ويونية ويوليـــة ١٩٣٢ فى الأهرام أيضاً ، وفبراير ١٩٣٣ فى البلاغ .

وقد دارت فى هذه المساجلات عبارات لادغة وعنيفة ، وهى نموذج من صورة التطور الفكرى وقضايا الأدب فى هذه الفترة .

كانت المعركة الأولى بشأن عبارة وردت فى مقال لمسعود فقد بد مقاله بقوله :

« لا شاغيل طرآنية » صرفتنى فى الأسبوعين الغابرين عن مطالعة الصحف الخ .

وكتب أحمد زكى يعلق على عبارة « لا شاغيل طرآنية » فقال بأسلوبه الساخر :

هل يسمح لى استاذ مسعود أن أتوسل اليه بإسم الرشاقة واللياقة وبحق اللطافة والطرافة والظرافة أن يرحمنا من الألفاظ المويصة المتقعرة الجوفاء فتميل نفسه إلى السلاسة فى التعبير وهو عليها قدير وإلى الكياسة فى نظم الكلام .

فأرحمنا – يرحمك الله – من براعة الافتتاح التى أصدرت بها كلمتك « لا شاغيل طرآنية » . . ياستار ، يا ستار ، لعن الله هذه الاشاغيل التى شغلتك مشاغلها فأوقعتنا فى صحراء الحيرة وأرجعتنا رغم أنوفنا إلى قعر القاموس . ياستار ياستار ، من تلك الطرآنية التى طرأت عليك فطرقت اسماعنا بالمرزبة المفردة وكل مقامع الحديد بالجمع » .

ويرد عليه مسعود مهاجما فى عنف فيقول :

ليس من الهنات الهينات ، و لا من تافه الاشاغيل ، أن يسوقك الحظ العاثر يوما إلى النزول مع شيخ العروبة فى ميدان مناظرة ، ذلك لأنك إذا خضت معه هذا الغمار استهدفت لغمزات شتى من سنان قلمه الجارح ، فمن من عليك وتعيير لك بأنك إنما من بحر علمه اغترفت ، إلى تشهير بك ، وإنحاء باللوم العنيف عليك ، لأنك لم تؤد اليه صاغرا أتاوة الشكر ، لقاء ماغمرك به من فيوض أحساناته العلمية ومن تفاخر بأنه القابض وحده على مفاتيح التحقيقات العلمية و اللغوية ، والمالك لناصية البحوث الاندلسية والملهم فى دياجير الاخطاء بالتوفيق لنور الصواب والحق إلى اتهام لك بالجهل وانتحال علم ما لا تعلم . فهو يرى إذن أن العلم وما يتصل به من تحقيق وتمحيص أوصت له به الحكمة الازلية وميراث خاص له من غضون الاجيال السالفة ، ليس لاحد أن يرمقــه بعينه أو أن يشرئب اليه بعنقه . . » .

* * *

وفى تعليق لمسعود عن خبر نشر فى الاهرام (١٩٣٠/١١/١٦) عن وجود عرب فى أمريكا قال :

« أن صح الخبر الذى نقلتموه عن جريدة الهدى الامريكية فإنه لا يبعد أن تكون القبيلة العربية التى عثر عليها التجار الاتراك فى أدغال بعض المقاطعات المكسيكية من سلالة أعضاء بعض البعثات العربية الآنفة التى خرجت تباعا من أسواحل اندلس والبرتغال ومراكش لاستكشاف يابسة فى غرب بحر الظلمات وأنهم آثروا بعد وصولهم إلى جزر الانتل الاستقرار والعيش فيها تقية أخطار المودة إلى مواطنهم » .

هنالك انبرى للرد عليه أحمد زكى باشا وبدأ حديثه فى (١٩٣٠/١١/٢٧) بهذه العبارة الجريئة :

« عنى ، وعنى وحدى ، خذوا النبأ الصادق ، فعندى ، وعندى وحدى ، الحجة الصحيحة والبرهان الناطق :

ودع كل صـــوت غير صوتى فأننى
أنا الطائر المحكى وغيرى هو الصدى

ثم قال :

« تجرد كاتب من أفاضل المصريين فزعم أن القبيلة من بقايا العرب الأندلسيين وذلك محال والف محال . . أن الكاتب الفاضل أداه اجتهاده إلى الرمى بهذا القول جزافا دون أن يعتمد على برهان . . أو شبه برهان . . أنه اعتمد فقط على المصدر الذى كان لى فضل السبق على كل عربى وكل شرقى حينما نبهت العرب اليه فى عام ١٨٩٢ ، ولكن الكاتب الفاضل اكتفى بهذا المورد الذى لم يدل على شىء سوى محاولة العرب ، نعم محاولتهم ، الوصول إلى أمريكا ، ولكنة يؤكد برجوعهم خائبين » .

ورد مسعود يفند أقوال شيخ العروبة ويقول أنه لم يعتمد على هذا المصدر وإنما اعتمد على مصدر آخر هو جريدة الحاضرة التونسية فى مقال نشرته عن استكشاف العرب لامريكا فى أوائل عام ١٨٩٢ أى قبل رحلته والعثور على كتاب نزهة المشتاق للادريسى . . وقال أن هذا الكتاب طبع . . قبل أن يعثر عليه زكى باشا بحاضرة روما عام ١٥٩٢ — أى قبل عثور زكى باشا عليه مخطوطا بثلاثمائة سنة ، وقال مسعود :

أنه لم يقطع بأنحدار تلك القبيله من العرب الذين أوغلوا فى بحر الظلمات أبل أحاط استنتاجه فى هذا الموضوع بسياج من ضروب الاحتمال والتحفظ .

وهكذا كانت تجرى المعارك والساجلات بينهما فى ميدان التحقيق التاريخى واللغوى ، فقد كان مسعود بين آن وآخر يخرج على الناس بكلمة جديدة مثال ذلك قوله فى أهرام ٢٤ يونية سنة ١٩٣٢ تحت عنوان (شلمنقه) .

« . . لا يسبق إلى وهمك أنها لفظة زجر « وشخط ونظر » تركية أو فارسية فانما هى الإسم العربى لمدينة « سلمنك » التى وردت فى الصحف منذ أسبوعين . إنى اربأ بطبلة اذنك أن يمزقها النداء بذلك اللفظ الوحشى المجيرج . وأن العرب حين أطلقوا عليها هذا الإسم تقيدوا باللفظ الأصلى الذى أطلق عليها مؤسسوها الرومان فى القرن الثالث قبل الميلاد » .

ورد عليه أحمد زكى يقول :

« يا مسعود، اتق الله فى الأمانة التى فى عنقك ، فأنت تتحفظ وتتحذلق وتتلاعب بهذا الإسم وبالناس الذين تصورت أنهم قد يخلطونه بالإسم المقارب له وهو «طلمنكة» فكان عجبى شديداً حينما قرأت هذه الحقائق الصحيحة التى ليس فيها عيب سوى واحد هو الأغتصاب الأدبى .

« أنت أخذت منى وعنى كل هذه المعلومات . لعلك نسيت يا مسعود ، لعلك تقول أن الإنسان معدن للنسيان » . .

ورد علية مسعود :

« وصف تحقيق بعض أسماء الأعلام بأنها ألفاظ مقعرة وحفلطة وجليطة وتحذلق وتفاصح . . وما علم الناس طرا فى الخافقين وماز الوا يعرفونه أنة شنشنة مولاى الاستاذ وفطرته التى فطر عليها فى مباحثاته وسلاحه الذى يخطر به خطرانا فى غطرسة وزهو كلما أقبل علي ميدان أو تحفز للضرب والطعان .أن ربى وربك أمرنا بالحسنى فى الجدل .

ليس لمثلي أن يزجى النصيحة لمثلك وأنت من العلم والفضل فى الذروة العليا . ولكنى أهيب بك أن تكون تحية أول صديق من الكرام الكاتبين قابلته فى صبيحة اليوم قوله لى : يا لله لو كنت طالبا ولم يكن غير زكى باشا أستاذاً على وجه الأرض لآثرت البقاء جاهلا خاملا طول عمرى علي أن أكون عالما نبيها إذا كان أسلوبه فى التعليم كأسلوبه فى الجدل والمناظرة » . .

وهكذا يبدو مسعود فى جده وأصالته يواجه المعارك فى صمود وصراحة ، ومع أسلوب عف بعيد عن التعالى أو العنف .

* * *

كما عنى مسعود بأخطاء الصحف فقد جمع منها على حد قوله فى محاضرة له (٢٧/٤/١٩٣٦) بضعة آلاف قيدها فى كراسات « رجاء أن تتاح الفرصة لإبرازها فى كتاب يكون عدة للكاتبين فى توقيهم معاثر الأخطاء . ومن هذه الأخطاء عبارة (أولا فأولا) أو أولا بأول وصحتها : أول أول ، وعبارة (على قيد) صحتها (قيد) وعبارة (جلس على يمينه) وصحتها جلس إلى ، وعبارة : من أول وهلة أو لأول وهلة أو فى أول وهلة وصحتها (أول وهلة) .

وفى ميدان التحقيق التاريخى أعانته رحلاته التى كان ينتدب لها مع السلطان حسين أو فؤاد على مزيد من الاطلاع على الآثار المختلفة وتاريخ مصر الفرعونى القديم ، ويبدو هذا واضحا فى كتابه (الرحلة السلطانية إلى الوجه القبلى) ، وفى كتابه (التحفه الدهرية فى تخطيط مدينة الاسكندرية) وكتاب (الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع النيل الأبيض) . وفى جميع هذه المؤلفات نجد روح الباحث المؤرخ الدائب على التحقيق والاستقصاء ، فهو بالرغم من أنه مضطر لأن يصور رحلة السلطان فى كتابه الأول بمثل هذه العبارات :

« وما كادت الشمس يتوارى قرصها الذهبى خلف ستار الأفق الغربى حتى تقلد ساحل البحر عقداً منظوما من درر الأضواء الساطعة ، كانت بواسطة عقدها باخرة عظمة السلطان » .

أو قوله :

« وما تنفس الصبح حتى تحركت الركايب السلطانية متجهة صوب نجع حمادى فمرت داخل حدود جرجا ، وكانت الزينات ومظاهر الولاء فيها جميعا مما تقر به العيون وتطرب به النفوس » :

وبالرغم من هذا كله فإنه ما يكاد يصل إلى موقع أثرى حتى يفيض فى عرض الجوانب التاريخية فيقول فى زيادة معبدا ابيدوس تحت عنوان « كلمة بيانية عن أبيدوس » .

« آبيدوس واقعة عند سفوح جبال لبيه إلى الجنوب الغربى من البلينا على بعد أربعة عشر كيلو مترا منها . وكان اسمها باللغة المصرية القديمة « أبوتو » وتعتبر من أقدم مدن القطر المصرى . والثانية فى الأهمية بعد مدينة « طيبة » ذات المائة باب ، وهى مشهورة الآن بالعرابة المدفونة ويسميها بعضهم بالأرباب ، وذهب فى تعليل هذه التسمية إلى أن الأرباب جمع أرب أو آدب بمعنى العضو من الجسم ، إشارة إلى أن أعضاء الإله أوزريس التى تبددت قد جمعت ودفنت فى هذه البقعة الخ . »

وقد اهتم مسعود فى الفترة الأخيرة من حياته بالأندلس وتاريخها وكل مايتعلق بها من أدب وتاريخ ودرس اللغة الاسبانية كيما يستطيع الكشف عن كلماتها ذات الأصل العربى . كما عنى بجمع الأمثال العربية ينقلها بالسماع ويرصدها مبوبة مرتبة حتى كان عنده منها سجل لم يسبقه إلى مثله أحد .

شخصية مسعود

وصف مسعود بأنه : ناصع الصفحة نقى العارضة فى عمله الصحفى الذى كان فى ذلك الوقت معرضا لكثير من عوامل الإغراء والضغط بالنسبة للكتاب الوطنيين ، فقد قال معاصروه : بأنه عاش خادما أمينا للقلم والصحافة . وأنه عرف بالجلد على العمل والأمانة فى البحث والصدق فى القول وكرامة النفس، كما عرف بالدأب المتصل والجمع بين الكبرياء والتواضع مع النزاهة فى العبارة وعفة اللسان ، كما عرف بالجدل الذى يعتمد على المناظرة والإقناع بالحجة . فإذا رأى مناظره قد بدأ يتجه إلى المهاترة تركه وحده .

وقال معاصروه : أنه لم يكن يبالى أن يرجع إلى الحق متى نبه إليه واقتنع بصحته .

ويرى مؤرخوه بأنه بالرغم من حياته فى بيئة سياسيه مع أشتغاله بها طويلا وأحترافها وإصدار الصحف مشتركا مع غيره ومنفردا فإنه لم يخضع لما فى تقاليدها من عبث ، ظل عالى الأدب ، عف اللسان فلم تقو السياسة على المساس بأخلاقه الفاضلة ، ولكنه تحداها فعاش كريما .

وقد وصفه ابنه الأستاذ يحيى مسعود بأنه كان جلدا صابرا مثابرا ، لايعرف الكلل ، وربما يقضى الليالى ساهرا باحثا على وجه من التواصل فى جهد مطرد متناسق ، وربما طالع كتابا برمته للبحث عن كلمة أو معنى ، وكانت حاسته فى الاستذكار تساعده على الإشارة إلى مصدر ماعلمه ، فمن النادر أن يفوته المصدر مع تعيين موضعه من الكتاب . محبا للتؤدة والتفكير المرتب والنظام فى كل شىء ويحب الاتقان فى كل مايتولاة من الأمور ، كأنه لايرى فى شىء مجالا للتهوين كما لم يكن يرى فى مجال القول موضعا للتبذل » .

ومما يتصل بأسلوب مسعود فى الكتابة ، فقد عرف بالوضوح والبساطة وتتسم طريقة تفكيره بالاعتدال والاتجاه إلى التربية بالمثل والقيم . وقد جمع فى أحد تقاويمه كلمات لكبار الكتاب وأورد له من بينها كلمة ربما تكشف عن طابعه النفسى :

« قمين بالعقل البعيد مرامى النظر فى أطوار الدهر وتقلباته إلا يعتمد أبدا على كونه حظيا ولا على أنه نال ما كان يبتغيه من ثروة وجاه . بل يجب عليه إذا إفتر له ثغر الزمان أن يسجل فى ذاكرته تلك الابتسامة مكتفيا بذلك دون الاطمئنان إليها أو الاعتماد عليها مرجحا فى نفسه أنها إبتسامة قد تعقبها عبوسة وأنعطاف قد يتبعه نفور ورخاء قد تتلوه شدة .

وخير الذرائع إلى المجد والجاه والغنى إنما هو أن يتخذ المرء من عزيمته معطية

تقرب له البعيد من هذه الغايات السنية والمراتب الشريفة على شريطة التحلي بالفضائل الكفيلة بأمن الطريق ، لأننا لسنا الآن فى حيز الزمن الذى كان أهله يتصورون الحظ أو الجزاف فى صورة غادة تطرق باب المستغرق فى النوم ، بل صرنا إلى زمن لايلوح طيف الحظ فيه إلا لمن يقتفى أثره معانيا فى إدراكه المشاق والأهوال مايشق المرائر ويقطع نياط القلوب . . »

• • •

وتتلخص وقائع حياة محمد مسعود فى أنه ولد بالإسكندرية عام ١٨٧٢ ، وأتم تعليمه بمدارس الفرير ، وعمل مدرسا للغة الفرنسية فى مدرسة رأس التين الثانوية عامين ثم التحق بتحرير المؤيد فى أول إنشائه عام ١٨٩١ ، وظل به حتى عام ١٩٠٦ عندما استقل مع أحمد حافظ عوض بانشاء صحيفة (المنبر) التى تركها عام ١٩٠٩ بإنشاء (النظام) .

وفى عام ١٩١٠ التحق بالتحرير الفنى بادارة المطبوعات وظل بها حتى أحيل على المعاش فى فبراير عام ١٩٣٢ حيث ظل يعمل فى ميدان البحث والتأليف المراجعة إلى أن توفى عام ١٩٤٠ .

(٢)

إبراهيم عبد القادر المازنى

توفى « المازنى » عام ١٩٤٩ ، ومضى منذ ثلاثين عاما دون أن يخلف وراء أى صدى ، إلا تلك الرسالة التى قدمتها الدكتورة نعمات أحمد فؤاد لنيل أجارة الماجستير، ثم وسعتها من بعد فأضافت إليها بعض الفصول أما فيما عدا ذلك فقد توقف الكلام حول المازنى كأنه لم يخلف أى أثر فى الحياة الأدبية العربية المعاصرة .

واليوم وقد إنطوت صفحة مجموعة كبيرة من هؤلاء الرواد : هيكل والعقاد وزكى مبارك والزيات وأحمد أمين فريد أبو حديد والرافعى ، نجد المازنى وهو أشد هؤلاء جميعا غبنا وإنكارا فإذا ما ذكرت الدراسات الأدبية ذكر العقاد وطه حسين وإذا ذكرت الدراسات الإسلامية ذكر هيكل والعقاد والرافعى . وإذا ذكرت التراجم ذكر العقاد وطه حسين وهيكل.. وهكذا لايجد المازنى منفذا إلى ذكرى مع أنه الناقد القصاص صاحب الأسلوب الحلو العذب والروح الفكهة الساخرة . والرجل الذى عاش عمره كله يكتب والذى كان يملا الصحف جميعا — يوميا — بمقالاته وآثاره .

وبالرغم من مؤلفات المازنى المعروفة المطبوعة فإن له فى بطون الصحف والمجلات مئات المقالات والصور واللوحات الحافلة بالنظرة الإنسانية ذات العبرة النفسية .

وقد بدأ المازنى مع زميليه العقاد وعبد الرحمن شكرى : باسم المدرسة الحديثة

فى الشعر ، فأعلنوا مذهبا ، حاكموا اليه الشعر العربى فى عصرهم كما حاكموا النثر . فوقعوا فى عنف الخصومة لشوقى والمنفلوطى والرافعى .

ثم ما لبثت الجفوة أن وقعت بين الثلاثة فاعتزل شكرى ، ومضى وأعلن المازنى أنه ترك الشعر ، وبقى العقاد وحده فى الميدان ، وكان المازنى أشد عراكا فى مواجهة شكرى ونقدا له ، ولكنه عاد بعد قليل فاعتذر وكفر عن سيئاته وكتب عن شكرى فصولا آية فى التقدير والاعزاز .

وقد حرص المازنى فى فترة الثلاثينات أن يعلن أنه أصبح شيئا آخر أو انه (المازنى الجديد — فكأنما فصل بين مرحلتين من حياته : وحين إستقال من وظيفة التدريس الأولى وعمل فى مجلة البيان عام ١٩١١ . مرحلة الشباب منذ بدأ يكتب فصوله وفضل العمل فى الصحف وحين كان أحد أقطاب جريدة أمين الرافعى (الاخبـــار) بعد الحرب العالمية الأولى وكان فى خلال هذه الفترة الكاتب السياسى الذى يكتب صباحا فى صحف وفى المساء فى صحف تعارض هذه الصحف .

لم يكن له لون حزبى واضح فقد عمل فى الأخبار التى أيدت سعد زغلول ثم عارضته وعمل فى جريدة الاتحاد وعمل فى جريدة السياسة ورأس تحريرها فترة ولكنه لم يكن حزبيا ذا لون واضح ، لا هو وفدى ولا إتحادى ولا من الأحرار الدستوريين ثم لم تلبث الخصومة أن وقعت فى الثلاثينيات حين أختار العمل فى جريدة البلاغ فأمضى بها سنوات طوالا ، وعمل فى آخر مراحل حياته فى جريدة الأساس ، هذا من ناحية العمل الصحفى وهو أقل جوانب حياته الفكرية أهمية ، ولكنه فى الادب والصحافة الاجتماعية ، كان منتجا غزير الإنتاج . كتب فى روز اليوسف والرسالة والهلال وعشرات من المجلات السائرة وعنى بكتابة لون من القصة يمثل قطاعا من الحياة

ويجعل نفسه فى كل صورة هــو بطل القصة حيث يديرها حول نفسه .

وقد حاول أن يصور مرحلة المازنى الجديد حين قال (أنا فى كهولتى إنسان جديد من كل وجه ، لايشبه ذلك الإنسان القديم الذى كان أيام الشباب فقد ذهب ذلك الإنسان إلى غير رجعة ، وذهب معه كل ما كان لى من خصائص وصفات وسمات ومعارف ونزعات وأمال والأم ومخاوف ومطامع وشهوات إلى آخر ذلك وحل محله هذا الكهل الذى يدلف إلى الشيخوخة . التشاؤم أنقلب تفاؤلا واستبشاراً والضغن أصبح عطفا ورقة قلب وحبا للحياة والناس ، وكنت أظننى لن يطول عمرى فإذا بى قد صرت أحرص الناس على حياة .

كنت فى شبابى قليل الثقة بنفسى على الرغم من غرورى ، فكنت أراجع الكتب أكثر مما كنت أراجع عقلى . أى أنى كنت إلا أفكر بعقلى ولا أنظر بعينى بل أفكر بعقول غيرى وانظر بعيونهم .

ولذلك كانت شخصيتى مستترة وقلما تتبدى أما الذى يبتدى فكان اطلاعى ، اى ثمرة دراساتى وقراءاتى ولهذا اتهمت بالسطو على اثار الاقدمين لأن عكوفى على الكتب كان يبدو اثره فيما اكتب وانظم .

اما الآن فإن كل ما أقرأ قد اصبح محل نظر عندى على خلاف الحال فى شبابى فقد كنت اتلقى كل ما أقرأ بالتسليم وعلى ذلك لم اجد من يوجهنى ويرشدنى) .

ولم يلبث المازنى الجديد ان هاجم تاريخه كله حين هاجم شعره وآثاره المنظومة : (اما انى شاعر او غير شاعر فانى اعرف نفسى. صحيح انى حاولت فى صدر ايامى

ان أخفف من الم خواطرى بالألحان ولـكنى عنيت بالشعر وبرحت بى مطالبة وعزنى ان لا اجد للعاطفة التى تستولى على نفسى لغة مشبوبة مثلها فى هذا التدفق فنفضت يدى يائسا ، لأنى لم اشعر بالرضى قط عن نفسى وشعرى ، ولم اجد ولا مرة واحدة ذلك الروح والخفة اللذين يصيرهما المرء بعد ان ينظم احساسه ، فأضر ذلك بجسمى ونفسى معا ، وبقيت كالحامل التى لاتزال تتمخض ولا تلد فهى محتاجة إلى الجراح ، أنى لا أحسن فهما للشعر ولايمنع ذلك من أن يـكون لى بيت أو بيتان ، أو أبيات لا عيب فيها وأن خلت من المزية والمرء لا يحسب من الشعراء ببيت أو بيتين أو أبيات ، وليس عجيبا أن يعالج المرء النظم سنوات فيوفق إلى البيت أو البيتين وإنى لا اتـكلف ولا اتواضع أن خرج نفسى من عداد الشعراء فما يهون على النفس أن يعريها صاحبها من مزية أو فضل ولـكنى راجعت شعرى بيتا بيتا : وعاما بعد عام وقسته إلى ما كان فى نفسى وإلى الشعر كما اتمثله فى خاطرى وإلى شعر الشعراء من عـــرب وفرنجة فسخطت وأنفت ولعلي إذا أرتقى بى العمر سنوات أخرى اسخط على كل ما كتبت أيضاً) .

وبعد فهل وقف المازنى عند هذا الحد ؟ ابدا ؟

بل لقد ذهب إلى أن أنتقص كل ما كتب :

(ما مصير هذا الذى سودت به الورق وشغلب به المطابع وصدعت به القراء أنه كله سيفنى ويطوى بلا مراء ، فقد قضى الحظ أن يـكون عصرنا عصر تمهيد وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التى تسد الطريق وبتسوية الأرض لمن يأتون بعدهم ومن الذى يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ومن الذى يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهيد الذين آدموا ايديهم فى هذه الجلاميد ؟) .

ولـكن ليس معنى كل هذا أن المازنى قد نفض يديه من تراثه كله

ولكنه فى تقدير صديقه وزميله العقاد : أن هذاليس إلا نوعا من تأكيد الذات .

وقد ذهب المازنى من بعد خطوة أشد خطرا حين أعلن أعتزال النقد. يقول: كففت عن النقد لانى اردت أن أريح نفسى من عناء باطل . كان الكتاب والشعراء يهدونه إلى كتبهم فأعنى بها واتناولها بما يعن الى من الرأى واضيع فى ذلك وقتا وأنفق جهداً ولعل غير هذا أشهى لى واحب وعسى أن اكون مفتقرا إلى الوقت والجهد وكان أصحاب الكتب يلحون على أن ابدى لهم رأى فيها .وكنت أحرص على مرضاتهم على قدر ما يسعنى أن اعمل ، فاتلطف معهم وأكبح نفسى عما أعرف أنه يسؤوهم وازجرها عن الأغلاظ والشدة ، والعنف وادور ابحث عما يستحق الثناء لاقول خيرا ، ومع ذلك ما كنت أرى احد يرضى . ووجدتنى لم أكسب إلا العداء والبغض والذم ، وليس هذا بضائرى ، ولكن لماذا احتقب الذم إذا وسعنى ان أتقيه وأعفى نفسى من ثقله . هذا شاعر لايزال مذ كتبت اليه منبها إلى ضعف لغته وغلطه يزعجنى حاقدا متحاملا ، ولا ينفك يحدث الناس بما يحسبنى منطويا عليه من الحفيظة كأنما كان قد قتل ابى أو فجعنى فى بعض ما اعتز به وإزدهى وهذا كاتب بلغ من غيظه وحنقه ان صار مغرى يشتمنى فى كل مجلس لهذا قلت لنفسى أن الأولى بى أن اكف عن عمل لاحمد عليه ولا مثوبه ولا فائدة لى منه إلا وجع القلب والدماغ .

وهكذا كانت تدور حياة المازنى متغاير . متقلبة لاتمضى على طريق واحد فهو إنسان خصب الفكر عنى العاطفة قلق متحفز يمضى فى هذا الطريق ثم يتركه ويجرى فى هذا السبيل ثم يغيره .

وقد ترك فى الصحف تراثا ضخما كبيرا .

وكان التفاته للمعانى العربية وعوامل الوحدة ومجال البطولة فى التاريخ العربى الحديث دافعا له على أن يكتب كثيراً ، وقد اكسبه هذا الاتجاه رحيله

إلى العراق والشام وفلسطين ، واتصاله بالناس واشرابه روح الأمة العربية وأن لم يكن من قبل داعية أقليميا او ما سواها .

ولعل ابرز مجالية فى النقد هى نقده للدكتور طه حسين فذلك أشد من نقده لشوقى والرافعى وغيرهم. ذلك انه هاجم طه حسين على نحو فريد فحين ادعى طه حسين ان شخصية مجنون ليلى منحوله لأن لها عدة أسماء قال المازنى ان شخصية طه حسين يمكن ان تكون شخصية خيالية فيما بعد لتعدد اسمائها : الشيخ طه حسين ، الدكتور طه حسين ، الأستاذ طه حسين .

ويبدو أن (المازنى) لم يقف موقفه من اعادة النظر والتقدير لأرائه السابقة بالنسبة لعبد الرحمن شكرى وحده ولكن بالنسبة لشوقى وبالنسبة للرافعى أيضاً .

يقول عن شوقى : لم يتغير رأيى فى شعره ، ولكن احساسى هو الذى تغير . والرأى ثمرة النظر والتفكير والأحلام ، وما يجرى هذا المجرى وعسير ان يتغير حالها اما الأحساس فله شأن آخر ، لقد كانت لى مع شوقى فى حياته مواقف ذهبت دواعيها كلها والمرء يكون فى وقت العراك غيره من السكون والأستقرار والآراء والمذاهب تقع بينها الحروب كما تقع بين الناس والحدة فى الدعوة إلى الرأى والعنف فى التمهيد له ، والذود عنه من الأخلاص له وصدق السريرة فيه لأمن العداء الشخصى وما تنقطع حرب الأراء والذاهب فى الدنيا والحياة لاتضيق بشىء وفيها متسع لكل صالح وقد يكون من الغرور ان لانؤمن إلا بأرائنا ومذاهبنا ومن العنت ان نحاول ان نمحق ما يجافى هذه الآراء ولايساير هذه المذاهب وعلى الرغم من انكارنا لاستحقاق شعره هذه المنزلة ما زالت مرتبته فى الشرق رفيعة سامية) .

اما بالنسبة للرافعى — وقد حملوا عليه فى الديوان (والحملة كانت للعقاد)

ولكن المفهوم ان العمل كان مشتركا ـ فقد غير المازنى رايه فيه بعد وفاته ، يقول: (اعترف بأن موت السيد الرافعى رجنى وزاد اعصابى تلفا . لم يكن السيد الرافعى من خلصائى ، وان كنت اعرف له قدره ولا ابخسه حقه ولكنه كان يزورنى كلما خف إلى القاهرة ، وكان رأيى فيه انه اعلم أهل العربية بالعربية واوسع ادبائها اطلاعا على علوم الدين ولكنه كان لايجيد غيرها ولايستمد إلا منها وانها لبحر زاخر ومحيط اعظم . . ولكن هناك بحورا اخرى ومحيطات لأعداد لها . . الخ) .

وبعد فان هذه المقتبسات المتعددة من اراء المازنى وكتاباته ولاشك تعطى صوره شخصية ممتازة نادرة فكيف ضاع صداها فى هذا الجيل ، ربما يرجع ذلك إلى انه لم يكتب فى اصول النقد او الادب مثل ما كتب العقاد ولم يكتب فى دراسات الإسلام وتاريخه مثل ما كتب هيكل ولم يكتب فى التراجم ما كتب العقاد .

ولكن المازنى هو كاتب الصورة النفسية البارعة وقد استطاع ان يدس قلمه فى اعماق النفس الإنسانية من خلال ذاته مستخلصا كثيراً من الملاحظات والملامح والرؤى .

وهذه محاولة لصورة نفسية .

«إستاذى الأول الفقر ، هو الذى أعطانى القوة والقدرة على الكفاح وعلمنى التسامح والرفق والعطف وإيثار الحسنى وعودنى ضبط النفس وتوخى الاتزان . . . لقد كان شعورى بعيوبى بعض ما اغرانى باعتزال الناس ، لقد هيضت ساقى فى شبابى فظلعت ،وما كانت لى فى هذا رغبة ولا كان من حق الناس ان يثقلوا على بفضولهم وسر ما اعانيه من ضعف الذاكرة اننى انسى الاسماء اول ما انسى ، حتى ليكبر فى وهمى انه سيجىء يوم انسى فيه اسمى ومن عيوبى التى تثقل على غيرى

ولاتثقل على ، إسرافى وجبنى فكل مال أقيده يجب ان تخلو منه يدى فى اقصر وقت حتى اشقيت واضطربت اعصابى .

ولفرط جزعى من الموت فى شبابى وهول ما قاسيت من الألم هذا الجزع قلت اتدوى بالداء ، فنقلت سكنى إلى حيث اجداث الموتى وحيث كل قبر يصير — كما يقول المعرى — قبراً مرارا ضاحكا من تزاحم الأضداد .

مكتبتى شىء عظيم جدا ، ولست اعنى أنها كبيرة ضخمة وأن فى خزاناتى آلافا مولفة من المطبوع والمخطوط فما عندى مخطوط واحد ولا ولوع لى بجمع هذا الضرب من الكتب وما يمكن أن تبلغ كتبى الالاف بعد أن أحتجت ان أبيع منها مرات ، وانى لمجنون بالكتب ولكنى جنونى بما فيها لا بأشكالها والوانها على رفوفها فلقد اعتدت إلا ابالى أن يبقى الكتاب عندى بعد ان اقرأه أو أن يذهب .

لو كنت أعزب لما اطقت الحياة — على أنى جربت الحياتين — حياة المتزوج فلى من التجربة ما يجرئنى على القول بأن الأعزب مسكين ، بل مسكين المساكين .

أنا لا أرتاح إلى تناول حيوات الناس الخاصة ، وليس كونهم ادباء أو مشهورين لسبب ما يجيز فى رأيى أن نجعل من حياتهم واحـــوالهم الشخصية معرضا .

وإذا كنت اروى كثير مما أكتب على لسانى واورده بضمير المتكلم فليس معنى هذا أن ما ارويه وقع لى وإنما معناه أنى أرتاح إلى هذا الاسلوب فى القصة وآراه اعون لى على تمثل ما إحاول وصفه وتصويره فليس فما اروى شىء شخصى ..

انا زوج الحياة التى لا يستريح من تكاليفها ، أقوم من النوم لأكتب واكل وانا افكر فيما اكتب ، فالتهم لقمة واخط سطراً او بعض سطر وإنام فاحلم انى اهتديت إلى موضوع وإفتح عينى فإذا بى قد نسيته .

وبعد فالمازنى جدير بالذكر والتقدير والبحث فى أطراء اثاره المدفونه عن نظرات جديدة شيقة .

كامل كيلانى

« أريد أن أقرر حقيقة كبرى ، هى أننى لم آخذ مكانى أبداً ـ الحقد والحسد والغيرة ، أكلت كل المحاولات التى بذلت لأ جلس على المقعد الصحيح وأقف فى المكان المناسب ، ولكنى غفرت لكل الذين أساؤا إلى ووقفوا فى سبيلى ، وغفرت لهم وعفوت عنهم ، ودعوت الله أن يعفو عنهم أيضاً ، ها انذا اموت ولم أنل كلمة تقدير واحدة ، لم أنل جائزة ، لم أقبض مليما واحـــدا مكافأة لى طوال حياتى » .

• • هذه هى آخر الكلمات التى نطق بها كامل كيلانى (أكتوبر ١٩٥٩) وهو يسلم الروح بعد أن لمع فى أفق الحياة الفكرية والادبية أربعين عاما فهو من ذلك الجيل الذى ظهر بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان وزميلاه سيد إبراهيم الخطاط العربى الأشهر وزكى مبارك من رواد الجامعة المصريه القديمة وقد أقتحموا مجال الحياة الجامعية الأولى واقتحمها معهم وهو يحمل فى جعبته خمسة آلاف بيت من الشعر كان يفخر بها ويتيه على أقرانه وكان أغلبها من شعر المتنبى وأبى العلاء المعرىء ، ولقد عاش رحمه الله يستشهد بها فى كل مناسبة فما أن تذكر له حادثا معينا أو مذهبا جديداً أو نظرية مستحدثة إلا راجعك فيها وأسمعك أبياتا أو كلمات تثبت لك أنها سبقت فى الأدب العربى ، ويرد هذا التحدى الذى عاشه كامل كيلانى إلى هذه الفترة الدقيقة من حياته فى الجامعة المصريه القديمة فقد كان استاذهم الأجنبى يصبحهم ويمسيهم فى تيه وفخر وهو ينشد شعراً غربيا ويقول هل من شعراؤكم العرب من قال مثل هذا ويذهب كامل كيلانى فيقذى عينيه تحت أضواء المصابيح الخافته — إذ ذاك — حتى الصباح يقلب الدواوين باحثا فى شعر عشرات من الشعراء حتى يلتقط ما يشاء ثم يذهب اليه فى الصباح فيروى له شعر العرب فى مثل تلك المعانى التى طرقها شعراء الغرب وفى بيان أشد عمقا وأبعد نفاذا إلى جوهر النفس الإنسانية . وفى هذا قال لى رحمة الله وهو يروى قصة حياته :

— أنه ما من فن أو معنى تحدث فيه الناس فى أدب من الاداب إلا وجدت له ضريبا فى اللغة العربية وقد جمعت من هذه المعانى المشتركة (١٨٠٠) الف وثمانمائة صورة « ثم يستطرد فيقول: أنها ابرع عملة فكرية فى الغرب بشهادة كبار النقاد، وقد أردت إيراد هذه المعانى وما يقابلها فى الآداب العالمية لاقنع الشباب العربى بجلال أدبنا واضفت اليها (٢٥) خمسة وعشرين عمله فكرية يفوق فيها أدبنا العربى بكافة فنونه والوانه . . وهذا الأستاذ الغربى الذى تحدى كامل كيلانى وهو « برسى وايت » سألة مرة عن قصة (هى او عائشة) فقال أستاذه عنها : هى تحت درجة احتقار ، قال كامل كيلانى : هذا المعنى عند ابن الرومى :

قومته بالشتم يهدى له .

فلم اجد قيمته تسوى .

... قصه كتبها للأطفال

ولكامل كيلانى مجالات واسعة فى الأدب العربى : نقدا ونثرا وقصة وترجمة ولكنه تلفت إلى « ادب الطفل » فعالجه معالجة إراد ان ينفع بها ابنه مصطفى ثم تدرج معه من سن العاشرة حتى سن الشباب والجامعه ، وتدرجت قصة الطفل معه طوال السنين ، قصة تجربة كان يقيسا عليه سنة بعد سنة ويحذف منها مالا يفهمه ، ولم يكن يكتب القصة اعتباطا «اول قصة للأطفال بداها ١٩٢٧ (السند باد البحرى) يقول : كنت ارى قصص الأطفال الأجنبية اية من ايات الروعة والجمال ، ولقد كنت اغار منها ،وأقول لماذا لايكون لأدبنا مثل هذه القصص وهذه الاناقة .. إن طالب الاصلاح يجب ان يعبد الطريق واول ما يعنى به المهندس مكانة الأساس فالطفل هو أساس الأمة ، وموضع ثقل المجتمع ، فالعناية به عناية بالأمة بأسرها ، هكذا بدأ عمله ثم مضى فيه ، مضى يكتب حتى حتى اكمل الف قصة لم يطبع

منها قبل موته غير مائة وثمانين قصة والباقى فى الطريق ، وقد ظل يقرأ الحروف الأجنبية الدقيقة فى القواميس حتى كف بصره ، ثم إعاده الله اليه بعد عملية جراحية وأستأنف عمله . إنه لم يكن يؤمن بأن فى مقدرته أن يعيش لحظات دون أن يكتب ولكن هل كان هذا كل عمله .

واجه حرب اللهجات وكان يجمعها ويوجد بينها لغة فصحى واحدة هى اللغه العربية ، فلا بد من الكتابة بالفصحى ، أن الذين يعمدون إلى جعل الحوار باللغة العامية الدراجة والمألوفة لا يفعلون ذلك إلا عن ضعف وعدم إتقان للغة . ولم يتوقف عن هذا بل تفتحت له بالأخلاص والإيمان برسالته أفاق جديدة ، كتب القصة العربية (صفحة بالعربيه وصفحة مقابله بالفرنسية وأخرى بالأنجليزية وثالثه بالأسبانية) . أرسل لكل بلد عربى قصة بالعربية وباللغة الأجنبية المستعملة فيها وقت ذاك حتى يعين أبناءها على اتقان لغة الضاد الفصحى ، لغة القرآن ، ثم ماذا بعد ، يقول : لقد عمد إلى مفردات الأدب العربى الحديث الجديرة بالبقاء فجمعها من بطون الكتب النفيسه ثم ضمنها بالتدريج إلى القصص فجاءت مرافقه للولد العربى منذ طفولته إلى شبابه . وفى إعتماده هذه المفردات إتخذ أصح الألفاظ بعد مراجعة مواضعها فى غير مصدر ، والقرآن فى مقدمة هذه المصادر ، وهكذا ينطق الطفل المفردات صحيحة من أول مرة ، ويعيش معها صحيحة ولاتظن أن المفردات لها من حيث صعوبتها أو سهولتها عند الطفل إعتبار ما ... ولكن كيف تسنى لكامل كيلانى أن يعمل هذا العمل الضخم فى زحمة الحياة ومشاغل الوظيفة فى وزارة الأوقاف : « أخذت نفسى برجيم قاس فى الحياة فحصرت جهودى كلها فى عملى وأغفلت كل شىء فلم ارد على ناقد ولا كاتب بل أكاد لا أجيب على رسائل الأصدقاء ولا اذكر أننى كتبت فى حياتى كلها أكثر من خمس وثلاثين رسالة .

نعم لقد تنكب الدروب المطروقة وخلص إلى الطريق والعمل الأشق فأبدع

فنا جديداً غير مسبوق فيه ، كان يوصينى دائما بأن احذر من أن يجرنى النقاد إلى الحوارى وأن أخلص إلى الشارع الرئيسى دوما ، ولا استمع لنباح النابحين ، وقد عمل صامتا ثلاثين عاما بعيداً عن معارك السياسة والصحافة التى كانت ترفع وتؤلق وتعلى من أقدار دعاتها وعكف على عمله مؤمنا بقيمة العمل الخالص لوجه الله ثم الوطن ، ميرأ من الهوى والغرض فلم ينصفه جيله وظلمه ظلما بينا ، فلم يثنه ذلك عن مواصلة العمل والجهد .

الهجوم على اللغة العربية

وكانت اللغة العربية أكبر همه والدفاع عنها أكبر أعماله . « فى سنة ١٩٢٠ بدأ الهجوم على اللغة العربية وبدأ أصحاب العاميه يكتبون فى الجرائد والمجلات وشعرت أنا بهذه الزوبعه وبأنها لاشك ستنتصر إذا تركنا هؤلاء يكتبون ويتكلمون ولم أجد فى نفسى الرغبة أن أكون ناقدا أو متكلما فالموجهون فى كل عصر من عصور التاريخ قسمان : ناس يصنعون التاريخ وناس يكتبون التاريخ ووجدتنى أهلا لأن أصنع التاريخ لأن ابنى مع البناة أحجارا تضع أساسا متينا لأبناء الجيل الجديد لا بالمقالات والمحاضرات ولا بالندوات والاحزاب وإنما من صومعتى الهادئة فى الدور الأرضى بمنزلى . وبدأت من الأول ، من أول مايفتح الطفل الصغير عينية على صفحة فيها صور وفيها (نغبشة) كل الذين ارادوا أن يبنوا الجيل الجديد بمجلة أو بمقالات بدأوا متأخرين ، بدأوا بعد أن نما الطفل . وأنغرس فى نفسه الخوف والفزع من (أبو رجل سلوخة) والعفريت المختفى تحت السلم وتحت السرير أما أنا فبدأت به مع الأشباح التى يخيفونه بها ، وضعت له القصص والصور وحطمت له تلك التى كانت تفزعه . وفى كل القصص التى يقرأها الطفل الصغير يجب أن يرى الشر دائما مصيره إلى الهلاك . ولكننى أحسست أن الطفل الذى يعيش فى قصص ويرى

الخير دائما ينتصر ثم يكبر وينزل إلى الحياة فيجدها كلها صراعا وشرا وضلالا . يصاب بصدمه يقف منها مشلولا أمام الحديقة التى ظل يعيش فيها كل طفولته وصباه ، ولهذا كنت أضع الشر دائما بجوار الخير ، وأصور له الصراع العنيف الذى يدور بينهما حتى ليكاد يتوقع أن ينتصر الشر فى لحظة خاطفة وتنتهى القصة ولكن الخير ينتصر فى النهاية. أهل ذلك لا غرس فى نفوس الأطفال حقيقة الحياة الواقعية وهى أن النصر الأخير للأذكياء .

حرب البناء

هكذا مضى كامل كيلانى يواجه الحملة على اللغة العربية ، فنقلها — أى هذه اللغة الفصحى إلى داخل القصور فى أغلفة لامعة جميله ، يقول : أنا أحارب اللغة العامية التى يدعون اليها ، أحارب اللغة العامية التى يدعون اليها أحاربها بكل ما استطيع ولكن أسلوبى فى محاربتها هو حرب البناء الذى يصنع التاريخ وأنا أقول لهؤلاء الذين يريدون الكتابه بالعامية ، عامية ، عامية مصر أو العراق أو العراق أو سوريا أو الحجاز ، قلت لمحمود عبيد عندما كتب قصصه بالعامية : « إذا اردت لأدبك الخلود فاكتب بالعربية » .

وهكذا عاش كامل كيلانى حياة كاملة كلها للعمل ، وقدم أعمالا ضخمة فى عالم النقد والقصة والشعر والصحافة وكانما كان ينهب الأرض مسرعا حتى يحقق أكبر قسط من الإنتاج قبل أن يطويه الردى أن كان يعلم من أمر عمره القصير أن ينتهى ومات الإنسان وعاش المفكر وترك تراثا ضخما .

لا أصغى إلى الناقد ولا امنعه الكلام

ولقد كان له من عباراته ما يدل على عمق التجربة ، يقول : أن شعارى فى

الأدب من حقى أن أمنع الناقد من الكلام ولكن من حقى إلا أصغى اليه وإذا سألته ماذا خلف لك المعرى وأنت تردد اسمه مرات كل يوم يقول :

أن أبا العلاء كونى فى بيته الذى يقول فيه :

فلتفعل النفس الجميل لأنه .

خير وأحسن ، لا لأجل ثوابه .

وهو من المؤمنين بالحكمة القائلة :

خير العمل أدومه وان قل . فإذا سألته أى شىء من الشعر أعجبك ، قال : أنه قول القائل ولعله هو القائل فى الحقيقة :

انفع الناس وحسبى .

اننى أحيا لأنفع .

انفع الناس ومالى .

غير نفع الناس مطمع .

قال لى : وقد رأيته يحمل الستين من السنوات قبل موته بقليل واشفقت عليه: ما ضاع من عمرى شىء ابدا ، كنت أعمل حتى فى يوم المرض ، افكر وأتأمل وارسم خطط العمل مؤمنا بالقاعدة التى تقول : العلم إذا لم تعطه كذلك لم يعطك شيئا .

عاش رحمة الله حياة عريضة وأن لم تكن طويلة فانه لم يكد يستهل العقد السابع حتى كان قد كشف له المرض عن خصومه عنيفة صبر لها الكيلانى كما صبر من قبل على عشرات الخصومات التى واجهته فى حياته الفكرية غير أن المرض لم يلبث أن أجهز عليه فى عامه الأخير وهو يغالبه بالعمل المتصل والصبر الجميل وكان يخفيه عن أحب الناس

فلما بلغ مبلغه وعرف أنها النهاية كان ينتهز فرصة افاقته من النوبات فيقصد إلى بيوت أاحبائه وأصفيائه يودعهم ويراهم للمرة الأخيرة وذات مساء وقفت عربة أنيقة أمام منزلنا ودعيت إلى لقاء صاحبها فإذا بى أجده . . . . انه جاء يودعنى ويحدثنى عن كثير من أمور حياته واسراره يفضى بها إلى وكانت ليلة لم تذهب إلا فى صباح نعاه فيه الناعى .

علي أحمد باكثير

عاش (على أحمد باكثير) حياة الأديب الملتزم ، فقد وهب حياته لفنه فن اليوم الأول الذى عرف فيه أنه صاحب قلم وصاحب كلمة يقولها ، آمن بأنه صاحب رسالة ودعوة إلى الاصلاح وإلى الحرية وإلى التجديد ، فهو فى قصته الأولى (همام أو فى عاصمة الأحقاف) يوسم صورته لنفسه ، فيطلق على بطل القصة الذى هو باكثير نفسه اسم « الشاعر المصلح » وقد جعله المؤلف شابا مجددا يسخط على المسيطرين بخداعهم وأضاليلهم على عقول الشعب ويحاول جهد استطاعته بث أفكار جديدة فى بيئته فلا يلاقى إلا عنتا ، وهو موزع القلب والفكر بين حبين : حبه لوطنه ورغبته فى تحريره من الأوهام وترقيته إلى مصاف البلاد الراقية ، وحبه لفتاته وقد كانت فتاته هذه هى زوجته الأولى التى توفيت .

وباكثير من أبناء الشعب الحضرمى الذى يعيش فى جنوب الجزيرة العربية وله تاريخه المشرف فى مجال التجارة والرحلة إلى أرخبيل الملايو وأقامتهم بها .

والشعب الحضرمى شعب عربى صميم تجرى فى عروقه دماء قريش وهمزان وحمير وكنده ومزحج، على حد تعبير باكثير — يعد من الشعب اليمانى ولكنه يمتازعنه بذكائه ونشاطه فى ممارسة التجارة وتفوقه فى الكسب وطموحه إلى المطلب البعيد واستعداده لمجاراة روح العصر الحاضر فى الفهم والأدب والاجماع الموت ذلك حبه للمهاجره إلى أقصى البلاد لطلب الرزق ، وقد اتخذ جزائر الهند شرقية مهاجر له من عهد بعيد وعمل هناك على نشر الإسلام وقبض على ناصية التجارة وأسس مراكز اقتصادية هامة ، جعلت بعض المؤلفين الغربيين يطلق عليهم (إستعمار الحضارمة لجزائر الهند الشرقية) .

ولقد ظهر فى الحضارمة بالمهجر جماعة من المستنيرين أتصلوا بالصحف العربية

فى مصر وسوريا وفى مقدمتها (المنر) وآمنوا بالعمل للنهضة والحرية ، واذاعوا فى قومهم الدعوة إلى الأصلاح والتجديد .

وقد تأثر باكثير بهذه الدعوة فى مطلع شبابه الباكر ، فهاجر إلى مكة ، فأقام بها يتم تعليمه ، ويتصل بالمثقفين من سائر انحاء العالم الإسلامى ثم اختار مصر فقدم إليها فى سن الثالثة والعشرين تقريبا فقدم القاهرة عام ١٩٣٣ عازما على الالتحاق بالجامعة المصرية ، وكانت أمانته لدعوته الأصلاحية قد دفعته إلى أن يكون فن الشعر الذى شغف به اداته فى الثورة على واقع أمته « حضرموت » ثم اتسع نطاق دعوته الأصلاحية بارتفاع السن واتساع الثقافة إلى العمل فى مجال الأمة العربية كلها .

فهو شاب متدفق الحماسة والغيرة ، يحمل بين جنبيه قلبا خفاقا ينزع إلى الحرية ويصبو اليها ، ومن هنا كانت هجرته فى طلب العلم وعمله على تعميق اداته العلمية وسلاحه الفنى ، .

وقد صور باكثير مطالع شبابة فقال : كانت نشأتى فى حضرموت حيث بدأت أنظم الشعر منذ بلغت الثالثة عشرة من عمرى ، وكان جل اهتمامى بالشعر ومبلغ اجتهادى للتبريز فيه فلم أرى ديوانا لشاعر من الأقدمين أو الأحدثين وقع فى يدى إلا قرأته التهاما وكان مثلى الأعلى فى الأقدمين : أبو الطيب المتنبى ، وفى المحدثين أحمد شوقى . غير أنه لم يتح لى الأطلاع على شىء من مسرحياتة إلا بعد ما رحلت عن حضر موت فأقمت برهة الحجاز فكانت مسرحيات شوقى هى أول ما عرفت من هذا الفن المسرحى ، فكانت عندى عجبا أن أرى الشعر الذى كنت أعرفة للتعبير عن ذات الشاعر أو الوصف شىء من الأشياء مهما يكن موضوعيا فلا بد أن يشوبه شىء من بين أثنين أو أكثر ، على نحو يحمل كل شخصيته تعبر عن رأيها ووجهة نظرها وتصفها ، فى صراع مع غيرها من الشخصيات ويدور كل ذلك حول قصة واحدة هى مادة العمل الشعرى الذى يؤلف

ديوانا صغير الحجم يختلف عن الدواوين المألوفة من حيث أنه ينتظم موضوعا واحدا .

هذه هى نقطة التحول الأولى فى حياة باكثير ، لقد اتجه إلى التعبير عن طريق المسرحية الشعرية،فليصور بيئتهوليرسل دعوته الحارة إلى الاصلاح والتجديد عن طريق هذا الأسلوب الجديد ، وليعبر عن أزمته النفسية بفقد زوجته الحبيبة التى أختطفها الموت وهى فى بواكير الشباب .

لقد شعر برغبة جامحة فى معرفة هـذا اللون الذى وجده عند شوقى ، فوضع مسرحيته الأولى (همام او فى عاصمة الاحقاف) مصدراً اياها بآيه من القرآن الكريم .

« واذكر اخا عاد إذ انذر قومه بالأحقاف » .

يقول : وقد كتبت هذه المسرحية دون إلمام سابق بفن المسرحية بل بأصول التأليف المسرحية فكانت عبارة عن قصائدومقطوعات من الشعر بين رقيق وجزل يجمعها موضوع واحد لايمكن تسميتها مسرحية الأعلى سبيل التجوز لافتقادها للمقومات الأساسية للمسرحية من بناء وحركة وحوار ورسم شخصيات :

غير ان هذه المسرحية مازالت تحمل طابع فكر باكثير وإتجاهه وحماسه وإيمانه بالدعوة إلى الاصلاح فهو يدعو فى مقدمتها وفى تضاعيفها إلى العراك الفكرى والصراع بين القديم الذى يجب ان يموت والجديد الذى يجب ان يحيا وهو يدعو إلى نقل ميدان هذه المعركة إلى الوطن ، وبذلك تبطل الحزبية وتموت العصبية وتوحد الجهود للاصلاح الوطنى المشترك وتحريره من الأوهام والخرفات وتعميم ألمدارس فى مدنه وقراه .

ويبدو ان باكثير قد تأثر كثيراً بالدعوة السلفية وانها هى التى طبعته على النحو من الدعوة إلى مقاومة البدع والخرافات فى حضرموت ، حتى انه يقول « كلنا نعلم ان فى حضرموت بدعا فى الدين يجب ان ينكر ويزال وان فيها جهلا

يجب أن ينار بمصباح العلم وجموداً يجب أن يدك جرحه،وأمتيازات أدبية وحقوقية يجب أن تبطل وعادات سيئه يجب أن تصلح ».

وفى تضاعيف الرواية يعبر عن هذا شعراً فيقول :

فلا سلمت كتب الجامدين ولا فاز قارئها بالوطر

صحائف لاروح فيها ولا يجول بها ذكر خير البشر

تصور فيها مجال الأمور ويترك فيها مهم الصور

فتلك الجواهر ، أين الرمال منها وأين الخسيس الحجر

ثم هو يحتاط للأمر فيقول أنه رسم فى هذه القصص صوراً عامة للحياة الحضرمية ولم يقصد فيها إلى شخصيات معينة « فلا يتوهمن متوهم أنى عنيت بشيء منها فلانا أو فلانه ، وأعلن أن هذه هى آرائى الشخصيه دون أن يكون لأحد فيها تأثير على ، ودون أن ارمى إلى إغضاب فئة أو ارضاء أخرى ، فان قصدت إلى أرضاء شيء ما فهو الحق ، وأن قصدت إلى أغضاب شيء ما فهو الباطل ، وسأحتمل كل تبعة تصل إلى فى سبيل الحق وخـدمة الأمة الحضرمية ».

وهكذا يكشف « على أحمد باكثير » عن جوهره ، جوهر تلك النفس العربية الأصيلة الموهوبة للحق ، المتجردة لكلمة الصدق دون أن تطلب جزاءاً او شكورا .

ولقد عاش باكثير حتى رأى وطنه وقد تحرر ، وسادته حياة جديدة ، فقـد اتيح له فى العام السابق لوفاته أن يزور جمهورية اليمن الشعبية الجنوبية وان يرى بنى وطنه وقد تحرروا من النفوذ الأجنبى واخذوا فى

بناء الموطن الجديد ، ولابد ان عينه قد قرت بالحرية والنهضة إلى كان يطمع فيها ويدعو اليها .

• • •

تلك مطالع حياة باكثير الخصبة عندما أتيح له أن يصل إلى القاهرة وبدخل الجامعة ويدرس الأدب الانجليزى بالذات قاصداً إلى تنمية ملكته فى الفن والشعر والمسرحيه والأفضاء عن النفس يقول :

كانت ثقافتى العربية خالصة فلما حضرت إلى مصر عزمت على أن أدرس الادب الانجليزية لما بلغنى أنه عنى بالشعر الرفيع فقد كانت أعنايق أن أصقل موهبتى وأعد نفسى لأكون شاعراً كبيراً ، فالتحقت بقسم اللغة الانجليزية بكلية الاداب بجامعة القاهرة وما أن سلخت عاما حتى وجدتنى فى بلبلة نفسية من حيث نظرتى إلى الشعر الذى كنت انظمة وانشرة فى الصحف ، فقد غيرت هذه الدراسة من نظرى لمفهوم الادب كله، فأخذت أعيد النظر فى القاييس الادبية التى كانت عندى من اثر ثقافتى العربية .

وقد إتجه قلبى اكثر إلى دراسة المسرحية اكثر من فنون تأخرى كالقصة والاقصوصة والملاحم والشعر والقصص، ، وكانت تستهوينى بوجه اخص أعمال شكسبير ، وكنت وما زالت اعتبر الشعر ميدانى الاولى ، ومن هنا إتجهت إلى شكسبير باعتباره يجمع بين الفن القديم الذى احبه وهو الشعر وبين الفن الجديد الذى بدات اكتشف فى نفسى الاستجابة اليه وهو فن المسرحية . ولكن لقد كان لهذا الاتجاه الجديد ازمة فى نفس شاعرنا وعقله •

فما هى الأزمة :

يقول : نتج عن الأزمة النفسية التى عانيتها من جراء تغير مقاييسى الأدبية ان انقطعت برهة عن نظم الشعر ، أجريت فى خلالها تجربة خطيرة هى محاولة

إيجاد « الشعر المرسل » باللغة العربية ، ذلك أن أحد الأساتذة الأجانب قال فى دروسى الجامعة :

أنه لا وجود فى لغتكم العربية لهذا الفن ، يعنى « الشعر المرسل » ولا يمكن أن ينجح فأعترضت عليه قائلا : أما أنه لا وجود له فهذا صحيح لأن لكل أمة تقاليدها الفنية ، وكأن من تقاليد الشعر العربى التزام القافيةولكن ليس هناك مايحول دون ايجادة فى اللغة العربية فهى لغة طيعة تتسع لكل شكل من أشكال الآدب والشعر ، فأعرض عنى وشعرت بأن علي أن أتحدى هذا الزعم وأدحضه بالبرهان العملى ورأيت أن خير ما أبدأ به هو أن أترحم فضـــولا من شكسبير علي هذه الطريقة « ومن ثم فقد ترجم فصولا من مسرحية « الليلة الثانية عشرة » على طريقة الشعر المقفى المألوف ونشرها فى مجلة الرسالة .

نقول أنه بدأ فأختار منها وبدأ يفكر فاتفق أن جاء الوزن من بحر المتقارب ثم مضى مرسلا نفسه على سجيتها فأنكشف له بعد لأى أن البحور التى تصلح لهذا الضرب من الشعر هى تلك التى تتكون من تفعيلة واحدة مكررة ، كالكامل والرجز والمتقارب والمتدارك والرمل .

ثم قال لنفسه أنه قد آن الأوان لكى يؤلف مسرحية على هذه الطريقة فوقع إختياره على موضوع أخناتون « يقول لقد استهوانى تاريخ حياته وحركته الدينية وثورته على كهنة آمون وتبشيره بالحب والسلام » .

غير أن باكثير لم يلبث أن انتقل مرحلة أخرى ، من المسرحية الشعرية إلى المسرحية النثرية ، يقول أن تجاربى جعلتنى أقطع أن النثر هو الأداة المثلى للمسرحية ولا سيما إذا أريد بها أن تكون واقعية وأن الشعر لا ينبغى أن يكتب به غير المسرحية الغنائية التى يراد بها أن تلحن وتغنى أى « الأوبرا » وهنا بلغ باكثير غاية حلمه الذى وهبه كل حياته وأعصابه وروحه .

لقد بدأ باكثير بالشعر وتحول إلى المسرحية الشعرية ثم إنتهى إلى المسرحية النثرية وكأن عمله الأول هو « همام » التى كتبها فى الطائف وحملها معه إلى القاهرة بعد أن أطلع اليها أستاذه أحمد محمد السوركى الأنصارى والتى طبعها له علامة

جيلة صاحب الفتح وأستاذ الثقافة الإسلامية ورائدها فى هـــذه الفترة السيد محب الدين الخطيب :

وقد اتصل باكثير بهذه المدرسة الإسلامية العربية الكبرى التى بدأت فى الفتح وانتهت فى جمعية الشبان المسلمين ، وكأن لها أثرها فى مد مفاهيمه السلفية بالقوة والحيوية ، كما اتصل فى نفس الوقت بمدرسة أبولو ونشر فى صحيفتها (أبولو) بواكير شعره .

أما شعره السابق على قصة همام فيبدو أنه طواه ولم يظهر عليه أحد . ولا شك أن هذه المراحل من حياة كاتبنا تكشف عن شخصيته إنسان كبير القلب ،له ركيزة ضخمة من الإيمان أعانته على مواجهة التحديات وأمدته بالصمود والقدرة على تعميق مجرى اتجاهه الأدبى وبناء وجوده الفنى ، فى أصالة وعمق ليكون بحق، أهلا لحمل رسالة الأمة العربية فى مجال الأفضاء الفنى وفق أرقى أساليب هذا الأفضاء .

ومن هذه النقطة عبر باكثير إلى المسرحية النثرية واستقر عندها إيمانا منه بأنها أصدق تعبيراً وأوسع مجالا فيما هو ذاهب إليه من عمل أدبى ، بعد أن اتسعت أمامه دائرة القضية ولم تعد حضر موت وحدها ولكنها أصبحت الأمة العربية كلها وقد تصدى لذلك فى الثلاثينات فى الوقت الذى كانت مصر فيه غارقة بين قضايا الفرعونية والمصرية وكان صوت العروبة خافتا ونداءها هامسا ، غير أن باكثر وجد طريقه فوضع قصته (أخناتون ونفرتيق) . مستلهما العهد الفرعونى بمفهوم جديد ، قوامه أنه من الشطط أن تحمل مصر على تناسى أو تجاهل حضارتها القديمة والتى صارت تراثا إنسانيا مشتركا، وعنده أنه لابد أن يعرف العرب هذه الحضارة وأن تدخل فى نطاق تراثهم وأمجادهم بأعتبار أن الأمة العربية هى وارثة الحضارات ووارثة الأرض التى بنيت فيها هذه الحضارات .

غير أن أزمة « باكثير » الكبرى لم تلبث أن أنفجرت فكانت بعيدة الأثر فى حياته الأدبية كلها منذ ذلك الوقت وإلى أن اسلم الروح ، هذه الأزمة الروحية العميقة ذات الأثر البعيــد فى حياه باكثير وفكره وآثاره هى قضية فلسطين وصور هذا المعنى حين يقول : على أثر حرب فلسطين التى انتهت بأنتصار اليهود على

الجيوش العربية مجتمعة ، انتابنى إذ ذاك شعور باليأس والقنوط من مستقبل الأمة العربية وبالخزى والهوان مما أصابها ، أحسست كأن كل كرامة لها قد ديست بالأقدام فلم تبق لها كرامة تصان ، وظللت زمنا أرزح تحت هذا الألم الممض الثقيل ، ولا أدرى كيف أنفس عنه ، ولعل ذهنى فى خلال ذلك كان يبحث عن الموضوع دون أن أشعر ثم أهتدى اليه ذات يوم ، إذ أذكرت لجأة تلك الأسطورة اليونانية التى خلدها — سوفوكليس فى مسرحيته الرائعة (أوديب ملكا) فأحسست أن فيها لا فى غيرها المتنفس الذى أنشده ولعلكم تعجبون إذ أى صلة بين نكبة العرب فى فلسطين وبين هذه الاسطورة اليونانية ، غير أنى أدركت بعد ذلك — وهذا الاختبار ذلك أنى كنت أحس من أعماق نفسى كأن الذنب الذى ارتكبه العرب فى فلسطين والخزى الذى لحقهم من جرائه مايوازيه فى البشاعه غير ذلك الذنب الذى ارتكبه أوديب فى حق أبيــه وأمه والخزى الذى لحقه من جراء ذلك .

ومن العجب أن باكثير عالج قضية فلسطين قبل وقوع الكارثة فى ثلاث مسرحيات :

الاولى عام ١٩٤٤ تحت عنوان شيلوك الجديد قبل النكبة وقد تنبأ فيها بنكبة فلسطين وقيام الدولة اليهودية وخروج أهلها العرب .

الثانية : شعب الله المختار .

والثالثة : اله إسرائيل .

ثم كانت مسرحيته بعد نكسة (٥ حزيران) بعنوان : التوراة الضائعة وكان يرى أن قضية فلسطين « مازالت تنتظر العمــل الأدبى الذى يتكافأ مع خطرها وأهميتها » .

وهو لا يؤمن بالفصل بين العاطفة والعقل حين يتحدث عن الاعمال الادبية ويقول : أن العمل الادبى بالضرورة مزيج منهما مما ولا يستطيع الاديب ذاته أن يتحكم فى مقدار العاطفة أو العقل فى أدبه » .

وعنده أنه من الطبيعى أن تركز الاعمال الشعرية فى قضية فلسطين على العاطفة لان أولئك الشعراء يضمون الجراح الغائرة التى فى قلوبهم ، والرسالة التى يحملها هؤلاء الشعراء هى أن يعمقوا أحساس الأمة بالمأساة ويذكرونها بأنها قضية حياة أو موت ، قضية مصير » .

• • •

وقد عاش باكثير حياته الأدبية التى تزيد عن ثلاثين عاما فى تأليف القصة المسرحية النثرية فقدم خلال هذه الفترة أكثر من أربعين مؤلفا لم يترك مجالا من مجالات القضايا السياسية والإجتماعية دون ان يعرض له ، فى مجال : التاريخ الإسلامى العربى ، الاسطورة التاريخية ، التاريخ العربى المعاصر ، فلسطين وإسرائيل ، وذلك بالإضافة إلى الشخصيات التاريخية الباهرة (الحاكم بأمر الله) والثائر الأحمر ، شهرزاد ، اخناتون ونفرتيتى ، جحا ، الفرعون الموعـــود ، ابو دلامة ، وكسرى وقيصر ، عمر ابن الخطاب ، شجاع ، واسلاماه (قطز) سلامه القس ، الخ الخ .

يحاط ان تقيم هذا العمل الضخم الكبير حين يقول :

ان فى التاريخ العربى مواقف عظيمة رائعة ينبغى ان يعيها الجيل العربى الحاضر ، حين تصور فى صورة درامية مؤثرة ، وشكسبير كتب كثيراً من المسرحيات التاريخية إلى استلهم فيها تاريخ بلاده والمعروف ان التاريخ يربط حاضر الأمة بماضيها والا فهى حياة مبتورة الصلة بماضيها .

وهو يرى ان الاسطورة أهم من التاريخ لأنها « اقدم من التاريخ واشد امتلاءا « بالتراث القومى والشعبى من التاريخ ، ولهذا الجأ إلى الاسطورة كثيراً ليعالج من خلالها مشاكل عصرنا الحاضر ، مشاكل الصدام بين الكتلتين ، وعصر الفضاء فى (هاووت وماروت) ومشكلة الطموح الإنسانى والقلق لدى الإنسان فى (فاوست الجديد) ولما كان الإنسان العربى يشترك مع غيره فى جميع

المظاهر الإنسانية ومنها ذلك القلق النفسى الذى يجتاح العالم ، فإنى اعالج هذه المشاكل من خلال التراث ، ومن خلال وجهة النظر العربية .

• • •

وعنده ان الشعر الحر الذى كتبه بادىء ذى بدء اعماله المسرحية حيث كتب ترجمة روميو وجوليت بالشعر الحر ثم الف مسرحيه اخناتون ونفرتيتى ومسرحيه الوطن الاكبر مابين ١٩٣٧ — ١٩٤١ ثم انقطع عنه من بعد — عنده ان الشعر الحر سيستمر وجوده لأنه يؤدى حاجه إلى الانطلاق الشعرى غير المحدود لا يؤديها غيره .

وعنده ان المعركة بين انصار الشعر الكلاسيكى والحر طبيعية لانها تقوم دائماً بين كل جديد وكل قديم ، ويرى ان هذه المعركه لن تسفر عن انتصار لاحد الفريقين لانهما يتعاركان فى ميدانين مختلفين .

• • •

وفى كل مايكتب باكثير تبدو صورة الكاتب العربى ذى الأصالة العميقة والإيمان الأكيد بقيم الأمة العربية والفكر الإسلامى. يؤمن بهذا ويدافع عنه ويقف فى صفه وفى موقفه من المسرح ولماذا لم ينشأ عند العرب . تبدو صورته الأصيلة واضحة . يقول :

« لم نسمع عن وجود شىء من الدراما عند العرب فى وثنيتهم الجاهلية ، ولعل مرد ذلك أن الوثنية العربية لم تكن وثنية أصيلة ، أو هى فى الواقع صورة مشوهة من دين قائم على التوحيد ، وهو دين إبرهيم واسماعيل ، ولذلك لم تكن لها تقاليد عميقة كما كان الشأن لدى الوثنيات الأخرى » ثم تحدث عن الفارق بين المناسك فى الإسلام وبين الطقوس فى الاديان الأخرى ، وقال « أن المناسك يقوم بها جميع أفراد الأمة ، أى أنهم لا يشهدون طائفة منهم تقوم بتمثيل هذه الرواية بينا الباقون يتفرجون ، وكذلك لا توزع الادوار المختلفة بين أفراد هذه الطائفة ، بل تقوم

الأمة كلها بالتمثيل ويقوم كل فرد بتمثيل الأدوار المختلفة كلها ، هذه الظاهرة التى لا يعرف لها نظير عند الأمم الأخرى ، ترجع إلى دين التوحيد الذى يجعل التقديس لله وحده ، ولا يعترف بتقديس من سواه من الأشخاص،ولذلك تعذر عند العرب وجود التمثيل ، بمعناه المعروف لدى الأمم التى تدين بتعدد الآلهة وتقديسها ، وإسناد الصفات البشرية اليها ، إذ كان معظم هؤلاء الآلهة فى الأصل من البشر ، ممن كانوا ملوكا عظاما لهم أو ابطالا فى تاريخهم فلما ماتوا اتخذوهم آلهة وعبدوهم.وإذا لم يوجد المسرح عند العرب فى جاهليتهم فأحرى ألا يوجد لديهم بعد الإسلام الذى قضى على تلك الوثنية العربية ، وأعاد إليهم دين التوحيد كأصفى وأنقى ما يكون التوحيد ، وقد كان تقديس الأشخاص من مظاهر الوثنية والإسلام ينهى عن ذلك نهيا تاما ، مما أدى إلى عدم ظهور الدراما ، لأن نشأة الدراما فى عصورها الوثنية كانت تقوم على تقديس من كانوا ملوكا أو أبطالا ثم ألهوهم بعد وفاتهم وهذا يفسر لماذا لم يقتبس العرب من الدراما اليونانية رغم ترجمتهم للفلسفة اليونانية واطلاعهم عليها » .

* * *

ومازلت أفكر وقد اتيحت لى فرصة واسعة فى صيف العام الماضى للالتقاء بهذا الأديب الإنسان أن استكشف جوهر نفسه ، فهو ثمرة ضخمة من ثمار المدرسة الوسطى الإسلامية العربية التى استطاعت أن تجمع بين العروبة الأصيلة والتراث الإسلامى والثقافة العصرية الحديثة ، يمزج بينهما مزجا خليقا بالإعجاب والتقدير قوامه الإيمان بالعروبة والإسلام معاً والعمل بهما معا والالتزام بقضاياهما أو المواجهة لتحدياتهما .

وكنت فى مراجعاتى لمجلة الفتح قد لاحظت كلمة عليها توقيع رمزى فيه كلمة الحضرمى أوما يشبه ذلك ، فلما راجعته عنها تأكد أحساسى بأنها بقلمه ، هذه الكلمة كانت تصور لقاء وقع بين باكثير وبين العقاد وكان فى هذه الفترة يجلس أمام المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على ، وأبرز ما فى هذه المحاورة أن باكثير تنبأ للعقاد بأنه سيصل يوما إلى الفكر الإسلامى والتاريخ

الإسلامى وأنه سيكتب صفحات عن حياة محمد والإسلام ، وقد تحققت هذه النبوءة فعلا ، وصدق يقين باكثير الذى راجع العقاد فى ذلك الوقت فى أرائه التى كان يطلقها فى مجالاته الخاصة ولا يكتبها والتى شهد مثلها الأستاذ عمر الدسوقى وغيره .

راجع باكثير وهو الشاب الذى لا يتجاوز الخامسة والعشرين العقاد فى آرائه ولم يتهيبه وقال له أنه كان من بعيد يعجب به ويلتمس عنده زادا ولكنه لم يجد عنده ما كان يتطلع اليه .

هكذا كانت شخصيه باكثير ، واضحة المالم ، صريحة قوية فى الحق ، عاش حياته من أجل قضايا أمته ملتزما ، حول الفن القصصى إلى خدمة قضايا الوطن العربى على نحو رفيع بارع ، رحمه الله رحمة واسعة وأجزل مثوبته (1) .

— ولد أحمد على باكثير فى أندونيسيا من أبوين عربيين من حضرموت وبعد سن العشرين رحل الى الحجاز ثم قدم القاهرة ١٨٣٣ فالتحق بكلية الأداب .

— وتوفى فى أول رمضان ١٣٨٩ — ١٩٦٩ فى حدود التاسعة والخمسين من عمره .

— ونال جائزة الدولة التقديرية ١٩٦٣ .

— والف أكثر من ستين قصة ورواية بين مسرحية شعرية مسرحية نثرية (تناولت الدراما والكوميديا)

— فاز فى عديد من المسابقات الأدبية التى أقامتها وزارة التربية والتعليم ووزارة الشئون الاجتماعية .

— له ملحمة عن (عمر بن الخطاب) أصدر منها ثلاثة أجزاء ولايزال الباقى تحت الطبع .

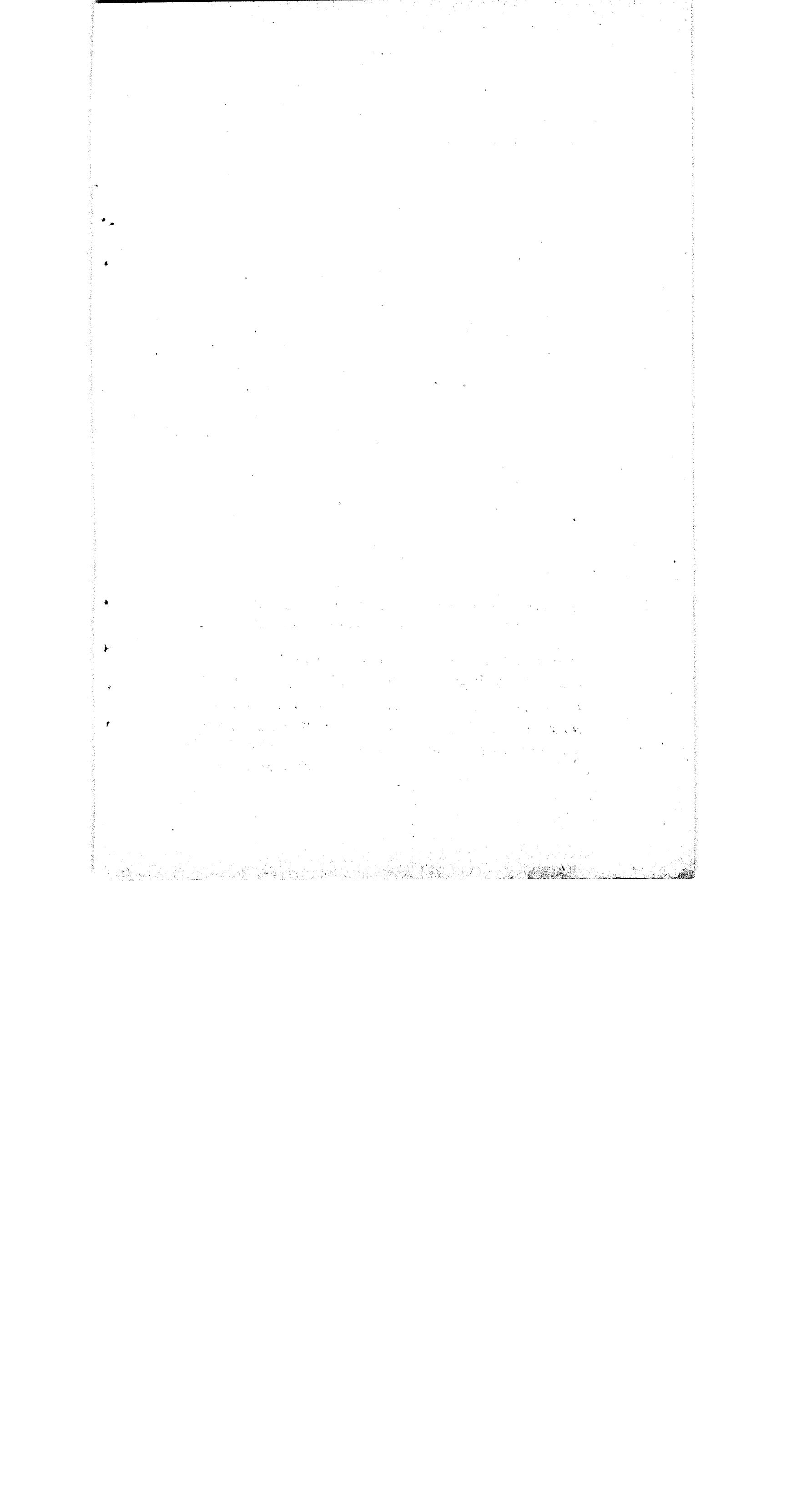
— الف وهو الطالب (اخناتون ونفرتيق والوطن الأخير) عمل بالتدريس ١٤ عاما منها ٧ أعوام بالمنصورة ثم نقل مراقبا على المصنفات الفنية بمصلحة الفنون بالقاهرة .

— أشهر مسرحياته مأساة أوديب والثائر الأحمر وسر الحاكم بأمر الله ومسمار جحا وسر شهر زاد وشيلوك الجديد يقول باكثير إنى أسعى فى مسرحياتى الى تحقيق هدفين :

. . . .

الهدف الأول سياسى والثانى إنسانى فمحورة الدعوة إلى الوحدة العربية مثل مسرحية اخناتون ونفرتيتى ويتدرج منها كل كفاح سياسى فى القضايا العربية .

أما الهدف الانسانى فهو يتعلق بالتعبير عن روح الاسلام ومثله العليا ونظرته إلى الكون والحياة ، وسبيلى فى تحقيق هذا الهدف أن اعالج الاساطير المختلفة العربية والاجنبية حيث اسكب فيها مضمونا إنسانيا يعبر عن هذه النظرة الاسلامية المتكاملة الصالحة لكل عصر وكل مكان مثل مامات فى ماساة أو أوديب وفاوست الحديثة والفرعون الموعود ، واحيانا أتخذ من الأحداث التاريخية وسيلة تحقيق هذا الهدف مثل مامات فى سر الحاكم بامر الله ودار ابن لقمان .



(٥)

أحمد عطية الله

صاحب «حوليات الإسلام»

الأستاذ أحمد عطية الله واحد من أبرز رجال التربية والتعليم في بلادنا ، شغل نفسه منذ مطالع شبابه بدراسات شتى فأخرج مجلة للأطفال وألف كتبا في الفكاهة ، وكان له عامود يومي في جريدة الأهرام ١٩٣٧ تحت عنوان « يوميات التعليم » وسافر إلى أوربا مرات ومرات واتصل بمناهل الثقافة العربية أساساً ثم اتصل بمناهل الثقافة الغربية ، وفي السنوات الأخيرة بدا يكف على أعمال لايقدر على ممارستها إلا الخبراء القادرون ، تلك هي دوائر المعارف والقواميس والموسوعات فاصدر (القاموس الإسلامي) و (دائرة المعارف الحديثة) و « القاموس السياسي » .

هذه الموسوعات تضم أكثر من عشرة آلاف صفحة ، مما يدفع الباحث المراقب عن السر الذي جعل هذا الرجل الذي بلغ السبعين في هذه الأيام أعلى هـذا الجهد المضني والعمل الجاد ، أننا في حاجة إلى نظرة واسعة إلى أبعاد هذا العمل وإلى جهد هذا الباحث الكبير،فليس هذا العمل وليدة الساعة ولا الزمن القريب ولايمكن أن يكون كذلك ، وإنما هو خلاصة عمر باحث أفرغ فيه كل جهده وعصاره ثقافته وخلاصة تجربته ، فالأستاذ أحمد عطيه الله يبدأ هذا العام العقد السابع من عمره المديد بإذن الله ، وقد شغل نفسه بفكرة الموسوعات ودوائر المعارف منذ عام ١٩٢٧ تقريبا . ففي هذه الفترة كان الحديث يتردد عن حاجة اللغة العربية والعالم العربي والباحثين العرب إلى موسوعات ودوائر معارف ، وقد زخرت الصحف بالحديث في هذا الأمر ، وتصدى الكثيرون لهذا العمل ، وفي مقدمتهم المسئولون الرسميون ومن بينهم عبد الخالق ثروت وأحمد فريد رفاعي وعرض الدكتور محمد حسين

هيكل لذلك فى جريدة السياسة الأسبوعية وتبخر ذلك كله عن مجموعة من الآمال والأمانى ولم يكن العهد قد بعد بدائرة معارف فريد وجدى التىأصدرهابعد الحرب الأولى ١٩٢٣ ومن قبلها دائرة معارف البستانى التى لم تستكمل .

عاشت كل هذه الصور والأحلام فى نفس أحمد عطيه الله الشاب الذى لم يكن قد عدى العشرين من العمر ، والذى كان قد سافر إلى أوربا فى بعثة رسمية ليتم تعليمه فى جامعة لندن ليحصل على درجة (أستاذ) ثم هو يطوف أوربا فيشاهد مكتباتها ودوائر معارفها وجامعاتها ويحادث المفكرين بها ويعود وفى أعماقه تصميم أكيد على أن يقوم بجهد فى مجال القواميس والموسوعات ودوائر المعارف غير أنه يظل سنوات يجرب خطواته فى دراسات وأبحاث مختلفة فى مجال التاريخ والسيرة والتراجم ثم لايلبث فى عام ١٩٤١ خلال الحرب العالمية الأولى أن يبدأ عمله ويظل يواصله حتى اليوم من خلال أربعين عاما لايتوقف ، وقد اتيح له فى هذه الفترة أن يسافر مرة أخرى إلى أوربا وأن يقف على أعمال دوائر المعارف العالمية وأن يزداد خبرة واتقانا لعمله ، فيصدر خلال ذلك دائرة المعارف ، والقاموس الإسلامى ثم يقدم اليوم هذا العمل الضخم الذى يضم أكثر من ٤ آلاف مادة تتعلق بكل مايهم الباحث والمفكر من التعريف بجميع دول العالم من حيث جغرافيتها واقتصادياتها ونظم الحكم فيها ومجرى الأحداث حتى عام ١٩٨٠ كما يتضمن تعريفا بالمنظمات والهيئات الدوليه والاقليمية والأحزاب والمؤتمرات والمعاهدات وأشهر الشخصيات السياسية المعاصرة كما يتضمن تعريفا بالمصطلحات الدولية والسياسية والدبلوماسية والمذهبية والدستورية والإدارية والتكتيكية والاقتصادية مع توسع فى كل مايتصل بالعالم العربى، يقول الأستاذ عطيه الله : دام العمل فى سبيل إعداد هذه الطبعة من القاموس أكثر من عامين ثم تضاعف موارده بعد الطبعة الثانية حتى ارتفعت إلى نحو أربعة آلاف مادة ، ويقول : أن أكبر ما يشغل الباحث ويحتاج فيه إلى قاموس هو هذا العدد الضخم من الألفاظ والمصطلحات والتعابير وأسماء الأعلام التى برزت بعد الحرب العالمية الثانية ولم تكن مالوفة أو معروفة ، ترددها الصحف والأذاعات وماإليها ، وكان لا بد وقد عزت المراجع التى تتابع هذه التطورات وتبسط الحقائق بسطا موضوعيا لا يستهدف سوى نشر المعرفة ، من أن يقوم من الباحثين من يتصدى لسد هذا الفراغ فى المكتبة العربية .

ويكشف المؤلف فى قاموسه السياسى عن منهج فى الكتابة جديد ، يطلق عليه اسم « الأسلوب الموسوعى » أو طريقة الكتابة الخاصة بدوائر المعارف ، وهذا أسلوب يختلف اختلافا كبيرا عن أساليب الكتابة الصحفية والأدبية ، إذ يستهدف تقديم أكبر قدر من المعلومات فى أقل قدر من المساحة على أن تضم هذه المعلومات (أولا) : تعريفا عاما للمادة (ثانيا) : تاريخ حياة هذه المادة . (ثالثا) : التطورات المختلفة والفروع .

ويقول الأستاذ عطيه الله : أن شرط الأسلوب الموسوعى أن يكون شاملا متكاملا ، وأن تكون عين المؤلف الموسوعى على المستقبل والغد البعيد ، حيث تنمو بعض الشخصيات وحيث تتطور مواد مصطلحاته ، فيكون محتفلا بالفرعيات الصغيرة دون إهمال لها ، إلى حد أن يظل القاموس قادرا على الاستجابة لحاجة الباحثين سنوات طويلة .

* * *

وعندنا أن المؤلف الموسوعى وعدد هؤلاء قليل فى المكتبة العربية لابد أن يكون مزوداً بثقافة تاريخية واقتصادية وسياسية واسعة وأن تكون مراجعة منوعه وكثيرة بحيث تضمن له عصارة وافرة فى المادة الواحدة ، كما أن تكون له قدرة أصيلة فى اللغات الأوربية ، وعين لاتنام عن المادة اليومية المتداوله فى الصحف والتى قد تمر على الكثيرين دون أن تلفت نظرهم ، أو تشغل خواطرهم .

وإذا كان الأسلوب هو الرجل كما يقول بوفون فلا شك كان لشخص أحمد عطية الله وطبيعته وثقافته أبعد الأثر فى هذه القدرة والكفاية البالغة للتصدى لمثل هذا العمل والصبر عليه هذه السنوات الطوال والانتفاع بكل ما اتصل به خلال هذا الزمن من تجارب وأبحاث وكتب ودراسات .

فالأستاذ أحمد عطية الله رجل أسوانى المولد ، يحمل تلك الخصائص التى عرفت

لابناء مصر الأصلين من صلابة وصمود وصبر ، وهو من القلائل القادرين على أمضاء يوم كامل من صباح إلى مساء جالسا على مكتب يعمل لا يشغله شيء عن العمل ولا يعينه فى ذلك إلا فنجان من القهوة أو لقمة ساندوتش يتبلع بها .

ثم هو قادر على الجرى وراء المراجع دون ملل للبحث عن كلمة ، قد ترد فى كتب الآداب أو كتب الفلسفة أو كتب القانون أو كتب الدين أو كتب علم الركة دون أن يزعجه هذا التقليب الطويل ، والإمتحان المسير حتى يصل إلى روح الكلمة ومدى أثرها وامتدادها هنا وهناك .

ثم هو إلى ذلك رجل لاهواية له إلا هذا العمل ، يستطيع أن يقبع فى مكتبه أياما وأسابيع منفصلا عن العالم كله دون أن يزعجه شيء .

وهو ليس من الكتاب والأدباء الراغبين فى الشهرة أو التطلع إلى الظهور إلا بقدر مايحتاج عمله إلى التعريف به . فهو عازف عن اهواء الأدباء ، يعرف قدره كعالم باحث متخصص ، جاد ، لم تستطع المناصب المتعددة التى تولاها أن تصرفه عن طابعه كعالم باحث ، كما عجزت مغريات الآدب والصحافة أن تحوله عن خلقه كرجل صارم جاد ، لايقبل أنصاف الحلول أو مرضيات المجاملات ، وإنما يأخذ الأمور مأخذ الجد ، ويحب عمله حبا شديدا ، ويرى فيه سبيله الحقيق ، ولا يضيق بأن يطول أمد عجز الناس عن تقدير العمل العلمى الخالص ، ويكتفى بأن يقدر الفضل ذووه .

• • •

ويعمل الأستاذ عطية الله الآن فى أكمال (القاموس الإسلامى) الذى صدر منه خمس مجلدات — وبقى ثلاث مجلدات . وهو عمل موسوعى له طابع آخر يختلف عن القاموس السياسى . فهذا مجاله الواسع فى التراث الإسلامى من الأعلام والكتب والمصطلحات الفقهية والتاريخية والروحية . وقد أثبت ما صدر منه عن أهمية هذا العمل والحاجة إليه ، فإذا كان القاموس السياسى يمثل حاجة اليوم والعصر والعمل المتصل

بالحضارة والحرب والسياسة والاقتصاد ، فإن القاموس الإسلامى يمثل حاجة المجتمع فى دينه وثقافته ومايتعلق بالإنسان ومعاملاته وعباداته ومايتصل بشئونه الدينوية والآخروية .

ومن هنا فإن الأستاذ عطية الله حين يكمل القاموس الإسلامى يكون قد قدم جناحى الثقافة الإنسانية العربية الحديث منها والقديم ، الروحى منها والمادى ، الاجتماعى والسياسى جميعا .

ولكن هل توقف الأستاذ عطية الله عند الحد وقد أمد الله تبارك وتعالى له من العمر ، أنه مازال يعمل لمواجهه كل جديد وإضافته إلى موسوعاته ومن ثم كانت محاولة تجديد (دائرة المعارف الحديثة) بإضافات جديدة بعد أن مضى على صدورها عشرين عاما وهى إضافات تزيد عن حجم الموسوعه الأصلى .

ويهل القرن الخامس عشر الهجرى والأستاذ عطيه الله واع لمسئوليته إزاء هذا القرن الوليد فإذا به يفاجىء الناس بموسوعتين جديدين هما موسوعه « حوليات الإسلام » فى أربعة عشر جزء لكل قرن من الإسلام جزء خاص يحصى أحداثه وأبطاله ويقابلها فى عالم الغرب ثم يعد موسوعه جديدة لاعلام القرن الرابع عشر تضم أكثر من ألف شخصيته .



عثمان الـكعاك

مؤرخ الحضارة الإسلامية

— ١ —

كانت وفاة العلامة عثمان الـكعاك فى الملتقى الإسلامى العاشر فى مدينه عنابه (١٩٧٨) بالجزائر فى نفس اليوم الذى كان موعد محاضرته عن دور عنابة فى تاريخ الحضارة المغربية ، أمراً هز كل النفوس التى شاركت فى هذا الملتقى ، كما اهتزت له نفوس محبيه وعارفى فضله فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى .

ولقد التقيت بالأستاذ عثمان الـكعاك فى دراستى للفكر والثقافة فى المغرب العربى بأقطاره الأربعة التى صدرت عام ١٩٦٥ عن المجلس الأعلى للفنون والآداب بالقاهرة فى فصل مطول .

ثم كان أن التقيت بالأستاذ الـكعاك فى الملتقى الإسلامى فى (بجاية) من الجزائر عام ١٩٧٤ ولم أكن قد رأيته من قبل فرأيت رجلا طوالا وجيها حسن السمت ، حلو الحديث ، عذب البادرة ، طليق العبارة العربية ، ولقد دخلنا فور اللقاء فى أحاديث لا أول لها ولا آخر عن تاريخ الاسلام وحضارته .

وسعدت حقا بذلك اللقاء طوال الأيام العشرة التى قضيناها معا فى الجزائر ، وفى كل مكان كنا نذهب إليه كان يتحدث عن التاريخ كأنما يعيش اليوم وخاصة فيما يتعلق بأمر ابن خلدون والمقرى وغيرهم من مؤرخى المغرب .

وكان أبرز مالفت نظرى حديث عثمان الكعاك عن « **الرباط الإسلامى** » والذى نجـــده متوجا لكل جبال الساحل الإسلامى من تركيا إلى الشام إلى مصر إلى رباط الفتح فقد كان هذا الحديث جديدا على مسلمى المشرق ولكنه كان من من البديهات فى دراسات المغاربة الذين عاشوا مثلا معركة الثلاثمائة عام بين الجزائر وأسبانيا أو معركة المائـــة وثلاثين عاما بين فرنسا والمغرب (تونس والجزائر ومراكش) وكان الكعاك يتحدث عن عصارات أكثر من مائة كتاب كتبها الغربيون عن الأربطة وقرأها هو واستوعب مافيها فكان باهراً فى حديثه هذا ، يومىء به إلى ذلك المحصول الضخم الذى قد أعطى إليه والذى مازال بعد كلمات على اللسان لم يسجل فى كتايات عربية بقلمه يمكن أن تفيد مئات والوف الباحثين لقـــد كان حديث الكعاك عن الف رباط من رباط الفتح إلى الاسكندرية بالغا ومثيرا .

ومازلت أذكر محاضرته الدفاقة الفياضة حين يقول : ماهو التاريخ فى كلمة محددة : التاريخ هو مرآة يرى فيها الشعب نفسه وترى الأمة نفسها فى حاضرها وربما وعلى الخصوص فى مستقبلها ، وقد يأتى هذا الأجنبى إلى تلك المرآة فيجعلها من تلك المرايا المزيفة التى تغير اشكالنا وتشوه ذواتنا فنمر أمام هذه المرآة فمن كان طويلا وجد نفسة قصيرا وكيف وصل هؤلاء الأساتذة بول وارنست إلى تحريف هذه الموآة بصورة بسيطة جدا . دخلت المدرسة الثانوية وانتقلت من صف إلى صف وكنت فى مراحل التعليم وفى يوم ماقرأت فى جريدة لوموند أن اسحق المذكور قد انتقل . و جاء فى الجريدة بعد يومين أن بعض نواب لوموند سألة بماذا عمرت حياتك قال عمرت حياتى بأن شحنت ادمغة الناس بتاريخ مملوء بالمناهج التى تريدها إسرائيل ، وكتاب اسحق هذا قرأته جميع الدول التى كانت تحت فرنسا والتى لم تكن . فأخذت هذه الكتب ونقلت إلى اللغة العربية وأمنا نحن بهذه الصورة واعتقدنا أنها الحقيقة . أن هذه الصورة التى اراد اسحق أن يتخذها منا وهذا هو التاريخ بصورته الحالية . كلمة اسحق تعنى الفحمة وهو

سواد وهم كثيرون من المؤرخين الاوربيين ولا أعنى بهذا تعميما وإنما أريد أن ابين ماهو الحق وما هو الباطل وهناك أوربيون أنصفوا المسلمين .

يمضى عثمان الكعاك فى تصوير السموم التى دسها الاستعمار فى التاريخ الإسلامى حين حاول الفصل بين البربر والعرب المغاربة وقال كذبا أن البربر من الغرب وليسوا من الجزيرة العربية ، يقول :

لماذا هذه المغالطة ، هى أن المستولى يريد أولادنا بالذات ، يريد أن يمحو ذاتيتك وينسيك ماضيك ومجدك . ومنذ جاء الإستعمار ارسلوا إلى تونس جحافل من الاثريين ينقبون عن أثار الرومان ويقولون اجدادك رومان ياولدى العرب هم الذين ابعدوك عن أجدادك الرومان واجدادك الرومان كانوا عظاما جداً ثم قالوا أننا قرطاجيون وذهب أثريون أخرون : يتحدثون عن أشور ، وبابل ونينوى ، وبالجملة فإننا عندما نشأنا وجدنا تاريخا مزيفا . وأن وجد فى بلادنا هو منا وإلينا وأن هذه التى شيدها الرومان إنما شيدها اجدادنا البربر العرب يومئذ الذين ارادوا أن يمسحوا عنهم مركب النقص .

وعرفت أن الرجل على علم وافر ، وفى كل القضايا التى أثيرت حول تاريخ الإسلام فى المغرب أو حول الحضارة الإسلاميه كان عثمان الكعاك جاهزا ، كأنما يقرأ فى كتاب . وعندما ذهبنا لافتتاح المسجد الإسلامى الذى عاد إلى المسلمين بعد مائة وثلاثين عاما وكان المستعمر قد حوله إلى كنيسة كان خطيب الحفل هو عثمان الكعاك رحمة الله عليه .

— ٢ —

ولا ريب أن عثمان الكعاك كان من ابرز الأقلام المناضلة التى اتخذت من الكلمة سلاحا للمقاومة ، وقد وجه نظره نحو رد عدوان الدعوة التغريبية على الفكر الإسلامى والتاريخ المغربى ، وهو أول من كتب موجز التاريخ العام للجزائر ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ وكتابه (البربر) يعالج قضية شائكة استغلها الإستعمار واتخذها سلاحا للتفرقة بين عنصرى الامة المتزجين من آلاف السنين . هذا إلى

عشرات من ابحاثه ومقالاته فى تحرير قضايا التاريخ وللفكر وله ابحاث عن مراكز الثقافة فى المغرب ولقد كان اهتمامه الكبير قبل الثلاثينات بتحرير تاريخ الجزائر والكشف عنه دليلا على وحدة المغرب الفكريه والسياسية ، فقد كان عثمان الكعاك فى تونس يعالج جوانب من تاريخ الجزائر كما فعل حسن حسنى عبد الوهاب وأحمد توفيق المدنى . وكان صادق الإيمان بأن التاريخ روح الأمة وأن الجزائر — التى كانت اذ ذاك تسعى نحو المائة من الاعوام فى ظل الاحتلال فى أشد الحاجة إلى أن يرن بها اسمها وتاريخها .

وقد احصى دارسى أعمال عثمان الكعاك أنه أخذ على نفسه انجاز عملين كبيرين (الاول) : الموسوعة العربية الكبرى أو القاموس وقـــد شرع فيه منذ عام ١٩٣٦ . (الثانى) : تاريخ الشمال الافريقى الذى جمع عناصره وبوبه ونظمه .

هذا بالإضافة إلى عمله الذى قام به سنوات طويلة فى تعريب المكتبة العمومية ويؤمن عثمان الكعاك بتاريخ المغرب العربى ككل قبل الإسلام وبعده ويؤمن بتاريخ تونس القومى المتصل بحضارة البحر المتوسط .

وقد تحدث عثمان الكعاك عن تطور حياته الفكرية فقال :

كنت إلى سن الثانية عشرة أحتقر اللغة العربية وآدابها وأهزأ بالحضارة العربية والتاريخ الإسلامى وارى أنه من العبث تعلم العربية ، بل من الواجب تعلم اللغة الفرنسية ، واللغة الفرنسية ليس إلا ، وكنت أحمد الله على أننى لا أعرف شيئاً من لسان العرب ، حتى ولو مجرد الحروف .

وفى شهر مايو ١٩١٥ لما دخلت تركيا الحرب ، كنت مارا بالموالحية وعلى رأسى شاشية (مجيدى) حسب العادة . فإدركتنى كوكبه من الجنود الفرنسيين وصفعنى أحدهم ويعثرنى نى على الارض وداس الشاشية فمن ذلك التاريخ اقبلت على تعلم العربية وآدابها بحزم ماعليه من مزيد .

ثم أقبل على مكتبة أخيه عبد الرحمن الكعاك فقرأ كثيراً ، قرأ عيسى بن هشام

ثم أسس مع أحمد بن ميلاد جميعه بالصادقية لتعلم المفردات الاصطلاحية في الرياضيات والحسابيات وعاش عامين يقرأ بتلهف مايوجد في مكتبه المقدسي ،حتى قرأ مؤلفات زيدان كلها ، وكتاب وفيات الاعيان ، فلما رفع الحجر عن الصحف التونسية عام ١٩١٩ أقبل عليها بلهف ثم حرر فيها المقالات الادبية والإجتماعية ثم حرر المقالات السياسية ١٩٢٢ ودرس الأدب الفارسي في لغته الاصلية ودرس الأدب التركي ثم تحول من دراسات التاريخ إلى دراسات الأدب .

وفي مذكراته التي نشرتها مجلة الثريا عام ١٩٤٣ تحدث كيف اجتمع شمل الصفوة من كتاب تونس : زين العابدين السنوسي ، الطاهر الحداد ، توفيق المدني ، كرباكة ، عثمان الكعاك . كانوا يتناقشون ويعتز كل واحد برأيه وإذا بالخصومة تتسع وإذا بها تستغرق شطراً صالحا من كتاب العربية فإذا جاء الغد عادوا إلى الالتقاء ، ويكون شاعرهم كرباكة قد قضى ليلته يطالع أمهات الكتب (فيصب على رؤسنا جميعاً نصوصا كثيرة العدد وافرة المقدار ، وحينما ينتهي من هذا يرفع رأسه على شطو كتفه ويجر ذيله على بقايا لفائف الدخان) .

وتحدث عن ذكرياته مع (كرباكة) فيما بين ١٩٢٦ — ١٩٣٦ حيث كانا يجتمعان في مطبعة العرب التي أنشأها العلامة زين العابدين السنوسي وطبع فيها عشرات من بحوث التاريخ واللغة والإسلام وقدمها بأسلوبه الجميل حيث كان ثلاثة ارباع الشباب التونسي المثقف يفد إلى هناك .

ويعد فعثمان الكعاك من المدرسة الوسطى التي تؤمن بالبناء على الاساس وقد دعا إلى دراسة الأدب العربي جاهلية واسلاما .

ونعى على الأمة العربية أنها لا تعرف غير آداب الأمم المحتلة لها : الريفيون في المغرب يعرفون الأسبانية والمغاربة والجزائريون والتونسيون يعرفون الفرنسية ، والليبيون الإيطالية .

وقد عمل عثمان الكعاك في دراسات الأدب والتاريخ والمكتبات والآثار وتولى دروس التعريب كما اشرف على القسم العربي من الإذاعة ١٩٣٨ — ١٩٤٣ وتولى رئاسة المكتبة الأهلية فبذل الجهد في اعدادها وتنظيمها وتعريبها فهي تضم ٧٠ ألف

كتاب عربي ومجموعة كبرى من الصحف وستة آلاف مخطوط وهى من أقدم المكتبات فى العالم .

— ٣ —

وقد تابعت أعمال عثمان الكعاك بعد أن كتبت عنه هذا الفصل ١٩٦٥ حتى وفاته رحمه الله عليه فى يونيه ١٩٧٦ وقرأت كثيراً مما نشر فى صحف المغرب وخاصة مانشر فى جريدة العلم المغربية ، وما القى من محاضرات فى الملتقيات الإسلامية فى الجزائر ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ وقد وصلت بعد لقائه والحديث معه إلى أن اطلق على الأستاذ عثمان الكعاك : مؤرخ الحضارة الإسلامية فهو من أكثر كتابنا المشتغلين بالتاريخ الإسلامى فى العصر الحديث (امثال محمد عبد الله عنان وعمر فروخ وغيرهم) .

واهتماما بالمأثورات الشعبية (الفلكلور) والمسكن والملبس والمطعم والمشرب والتحلى والتختم والشحوم والتعطر والتبخر وأنواع الزينة والآداب العامة الشعبية مايلتقط من فم العجوز ، له اهتمامه الواسع بالفنون : المعمار والنقش والنحت والموسيقى والعناصر الزخرفية ، والطرز والزركشة والنقش والرخام والمعدن والخشب وصناعة السلاح المرصع المنقوش من سيوف ورماح ودرق معدنية مرصعة بالذهب ومزهنة بالصور الحربيـــة . إلى مايصل بذلك من أوانى وفناجين وزهريات .

ويصل عثمان الكعاك من دراسته للحضارة الإسلامية إلى مجموعة حقائق : يقول : ولد الإسلام لنفسه علوما كثيرة احتاج اليها :

أولا : علوم اللسان التى احتاج اليها لفهم القرآن والحديث فوضع النحو والبلاغة ومتن اللغة وعلم المعاجم ثم وضع لغيره من الأمم كالترك والبربر واليهود كتب النحو والمعاجم ، ثم وضع علم النحو المقارن منذ القرن الثالث الهجرى ووضع معاجم اللهجات من فارسية وتركية ويونانية وبربرية وعبرانية واندلسية .

ثانياً : علوم الدين من تفسير ومصطلح حديث وفقه وفرائض .

ثالثاً : العلوم والمخترعات التى لابد منها للاسلام مثل المسالك والممالك ولمعرفة طرق الحج ، وإلى جانبها كتب المناسك والرحلات التاتحة عن الحج ، والجغرافية الضروورية ، لكل ذلك ، ثم وضع علم الميقات ومنها المزولة ثم المرملة ثم الساعة لضبط أوقات الصلاة ثم وضع الآلات الفلكية الكبرى لضبط علم النجوم لتحرير مداخل الشهور من أجل رمضان المعظم . ثم وضع البوصلة ودفـــة السفينة والاستطرلاب لتسيهل الملاحة من أجل الحج ثم وضع علم الجبر من أجل الفرائض ، ثم وضع الأرقام والصفر ومنازل الأرقام والمثلثات والمقابلة لأجل الحسابيات العليا الضرورية لعلم الفلك .

ثم وضع فن الجوامع التى هى بيوت الله فعرف القبة واستنبطها وجعلها فوق المحراب لينعكس نورها على الأمام الذى هو الشخصية المقتدى بها من طرف المصلين وجعل الشمسيات الزجاجية الملونة المزخرفة بالزخارف النباتية والزهرية لأنارة الجوامع انارة فى النهار فأخذت الكنائس هذه الشمسيات عن الجوامع كما أخذت القبة والقائم والاقواس . جعل الإسلام (الجامع) مركبا اسلاميا فهو بيت صلاة و (فوروم) اسلامى للخطة السياسية والإجتماعية والإقتصادية ورباط لحراسة الثغور ومحل العقود الإجتماعية والإقتصادية ومكتبة ومدرسة ومرصد فلكى فهو جامع بأتم معنى الكامة والكلمة ليست ترجمة للكلمة اليونانية .

التى بمعنى المكان الذى تؤول اليه جميع الخطا ولكن هى بمعنى جامع للمصالح الإسلامية التعبدية والسياسية والعسكرية والعلمية والأدبية والفنية .

وقد أثر الجامع فى الكنيسة ولم تؤثر الكنيسة فى الجامع .

وفى للغات الأوربية مؤلفات فى هذا الأمر كتبها جونزلوا ، وامانسى ، واميل مالى ، ودكتور أحمد فكرى .

فقد اخذت الكنيسة عن الجامع : القبة والشمسيات والمنبر المزخرف . والسبب فى ذلك أن الجامع النموذجى الأول هو (جامع عقبة) فى القيروان فقد ضم جميع الانطلاقات المعمارية التى حدثت فيما بعد من قبة ومحراب وشمسيات ومنبر ونقش

عربى فى الحجر وزخرف زيقى فى الحواجز وزخرف حشبى من السقوف والأبواب ونماذج كاملة فى الخطوط الكوفية من أبسطها حفراً إلى أجلها بزوا ومن جامع القيروان تولد جامع قرطبة وزاد الكثير على جامع القيروان وبنى الأندلسيون كنيسة فيها أصول جامع قرطبه فصارت كأنها نسخة منه (كنيسه القديس يعقوب) ثم تكاثرت الكنائس فى أوربا على غرار هذه الكنيسة ولما بدأت حركة احتلال الاندلس التى يسمونها حروب الاسترداد كما يزعمون وكانوا كلما احتلوا مدينه اجلوا المسلمين عنها واستبقوا المهندسين المعمارين والبنائين والمزوقين ، والنجارين والحدادين والمصورين والموسيقين بنوا لهم حارة خاصه قرب المدينة سموها (معربه) وأمروهم ببناء كنائسهم ومدارسهم واديرتهم وقصورهم وسموا فنهم هذا فنا مدجنا فعم أوربا الغربيه وامريكا ، نقله اليها المدجنون المسلمون الذين ذهبوا مع كولومبس أو بعده بقليل ومن ذلك كنيسه مكسيكو القديمه .

هكذا كان يفهم عثمان الكعاك الفنون الإسلاميه ويكتب تاريخ الحضارة الإسلاميه وتلك مزيته الخاصه وقد الف ماينهاز الاربعين كتابا باللغه العربيه فى التاريخ والآدب وعلم اللغات والفلكلور أهمها :

الحضارة العربيه فى الجزر الوسطى للبحر المتوسط	١٩٥٥
تاريخ الجزائر	١٩٢٦
الأدب العربى الجزائرى	١٩٢٧
الفلكلور التونسى	١٩٥٧
مصادر بيلوجرافيه عن ابن خلدون	١٩٥٧
الفلكلور العراقى	١٩٥٧
مراكز الثقافه بالمغرب	١٩٥٧
البربر	١٩٥٧

ومحمل تاريخ الاستاذ عثمان الكعاك أنه ولد بضاحيه (قمرت) باحوز تونس الشماليه ١٩٠٣ وزاول تعليمه الثانوى بالمدرسه الصادقيه وانتقل ١٩٢٦ إلى باريس حيث تابع دراسته العليا بجامعة السربون ومعهد اللغات الشرقيه وبالمعهد الطبيعى للدراسات العليا وفى كوليج دى فرانس درس للغات الدارجه بشمال أفريقيا

والمشرق واللغه الفارسيه والحميريه وتحسين كتابه ولهجه اللغات البربريه والاسبانيه والتركيه والألمانيه الانجليزيه واتصل بالمستشرقين هنرى مارسى وجورج كولان وويليام مارسى ومحمد قزوينى خان وعمل استاذا بمعهد الدراسات العليا وبالمدرسه العليا للغه والآداب العربيه بتونس من ١٩٢٩ إلى ١٩٥٤ وعمل استاذا لتدريس الجغرافيا بمدرسة الخلدونيه ١٩٢٤ — ١٩٥٥ ورأس قسم البرامج العربية بالإذاعة التونسيه ١٩٣٨ - ١٩٤٣ وعمل مسؤولا عن المكتبه العموميه بتونس ١٩٤٤ — ١٩٥٦ وعمل حافظا للمكتبه القوميه بتونس ١٩٥٦ — ١٩٦٥ ومستشاراً لدى وزارة الشئون الثقافيه ١٩٦٥ — ١٩٦٧ ثم عين مكلفا بمهمه لدى الوزارة نفسها من ١٩٦٧ إلى وفاته وهو عضو بالمجمع العلمى العربى بدمشق وعمل محاضرا زائرا بجامعه الرباط بالمغرب وبالجامعات الليبيه والاردنيه والسوريه .

رحمه الله رحمة واسعة .



الدكتور عدنان الخطيب

إدا أردت أن أصفه فى كامه واحدة تختصر حياته كاها لقلت : أنه أينع ثمار « الاصالة » العربيه الإسلاميه فى أرض بردى ، ووريث تلك المدرسه الشاميه الزاهرةالتى انشأتذلك التيار الإسلامى الذى التمس المنابعالثروة ، والاصول الاصيلة، من فكر الإسلام وتراثه بعيداً عن كل السبل المفرقه المضطربة . أنه حفيد الشيخ طاهر الجزائرى وعبد القادر المغربى والقاسمى وكرد على ومحب الدين الخطيب ، هذه الصفوة من ذلك الجيل الذى حمل لواء الفكر الإسلامى على اصفى وانقى ماعرف الباحثون فى العصر الحديث .

ولقد كان « عدنان الخطيب » قريباً من ذلك قربا ملاصقا ، يرى واضحا فى كل كتاباته وآثاره وأعماله : كتابة وحديثاً وخلقا وسلوكا وسماحه نفس وطلاقه وجه وذكاء وايمانا عميقا .

وإذا كان عدنان الخطيب قد سلك طريق القانون وعاش واحداً من رجاله فإنه لم يغفل يوما عن اصالته فى ميرات اللغه العربيه والإسلام واضحا وكثيفاً فى كتاباته وأعماله فقد اتصل بالمجتمع العلمى العربى منذ أوائل شبابه وكان العلامه كرد على يفسح له الطريق بديلا عنه لينافح عن أصالة الفكر الإسلامى فى مواجهه الشبهات التى تبثها دوائر الاستشراق والارساليات والغزو الثقافى ، فترى له منذ الوقت الباكر فى الثلاثينات تلك الكتابات القويه المونقه .

وفى مجلة الرسالة بدأت كتابات « عدنان الخطيب » عن لغة القانون فى الدول العربية وهو أول بحث من نوعه حاول تأصيل أسلوب القانون وكتابات المواد القانونية . وقد كان هذا مقدمة لاختياره عضوا فى مجتمع دمشق الرائدالذى سبق مجامع القاهرة وبغداد .

ومن عجب أن يحل فى المجتمع ، مكان استاذه العلامة عبد القادر المغربى الذى

كان قد التقى به فى بلدتهم « جرايا » ورافقه يوما كاملا وهو بعد فى سن الرابعة عشرة حفيا به ومحبا ومطوفا به فى انحاء القرية ومنذ ذلك الوقت انعقدت لهصلات الود بتلك الأسرة الشامية العريقـــة التى توالت نفحاتها فى دمشق والقاهرة على السواء .

ومن أوائل من اكتشفوا ذلك النابغة : شاعر العربية الكبير « محمد البزم » الذى والاه بالإرشاد والثقافة والتوجيه وغرس فيه حب العربية وحب من يحبها ، وايقظ فى اعماقه اباء العربى ومفهوم العروبة فى تقدير اولئك الرواد اطارا من الإسلام ومضمونا من القرآن .

وكان محمد البزم الذى وصف عدنان بقوله :« اخلاق تسامت النجوم والذكاء كاتقاد الفراقد ، وسرعة خاطر وفطنة واجتهاد يدل على أنه سيكون من النابغين النابهين » وصدق البزم ، وتحققت الفراسة . .

وبرز الدكتور عدنان الخطيب فى ثلاثة مجالات :برز كأديب وكاتب وناقد ومؤرخ وآية ذلك كتابه عن الشيخ طاهر الجزائرى : القاه محاضرات فى معهد الدراسات العربية بالقاهرة .

وقدم فيه خلفية للنهضة الإسلامية العربية المعاصرة لا يستغنى فيها باحث ، كما استطاع أن يضم اليه من أصول الفكر وقضايا التاريخ ، وكأنه لم يوقفه عند استاذه الجليل وإنما ارخ فيه للعصر والنهضة العربية الإسلامية فى ذلك العصر الذى يبدأ بجمال الدين الأفغانى . وينتهى بالشيخ طاهر : عملاق دمشق الذى جدد الفكر والحياة فيها والذى كان بمثابة علي مبارك فى مصر حيث جمع المكتبات المتناثرة فى مكتبة واحدة ، وبمثابة محمد عبده فى احياء الفكر الإسلامى الاصيل .

٢ — وعرف كرجل قانون فقد مارس المحاماة زمنا فكان من العاملين فى المؤتمر الأول للمحامين للعرب ثم تولى القضاء ١٩٤٥ — ١٩٥٣ ، ثم مستشارا ١٩٥٤ ثم نائبا عاما وقد شرح القوانين الجديدة (١٩٤٩) واهتم بشرح قانون العقوبات ، وقد نشر مؤلفاته القانونية ، وفى كتابه (لغة القانون فى الدول العربية) نقد لغة

واضعى القوانين فى تلك الدول وقلة اهتمامهم بمصطلحاتها الصحيحة وذكر ما نشأ عن ذلك من إضرار ، وفى عام ١٩٥٤ تولى تدريس القانون بكلية الحقوق والشريعة جامعة دمشق أولى اهتمامه بالاجراءات الجزائية والمدنية والقانون الجزائى والقانون الدولى ، وقد شارك فى اللجان التى قامت بتوحيد القوانين بين مصر وسوريا وعمل ١٩٥٩ مستشارا فى مجلس الدولة للجمهورية العربية المتحدة ومقررا للجنة القانونية فى العلوم السياسية فى المجلس الأعلى للاداب والفنون .

وله فى هذ المجال مؤلفات شتى : أهمها شرح قانون العقوبات (المبادىء العامة — شرح قانون العقوبات (المبادىء العامة — المسئولية الجزائية — الجريمة — المحاكمات) .

٣ — ثم كان المجال الواسع الضخم هو مجال مجمع اللغة العربية بدمشق الذى اشترك فيه منذ ١٩٤٢ وكان له ولايزال جهده الضخم ، ولاريب أن أصالته اللغوية هى عقدة العمل فى حياته ، فقد تلقى اللغة والفقه على اجلاء علماء دمشق وفى كلية بغداد درس العلوم المالية والقانونية ، وحاز الإجازة فيها بمرتبه الشرف . وفى عام ١٩٤٧ نال أجازة الدكتوراه من جامعة باريس .

وما زال الدكتور عدنان مرجوا لأعمال كثيرة فى مجال اللغة والأدب والقانون كواحد من أهل الاصالة والفضل ، وليس أدل على مكانة الدكتور عدنان الخطيب فى قومه أن يقوم المحامون بمنحه لقب « محامى شرف » وتقليده الشارة الذهبية لمحامى دمشق ، وهو القاضى الذى يكون دائما فى عرف المحامين مواجها لهم . ولكن الدكتور عدنان بما عرف عنه من خلق رفيع ونبل استطاع أن ينتزع هذا الحب وهذا الإعجاب ..

يقول المحامون : تقديرا للخدمات الجليلة التى قدمها الدكتور عدنان الخطيب للقانون لغة وقضاء وتأليفا من خلال عمله كقاض ، وكأستاذ فى الجامعة وكعضو فى مجمع اللغة العربية ولما ارساه خلال ذلك كله من مبادىء للحق ، فى إطار سيادة القانون ، وتوكيدا لهذه الرابطة الوشيجة التى تصل صناعة المحاماة بعمل القضاء فيحتمل القاضى والمحامى معا من خلال شرف السعى لتحقيق العدالة والقانون وسيتحملان

من خلالها أيضا مسؤليه أحقاق العدالة والقانون وتعبيرا عما يحمله المحامون لرجال القضاء وما يكنون لهم من حرمة وإجلال كان من حق القضاء على المحاماة أن يكرم الدكتور عدنان الخطيب وأن تخلد جهوده التي كرسها لإرساء سيادة العدالة والقانون.

• • •

وبعد فإن الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب له مكانته العريقة في مجال الأدب والفكر عرفها الذين اتصلوا به في القاهرة ندوات طويلة وعديدة حضرها أصدقاؤه ومريدوه: محمد عبد الغني حسن، وحسن الصيرفي، ووديع فلسطين، والمرحوم رشاد عبد المطلب، ولقد كانت لنا خلال انعقاد مؤتمر المجمع به لقاءات خصبة مع صفوة من العلماء في مقدمتهم الأستاذ الجليل الدكتور حسني سبح رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق والشيخ الجليل العلامة محمد بهجة الأثري والعلامة عبد الله كنون

ولقد عرفنا من قبل العلامة المجاهد السيد محب الدين الخطيب صاحب الفتح والرجل الذي حمل قلمه شرعا في وجه أباطيل التغريب والغزو الثقافي أكثر من خمسين عاما لم يتوقف عن الجهاد، وجاء الدكتور عدنان الخطيب سليل هذه الدوحة والإستاذ علي الطنطاوي، والأستاذ قصي الخطيب علامات على شرف هذه الأسرة المؤمنة المجاهدة في سبيل الله والحق. وذلك هو إمتداد تلك الأسرة الشامية الكريمة التي صنعت في مصر الخير الكثير من أجل نشر الإسلام والتعريف بجوهر الدين وحقيقة وجهته فقد كان السيد محب الدين الخطيب هو «الأب» الحقيقي لكل الجمعيات الإسلامية والإصلاحية بالاشتراك مع رفيقته الكريمين أحمد تيمور باشا والشيخ الخضر التونسي ..

• • •

واليوم تحتفل القاهرة بتكريم السيد محب الدين الخطيب وذلك من خلال

أطروحه الدكتور الق يقدمها الشيخ محمود القاضى على منبر الأزهر عن الرجل ودوره فى خدمة الفكر الإسلامى ، ومن قبل كرمت مصر السيد محمد رشيد رضا برسالة أخرى قدمها الشيخ أحمد الشرباصى . وهكذا تعيش روح الود والأخاء الإسلامى العربى عارفه لفضل ذلك الرعيل من أهل الفضل والمدرسة الشامية الإسلامة . وتحية طيبة إلى الدكتور الخطيب الذى مازال مرجوا لعمل كبير فى الشريعة الإسلامية واللغة العربية .



الباب الخامس

الدعاة إلى الله

١ — محب الدين الخطيب .
٢ — ابو الاعلى المودودى .
٣ — أبو الحسن الندوى .
٤ — مصطفى السباعى .
٥ — محمد المبارك .
٦ — محمد احمد الغمراوى .
٧ — حسن البنا.
٨ — عيسى عبده .

محب الدين الخطيب

« صاحب الفتح »

هذه صورة خاطفة لشخصية من أبرز أعلام الفكر الإسلامى المعاصر ومصلح حمل لواء الدعوة الإسلامية منذ أكثر من خمسين عاما عندما أصدر مجلتيه (الزهراء والفتح) فكانتا إمتدادا للمنار الذى كان يصدره السيد محمد رشيد رضا منذ أوائل القرن العشرين الميلادى ، وكان هذا إمتدادا للعروة الوثقى التى أصدرها السيد جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده قبل الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى باريس ، فامتد منـــذ ذلك الوقت خط الصحافة الإسلامية الذى جاءت مجلة (الوعى) لتمثل مع الصحف الإسلامية المعاصرة بعداً جديداً له .

ومن الحق أن السيد محب الدين الخطيب قد حمل فى العالم لواء الدعوة الإسلامية منذ وقت مبكر ، وكان من أكبر العاملين لتأسيس جمعية الشبان المسلمين التى انتشرت فروعها فى العالم الإسلامى كله ، وفى المكتبة السلفية التى أسسها منذ عام ١٩٠٩ (والتى اتصلت بها مطبعة الفتح ١٩٢١ مجلة الفتح ١٩٢٥) وبين طائفة كريمة من أهل الفضل فى مقدمتهم الشيخ الخضر حسين وأحمد تيمور باشا أمكن أقامة هذا البناء الذى ضم فى أول تشكيل له : الدكتور عبد الحميد سعيد ، والشيخ عبد العزيز جاويش والدكتور الدرديرى ، وغيرهم .

وكان من وراء هؤلاء جميعا هذا الرجل الصامت المتوارى الذى يكره الدعاية والإعلان ، وحملت جمعية الشبان المسلمين لواء الدعوة الإسلامية ومقاومة حركة التبشير الضخمة التى كانت تجتاح الأمة العربية كما حملت مجلة الفتح لواء الدفاع عن حرية الاقطار العربية وجاهدت جهاد الأبطال مع حركات التحرير فى تونس والجزائر وليبيا ومركش حتى حظرت فرنسا دخولها فكانت تغير اسمها وتدخل تحت اسماء أخرى وتهرب فى الأوزاد التى تحملها قوافل الجمال الضاربة فى الصحراء ، ومن خلال هاتين المؤسستين عمل السيد محب الدين الخطيب فى حماسة وإيمان وبعد عن الشهرة والإضواء حتى ليمكن القول بأن أبرز كتاب الأمة العربية اليوم من المتخصصين فى الدراسات الإسلامية قد بدأوا خطواتهم الأولى فى الفتح .

وقد صور هدفه من إنشاء مجلة (الفتح) التى عاشت بضعة وعشرين عاما (١٩٢٦ — ١٩٤٨) بفضل صموده وقوة إرادته الغلابة فى مواجهة الصحافة ذات الموارد الضخمة : يقول :

(أن الفكرة التى تمثلها الفتح فكرة عظيمة فى ذاتها وهى وليدة الإسلام فليس لنا ولالغيرنا فضل فى إيجادها وتكوينها إنما الفضل كل الفضل هو فى الإكثار من العاملين لها والعارفين بمزاياها والمجاهدين فى سبيلها ٠٠)

وقد سجل الخطيب مبادى الفتح على صفحتها الأولى على هذا النحو الذى يمثل فى إيجاز شديد فلسفته ومفاهيمه ويدل على مزاجه النفسى (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، الفتح لأهل القبلة جميعا ، العالم الإسلامى وطن واحد ، المسلمون إلى خير ولكن الضعف فى القيادة ، أنت على ثغرة من ثغور الإسلام فلا تؤتين من قبلك أعمل ليراك الله وحده ، وتوار عن أنظار الناس ، الفتح رسالة الاقطار الإسلامية بعضها إلى بعض » .

وهو يكشف عن رسالة القلم عنده فى عمق عجيب ، وتبدو كلماته اليوم وبعد وفاته أشد إثارة وأبعد مدى فى تصوير إيمانه وإخلاصه وإعتداده بذاته وهو الذى لاحول له ولاقوة من نفود أو منصب : (أنا فى نفسى كثير العيوب وأنى كأمثالى من البشر محل العجز والنقص ولكنى ساعة أن إمسك القلم لأكتب ما اكتبه للفتح لا أجد أمام عينى اللتين سيأكلهما الدود إلا ذلك الميزان أزن به الأحداث والآراء ولا اقيسها إلا بمقياس الإسلام كما فهمه الصحابة والتابعون غير ملاحظ شيئا غير مصلحة المسلمين العامة وافقت اهواء الناس ومصالحهم أو خالفتها ، وافقت مصلحتى ومنفعة الفتح المادية أو خالفتهما) .

(أنا فى نفسى صغير فقير ، قليل النصير ، ولكنى ساعة أدفع السوء عن حقائق الإسلام أو أبتغى المصلحة العامة للمسلمين لا أشعر بأن فى هذه الأرض قوة للباطل أخشاها على الحق الذى انطق بلسانه لأن اللسان الذى أنطق به هو لسان الإسلام القوى ، وليس لسان الإنسان الضعيف) .

وبين آن آخر ، وعلى مر السنوات يؤكد موقفه ويعاود قطع العهود على الحق الذى يتبعه : (قطعت على نفسى عهدا بينى وبين ربى ، واهتف به الآن على مسمع من الموافق والمخالف بأنى ما أدخرت ولا أدخر وسعا فى العمل من جهق على المضى فى هذا السبيل ماحييت ، وعهد آخر قطعته على نفسى ، وبينى وبين ربى ، أهتف به « بأنى ماوزنت ولا أزن إحداث البشر وأراءهم إلا بميزان الإسلام ، كما فهمه الصحابة والتابعين ، ولاحكمت ولا أحكم على تلك الأحداث والآراء إلابما تقتضيه وحدة المسلمين ومصلحتهم العامة المجردة من الأغراض والاهواء » .

تلك إنطلاقه هذه الشخصية التى عملت فى صمت وجد وقوة فى مجال الدعوة الإسلامية منذ ١٩٠٩ حتى نهاية عام ١٩٦٩ ، حيث توفى يوم ٣٠ ديسمبر وهو يراجع تجارب المجلد الثالث عشر فوق سريره بالمستشفى الذى دخله لفترة قصيرة من كتابه الضخم (فتح البارى فى تحقيق صحيح البخارى) والذى عكف عليه منذ عشر سنوات كاملة بعد أن ترك رئاسة تحرير مجلة الأزهر التى وليها خمس سنوات كاملة والتى قدم فيها عصارة كاملة للفكر الإسلامى من خلال أكثر من (٦٠ بحثا تمثل افتتاحيات هذه المجلة العالمية شهريا .

ومن خلال عديد من كتاباته فى مجلة (الفتح) استطعت أن أحصل على صورة واضحة لمطالع حياته ومفتاح شخصيته كتبها بقلمه خلال فترات متباعدة وهى تشكل فى تنسيقها اليوم (صورة حياة) خصبة عريقة فى مجالها الذى اختارته وصمدت فيه صمودا مليئا بالإيمان واليقين فى حياة امتدت ٨٦ عاما هجريا (١٣٠٣ — ١٣٨٩ هـ) — (١٨٨٥ — ١٩٦٩ م) .

« كان أبى أمين دار الكتب الظاهرية ومات أبى وأنا ابن اثنتى عشرة سنة فأخذ الشيخ طاهر الجزائرى بيدى ووجهنى إلى الإسلام الحق ، وأوجدنى فى البيئة التى أشرفت منها على حقائق المجتمع ، وكانت له حلقة بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع تضم (جمال الدين القاسمى ، وعبد الرزاق البيطار ، سليم النجار ، رفيق العظم ، محمد كرد علي ، سليم الجزائرى ، شكرى العسلي ، عبد الوهاب المسلمى ، عبد الحميد شهبندر ، فارس الخورى) وأكثر ما كانوا يجتمعون فى الدار الكبرى التى كان يملكها رفيق العظم فى حى مئذنة الشحم بدمشق ، وكان مجلس هذه الحلقة يستعرض

كل مايهم المفكرين استعراضه عن الحركة العلمية والفكرية والسياسية من خلال أسبوع وكان الشيخ طاهر يسدد اتجاهاتهم ويوقظهم لما خفى عليهم من أسباب الإصابة فى الرأى .

ويقول : أنه تأثر بكتابين هامين : كتاب أم القرى لعبد الرحمن الكواكبى وكتاب الإسلام والنصرانيه مع العلم والمدنية لمحمد عبده .

ويتحدث عن شيخه وأستاذه ، أما شيخه فهو (طاهر الجزائرى) « هو الذى ربى عقلى وهو الذى حبب إلى هذا الاتجاه الفكرى منذ كنت طفلا إلى أن صرت رجلا ، ولاأعرف مؤلفا ولاحامل قلم نشأ فى دار الشام الا وكانت له صلة بهذا المربى الأعظم واستفادت من عقله وسعة فضله وهو على الجملة نواة الخير الأولى ، وأهم كتب السلف النافعة التى نشرها الناشرون إنما نشروها باشارته وتحريضه ، وأنا وكل مانشرته لسنا إلا قطرة فى بحر الخير الذى كان يتدفق من هذا العالم الذى كانت الدنيا لاتساوى عنده جناح بعوضه » .

أما أستاذه فى الصحافة فهو (على يوسف) : « التحقت بتحرير (المؤيد) (سبتمبر ١٩٠٩) وقد وجدت منه عطفا وتشجيعا ، وبقيت أعمل فى تلك الصحافة الإسلامية التى كانوا يسمونها)(تيمس مصر) إلى مابعد وفاة صاحبها ، وقد استفدت من أساليبه الصحفية ومن خطته الإسلامية ما أنا مدين له به مادمت حيا ، وفيها صاحبت المنفلوطى وتعرفت بحافظ إبراهيم ، واتصلت يومئذمن طريق (المؤيد) بكل سامية من رجالات مصر وعظمائها فكان ذلك عونا لى على إدراك حقائق الحياة » .

أما مجلة (الفتح) فيقول « أن سبب وجودها هو (أحمد تيمور) وأنه لولا (تيمور) باشا لما وجد الفتح وأقول مقتنعا أنه لولا وجود الفتح لما وجدت هذه الصحف الإسلامية بعده ، وعندما صحت العزيمة على إصدار الفتح لم يكن فى مصر صحيفة إسلامية غير مجلة (المنار) وكانت منتشرة فى دائرة ضيقة لأنها شهرية ولأنها ذات أبواب محددة لاتتسع لأكثر مايكتبه منشئها رحمه الله .

وعن طريق الفتح بدأت الدراسات الإسلامية إلى أن استحكمت من بعد

وأصبحت مؤلفات هامة، وتضمنت حقائق كثيرة وازيلت شبهات وعرضت (الفتح) لكل التحديات التى واجهت الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية ودحضت كل كذبة مضللة ، وواجهت دعاه التغريب وحطمت مخططاتهم ، وكان من أكبر أعمالها تحريض الشاعر أحمد محرم على كتابة الالياذة الإسلامية .

وقد بلغ من أمر الفتح أن ذكر كثير من المراقبين « أن دار المطبعة السلفيه كانت نبع القلوب الصادية تردها من الشباب فئه قايلة الصبر على ضيم ينزل بالآمة العربية من ظلم الاستعمار » .

وقد صور الدكتور زكى على : جهاد السيد محب الدين الخطيب فى مجال الدعوة الإسلامية فقال « إنه أعلم المصريين بسير الدعوة الإسلامية وأحوال العالم الإسلامى وطن واحد وهو يعتقد أن النيل وبردى والأردن ودجله والسند تجرى فى وطن واحد ، وأن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أخوة تضمهم فكرة واحدة وأن اختلفت ألسنتهم وألوانهم وأقطارهم ثم يمتاز محب الدين الخطيب بأنه ماحاد يوما عن الطريق الذى رسمه لنفسه منذ حمل لواء الجهاد والنضال والذود عن كرامة الإسلام ومصالح المسلمين فى كل بقعة من بقاع الأرض فهو لم يجعل صحيفته سلمة ولم يتخذ من قلمه صناعة وهو إذا قال أو كتب فهو أقدر الناس على تصوير نفسية المسلم الحقيقى » ..

هذا ماقاله الدكتور زكى على عام ١٩٤٠ أى منذ أربعين عاما وقد أكدت الأحداث خلال حياة السيد محب الدين الخطيب حتى لقى ربه صدق هذا الإيمان كان هذا الأباء ، وبعد هذا المصلح عن المطامع الخاصة والشهرة والاضواء حتى أنه كان يحذف من القصائد أو المقالات ما يعرض له الكتاب خاصا بتقديره له ، ويقول عن قصيدة للدكتور زكى أبو شادى :

القصيدة بعد نشرها مطويا منها أبيات يتمنى الكثيرون ممن طارت شهرتهم فى الآفاق أن تكون قبلت فيهم وأن يبذلوا فى سبيل ذلك أعز المعطيات » .

وقد خلف السيد محب الدين الخطيب تراثا ضخما من الأبحاث والدراسات يمكن أن يشكل إذا عرض ونسق ايديولوجية كاملا للفكر الإسلامى الحديث

فى مواجهة الحضارة والتغريب والتطور ، وقد كان أسلوبه رقيقا طيعا ،فقدأتاحت له دارسته للفرنسية والتركية إلى جوار تعمقه فى اللغة العربية والأدب العربى قدرة فائقة على الأداء والبيان فضلا عن قوة عارضته فى دحض الشبهات وكشف عظمة الإسلام والدفاع عنه بأسلوب هادىء بعيد عن الحدة أو الهجاء أو الارتطام، فقد كانت غايته أن يكشف الحقائق دون أن يجرح الكاتبين ، وأن يرد عادية الخصوم دون أن يشتبك معهم على النحو الذى يخرجه عن دائرة النضال .

ولقد عرفت السيد محب الدين الخطيب منذ أواخر الحرب العالمية الثانية ، وجلست إليه طويلا ، ورأيت سماحته وأشراق طلعته وهيبته وعناده فى الحق ، لايتراجع عما يعتقده الحق ، إلى إيمانه وإيجابيته وبعده عن الضوء ، ولقد تابعت مع الأيام لقاءه وكنت أعجب فى السنوات الأخيرة من صبره الدائب فى تحقيق البخارى وربط أحاديثه ومراجعته مع كتب الصحاح وتحقيق أعلامه وكتابه ومضاهاة تراجمهم مع كتب الصحاح ومازلت أرى إعجابه بمقامه فى الروضة وفى شارع الفتح المسمى باسم صحيفته ، قريبا من أول خطا « عمر بن العاص » فى مصر القديمة وعلى مرمى البصر من ساعات التاريخ الإسلامى الأول .

لعل السيد محب الدين الخطيب هو أول مفكر عربى صاغ فلسفة العروبة والإسلام متصلة ملتقيه ، ويشاركه فى هذا شكيب أرسلان وعبد العزيز جاويش ولكنه يفوقهما تقيما لفلسفة العروبة والاسلام فى أبحاث علمية ، ولعل أبرز ملامح حياته الفكرية ذلك الإيمان الخالص بالإسلام نقيا صافيا معارضا فى كل ذلك كل دعوة تحمل اسم الإسلام ولاتؤمن به ، ولقد كان للسيد محب الدين الخطيب موالاته وألمامه بكل ماطبع ونشر من التراث العربى الإسلامى ومن كتب السيرة والفقه والتاريخ ، فى عديد من طبعاتها ومايتصل بها من نقص وزيادة ومايتصل بالفرق الإسلامية من أراء ومذاهب وانحرافات وهو جرىء فى الحق يقول كلمته فى فى صراحة لاتعرف المجامله .

وأبرز ماخلف السيد محب الدين الخطيب مكتبته التى بلغت حتى اليوم مائتى ألف مجلد ، والتى جمعها فى خلال ستين عاما وماتزال بعد أكبر المكتبات الخاصة فى العالم العربى ، فقد سابقت مكتبة أحمد تيمور التى بلغت (١٢٠) وأحمد زكى

التى بلغت (١٧٠) ألفا وتضم مكتبه الخطيب ، أضابير وجذاذات وأوراقا ورسائل ومذكرات حافله بالآراء والأخبار التى يمكن إذا نشرت أن تضيف كثيرا وتحقق كثيرا من وقائع التاريخ والأحداث فى الخمسين عاما الماضية من تاريخ الأمة العربية ومن بين هذه الأضابير رسائل جرت بينه وبين الأمير شكيب أرسلان قيل أنها بلغت ألف رسالة ولعل الابن البار لأبيه الأستاذ قصى القائم على دار الفتح والمكتبة السلفية يعمل مع محبى والده على إبراز هذه الآثار وتحقيقها .

ولعل خير مانختم به هذه الكلمة عبارة المترجم له التى كان يرددها كثيرا : أن رياح النصر فى الجهاد لاتهب إلا على رجال يريدون وجه الله فى كل مايعملون عرف لهم ذلك أم جهلوه ، اعترفوا لهم به أو أنكروه وآفة جهادنا إعجاب المرء بنفسه وانتباه شهوة الظهور فى بعض أهل الفضل فينقلب كل خير إلى شر وبذلك تخمد جذوره الجهاد ويتسلل الناس لواذا من قادته ودعاته .



مفاهيم محب الدين الخطيب

تمثل حياة السيد محب الدين الخطيب أخصب حياة مفكر عربى . فهى حياة عريضة وطويلة معا ، وهى مع ذلك مختصرة الوقائع ، وقوامها ذلك العمل الخصيب الذى بدأه فى القاهرة حين أسس مكتبة الفتح ١٩٠٩ ومطبعة الفتح ١٩٢١ منذذلك الوقت إلى أن توفى السيد محب الدين الخطيب إلى رحمة الله فى نهاية عام ١٩٦٩ وخلال حوالى ستين عاما فقد ظل يعمل فى مجال القلم والفكر والأدب والصحافه والتأليف والطباعة والنشر وخلف ذلك الحصاد الضخم .

مجلة الزهراء شهرية (خمس سنوات) مجلة الفتح أسبوعية من ١٩٢٦ — ١٩٤٨ (٢٢ عاما) . موسوعة الحديقة (١٣ مجلدا) إلى عدد من المؤلفات والكتب المحققة وإحياء التراث وكلها تدور فى مجال واضح ضريح هو لخدمة اللغة العربية والأمة العربية والفكر الإسلامى والثقافة العربية والتاريخ والتراث العربيين ، بالإضافة إلى رئاسة تحرير مجلة الأزهر لمدة خمس سنوات حملت أخصب إنتاج هذا الباحث الكبير وقدبلغ مجموع مقالاته مايزيد عن ألف وخمسمائه من المقالات التى حملت فى مجموعها عصارة فكر هذا الباحث العربى الكبير والتى تصلح لأن تقدم فى سلسلة الأعمال الكاملة لكبار مفكرى الأمة العربية وهى خلاصة دراساته وتجاربه خلال هذه الأعوام الحافلة من حياة العرب والمسلمين .

تلك هى ذروة حياة السيد محب الدين الخطيب فيما عدا المرحلة الأولى من حياته والتى عاشها ومابين دراسته فى دمشق ثم استانبول ، حيث أحرز أجازة الأدب والقانون من أعلى جامعاتها .

وحيث شارك فى النهضة الفكرية العربية التى بدأت منذ أوائل هذا القرن ، وتلقى أول مفاهيمه على شيخه وشيخ الشام : « طاهر الجزائرى » وقرأ للشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى ومن استانبول إلى الشام إلى اليمن إلى الحجاز ثم إلى دمشق مرة أخرى ثم إلى مصر حيث انتهت مرحلة النضال بالقلم عام ١٩٠٩ على

وجه التحديد حين عمل السيد محب الدين الخطيب محررا فى المؤيد وأسس المطبعة السلفية ، ثم عرف أحمد تيمور باشا والشيخ الخضر حسين . وتحقق له إصدار مجله الفتح وإنشاء جمعية الشبان المسلمين وتقديم عشرات من المثقفين والأدباء والشعراء فى صدر مجلته ممن هم اليوم من أبرز الأسماء الأدبية اللامعة فى العالم العربى ، وفى خــلال هــذه الفترة أنشأ الأستاذ الخطيب مكتبته الزاخرة التى بلغت اليوم مائتى ألف مجلد .

قدم السيد محب الدين الخطيب للامة العربية منهجا متكاملا ونظرة متوازنة ورؤيا شاملة فى مجال الفكر والمجتمع والحياة كانت بالحق عصارة تجربته وخلاصة خبرته ونتاج قراءاته وهى ليست فكرة مبتكرة غير مسبوقة وإنما هى فكرة مكتملة قوامها المنهج الذى قدمه جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده وهى إضافة بناءة لإفكار كل المصلحين السابقين فى هذا المجال ممن سبقوه أو عاصروه أمثال العلامة طاهر الجزائرى ورشيد رضا وفريد وجدى وشكيب أرسلان عبد العزيز جاويش فقد كانت ميزة السيدة محب الدين أنه متحرر من قيود الوظيفة وأنه عكف فى دار صحيفته بضعة وأربعين عاما ينظر ويراجع ويوازن على طريقة « الفرد المعتزل » الذى لا مطمع له فى منصب أو جاه ، وإنما مطمعه الوحيد أن يقول كامه الحق وأن يلاحظ ويوجه بإخلاص وكان له من نشاطه الطويل الواسع فى مجال الحركة الوطنية والقومية العربية رصيد أمده بالخبرة الواسعة وأعطى كلماته العميقة .

التراث

وجوانب القول فى فكر السيد الخطيب كثيرة ومتعددة ولكنها تتجمع فى كلمة واحدة : هى أنهاض الأمة العربية لتأحذ مكانها الحق فى العالم ، مرة أخرى دورها الإنسانى والتاريخى وذلك عن طريق الثقافة والعلم والإيمان .

وهو غيور على اللغة العربية والتراث العربى الإسلامى غيرة كبرى وقد تقلد قلمه للدفاع عنهما فى مواجهة كل شبهة أو فرية أو قولة لغير وجه الحق .

وقد كانت دعوته إلى التخصص فى دراسة نواحى هذا الميرات العظيم وتنظيمه على النحو الذى يفعله المستشرقون والمستعمريون ولكن بنية غير نيتهم فهم ينظرون إليه — على حد قوله — بعين الضرة إلى بنات ضرتها ونحن نريد شبابنا أن ينظروا إليه بعين الأم إلى بناتها ، المستشرقون يدرسونه لسيتميئوا به على استعمار أوطاننا ونحن نريد من مثقفينا أن يدرسوه ليصلوا به آتينا بماضينا ويتخذوا من قوته حصنا يجمع شتاتنا ويحمى حمانا .

اللغة العربية

أما دفاعه عن اللغة العربيةفهو حجر الرحى فى حياته كلها وفكره كله ، فهو من المؤمن بامتياز اللغة العربية على جميع لغات الأمم بلا استثناء ، يقول : «فاللغة العربية التى أنزل لله بها القرآن كانت ومازالت معجزة اللغات ، وأنا أتحدى كل مشتغل بمقارنة الألسنة واللهجات واللغات فى أن العربية منذ كانت بالبادية لم تكن ولن تكون لأمة من أمم الأرض لغة بدوبة تضارعها كمالا وجمالا ودقة وأحاطة وبعد غور ، مع الصراحة التامة وبليغ الإيجاز . أن العربية لو خدمت معاجمها ونظمت تحت لواء قواعدها وعلى سننها ومذاهبها عشر ماخذمت به معاجم الإنجليزية أو الألمانية والفرنسية لكانت أحق لغات الأرض بأن تكون أعم لغات الأرض وأكثرها تداولا بين الألسنة وأرقها تعبيرا عن خطرات العقول مع استغنائها بنفسها عن غيرها ، واستقلالها بمادتها عن الاستمداد من لغات الأجانب ، تلك بعض مزاياها التى أهلتها لتكون أحدى المعجزتين اللتين اكتنفتا معجزة القرآن ، أما المعجزة الأولى فهى مكانة اللغة العربية بين اللغات ، والمعجزة الثانية هى حكمة من الله فى اصطفاء العرب ليكونوا أصحاب نبيه الأولين وأعوان الحق على انتشاره فى المشرقين والمغربين والنجاح المدهش الذى لقيه المسلمون الأولون فى تحويل مصر والشام والعراق وشمال إفريقيا إلى الإسلام وتحول لغاتها المحلية إلى لغة القرآن وهو عمل لا يمكن أن يتم بالقوة وكم بذل ناشرو الفرنسية فى الجزائر من جهود ، وبعد أن مضى على الجزائر مائة وثلاثون عاما بدا وكأنهم لم يصنعوا شيئا لافى الدين ولا فى

الجنسية أما العرب الأولون فقد مروا على الجزائر بنفحة من نفحاتهم التى لانظير لها فما لبثت أن تمت المعجزة فيها وفى جارتها شرقا وغربا وجنوبا فكان الإسلام دين الوحى وكانت العربية لغة الوطن ، كانت العروبة قومية الوطن، فامتياز العروبة على جميع لغات الأمم بلا استثناء معجزة الهية إراد الله بها تشريف هذه الأمة وتعريفها هى أولا ثم تعريف جميع الأمم بعلو مكانتها وعظيم مقدارها » .

هذا مفهوم السيد محب الدين الخطيب للغة العربية الفصحى ودورها الخطير فى فى حياة أمتنا ، وهو مفهوم قوامه إيمان عميق حتى أنه يقول :« أن العربية لاتقوى مدافع الدنيا وقذائفها علي تدمير معاقلها وتعجز شياطين الجن والأنس عن تشويه جمالها والتشكيك بسلطانها أو الوقوف فى طريقها ، وهى سائرة لتكون لغة المستقبل وقد يتأخر ذلك عن العصر الآتى أو اى عصر آخر يأتى بعده ، تتأخر لا بأدعاء للشائنين بل بتلكؤ أنصارها فيما يجب عليهم من عناية وخدمة يليقان بمقامها الأرفع ومعدنها الأكرم :

العروبة

أما العروبة فهو يقدم لها أعمق مفهوم واغنى مفهوم ، واشمل مفهوم وهو مفهوم أصيل مستمد من جوهر فكر هذه الأمة بعيدا عن استيرادنظريات القومية من امم اخرى وثقافات أخرى .

يقول : تعريف العروبة الصحيح: السجايا والأخلاق إذا نشرت بالقدوة وبالتعامل تجددت بها المعجزة العربية.أخلاق هذبها الإسلام وكلما كانت روح الناطق بالضاد أشد تعلقا بهذه الأخلاق وتشبعا بغذائها وإيمانا بصلاحها وقدسيتها، كان عرق فى عروبته واوغل فى التهذيب الذى لمستها به يد الإسلام ، والعربى المنسلخ عن هذه هذه الأخلاق خارج عن عروبته والقومية فى الحضارات يشهدها أهلها من لغتهم

المشتركة ومن مصالحهم المشتركة ومن سجاياهم الخلقية المشتركة ومن تعاونها جميعا على النهوض بهذه المواريث والاستعانة بها وبالعلم العالمى على إعداد مستقبل نبيل وبعيد فالعراقى عراقى وطنا وعربى قومية ، والمصرى مصرى وطنا وعربى قومية واليمنى يمنى وطنا وعربى قومية ، وهكذا سائر الأوطان التى تألفت منها الأمة العربية .

والوطن العربى يتصل بعضه ببعض من أقصاه إلى أقصاه ويكمل بعضه بعضا، وهو مع الاتصال الجغرافى والتكامل الاقتصادى والطبيعى ، واحد بلغة القرآن وواحد بالتراث الأدبى والثقافى وواحد بما امده به هذا التراث فى مئات السنين من سجايا وأخلاق ذات اصل واحد وعنده أن الثقافة التى تدعم العروبة هى التى تجمع الناشئة على التخصص فى العلوم الكونية والتمسك بالقيم الأساسية للفكر الاسلامى ومعرفة المفاخر القومية والمحافظة على الأمجاد المحلية ومتى نشأ الناشىء حريصا على دينه شديد الحب لوطنه ، كان ذلك ضمانة كافية لاستعمال معارفه الكونية فى مدافعة صولة المهاجمين وجشع المستعمرين وعنده أن مصدر العزة والنصر هو التربية والتكوين الصالح فالف متعلم يكونون تكوينا صالحا يكونون قادرين على أن يجعلوا عالمهم عالما صالحا للحياة .

ويقول : أن العلم عالمى والثقافة عربية والتربية إسلامية وأن الأخلاق والفضائل تحتاج إلى تربية أكثر مما تحتاج إلى تعليم . فمواد العلوم العالمية المحضة كالرياضيات والطبيعيات والمنطق متصلة بعقل الأمة ، ومواد الثقافة واللغة والتربية والتراث متصلة بروح الأمة ولابد منهما معا لبناء النضهة الحقيقية .

مصر

ومصر التى عاش السيد محب الدين بها وعاش من أجلها هى فى نظرة معجزة

الإسلام الخالدة ،فما احدث من انقلاب إجتماعى حول لغة مصر فى أسواقها وبيوتها وفى بيئاتها ومعاهد ثقافتها،إلا هذه اللغة السماوية التى يتكلم بها اليوم وهو ما حول نفوسهم وعقولهم وقلوبهم وايمانهم إلى حالة عجزت عقول ادهى الأمم عن أن توفق إلى مثلها أو إلى جزء منها فلم تفلح.هذا النجاح فى الأنقلاب الإجتماعى لم يقتصر به العرب على مصر حتى يبحث له المتنطعون عن علل خيالية وأسباب وهمية فقد سبق مثله فى الشام والعراق وتلاه فى شمال أفريقيا والسودان، ولو بقيت قيادة الإسلام فى أيدى أهله الأولين واستمرت طريقهم على ما كانت عليه لوصل هذا الأنقلاب بلغته وآدابه وعقائده إلى اليابان وإلى أمريكا وإلى كل مكان يسكنه البشر .

ويقول : أن أمجد ذكرى فى تاريخ مصر ، هى ذكرى يوم الجمعة المبارك الثانى من شهر محرم سنة ٢٠ للهجرة . ذلك اليوم الذى ظفر فيه كتاب أصحاب محمد الظفر الأخير بجيوش الروم الأجانب عن مصر ، فأذعن قوادهم لقواد جيش الله الغالب والقوا بين أيديهم فى قصر الشمع ثم حصن جزيرة الروضة سيوفهم التى لم تعد تصلح للدفاع عن سلطان الغرب فى هذه البقعة من أوطان الشرق فرددت آفاق الفسطاط والروضة والجيزة صدى كلمة « الله أكبر » وقد هتف بها فرسان عدنان وقحطان من الخافين من حول اللواء الأعظم الذى كان يرفرف فى ساعة الضحى من يوم الجمعة على رأس أمير الإسلام سيدنا أبى عبد الله : عمرو بن العاص السهمى القرشى .

العـدو

والسيد محب الدين الخطيب من أوائل المفكرين والأدباء الذين لفتوا النظر إلى خطر العدو الصهيونى ، كان ذلك منذ وقت طويل حين كشف حقائق الصهيونية وأسرارها وقدم نصوصا من التوراة المفتراه ومن قاموس الكتاب المقدس مما كتبه الصهيونية تحت عنوان «مملكة إسرائيل». وكشف عن دورهم فى محاولة الوصول إلى فلسطين منذ عام ١٨٤٤ وكيف طالبوا (محمد على) بأسكان اليهود فلسطين

وذلك قبل تأسيس الصهيونية السياسية عام ١٨٨٧ ثم ما كان من موقفهم مع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٢ .

التاريخ

وللسيد محب الدين الخطيب دعوة إلى تحرير التاريخ العربى الإسلامى وأعادة كتابته من جديد على نسق أكثر انصافا يقول : أن تاريخ العرب والإسلام كتب بعد زوال سلطان العرب وانتقال دولتهم إلى عز العرب وبعد إصطباغ الإسلام بصبغات طرأت عليه من فلسفات الأمم ونزعاتها واقيستها واقتناعاتها ويرى أن رسالة المشتغلين بالتاريخ والثقافة من علماء العرب تبتدىء باعادة النظر فى التاريخ العربى والإسلامى وتنقيته مما الصق بكرام الصحابة وعظماء الرجال أكاذيب وافتراءات وعنده أنه متى بدأ علماؤنا بكتابة تاريخ العرب والإسلام عادت إلى الناطقين بالضاد ثقتهم بأنفسهم وايمانهم برسالتهم .

وللسيد محب الدين الخطيب آراء ومواقف ومفاهيم فى مختلف قضايا الفكر الإسلامى والثقافة العربية والأدب العربى والتاريخ والتراث واللغة العربية حتى ليمكن القول أنه لم يدع قضية من هذه القضايا خلال هذه السنوات السنين دون أن يتناولها ويقول فيها رأيه وآراؤه دائماً مثال الاعتدال والحكمة والرصانة ومنهجه دائماً منهج التربية والتعليم وأسلوبه فى الكتابة أسلوب موصل إلى مختلف الثقافات والطبقات ، يصدر عن مفكر أكثر مما يصدر عن أديب .

وله موقفه من ترجمة القرآن ومن اللغة العاميـــة ، ومن الحروف اللاتينية واهتماماته بأمور التربية والتعليم من أبرز ما تكشف عنه مجلة الفتح .

وله مواقف حاسمة فى مهاجمة التبشير والتغريب والبهائية والمذاهب الهدامة والدعوات الضارة ، والكتاب الذين خاصموا العروبة والإسلام وكان له اهتمام عميق بقضايا الحرية والإستقلال فى المغرب العربى وخاصة تونس والجزائر والمراكش كما أولى اهتماما بأمور المسلمين فى الصين واندونيسيا والباكستان .

وله مفهومه الأصيل للاسلام عقيدة وشريعة واخلاقا تعد إمتداداً لجمال الدين ومحمد عبده واستاذه طاهر الجزائرى وصديقه رشيد رضا .

وبالجملة فإن السيد محب الدين الخطيب وأثارة تعد رصيداً ضخماً فى تراثنا العربى وفكرنا الإسلامى قد اضاف اضافات بناءة وقدم إجابات عميقة وزوايا جديده لمفاهيم الثقافة العربية وقيمها الأساسية .

أبو الأعلى المودودى

مازال الأستاذ أبو الأعلى المودودى قائما بالدعوة إلى الله منذ بدأ فى أغسطس ١٩٤١ توفى عام ١٩٨٠ حتى اليوم ومازالت مجلته (ترجمان القرآن) تقدم فهما واعيا حصيفا الإسلام بوصفهمنهج حياة ونظام مجتمع منذ ذلك اليوم. وقد اتيح له أن يقدم مفهوماللاسلام فىعشرات من القضايا التى تواجه المجتمع الإسلامى على نحو غايه فى السماحة واليسروبراعة الأداء وسلامه العرض .وقد كانت دعوته منذاعلانها «سعيا إلى رضاء الله تعالى بأقامه دينه فى كافة مناحى الحياة » والمبدأ الأساسى لفكره ومنهج سلوكه هو « اتباع » القرآن والسنه » يقول : أن هذا هو العامل المشترك الذى يجمع بين العاملين للاسلام مهما اختلفت بهم المناطق والأفكار ، وواجبهم هو التأكيد على مسايرة معتقداتهم وأعمالهم لكتاب الله وسنه رسوله والعزم على أن تكون (إقامة الدين) : هى رسالتهم الكبرى فى الحياة وأن يخلصوا طاقاتهم الجسمانيه والفكريه لخدمة دعوتهم هذه ، ويرى الأستاذ الوردى إستعمال مصطلح الدين بمعنى « الطريقة والمنهاج » وهذا هو المراد بالإسلام فالإسلام منهاج للحياة وطراز خاص من التفكير والعمل . يقول :

أن الإسلام كما يدعوه القرآن : هو منهاج لتفكير الناس وعلمهم ، ليس بدين مستحدث منذ أربعه عشر قرنا بل الحق أن الله قد أعلم البشر بالإسلام يوم ظهروا على الأرض لاول مره ، ولم تكن دعوة الرسل والأنبياء على اختلاف عصورهم إلا إلى الإسلام ، ولا يقدح فى ذلك أن اتباع موسى حرفوا من بعده « التوراه » وأن اتباع عيسى حرفوا من بعده الإنجيل واستحدث كلا الفريقين نظما سموها باليهودية والمسيحيه كذبا وزورا .

وهو يرى أن النوع البشرى — افراداً وجماعات — قد أخطأ خلال مجرى التاريخ البشرى الطويل فى فهم الإنسانية نفسها ، والأمور السياسيه المتعلقة بها وافرط فى الاعتراف ببعض الحقائق ووفرط فى بعضها الآخر حيث لم يدرك سرها ومغزاها

فكانت النتيجة أن نظم الحياة التى اختارها بين حين وآخر جاءت منحرفة عن الطريق القديم والذى يتطلبه الإنسان ويحتاج إليه أشد الاحتياج هو «منهاج للحياة» يبنى على مبادىء وقواعد عالميه ثابته دائمه ، بحيث يتمكن به الإنسان من اقتحام غمرات اليوم والغد والخوض فى شئونها المتحوله المتبدلة والخروج منها بسلام .

والإسلام فى مفهومه : هو مبادىء عالمية خالده لا تتعدد ولا تزول ستضىء للانسان بنورها فى جميع ما يطرأ عليه من حوادث وأحوال ، مبادىء تحدد وجهه الإنسان فى تفكيره وسعيه وكفاحه وتقدمه وتحفظه من الضلال والزيغ ، فقد جاء القرآن بحقيقه كبرى هى : أن الله ليس بخالق فحسب وإنما هو « الهادى » الذى انعم على كل مخلوق له بالهداية التى تقتضيها فطرته :

« وهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »

فالطريق الأقوم للبشر أن يتجرد عن انانيته وغروره ويسلم وجهه إلى الله، وهكذا نزل الإسلام نظاما للحياة كاملا وجامعا .

ويقول : وإذا كان معنى الإسلام هو الأذعان لأمر الله فيجب أن نلاحظ أنه لا يمكن الجمع بين الخضوع والإستسلام لله وبين الأستبداد بالرأى والحريه فى الفكر والعمل ، فالدين الذى آمنت يجب أن تفوض اليه شخصيتك كامله لا يستثنى منها جزء من أجزاء فكرك وعملك ومن مقتضيات الإيمان اللازمه أن تدخل فى السلم كافة حتى يكون ذلك الدين دينا لعقلك وقلبك وعينك وأذنك وليدك ورجلك ولجسدك ولعلمك ولسانك ولبيتك وأطفالك وزوجتك ولمدرستك ومجتمعك ولتجارتك ومكاسب رزقك ولسياستك وادبك .

هذا الفهم الإسلام الذى يبشر به الأستاذ المودوى هو صيحته الدائمه المتصلة التى يرددها ويوسع أفاقها فى عديد من ابحاثه حيث يقول :

أن مصير المسلمين فى الدنيا يتوقف على ازدهار الإسلام أو اضمحلاله إلى حد كبير. أن مجرد وجود المؤمنين بفكرة وعقيدة ونظام للحياة فى سائر انحاء العالم، بحيث يتجاوز عددهم الآفا مؤلفة ليكون أكبر وسيلة وأقوى عامل لتشجيع

الذين يؤمنون بتلك الفكرة والعقيدة والنظام للحياة فعلا ويرفعون لواءها . إلا أنه من الظاهر البين أن تلك العقيدة وتلك الفكره وتلك الدعوة إذا صارت مغلوبة الشأن ومهانة المكانة فى عقر دارها فأن المؤمنين بها المتفرقين فى شتى بقاع الأرض لن تقلهم الأرض ولن تظلهم السماء إلى أجل غير مسمى وإلى أمد غير قصير لذلك لا نكون مخطئين إذا قلنا : أن المصير الذى ستلقاه الأمه الإسلامية فى الدنيا إنما هو نفس المصير الذى ستواجهه البلاد الإسلامية التى تتسع رقعتها من أندونيسا والملايو شرقا إلى مراكش ونيجيريا غربا . أن مستقبل الأمة الإسلامية مرتبط فى خيره وشره بمستقبل البلاد الإسلامية . أن البلاد الإسلامية قد وقعت فى براثن الإستعمار آخر الأمر بعد أن بقيت مصابة إلى مده غير يسيرة بالتدهور الفكرى والجمود العقلى ، والانهيار الخلقى ، والإضطراب السياسى ، وأن من أفظع النتائج التى انتهينا إليها على يد الإستعمار الغربى هو ماترديناه فيه من الإنهزام الفكرى والإنحلال الخلقى والتبعيه الثقافية للغرب .

أن المستعمرين الغربيين لو سلبوا أموالنا سلبا ونهبوا ثرواتنا المادية نهبا وقتلونا تقتيلا وابادوا أولادنا عن بكرة ابيهم ودمروا بيوتنا تدميرا لما كان هذا الظلم اشنع نوعا وأشد قوة وأفدح نتيجة من الظلم الذى اقترفوه نحونا ببث سموم حضارتهم المادية وثقافتهم الألحادية وأخلاقهم المنهارة فى مجتمعنا وكان من سياستهم الإستعماريه انه كلما تمت لهم السيطرة والانتصار فى قطر من الأقطار الإسلامية قضوا على نظامها التعليمى والتربوى نهائياً — إذا أمكن لهم — أوجعلوا المتخرجين منه من سقط المتاع وشيئاً لا مقام له إلا فى سلة المهملات . كما أنهم ، حسب خطتهم المدروسه لم يدعوا للغات الشعوب المسلمة المنهزمة مكانتها المرموقه بل طردوها من دوائر التعليم والتربية ولم يبقوها إداة لإدارة الحكومه وأقاموا على انقاضها صرح لغتهم وجعلوها هى الأخرى إدارة التعليم وإدارة الحكومه ، وطبق هذه الخطه البشعه فى البلاد الإسلامية جميع الفاتحين الغربيين من الهولنديين والإنجليز إلى الفرنسيين والإيطالين . وكأنهم كانوا على اتفاق فيما بينهم فى هذا الشأن ثم أن المستعمرين الغربيين أنشأوا فى الشعوب الإسلامية طبقاً لخطتهم المرسومه ، : جيلا جديدا يجهل الإسلام بمعظم تعاليمه الساميه وعقائده الأساسيه وشرائعه السمحاء وتاريخه المجيد وتقاليده الذهبيه من ناحيه ومن ناحيه أخرى قد صيغ

من جهة عقليته وأسلوب تفكيره ونظره إلى طبائع الأشياء فى القوالب الغربيه المادية ، ثم بدأت تتولد فى هذا الجيل المتفرنج أجيال متعاقبه ، كان كل لا حق منها أبعد تمسكا بالإسلام من سابقة وأكثر اندفاعا وراء الحضارة الماديه وأشد شغفا بالثقافة الغربيه وأخلص ايمانا بفلسفه الغرب للحياة الإنسانية . وقد بلغ هؤلاء من الانهزام الفكرى مبلغه حيث عادوا يعتبرون التحدث بلغة الفاتحين مفخرة من المفاخر ، وكانوا يفتخرون بمروقهم عن الدين واستهتارهم بأحكامه ويكيدون لتقاليدهم الذهبية كل كيد ولم يدخروا جهداً فى تقليد الغربيين فى كل صغير وكبير من أساليبهم فى الأكل والشرب إلى عاداتهم للنهوض والقعود ، وأخيراً قد دخلوا كل جحر دخله الغربيون ونهلوا من سموم أفكارهم الماديه الالحادية — كالعصبيات الجاهليه والأباحه الخلقية والمجون والخلاعة حتى الثمالة . وكان من خطط الإستعمار المدروسه ضد المسلمين أن كل من يحرز قصب السبق فى اصطباعه بالصبغة الغربيه وابتعاده عن السمات الإسلامية يحوز المكانه المرموقه فى المجتمع والدوائر الرسمية ثم هم الذين تزعموا الحركات السياسيه وهم الذين وقع عليهم الإختيار للتمثيل فى المجالس النيابية . ثم انتقلت اليهم أزمه الحكم وسلطات الحل والعقد ، فصاروا خلفاء المستعمرين فى الأرض » .

* * *

تلك هى الصورة التى يضعها الأستاذ المودودى أمام المسلمين ليبنى عليها دعوته :

أننا مطالبون بالعوده إلى منهاجنا حتى يعود إلينا كياننا : يقول :

يريد المسلمون الرجوع إلى الإسلام وشريعته السمحه ونظامه المحكم بينما لا تزال هناك قوى ترغمهم على الاستمساك بأذيال الغرب والالتحاق بمعسكره . ومن جراء هذا الوضع المؤلم فإن البلاد الإسلامية لا تزال تصيبها كوارث الدكتاتوريات .

وآن هناك بارقه أمل : فى هذا الظلام الحالك تلمع فى ضوئها حقيقتان :

أولاهما : أن الله تعالى أذاق أنصار الألحاد والفسوق ودعاة الأباحية والمجون وبال أمرهم فالبسهم شيعا يذبق بعضهم باس بعض ، وهذا من فضل الله على الأمة : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) إذ لو أنهم كانوا يرمون عن قوس واحد لأصبحوا للامة الإسلامية داء عضالا لا علاج له ولـكنهم اتخذوا الشيطان وليهم وإن كيد الشيطان كان ضعيفا .

ثانيهما : أن قلوب عامة المسلمين لا ينقصها التحمس للدين والفضيله،ولا يروقهم مايقوم به القاده المصطنعون من عمليه الهدم والتخريب وأن هناك من الشواهد مايدل على أنه إذا قامت جماعه راشده تتوافر فيها شروط الأهليه والـكفاءة للقيام بدور الزعامه والتوجيه فى جانب وفى الجانب الآخر تـكون على ايمان راسخ بالإسلام وعلى عقيدة قوية بمبادئه وعلى عزيمة صادقة للتضحية بكل غال ورخيص فى سبيله فلا شك أن هذه الجماعة هى التى سيؤول إليها زمام الشعوب الإسلامية آخر الأمر وهى التى سيكتب الله لها الأنتصار فى المعركه الفاصله بين الحق والباطل وهى التى ستتولى تطهير تلك الشعوب من أدناس الألحاد والفسق والفجور وترجع بها إلى ما كانت عليه فى القرون الماضية » .

هذه هى الرؤيا التى يقوم عليها الإتجاه الفـكرى للاستاذ أبو الأعلى المودودى هادئه سمحه بعيدة عن كل ضجيج أو صياح أو جفاف أو استملاء مستمدة مفهومها وروحها من القرآن نفسه الذى دعا المسلمين إلى اصلاح مجتمعهم كلما انحرف ، وفـكرهم كلما اضطرب بالتماس المنابع الأصيله المستمده من القرآن : هذا الأصل الثابت الربانى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذى التمسه المسلمون فى كل أزماتهم ومواقفهم فهداهم وأنار لهم الطريق .

٣)

الجماعة الإسلامية جماعة تدعو إلى أقامة النظام الإسلامى بكليته كما عبر عنها الأستاذ المودودى فى أحاديثه المختلفة . تأسست فى أغسطس ١٩٤١ وهى تمثل الآن قوة هامة فى الحياة الاجتماعية والسياسية فى الباكستان والعالم الإسلامى لها فروع فى كافه مدن وقرى باكستان كما أنها تعتبر أكثر الأحزاب تنظيما فى باكستان

ولا ريب أن للاسلام تاريخ طويل فى شبه القارة الهندية وأبرز التحديات الق واجهت المسلمين هى الإحتلال البريطانى وكيف قاومه المسلمون بالجهاد واحتشدوا له فى ثورة كبرى كادت تبطش بالإنجليز بطشه كبرى تقضى على سلطتهم فى البلاد وقد دامت الثورة أربعه أشهر من عام ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧ م اولا أن المؤامره دبرت بليل عن طريق خصوم المسلمين وكان الدعاة يؤمنون بمذهب التوحيدالذى ظهرفى الجزيرة العربية ومن هنا كانت خصومة الاستعمار الإنجليزى لهذه الدعوة وتاليب الدولة العثمانية للقضاء عليها ، ولقد واجه الاستعمار المسلمون منذ ذلك الوقت بأسلوب جديد ، أستهدف القضاء علي نفوذهم وكيانهم تماما حيث أبعدوا عن التعليم والمناصب وأضطهدوا باسم كلمة « الوهابية » وجاء بعد ذلك من دعا المسلمين إلى قبول الاستعمار والإحتلال باسم طاعة أولى الأمر ، وحرص الاستعمار على تبنى دعاوى باسم الاسلام تتنكر لأعظم فرائضه، تتنكر للجهاد كالقاديانية وغيرها، ثم أستطاع المسلموبهم أن يلتمسوا منابع فكرهم حين أقاموا ندوة العلماء ، وتركزت الأمور فى يد الساسه الذين كانوا يؤمنون بالتفاهم مع المحتلين ولايرون إلا منهجهم فى الحكم وأسلوبهم فى الحياة منهاجا ، شأن الاستعمار فى مكان ، حين يقضى علىدائرة الاصالة ويشكل دائرة الولاء الذى يسلم أصحابه مقاليد البلاد وفى هذه الفترة ظهر كثيرون من المجاهدين: بعد السيد أحمد عرفانقائد الثورة المظفرة ظهرأقبال ،وأبو الكلام إزاد ، مولاى محمد على .

أما رجال السياسة الذين قادوا المسلمين وخاصة دعاة الرابطهالإسلامية نقدكانوا على حد تعبير الأستاذ مسعود الندوى ممن تخرجوا فى الكليات العصريه ولم يكن لهم سابق علم ولامعرفه بالدين ومبادئه ونظمه الخالدة ، فانهم لما رأوا العلماء حملة الدين فى هذا العصر يؤثرون الانضمام إلى صفوف الهنادك أساءوا الظن بالدين نفسه ولم يتحرجوا من الاستخفاف بأصوله وأحكامه . وقد كثر سواد المسلمين الجغرافين أو المسلمين بالوراثه فى صفوف الرابطه الإسلاميه سواء أكان شيوعيا أو أباحيا أو ممن لأخلاق لهم من المروءة والشهامه ، وقد بلغ من غلواء الدعاة إلى القومية الهنديه المشتركه ماجعل أولى العلم والرأى على حذر من جانبهم فإن هذه الدعوة إلى الثقافة المشتركة ومناهج العيش المتحدة قد صرفت ببعضهم إلى عهد (أكبر)

المقوت ، وسولت لهم أنفسهم أن يستعيدوا ذلك العهد الذى بلغت فيه الدعوة إلى الامتزاج الدينى والثقافى أشدها » .

كان هذا هو الارهاص الشديد لظهور الجماعة الإسلامية ، وظهور أبو الأعلي المورودى « رجل مؤمن من هذه الأمه ، عالم بكتاب الله وسنه نبيه ، مطلع على ميول العصر ونزعاته ومقتضياته ومطالبه ، بصير بأدواء الأمة وعللها ، شرع فى هذه الدعوة : الدعوة إلى الدين الخالص وإحياء مآثره ونظمه وأقامه شعائره والأذعان للشريعة الإلهيه فى كل صغير وكبير من شئون الحياة بإنشاء مجلة شهرية (ترجمان القرآن) تعنى بنشر هذه الفكرة : فكرة الإسلام الشامل وإذاعة خصائصها ومحاسنها وتبين أصولها وفروعها حتى يقبل الناس عليها وهم علي بصيرة من أمرهم ويلبوا الدعوة بأعماق صدورهم وقلوبهم . بدأ إخراج مجلته عام ١٣٥٢ هـ ١٩٢٣ تبث أفكاره وتوضح تعاليم الإسلام الخالده ونظراته السديدة فى الحكم والعمران والاقتصاد والسياسة التى غفل الناس عنها ، ولا يكادون يؤمنون بها إيمانا صادقا (كاشفا) عن العلل والادواء التى لصقت بأفكار المتأخرين الجاحدين من علماء الإسلام فجعلتهم لا ينظرون إلى الدين الكامل . كذلك أخذ على المجددين الذين تشبعوا بأفكار الغرب وأرائه الباطلة المزخرفه ، تنكبهم محجة الشريعة الخالدة وجهلهم لمبادىء الإسلام وأسسه المتينه وتهافتهم على الأفكار المستوردة من الغرب من غير فهم ولاتبصر » وبين بأساليب متعددة وطرق متنوعة « أن الإسلام دين متكامل شامل محيط بجمع شعب الحياة وفروعها لاينذ عنه شىء ، ولا يشذ عن دائرته جزء وذلك لمارسخ فى أذهان القوم من أن الدين عبارة عن مجموعة من العقائد والعبادات ولاعلاقه له بشئون الحياة العامة البته ، وأن الإسلام دين متكامل له أصوله ومبادئه ودستوره للحكم وقوانينه للسلم والحرب وسائر شئون الحياة فمن أراد أن يأخذ بالإسلام فليأخذ بجميع أجزائه وشعبه ، ومن أراد أن يدخل فى الإسلام ، فليدخل فى دائرته بجميع حياته والمسلمون الجغرافيون الذين لا يقبلون الإسلام دستوراً لحياتهم وقانونا لدولتهم ، ليسوا من الإسلام بالمنزلة التى يريدها الله منهم ويفرضها على عبادة » .

وهكذا مضى الأستاذ المودودى فى عمله هذا حتى تجمع حوله عدد كبير من الشباب المسلم حينئذ أسس بهم الجماعة الإسلامية ١٣٦٠ هـ ١٩٤١ م حيث اجتمع خمسة وسبعون رجلا فى لاهور واتفقوا على تأسيس جماعة إسلامية للنهوض بدعوة الإسلام الخالصة وإعلاء كلمة الله فى أرضـــه وانتخب المودودى أميرا للجماعة واستهدفت الجماعة إعـداد العاملين المخلصين للنهوض . بالأعباء الخطيرة والقيام بالتبعات الثقيلة مستهدفة إنشاء الأمة الخاصة، التى تتمثل نظام الإسلام فى حياتها وأسرتها ومعاملاتها وإيمانا بأن الطبيعة البشرية لا تزال هى هى على ما كانت عليه عصر النبى ومن هنا دعى الأنصار إلى التعاقد على ما جاءت به الشريعة من شروط فلا يعامل أحسدا إلا على الصدق ولا يعاقد قريبا أو أجنبيا إلا على ما جاءت به الشريعة من شروط ولا يرضى بالعقود الفاسدة المحرمة فى الشريعة فإن المسـلم يلتزم الصدق ويقول الحق حتى على أعواد المشتقة ، ذلك كان فهمهم وطريقهم ومن ثم استقال أعضاؤها من الحكومة البريطانية وانقطع المحامون من رجالها عن المحاماه أمام المحاكم بغير ماانزل الله وأبوا أن يتعاطوا الربا والعقود المحرمة ، وحرموا على أنفسهم كل ماحرمه الله ورسوله وأن كلفهم ذلك متاعب وشدائد لاقبل لعامة الناس باحتمالها .

فلما جاء عهد الاستقلال ١٩٤٧ كانت الجماعة قادرة على أن تقدم منهج المستقبل وأن تبرز لدعوة الأمة الى إحياء نظام الإسلام وأقامه الدين الـكامل. وكان فى ذلك مشقة كبرى عليهم فإن الذين قادوا حركة الاستقلال وتولوا زمام الأمر بأيديهم كانوا يؤمنون بالنهج الغربى ومن ثم فقد كان على الجماعة أن تسير فى منهاج طويل بصبر كبير وقد استطاعت فى خلال السنوات الطويلة أن تحقق هدف أقامه هـذا المجتمع الإسلامى الذى يتسع الآن وينمو فى صبر وثبات .

ومن أهم الثمرات التى أمكن تحقيقها توحيد الجبهة الاسلامية ، ذلك أنه توجد

فى باكستان ثلاث مذاهب فقهية فقط وهى الحنفية وأهل الحديث والشيعة الأمامية وفى عام ١٩٥١ إتفق قاده هذه الأحزاب الثلاثةعلى أن تكون الحنفية هى المذهب القائم نظراً لأن أتباعها يمثلون الأغلبية الساحقة مع إحتفاظ أتباع المذهبين الأخيرين بحقوقهم فى تطبيق الفقه المتمشى مع مذهب كليهما فيما يختص بالأحوال الشخصية أما الخلافات الخاصة بالعقيدة والكلاميات فلم تظهر الحاجه إلى آثارها إذ أن حل تلك الخلافات يعتبر صعبا يقدر ماهو ضرورى .

وقد أشار إلى هذا المعنى الأستاذ المودى حين قال : الخلافات المذهبيه بين المسلمين لم تصل إلى ماوصلت إليه من فرق الأديان الأخرى وخاصة المسيحبة لا فى طبيعتها ولا فى مداها ، فلاخلاف به المسلمين على البادىء الأساسية للاسلام مثل وحدانية الله ونبوة محمد علية السلام والاعتقاد فى أن القرآن هو كلمة الله هدى للعالمين والإيمان باليوم الآخر ، إذ أن المسلمين كافة مهما تباينت مذاهبهم يتقبلون القرآن والسنه كمنبع هدايتهم يرجعون إليها فى حل مشا كلهم كلها ، كما أنه لايوجد إختلاف على المبادىء الأساسية للبناء الاجتماعى عن المسلمين ،إنماوجدت الخلافات فقط فى الأمور التفصيلية مما يعد أمراً طبيعيا جدا فى مجتمع إنسانى يضم أناسا من مختلف المناطق والأجناس والثقافات وأنه لمن الخطأ أن تسمى هذه الخلافات (إختلافات مذهبيه) لأنها تمثل إختلافات فقهيه محصورة داخل إطار دينى وقانونى وماحاولت الحركه الإسلامية فى الباكستان القيام به هو وضع هذه الاختلافات موضعها المناسب وتركيز الاهتمام على مجالات الإتفاق والإلتقاء الواسعه فى محاولة خلق روح تسامحية صادقة وأفساح المجال ليصل أكثر من رأى واحد فى حالة وجود الآراء المتعددة . وأن هـذا النوع من التفاهم إحيا ثقه متبادلة بين قواد المدارس المختلفة مما جعلهم يواجهون مشا كلهم بشجاعة وإتحاد .

(٣)

أبرز ماتتمثل بهدعوة الجماعة الإسلامية بقيادة المودودى هى الصبر الوضوح والتربية ومغالبة الزمن والعرف وهو يقول ذلك صراحه وعلانية : لاتستعجلوا الأحداث ، لاتحاولوا أقامة نظام إسلامى على أسس غير سليمه ، أو على دعائم ضعيفه وقواعد متزلزله، بل يجب عليكم الصبر فى هذا الشأن ؛ لأن الأهداف التى نريد تحقيقها إنما هى أهداف ضخمة كبيرة ترمى إلى تصحيح القيم الإنسانية فى أفهام الناس وإلى إعادتهم إلى حظيرة الإسلام بعد الردة التى هم عليها منذ زمان طويل . ومثل هذا العمل يحتاج إلى مثابرة ومصابرة وإلى تفكير عميق . كما أنه يجب عليكم أن تخطو كل خطوة بحساب وبحكمه وتبصر ، ولاتخطو خطوة جديدة إلا بعد أن تراجعوا نتائج خطواتكم السابقة وتدرسوا ثمارها ، هل هى صارت فى الطريق المرسوم ، وهل جائتكم بالنتائج المرجوة . ومن المشاهد المسلم أن الاستعجال أمر غيرمأمون العاقبه فاشتراكنا مثلا فى وزارة غير صحيحه وغير مؤمنة بمبادئنا على رجاء أن مشاركتنا فيها خطوة تقربنا إلى غايتنا هو أمر خاطىء لأن التجارب العلميه يؤكد بأن مثل هذا العمل لاتجنى منه الثمار الطيبه لأن الذين يشاركون فى نظام لابد لهم من مسايرته ومعنى هذا أنهم يصبحون آخر الأمر أبواقا لهم والة فى أيديهم يفعلون بهم مايشاؤون ويستغلونهم كما يريدون .

كذلك أنصح لكم أن لاتقوموا بعمل جمعيات سرية لتحقيق الأهداف وأن تتحاشوا إستخدام العنف والحرب والسلاح لتغير الأوضاع لأن هذا الطريق ايضا نوع من الاستعجال الذى لايجدى بشىء ومحاوله الوصول إلى الغاية بأقصر طريق. أن هذا الطريق أسوأ عاقبة وأكثر ضرراً من كل صورة أخرى ، وأن التغيير الصحيح قد حصل فى الماضى وسيحصل كذلك فى المستقبل بعمل علنى ونشاط واضح وضوح الشمس فى رابعة النهار ، فعليكم أن تنشروا دعوتكم علنا وتقوموا بإصلاح قلوب الناس وعقولهم على أوسع نطاق وتسخروا الناس لغاياتكم المثلى

بسلاح من الخلق المذب والشمائل الكريمة والسلوك الحسن والموعظة الحسنة والحكمه البالغة وأن تواجهوا كل مايقابلكم من المحن والشدائد مواجهة الأبطال . هذا هو الطريق الذى يمكن من عمل عميق الجذور راسخ الأسس قوى الدعائم كبير النفع فى حق هذه الأمة المسكينه ، ومثل هذا العمل لا يمكن لأى قوة معادية أن تقف فى وجهه وأقول أن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها أما إذا إستعجلتم فى الأمر وقمتم بعمل الانقلاب بوسائل العنف ثم نجحتم فى هذا الشأن إلى حد ما فسيكون مثله مثل الهواء الذى دخل من الباب ليخرج من النافذة ، هذه هى النصيحة التى أحببت توجيهها لكل من يقوم بأمر الدعوة الإسلامية » .

وتلك هى خبرة التجربة الواسعه لخمسين سنة فى العمل الإسلامى يقدمها الأستاذ المورودى مع منهج كامل للعمل .

أولا : معرفة دقيقه بحقيقة الإسلام لتكونوا مسلمين علما وتفكيرا كما أنتم مسلمون قلبا وعاطفه ولتكونوا على قسط كبير من القدرة الكافية والكفاءة اللازمه لتيسير الشئون الاجتماعية فى العصر الحاضر وفقا لأحكام الاسلام ومصالحه وقواعده .

ثانيا : المبادرة إلى تقويم ما أعوج وإصلاح مافسد من أخلاقكم وعاداتكم حتى تشهدوا بذلك شهاده عملية للاسلام الذى شهدتموه من قبل شهادة قوليه ولتعلموا بأن التناقض فى قول الإسلام وعمله يزرع بذور النفاق فى القلوب ويزيل ثقة الناس به وأن النجاح يتوقف على الإخلاص فى النية والصدق فى العزيمة وعلى أن توافق أعمالكم أقوالكم (يا أيها الذين آمنوا لم يقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

ثالثا : بذل الاستطاعة من قوة فكرية وعملية فى سبيل الدعوة بالكتابة والخطابه والقيام بدراسة أسس الحضارة الغربية وإنتقادها وتمييز خبيثها من طيبها حتى تحرروا بذلك عقول المسلمين وقلوبهم من التبعة للغرب ، وحتى تحطموا

أصنام النظريات الغربيه التى استحوذت على قلوب جماعة من المسلمين من زمن طويل .

رابعاً : القيام بتدوين وعرض قوانين الاسلام للحياة الإنسانيه بطريقة علمية ترغم الجيل الجديد على الاعتقاد بصحه هذه القوانين وتقنعه بأن نظام الإسلام من شأنه أنه إذا أخذبه شعب من شعوب العام لايتقدم فحسب ، بل يسبق الآخرين فى كل ناحيه من نواحى الحياة . أن هذا العمل بقدر مايتسع نطاقه ويتجه إلى خطوط مستقيمه يزداد عددالعاملين للدعوة الإسلاميه وأنصارها والمتأثرون بها فى كل شعبه من شعب الحياة ولابد من إطالة هذا العمل لمدة غير يسيرة حتى يأتى على الدعوة يوم ينضوى تحت لوائها مجموعة كبيرة من المؤمنين بها ، الذين نحتاج إليهم لتشييد صرح البلاد على دعائم النظام الإسلامى .

خامسا : نشر الدعوة بين صفوف العوام حتى تبددوا جهلهم وتجعلوهم على بينة من أمر دينهم وحتى يتبين لهم الخبيث من الطيب، كما يجب .الاهتمام بإصلاح أخلاقهم ورفع مستوى تفكيرهم ووعيهم الإسلامى ليقفوا شداً منيعا فى وجه السيل العارم من الإلحاد والفسوق الذى ينتشر بسرعه فى البلاد الإسلاميه،ذلك أن الشعوب التى الهتها شهواتها لا يمكنها أن تكون أرضا طيبه لأن تقوم منها دولة إسلامية ولأنه بقدر ماتفشو الميوعه وتنتشر الخلاعه بين عامه الناس يصبح من المستحيل أقامه نظام إسلامى فيهم وأن الكذابين والخونه والفسقه والعجزة قدر ما يصلحون لنظام كافر لايصلحون لنظام إسلامى .

سادسا : إنى أقول للمسلمين صراحه أن الديمقراطيه والقومية والعلمانيه تعارض ما يعتنقوه من دين وعقيدة وإذا استسلمتم لها فكأنكم تركتم كتاب الله وراء ظهورهم وإذاساهمتم فى أقامتها فستكونون بذلك قد خفتم رسولكم الذى أرسله الله لكم . أن الاسلام الذى تؤمنون به وتسمون أنفسكم مسلمين على أساسة يختلف

عن هذا النظام المقوت أختلافا بينا ويقاوم روحه ويحارب مبادئه الأساسيه بل يحارب كل جزء من أجزائه ولا انسجام بينها فى أمر مهما كان تافها لأنهما على طرفى نقيض فحيث يوجد هذا النظام فإننا لا نعتبر الإسلام موجودا وحيث وجد الإسلام فلا مكن لهذا النظام .

سابعاً : لا يصح تفسير الإسلام بواقع المسلمين فى الوقت الحاضر القول بإسلام العصر الحاضر ، هذا إسم لا مسمى له ، لان الإسلام لا يتقيد بقيد الماضى و الحاضر، بل أن الإسلام حقيقة خالدة ابدية ظلت ناصعة بديهية إلى ماقبل ملايين السنين وستظل .

(٤)

ولد الأستاذ أبو الأعلى المودورى فى ٢٥ أيلول ١٩٠٣ م فى مدينة أوزنك اباد فى مقاطعه حيدر أباد وكانت ولادته فى أسرة علمية صوفيه تعرف بالأسرة المودوديه نسبة إلى الشيخ قطب الدين المودودى جتشى مؤسس الطريقه الجتشية فى الهند المتوفى ٥٢٧ هـ وكان والده عالم شديد الورع أحب أن يعلم ابنه فى مسقط رأسه وفى بيته حتى لا تؤثر فيه الحضارة الغربية.بدأ نشاطه فى سن السابعه عشرة كصحفى إسلامى تولى منصب رئاسه تحرير جريدة (تاج) الصادرة فى جبل نور وجريده المسلم ثم أصدر مجله ترجمان القرآن عام ١٩٣٢ ولا تزال تصدر إلى اليوم .

أهلته القيادة للفكرة الإسلامية وتجمع حوله الشباب المسلم المثقف واستطاع أن يكون الجماعة الإسلاميه العامله المؤمنه ، قام برحلات عديده إلى البلاد الإسلاميه وله مائه كتاب من سفر ورساله فى السياسة والقانون والتربيه والاقتصاد والإجتماع والأخلاق ومن أعظم اثارة كتابه (تفهم القرآن) فى أربع مجلدات .

وقد واجه فى هذه المرحله شبهات التغريب والاستشراق والقوى الماديه للاسلام فدحضها واحدة بعد أخرى . الف (كتاب الجهاد) فى خمسمائه صفحه على أثر قول غاندى بأن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف ولما الف كتابه المساله القاديانيه

حيث كشف زيف هذه النحله عام ١٩٥٣ القى البقض عليه وسجنته الحكومة الباكستانية وصدر قرار المحكمة العسكرية بإعدامه ، وضج العالم الإسلامى لهذا العمل البشع واضطرت الحكومة إلى استبدال حكم الإعدام بالسجن المؤبد ، مع الأشغال الشاقة ثم رفعت القضية إلى المحكمة العليا فى لاهور فأطلقت سراحه عام ١٩٥٥ .

وأبرز اثارة .

١ — المسلمون ومعضلات السياسة الحاضرة .

(رد فيه على نظرية التفريق بين الدين والسياسة وأنذر المسلمين بالمواقب السيئة لإتباعهم خطط السياسة القومية والوطنية المرجاء)

٢ — القانون الإسلامى .

٣ — الربا :

رد فيه على الشيوعية والرأسمالية ، وشرح موقف الإسلام من الربا ونظامه الإقتصادى وبيان وجهه نظر الإسلام فى باب المصارف والتأمين .

٤ — الحجاب :

تناول فيه الحياة الاجماعه والعشرة البيئية فى النظام الغربى الأوربى وكشف عن سوأتها وما فيها من الفاسد ثم رد عليها رداً مفحما حسب قواعد الفطرة والشرع وأوضح نظام الحياة الاجتماعية والأسرية فى الإسلام مستنداً إلى كتاب الله وسنة نبيه والفطرة السليمة الإنسانية .

٥ — نحن والحضارة الغربية .

٦ — حركة تحديد النسل فى ميزان النقد .

٧ — معضلات الاقتصاد وحلها فى الإسلام .

٨ — الإسلام فى مواجهه التحديات المعاصرة .

وقد ترجمت مؤلفاته إلى اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية وإلى اللغات المحلية البنغالية والهندية وغيرها .

* * *

ولا ريب أن الفكرة الإسلاميه كما عرضها الأستاذ المودودى هى نتاج إسلامى خالص ، وهى معروضه على المسلمين فى كل مكان ، وموافقة لما حمله رجال كثيرون سبقوا المودودى وعاصروه وجاءوا بعده فى إجراء كثيرة من العالم الإسلامى وخاصه فى الوطن العربى وهى فى نفس الوقت تعالج قضية باكستان نفسها كجزء من العالم الإسلامى وإن كانت هناك بعض تفسيرات للمفاهيم الاسلامية فرضتها تحديات البيئة فى الباكستان.

قال الأستاذ المودودى فى محاضرته بكليه لاهور (يناء ١٩٤٨) :

أن باكستان لابد أن تكون دولة إسلامية صحيحة ولا بد أن تنفذ فيها القوانين الإسلامية بدل القوانين الوضيعه الأجنبية وأن هدف الجماعة هو إقامه الدين الحنيف والدافع الحقيق وراءه إنما هو نيل مرضاة الله . والمراد بأقامة الدين هو اتباعه بكليته دون تفريق أو تعديل بكل اخلاص وتطبيقه بكامله فى جميع مرافق الحياة البشريه الفرديه والإجتماعية حتى يصبح أرتقاء الفرد وبناء المجتمع وتنظيم الدوله طبقا لمقتضيات هذا الدين » .

والجماعه الإسلامية فى باكستان تضم من قادتها الأركان ستمائه رجل ونيفا: الذين أمنوا بسمو دعوتها ووقفوا حياتهم للوصول إلى غايتها العليا وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها أو يموتوا فى سبيلها . وأنصارها وهم الذين لبوا دعوتها ويبذلون جهدهم المستطاع فى سبيل نشرها وتعميمها ويبلغ عددهم بضعه آلاف من النفوس .

وهناك المتأثرون بدعوتها وهم جمع كبير منتشرون فى كل مكان .

وبالجمله فإن أهم مادعى إليه الأستاذ المودودى وجماعته هو :

١ — النظر إلى الإسلام على أنه دين شامل يعالج أمور الحياة جميعاً وليس هو بالدين الذى يقتصر على العبادة وحدها .

٢ — مقاومه التيار الغربى الالحادى الشيوعى بتيار علمى وفكرى مستمد من الإسلام وقائم على اساس محاربة الفكرة بالفكرة .

٣ — البعد عن جانبى الجحود والجمود لمبادىء الإسلام ، مع التمسك التام بمبادىء الإسلام الحقة وجعل الكتاب والسنه الاصل الأصل لكل الاعمال دون أن تسخر النصوص للاهواء والنظريات . وإنما تحمل النظريات والآراء تبعاً لاوامر الله رسوله .

وقد توفى الأستاذ المودودى إلى رحمة الله عام ١٩٧٩ بعد أن أدى واجبه كاملا فى سبيل إعلاء كلمة الله .

(٣)

ابو الحسن الندوى

من أبرز من اخرجته ندوة العلماء : العلامه الأستاذ الحسن أبوالحسن الندوى، الذى هو فى أصله الأصيل حفيد الإمام أحمد عرفان أول من أقام الدوله الإسلامية فى الهند فى العصر الحديث فى مواجهة الاستعمار البريطانى وقاومه فى ثورة عارمة استشهد فيها وترك أثره البعيد فى أجيال متعددة وهو واحد من أبرز نتاج ندوة العلماء « الندويون » الاعلام المتابعين منذ انشأت دار العلوم فى مدينه لكنو وكان على راسها الشيخ شبلي النعمانى ، الذى كان له فى الأدب العربى والفكر الإسلامى آثار هامه فقد عارض ونقد ما كتبه جرجى زيدان عن التمدن الإسلامى ورد الأمور إلى الحق ، ثم برز بعد ذلك العلامه سليمان الندوى ومسعود الندوى ثم جاء أبو الحسن فكان قمه عاليه من العلم والفضل .

وقد عمل هؤلاء جميعاً فى مجال دحض الشبهات وتصحيح المفاهيم وتحرير القيم الإسلامية من الشبهات والأخطاء والتحولات التى استهدفها الإستعمار والتغريب والغزو الفكرى بل أن ندوة العلماء ودار العلوم التابعة لها قد نشأت ١٣١١ هـ فى أواخر القرن التاسع عشر لمواجهة الدعوة التى كانت تحاول أن تسيطر على المسلمين فى ظل الارساليات ومناهجها التى تفهم الاسلام فهما قاصراً وتحاول الغض من أبرز معالمه وهو الشريعة والجهاد .يقول الأستاذ مسعودالهندوى[1] : قام بتأسسها جماعة من فطاحل العلماء وأولى العلم والرأى ممن أحسوا بالخطر الداهم والشر المتفاقم نتيجهانتشار الثقافتين المتناقضتين، وشعروا بالحاجه الماسة إلى منهاج معتدل فى التعليم والثقافة ينشىء الشبيبه المسلمه على الأخلاق والآداب الإسلامية المرضية ، ويكون

(١) ك : نظرة إجمالية فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند وباكستان .

جيلا من الشباب متضلعا فى علوم الكتاب والسنة ، آخذا بنصيب من العلوم العصريه واللغة الإنجليزية ، حتى يكونون أهلا لتأدية الواجب الدينى والعلمى على أحسن ما يرجى من الشباب المسلم فى هذا العصر .

وقد دعت ندوة العلماء فيما دعت إلى الوئام والتقريب بين أبناء الطوائف الإسلامية المتمسكة بتوحيد الله ورسالة خاتم الأنبياء ومضاعفة جهودهم ومساعيهم لاصلاح ذات البين حتى يسهل عليهم الأمر فى رد كيد الاعداء والدفاع عن حوزة الحنيفية السمحه التى مازالت تتتابع عليها الحملات بعد الثورة على النفوذ الأجنبى وزوال ملك المسلمين ، وكذلك اهابت بالقائمين على المدارس الدينية والمديرين لشئونها أن يعدلوا مناهج التعليم عندهم ويحلوا الشباب بالمواد الجديدة النافعة فى مقررات الدروس ويقللوا من خرافات اليونان الباليه التى أكل عليها الدهر وشرب .

ومن خصائص دار العلوم (ندوة العلماء) التى لا تنازعها فيها مدرسة ولا كليه ولا جامعة) فى الهند كلها إنها اهتمت بتدريس اللغة العربية كلغة حيه إنشاء ونطقا ، وندبت لذلك اساتذة من بلاد العرب فى مختلف ادوارها ، كما عينت بارسال الأذكياء من طلبتها ومتخرجيها إلى بلاد العرب ليرتووا من مناهج اللغة العربية ولترسخ فيهم ملكه الأدب العربى وكان من نتيجة كل ذلك أن ظهرت فى الامة طبقه من العلماء قادرة على الإعراب عما فى ضمائرها بلغة الضاد نطقا وكتابه وتزال دار العلوم التابعة لندوة العلماء حامله بيدها لواء لغة القرآن بإزالة الجهد المستطاع فى نشر هذه اللغه الكريمة ، كذلك شاركت فى سائر ميادين النشاط الفكرى والأدبى ، وبفضل جهودها ومناهج التعليم والتربية فى دار علومها انجبت طبقة مثقفة معتدلة بعيدا عن الجامدين والجاحدين » .

وإذا كانت هذه هى غاية ندوة العلماء ورسالتها فإن العلامه أبو الحسن الهندوى هو أعظم ثمارها فى العصر الحديث فقد عمل منذ سنوات طويلة على تناول كل مايتصل بقضايا الفكر الإسلامى ومعضلاته وكل ما يصل بالشبهات المثاره حوله ،

عارضا ذلك باللغة العربية الفصحى متحدثا بها من فوق منابر القاهرة ودمشق ومكه ولبنان وبغداد فى خلال رحلات دعوة إلى الله (من نهر كابل إلى نهر اليرموك) كما اطلق على كتابة المسكل لكتابه (مذكرات سائح فى الشرق العربى) وهو الآن أمين عام ندوة العلماء (لكهنو) بالهند وعضو المجلس التأسيسى للرابطه الإسلامية بمكة المكرمة وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق وكتبه منشوره بين يدى شباب العرب والمسلمين فى مختلف القضايا والتحديات لم يتوقف منذ برز أسمه لأول مره فى الثلاثينات ، وهو منذ درج وابنا حل وفى عاصمة كل بلد عربى واسلامى يصدع بكلمة الحق ،اسمعى يا مصر ، اسمعى يا إيران ، اسمعى ياسوريه ،اسمعى يا زهرة الصحراء (الكويت) اسمعوها منى صريحه ايها العرب :

« ان عقيدتى ودينى الذى أومن بمواديه يفرض على أن أكون صادقا وصريحا وصلق بهذه الأمة — الدينية والنسبية والثقافية — تلزمنى بالصدق والصراحة والوفاء والأمانه ، ثم إقتناعى بأن العرب : الأمة المختاره لحمل رسالة الاسلام قد كتبت لهم الوصاية على العالم ماداموا يدينون بهذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعلمى بأن هذه الوصايا لم تحول عنهم بعد ولم تبرز امه أعلى منصة العالم تخلف هذه الأمة وتضطلع بالأمانة ،ولكننى أعرف أن الزمان زمان تحول والساعه ساعة الانتقال ، كالساعة التى شهد فيها العالم أكبر تحول فى التاريخ وفى جدور الأمم : ساعة مرت فى منتصف القرن السادس المسيحى ، تحولت فيها الامامه وتحول فيها منصب الهداية من بنى إسرائيل (الأذكياء المثقفين اصحاب الحضارة والعلوم والقرائح والمواهب) إلى بنى إسماعيل أو العرب — الأمة التى تغلب عليها الأمية والبساطة والفقر والاعتزال عن العالم — والله اعلم حيث يجعل رسالته ، فكان أكبر تحول شهده التاريخ الجديد، وكان لهذا الحادث تأثير فى مصير الأمم وأوضاع العالم والاتجاه الإنسانيه ،لم يكن لحادث سياسى وتحول اجتماعى أو ثورة اخرى »

القضية الاولى

وهكذا نجد أن أكبر أعمال السيد أبو الحسن الندوى هو التوجه إلى العرب يدعوهم ويوقظهم ويحرضهم على اقتعاد مكانهم الحق الذى اختارهم له ودعاهم إليه القرآن ورسم لهم الإسلام لقيادة العالم .

يقول : الذى يطمئنى فى هذه الكلمة ويغربنى بها هو حبى وحرصى على أن يستعيد العرب مكانتهم العالميه ويتسلموا هـــذه القيادة المباركة التى يقول الله عن حملتها :

(وجعلنا منهم أمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .

وهو فى توجه إلى العرب إنما يتوجه إليهم باعتباره عربى الأصل ، وباعتباره من الأسرة العظيمة الكريمة أسرة الإسلام ، فهو لايجاملهم « ويعتبر المجاملة جريمة خلقية وخيانة عظيمة فى حق هذه الأمة التى أدين لها فى الدين والأخلاق و الإنسانية والشرف ويدين لها العالم والإنسانيه يقول « إنى لا أقل عن أكبر عربى يعيش فى العواصم العربيه فى عربيتى ونسبى الصريح المتصل وحبى للعرب وتضلعى فى ثقافتهم وعلومهم وآدابهم ولغتهم ، وليس أحد من أخوانى العرب الاقحاح أولى بالاعتزاز بالعربية منى واوفر نصيبا فيها منى ولكن الإسلام أفضل من كل نسب وأقوى من كل عصبيه » .

أن الأستاذ الندوى لم يهاجم شيء فى عنف وقوة كما هاجم الاتجاه إلى القومية الضيقة والعصبيه ، وذلك التيار العنيف الذى أراد أن يضرب الإسلام فى العرب وفى المسلمين ضربا قويا ويتساءل :

هل كان للعرب أن يمثلوا هذا الدور العظيم ، وأن يشغلوا سمع الزمان وبصره وأن يغيروا مجرى التاريخ لولا هذه الرسالة السماوية التى تسمى الإسلام ولولا هذا الكتاب العظيم الذى يعرف بالقرآن ولولا تبنيهم لهذه الدعوة الجديدة وجهادهم فى سبيلها ، وهل كان لهم إذا جرت الأمور مجراها الطبيعى أن تفرض زعامتهم وسيادتهم على الشعوب والأمم ، ذات المدنيات الباهرة العتيقة ، والثقافات الواسعة العميقة ، وأن تنتشر لغتهم فى مشارق الأرض ، فتداس لغات كثيرة وتنسى ، وتصبح اللغة العربية من ضفاف دجله فى العراق إلى الوادى الكبير فى الأندلس هى لغة العلم والدين والعبادة والسياسة ، وينبغ فيها أساتذة عظماء كالجرجانى والزمخشرى وأبى على الفارسى والصنعانى والزبيدى إلى أى مساحة زمنية كان العرب يحتاجون فى الوصول إلى هذه السيطرة السياسة والثقافية ، لو بقوا على وضعهم القديم ، هل كان يمكن ذلك فى ألف سنه ، فقد مضى على الأمة العربية الاف من السنين وهى تعيش على هامش الأمم وفى عزلة عن العالم ، أم كان لشعرها البليغ وأدبها الرفيع ولغتها العظيمة أن تشق طريقها إلى الأمام وتبلغ بهذه الأمه إلى ذروة المجد واوج السيادة كما وصل بها الإسلام فقد كانت المعلقات وكان شىء كثير مما يحتوى عليه ديوان الحماسة قبل أن يظهر الإسلام ويبعث محمد عليه الصلاة والسلام ، فما أغنى عنها هذا الشعر البليغ وهذا الأدب الرفيع وهذه اللغة العظيمة ، بل لم يستريح هذا الشعر والأدب واللغة انتباه العالم المتمدن ، ولم تتوفر الهمم والدواعى على جمعها وتدوينها ونشرها وشرحها إلا بعد ظهور الإسلام . وبعد ماأصبح العرب — بفضل الإسلام أساتذة العالم وأصبحت لغتهم وأدابهم ثروة إسلامية يجب على جميع من يدين بالإسلام دراستها والتوسع فيها وحفظها » .

ويمضى فى هذا الاقناع حتى يقول : من المؤسف المحزن المخجل أن يقوم فى هذا الوقت فى العالم رجال يدعون إلى القومية العربيه المجردة من العقيدة والرساله وإلى قطع الصلة عن أعظم « نبى » عرفه تاريخ الأديان وعن أقوى شخصيه ظهرت فى العالم وعن أمتن رابطه روحية تجمع بين الأمم والأفراد ، أنها جريمه قومية تبذ

جميع الجرائم القومية التى سجلها تاريخ هذه الأمة . أنها حركة هدم وتخريب تفوق جميع الحركات الهدامه المعروفة فى التاريخ . وأنها خطوة حاسمة مشؤومه فى سبيل الدمار القومى والانتحار الاجتماعى .

ولم يتوقف الندوى عن مقاومه هذا الاتجاه كاشفا زيفه فى كل مكان وكل خطاب ، كاشفا عن ذلك العقد الربانى الأبدى بين العرب والإسلام « عقد الله بين العرب والإسلام للابد ، وربط مصير أحدهما بالآخر فلا عز للعرب إلا بالإسلام ولايظهر الإسلام فى مظهرة الصحيح إلا إذا قاد العرب ركبه وحملوا مشعله ، وقدحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على بقاء هذا الرباط الوثيق المقدس بين العرب والإسلام فجعل جزيره العرب مركز الإسلام الدائم وعاصمته الخالدة ،وحرص على سلامة هذا المراكز وهدوئه وشده تمسكه بالإسلام لأن العاصمة يجب أن تكون بعيدة عن كل تشويش وفوضى وصراع ، وظل العرب والإسلام زميلين مترافقين وأخلص كل منها للاخر واقسم إلا يفارقه وعاش العرب وعزوا بالإسلام وسادوا الدنيا وانتشرت لغتهم وثقافتهم فى بلاد وأقطار وبيئات لم تكن تنتشر فيها ويرسخ قدمها لولا الإسلام ولولا القرآن واتخذها العلماء والأذكياء لغة دين وعلم وتأليف . لم يكونوا فاعلين ذلك لولا أنها لغه الإسلام الرسمية ومفتاح المكتبه الإسلاميه .

وعاش الإسلام وشق طريقه إلى الأمام وتغلب على الصعوبات وانتشر بسرعة غريبة — لاتزال موضع الدهشة والاستغراب — لجهاد العرب وحماستهم لنشرة وحسن معاملتهم للمفتوحين فكان ذلك عونا لصاحبه ومصدر قوته وعنوان مجده ولم يشوش هذا الصفاء والوفاء وإلا حوادث كان مصدرها أشخاص وأغراض ولكنها جنت على الوحدة الميمونه منها حركة الشعوبيه الغالية الخرقاء التى قام بها بعض علماء العجم فى القرن الثالث الهجرى الذين لم تنشرح صدورهم للاسلام ولكن ماليث الإيمان الراسخ فى أعماق نفوس العرب وحب الإسلام المتغلغل فى أحشائهم أن تغلبا على هذه النزعة الطارئة ، ولم تقرأ فى التاريخ حركة منظمة

أو فلسفة مدونه يستطع أن نسميها « فكرة القوميه العربية » وبقى العرب يعيشون بالإسلام وللاسلام وبقى تاريخ كل منهما متصلا بتاريخ الآخر متداخلا بعض فى بعض وبقى الوضع هكذا إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى وقد بدأت فى الاتراك الذين يحكمون الشام والعراق والحجاز الكبرياء القومية وبدا كثير من حكامهم يعاملون الشعوب العربية واللغة العربية معامله تشبه أحيانا كثيرة معاملة المستعمر للمستعمر ، وحاول بعض حكامهم السفهاء الغلاظ القضاء علي الشخصية العربية كل ذلك أثار فى العرب النقمه والنخوة العربية — وقد تزعم هذه الحركه وقادها بعض المسحيين الذين لم تكن يربطهم بالأتراك رابطة العقيدة والدين المتينه ورابطه الإخاء الإسلامى ، وبعد الحرب نفخ الاستعمار فى قربة القومية وقام لورنس الداهيه بدوره ، فاشعل الحماس القومى ، وأثار العرب علي الاتراك وثار الشريف حسين فى الحجاز وأهل الشام فى الشام وفضلوا الانضمام إلى رأيه الحلفاء الذين لايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمه ولايراعون فى مسلم عهدا ولاحرمة والذين كان يقودهم الانجليز المجرمون الذين تلطخت أيديهم وتلوث تاريخهم بابشع الإجرامات ضد الإسلام ، فضلوا كل ذلك على البقاء فى جوار الاتراك المسلمين الذين رفعوا رأيه الإسلام فى أوربا خمسة قرون وأرهبوا إعداء الإسلام وكانوا على علاتهم رمز قوة الإسلام وشوكة وتناسوا نصوص القرآن والسنه القطيعة التى تحرم موالاة إعداء الإسلام ضد المسلمين والقتال فى صفوفهم واعتمدوا على الوعود الخلابه والسياسية المتقلبة التى لاتعرف إلا المصلحة ولاتعبد إلآ القوة .

ثم جاء دور مفهوم القوميه العربية التى هى فكرة مستقلة وفلسفة بذاتها ، لها كل ماللدين من حميه وحرارة وشعائر ومقدسات فخضع لها العرب المثقفون — خصوصا الشباب — الذين ضعفت صلتهم بالدين لأسباب كثيرة ، ولم يقفوا عن هذا الحد ولم يقتصروا على استخدام القومية للدفاع والتنظيم ، بل غلوا فى تدرس القومية العربية والتغنى بها وأفكار كل ماسواها ، فهم يحتقرون شأن الدين ويقللون من قيمته

(أحتى أصبحت القومية العربية) قد أصبحت فى نظر كثير من دعاتها والمؤمنين بها ديانة إزاء ديانه وعقيدة مقابل عقيدة .

وهذا الأسلوب فى التفكير ليس إلا صدى القوميه الغربية اللادينية وهى التى نخاف منها على الإسلام ونعتقد أنها تنافس الإسلام فى مركزه وقوته عند العرب وتزدهر وتقوى وتستفحل على حسابه وتحبط مساعى دعاة الإسلام الأولين وتقطع صلة العرب عن مصدر عزهم وقوتهم : محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته ورسالته أولا ثم عن العالم الإسلامى والشعوب الإسلامية ثانيا وتصرفهم عن التفكير فى مصير العالم الإنسانى وتولى قيادته برسالة الاسلام أخيراً وتجعل من العرب (الأمة العالمية التى أخرجت للناس) شعباً محدوداً ضيق التفكير يعيش فى نفسه لنفسه وينشر فيهم الالحاد واللادينية .

وقد أصبح العرب المسلمون فى ذلك فريسة سهله لدهاء الاقلية غير المسلمة فى الشرق العربى التى يتوقف مصيرها على انتشار فكرة القومية العربيه وحلولها كل الدين الإسلامى والتى تستطيع أن تصل عن طريقها إلى مركز الزعامة والقيادة والتوجيه فى العالم العربى وتستطيع بها أن نفصل العرب عن بقيه العالم الإسلامى الذى لاترتبط به هذه الآقلية عقيدة وعاطفه وتاريخا » .

تلك هى القضية الأولى الكبرى التى شغل الأستاذ الندوى نفسه بها وأولاها اهتماما كبيرا وحارب من أجلها بالكلمة وذهب إلى مكان فى البلاد العربية لتنتقل فهمه الواضح الإسلامى الاصيل هذا إلى الناس وأنشأ لذلك دراسات متعددة منها : العرب والإسلام ، الفتح للعرب المسلمين ، غاره التتار على العالم الإسلامى وظهور معجزه الإسلام ، كيف دخل العرب التاريخ ، وهكذا تستمر دراساته ومحاضراته فى هذا الجو الذى يكشف فيه للعرب الحقيقة التى لامفر عنها وهى أنهم بالإسلام كل شىء وبغير الإسلام لا شىء .

وعندما حدثت معركة رمضان الظافره كان ذلك عاملا هاما فى تفكير الأستاذ

الندوى وكانت لذلك محاضرته الجامعة فى مكة المكرمه تحت عنوان اكتشاف الأمة العربية الإسلامية لنفسها) :

حيث قال: أن الإنسان المسلم يستأنف رحلة جديدة فى عالم كبير وهو أجدر من يستطع مواصله هذه المسيرة الجديدة لخدمه الحضارة الإنسانية . وأن هـــذا الآكشاف له مابعده فى مصير هذه الأمة «العربية الإسلامية » .وفاتحه عهد جديد لواستقام العرب على هذا العزم ولم يدب الوهن إلى نفوسهم ولم يتطرق الفشل والتنازع إلى صفوفهم وصدقت عزائمهم فى استرداد حقهم المسلوب وملكهم المغصوب وحافظوا على روح الفروسية والمغامرة واستهانوا بالحياة واستطابوا الموت فى سبيل الدين والعدل والعز والكرامة والشرف وأضافوا إلى ذلك التقدم بعز وتصميم إلى الاكتفاء الذاتى والآستغناء عن الشعوب الغربية فى كل مايتوقف عليه حياه أمه شريفة من أسلحة حربيه ومصنوعات وطنيه إلى مواد غذائية » .

لقد غيرت الفروسيه العربية ، كثيرا من الموازين وآخضعت عدداً من الدول والطاقات أمام هذا العزم الصادق واعزم الفائق فكان تطوراً فى الأحكام ووجهات النظر لامثيل له فى تاريخ الماضى القريب .

(الأعــلام)

ثانيا : فلسطين

كذلك فإن قضية فلسطين كانت من المحاورة الهامة الثانية التى شغل بها الأستاذ الندوى فعالجها فى عشرات من الأبحاث والمحاضرات وتابعها متابعة واسعه وذهب فى البحث عن جذورها وأثارها . بل لقد بحث هذا الموضوع قبل وقوع الماساة فى شكلها النهائى بعدة سنين وجرت على قلمه وعلى لسانه بعض الحقائق التى تحققت فيما بعد ثم وقعت الواقعة فجعلها موضوع تفكيره وبحثه وكتاباته وقد التزم فى مناقشة هذه القضية ما التزمه دائماً ،أن يكون ذلك فى ضوء القرآن والنواميس الإلهية والسنن الآلية التى بينها القرآن وشهد بها تاريخ الأمم وأن يكون كل ذلك تصويرا للواقع الذى تعيش فيه هذه الأمة من غير مبالغه وصناعة ، يضع أصابع قادة الفكر والرأى على الأمراض الحقيقة ومواضع الضعف والعله الأصيله فى الشعوب والمجتمعات العربية والإسلامية وعلى علاجها الحاسم وهى تختلف فى الزمان والمكان وتنقسم بين مقال بالقلم وحديث باللسان وتربط بينها وحدة جامعة وهى محاولة الاهتداء إلى الأسباب الحقيقية والإشارة إليها والتحذير منها بصراحة لاغموض فيها ولا التباس ولامداهنه فيها ولانفاق .

والأستاذ الندوى لايتحدث عن الأحداث وإنما يبحث عن الدوافع فيرى أن هذه النكبه وكل نكبه حلت بالمسلمين ترجع إلى عوامل كثيرة أكثرها داخلية نفسية ظلت تتفاعل وتعمل عملها الطبيعى فى حياة الأمة والمجتمع منذ زمن طويل ، وان الفاجعة إنما تقع نتيجة سلسلة طويلة من الأمراض الخلقيه والانحرافات الطائشة ، والتصرفات الاثيمه والمغالطات المتصله ، والأوضاع غير الصالحة للبقاء فى كل مكان وزمان ، وفوق كل ذلك حياة لايرضاها الله ورسوله ، ولايوافق عليها الدين الصحيح والعقل السليم .

ومن عرف الشرق العربى الإسلامى عن كثب ، وعاش فيه كأحد أبنائه وتقلب فى عواصمه وبيئاته وطبقاته بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧ ورأى تردد الحكومات العربية فى سياستها وضعف إرادتها وخضوعها للدول الأوروبية الكبرى وارتباطها باشاراتها ورأى أخلاق الرؤساء والقادة ومن بيدهم الحل والعقد ورأى أخلادهم إلى الراحة وأيثارهم للذة والمنفعة ورأى بصفة خاصة فى مصر التى كانت تتزعم العالم العربى وتقود الحركة والأدبية والعلمية والدينيه عبث الأدباء والكتاب والموجهين بالأسس الدينية والقيم الخلقية والاجتماعية والمقرارت التاريخية وتسخيرهم لطاقة الأدب والأقلام ، لتقويض دعائم الحياة الصالحة والأخلاق الفاضله وبعث فوضى فكرية لامعروف فيها ولامنكر ولاحق فيها ولاباطل ، وإنما هى انتهازية وابيقورية وإقليمة وفرعونية وعامية وفرنجه وترويجهم لأدب يسميه القرآن « زخرف القول غرورا » وحملتهم المنظمة لغرس الشك والاضطراب فى العقائد والشذود فى الأخلاق والميول والانحراف فى الأذواق والطبائع ، والجبن فى النفوس والقلوب والانفعالية فى الأرادات والتصرفات والغرام بالتسلية والمتعة الرخيصه فى أدق الساعات وأحلك الأيام ، ورأى أحجام العلماء وقادة الدين عن قول الحق ونقد الباطـــل والشهادة بالقسط ، ورأى خضوعهم للمثل العايا الزائفة التى خضع لها عباد المعدات والبطون من وجوب إرتفاع مستوى المعيشة وإرضاء الأهل والأسرة وتحقيق مطالبها ولو من غير حق ، ورأى إفتتان العامة والطبقات الكادحه بالملاهى والمعازف والأنى وبكل ماتتمتع به الأذن والعين والخيال والتقاء هذه الطبقات كلها علي إختلاف مستوياتها وثقافاتها — على حب الحياة والكراهة للموت وبعدها عن كل مغامرة وأقدام ، من رأى ذلك كله وتحققه وعاش فيه جزم بأن هذه الشعوب لاتستطيع أن تحمل أقل صدمة تأتيها من الخارج ولايستطيع أن تدافع عن دينها وشرفها ومقدساتها وكيانها ، وقد كانت نكبة الخامس من جزيران ١٩٦٨ قمه ماوصل إليه هذا الفساد فتنبه لها كل أحد ورفعت الغشاوة عن كل عين وفزع لها العالم العربى العالم الإسلامى فزعا لم يفزع مثله لحادث منذ طويل . »

ويرى الأستاذ الندوى أن التخاذل فى فلسطين قد مهدت له أسباب كثيرة من الأخلاق والتربية وأن الاستعمار الغربى قد فتش عن منابع القوة الكامنة فى نفوس المسلمين وقلوبهم فوجد أن أكبر منابع القوة والحياة هو « الإيمان » فعادوه وسلطوا على المسلمين عدوين هما افتك بهم أضربهم من المغول والتتار الأول : هو الشك وضعف اليقين الذى لاشىء أدعى للضعف والجبن منه والثانى مانعبر عنه بالذل النفسى وهو أن صار المسلمين يشعرون بالذل والهوان فى داخل أنفسهم وفى أعماق قلوبهم ويزدرون بكل مايتصل بهم من دين وتهذيب وأخلاق ويؤمنون بفضل الأوربين فى كل شىء ، ويعتقدون فيهم كل خير وابتلى المسلمون بتأثير الحضارة الغربية والفلسفة الغربية بعبادة المادة وحب الدنيا والجرى وراء النفع العاجل وكان نتيجة لهذا كله أن ظهر جيل من المسلمين متنور الذهن ولكنه مظلم الروح أجوف القلب ضعيف اليقين ، قليل الدين ، قليل الصبر والجد ، ضعيف الإرادة والخلق يبيع دينه بدنياه وآجله بعاجله ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية .

ويرى الأستاذ الندوى أن هذه العوامل الأساسية فى الهزيمه فى فلسطين ، وفى غيرها . فإن هذا مصدر كارثة العالم العربى وسببها المقتفى ثم يقول :

« أن قضية فلسطين سهلة هينة ، وانتصار العرب مضمون إذا كانوا أحراراً فى تصرفهم ، مالكين لزمامهم ، مدبرين لسياستهم ، مغامرين بأرواحهم وجندهم ، محكمين لسيفهم وسنانهم ، واثقين بنصر الله ، معتمدين على سواعدهم فقط ، متمردين على المادة والشهوات مصممين على الكفاح والجهاد » .

ويرى أن الأسباب الهزيمة وسقوط الهمه تتمثل فى عوامل ثلاث :

(١) الحضارة الغربية والثروة الهائلة التى تدفقت على العالم العربى وقد أثرت

هذه الحضارة وهذه الثروة فى أخلاق هذه الامة العسكرية بالطبيعة والتاريخ ، والمتقشفة الزاهدة ، بحكم الرسالة والوراثة ، تأثيرا عميقا قلبها رأسا على عقب فتفشت فيها روح التنعم والترف والرقة والاخلاد إلى الراحة ، وفقدت روح الفروسية والفتوة العربية والنخوة واحتمال المصائب والثبات فى معركة الحياة واستهان الناس بأحكام الله وفرائضه وتجرأوا على المحارم ووثبوا فى حمى الله . وأخل العلماء بواجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتركوا الحسبة على الناس وكلمه حق عند سلطان جائر .

(٢) ظهور نزعه القوميه : فقويت هذه العصبية على حساب العصبية الإسلامية وأصبحت ديانه وعقيدة يتغنى بها القوميون ويتحمسون لها كما يتحمس أهل الديانات والملل لدياناتهم وشرائعهم ، ويرون فيها عوضا وخلفا عن الدين الإسلامى الذى أكرمهم الله بالإيمان به والانتصار له والتفانى فى سبيله .

وقـــد نشأ بذلك عقوق بنعمة الإسلام وكنود وكفران بحق محمد عليه الصلاة والسلام وفضله فى تكوين هذا العالم العربى وإبرازه من العدم إلى الوجود وصدرت مقالات يبرر فيها أصحابها كمدو حقود ثائر على الإسلام وجميع الاديان . وبدا بعض الكتاب يتحدثون عن الإنسان العربى الجديد كعملاق مارد على جميع الاديان السماوية والاسس العقائدية وجميع القيم الخلقية والروحية .

والثالث : قيام الحكومات العسكرية والدكتاتوريه فى كل قطر عربى تقريبا مقلدة للحكومات الشيوعية المتطرفة فأصبحت البلاد كلها شبه معسكر لايوجد الازى واحد ونظام الحكومات أو كسجن كبير لا حرية فيه ولا تنوع وعنيت هذه الحكومات بتجفيف منابع الإيمان والحماسة الاسلامية أكثر مما عنيت بسد أبواب الفساد والإلحـــاد ومعاقبه الخونه المجرمين والدعارين الحشاشين .

ثم نراه يذهب فى تحليل الكارثة إلى أبعد من ذلك فتحدث عن (إزاله أسباب الخدلان) قبل (إزاله أثار العدوان) . يقول :أنناعتمدنا فى حل قضية فلسطين من أول يوم علي نفس الاساليب التقليدية التى تلقيناها من الغرب : « الكلام » .

فقد ضربت هذه القضية الرقم القياسى فى كثرة الحروف التى كتبت على الورق ، واستطاعت إسرائيل — هذه النقطة المغمورة ببحار من البشر — أن توسع مملكتها إلى حدود لم تكن تخطر بالبال قبل اليوم المشئوم « ٥ حزيران » وتمتلك القدس الشريف والمسجد الأقصى المبارك الذى حرمته منذ الاف من السنين وكان خطها من هذه الأساليب التى تمسك بها العرب والمسلمون والثروة التى انفقتها من الكلام قليلا .

وظلت معركة الكلام حامبه طوال هذه المده ولم تقم محاولة جدية ولابرزت دعوة صريحة قوية إلى تغيير منهج الحياة فى الشعوب والبلاد التى اكتوت بنارهذه الخيانه الغربية الكبرى التى لامثيل لها فى التاريخ الحديث وتعرضت للخطر الصهيونى بطريق مباشر ، ولادعوة إلى إزالة أسباب السخط والخذلان التى بينها القرآن فى أسلوبه البليغ السافر وكسب أسباب النصر الحقيقة التى دعا إليها الكتاب والسنة ، وحفل بنتائجها وامثلتها التاريخ الإسلامى ، ولم يشعر أحد بحاجة إلى استفتاء القرآن والعقل الإيمانى الواعى المنصف . الذى لايكذب ولايخدع عن أسباب هذه النكبة وحدوث هذه المشكلة الطريفة التى حار فى تعليلها العقلاء ، وعجز عن حلها الزعماء وردها إلى أخطاء ارتكبتها الشعوب العربية ، منذ ثورتها علي الدولة العثمانية الإسلامية وانضوائها إلى الحلفاء الآثمين المعتدين ، والقتال بجوارهم ولم يلفت أحد إلى محاربه الادواء الخلقية التى تسبب الوهن وهو حب الدنيا وكراهية الموت والرقة والنعومة والاخلاد إلى الراحة .

حتى جاءت الساعة التى لاينفع فيها إلا الجد والحقيقة والتهالك علي الموت والمغامرة والبطولة والتقشف والجلادة فانهزم المعسكر الهازل وإنحسر فيضان الكلام

وكان ما كان مما نكس رؤوس المسلمين وأذل رقاب العرب في مشارق الأرض ومغاربها .أن هذا المنهج الذى آثرناه وأن حياة التمتع والانتهازية والابيقورية التى لاتعرف أدبا ولاخلقا ولاتحترم دينا ولاشريعة ولاتراعى مصلحة وعاقبة ، هى أشد خطرا من كل عدو خارجى وما مثلها إلا مثل سفينة مثقوبة ثقبا واسعا يدخل منه الماء بقوة وسرعة وركابها الخياليون متغاصون عن هذا البحث ، متغافلون عن سده وهذه الحياة هى التى مهدت الطريقة فى القرن الخامس للغارة الصليبية . وفى القرن السابع للزحف التتارى وفى القرآن الثالث عشر للغزو الأوربى وفى آخر القرن الرابع عشر الذى نعيش فيه للفتح الصهيونى » .

هكذا يصور الأستاذ الندوى الأمور ويكشف عن خفاياها ويضعها أمام ضوء القران .

والقضية الثالثة التى عنى بها الأستاذ الندوى وشغل بها : هى قضية الحضارة الغربية . والخطر الماحق الذى يحيط بالمسلمين والعرب نتيجة إيمانهم بها وتهالكهم عليها : يقول لقد تغلغل تقديس الحضارة الغربية بقيمها ومفاهيمها وتصوراتها ومظاهرها التى لاتقدم ولاتؤخر فى مضمار القوة والحياة الكريمة فى أحشائهم ، وامتزج بلحومهم ودمائهم حتى أصبح من المستحيل تجريدهم عنه وآمنوا بأن هذه الحضارة الغربية والفلسفة المادية ، قد بلغت القمة من العقل ورقى البشر وحال تعصبهم لهذه الحضارة والفلسفة الغربية عن أن يطلعوا على مواضع الضعف والاخفاق فيها كما أطلع عليه كثير من رجال الغرب وآمن بعضهم بالفلسفة الشيوعية والمبادىء الاشتراكية إيمانا راسخا تقليديا ، كإيمان الراسخين المتحمسين من المؤمنين بالأديان لايحتملون نقدا لها ولاتمحيصها ، وإنما يقلدونها تقليدا أعمى ، وكان شأنهم فى قبول هذه الفلسفات كلها ، وحبهم لها شأن بنى إسرائيل الذين حكى الله تعالى عنهم فى القران : فقال « وأشربوا فى قلوبهم العجل » .

ويقول : لقد حملت أوربا إلى الشرق الفلسفات التى قامت على إنكار أسس

الدين وإنكار القوة الصرفة لهذا العالم : القوة الواعية التى أخرجت هذا العالم من العدم إلى الوجود وبيدها زمام الكون (إلا له الخلق والأمر) وعلى إنكار عالم الغيب والوحى والنبوءات وإنكار الشرائع السماوية وإنكار القيم الروحية والخلقية ، منها ماتبحث فى علم الحياة والنشوء والارتقاء ومنها مايتصل بالأخلاق والسياسة ومهما اختلفت هذه الفلسفات فى ألوانها وأهدافها وأسسها ، فإنها جميعا تلتقى على النظرية المادية المحضة إلى الإنسان وإلى الكون والتعليل المادى لظواهرهما وأفعالهما .

عزت هذه الفلسفات المجتمع الشرقى الإسلامى وتغلغلت فى أحشائه وكانت أعظم ديانه ظهرت بعد الإسلام فى التاريخ ،أعظمها أنتشاراً وأعمقها جذوراً وأقواها سيطرة على العقول والقلوب وأقبل عليها زهرة البلاد الإسلامية وزبدتها عقلا وثقافه ، وساغتها وهضمتها ودانت بها كما يدين المسلم بالاسلام والمسيحى بالمسيحية بكل معنى الكلمة ـ أنها ردة اكتسحت العالم الإسلامى من اقصاه ، وغزت الاسر والبيوتات والجامعات والكليات والثانويات والمؤسسات فما من أسره مثقفة — إلا من عصم ربك — إلا وفيها من يدين بها أو يحبها أو يجلها .أنها ردة ولكنها لم تلفت المسلمين ، ولم تشغل خاطرهم لأن صاحبها لايدخل كنيسة أو هيكلا ولايعلن ردته وانتقاله من دين إلى دين ، أنها قضية العالم الإسلامى الكبرى ، رده تنتشر وتغزو المجتمع الإسلامى ثم لايتنبه لها أحد ولايفزع لها العلماء ورجال الدين » .

هذه هى الصورة التى يجدهـــا الأستاذ الندوى للمجتمع الإسلامى وينذر بخطورتها ويدعوا إلى التحرر منها وفى سبيل ذلك يدعو إلى منهج فى التربية الإسلامية يتحرر به المسلمون من المناهج الوافده، ويلتمسون فيه روحهم الأصيل : روح الإيمان بالله والفضيلة والإيمان بالآخرة .

« الحاصل أننا فى البلاد الإسلامية فى حاجة ملحة إلى نظام تعليمى إسلامى فى الروح والوضع ، والسبك والترتيب .لايخلو كتاب من الكتب التى تعلم مبادىء الامة

إلى آخر كتاب يدرس فى العلوم الطبيعة أو الآداب الإنجليزية من روح الدين والإيمان ، هذا إذا أردنا أن ينشأ جيل جديد يفكر بالعقل الإسلامى ويكتب بقلم مسلم ، ويدير دفة البلاد بسيرة مسلم وخلقه ، ويدير سياسة التعليم والمالية بمقدرة مسلم وبصيره مسلم وتكون البلاد الإسلامية : إسلامية حقا فى عقلها وتفكيرها وسياستها وماليتها وتعليمها .

والتربية لاتقل أهمية عن التعليم وإذا خلا التعليم عن التربية أصبح بلانتيجة فى أكثر الأحيان ، وليس هناك أمانه أكبر مسئولية وأشد خطرا وأعمق أثرا فى مستقبل الأمة الإسلامية وحياتها من التربية والتعليم .

من أبرز القضايا : التى أولاها إهتمامه الكبير « نصح المسلمين «حينما يصل إليهم ، فهو حينما يذهب يتحدث إلى المسلمين كاشفا عن الأخطار ، أما بالنسبة للعرب فإنه لايتوقف عن الكشف عن تحدياتهم إيمانا بدورهم فى بناء الإسلام نفسه ، أما بالنسبة للمسلمين فإنه يصارح الجميع بكل الأخطار ففى أفغانستان يتحدث عن تغلغل الثقافة العصرية وأفكار المستشرقين فى المجتمع الأفغانى ويتحدث عن أهمية الشباب الجامعى وأهمية معرفة نفسياتهم ومشكلاتهم ، كما يتحدث عن مسئولية الأقطار الإسلاميه ، فى المحافظة على شخصيتها الإسلامية وإنمائها ومساعده الأقطار النامية والنهوض بها ويطالب بالعودة إلى صفحات المجد فى تاريخ الإسلام ، اعتماداً على الله ونياما بالجهاد عبادة والموت فى سبيل الله شهادة .

وفى إيران يتحدث عن التقارب بين السنة والشيعة وملء الهوه الواسعة بينهما ، يقول : من المعلوم أن المقصود الحقيقى من إرسال الرسل وإنزال الكتب بل من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان هو عبادة الله وحده بجميع ماتحتوى عليه هذه الكلمة البليغة المعجزة من معانى الحب والطاعة والخضوع والخشوع والأخبات والانابة والالتجاء والافتقار ، وإنما جاءت الرسل — صلوات الله عليهم أجمعين — ليربطوا الخلق بالخالق قلبا وقالبا ويأخذ بنواصيهم ويطأطأو رؤوسهم على عتبة عبوديته فهم لم يأتوا ليشغلوا العباد بنفوسهم ويقفوا حاجزا بينهم وبين ربهم ، أنهم

لم يأتوا الاستعباد الإنسان للانسان أو لأسرة أو بيت أو سلاله أو عرق أو دم وأن كانت هى أسرتهم وبيتهم وأبناءهم ، أن طبيعة تقديس الدماء والعروق والسلالات والأجيال وتأسيس الدور الكبيرة وإنشاء السيادات والزعامات للابناء والاحفاد ، وتأمين مصالحهم ومركزهم فى المستقبل ، ودعوة الناس إلى تمجيدهم وتقديسهم ، والتغنى الدائم بامتيازاتهم وبكونهم فوق البشر أو مستوى العامة ، طبيعة تليق بالملوك الفاتحين والقادة الطامحين وطلاب الدنيا وعباد المادة قد عرفت فى تاريخ الحكومات وفى تاريخ الأسر والبيوتات فى الزمن القديم ولاتليق بالأنبياء والمرسلين ، ولا أبلغ من قوله تعالى :

« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولايأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » .

ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم حذراً شديد الحذر من كل مايشغل الناس بالناس أو يقف حاجزاً بين العبد وربه أو يوجه عاطفة العبودية والأنابة أو التقديس والتمجيد إلى غير الله تعالى : شخصا كان أو أثرا أو معبدا أو مشهدا فقد صح أنه قال :

اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . وقال : لعنة الله على اليهود والنصارى : اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذرهما ماصنعوا » وقال لاتجعلوا قبرى عيدا والأحاديث كثيرة فى ذلك .

وذلك مخافة أن تتعلق القلوب وتتجه النفوس إلى غير الله وينشأ وينمو ذلك على حساب الأقبال على الله تعالى والأنابة إليه ، وعلى حساب البيوت التى « إذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وأيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » .

« وقد أثبتت تجربة الأمم السابقة أنه ما فتنت أمة بالمشاهد والضرائح والآثار والأعياد إلا شغلت عن المناسك والمساجد وأقامة الجماعات فيها والعكوف عليها والفزع إليها وإلى الصلاة إذ حزبها أمر أو نزل بها حدث .

« وقد لاحظنا مدة أقامتنا القصيرة في إيران أن المشاهد أكثر عمرانا وازدحاما والنفوس أعلق بها من المساجد فإذا دخل غريب فى مسجد سيدنا على الرضا لم يشعر إلا وأنه داخل فى الحرم وهو غاص بالحجيج ، ومدوى بالبكاء والضجيج مكتظ بالرجال والنساء مزخرف بأخر الزخارف والزينات ، قد تدفقت إليه ثروة الأثرياء وأموال الأغنياء وتبرعات المتوسطين والفقراء فلا يكاد يفرق بينه وبين الحرم المكى والمسجد النبوى ويرى أقل من ذلك فى مدفن السيدة معصومة بقم .

« أما المساجد — وإيران من أغنى بلاد الله فى كثرتها وسعتها وفخامتها — فلا يرى فيها هذا الزحام وهذا الحماس الدينى والاندفاع العاطفى ، بل أن كثيرا منها تشكو قلة المصلين وزهد القاصدين .

« أنما شعرنا فى كل مجتمع ينتمى إلى الطريقة الأمامية أن الصلة العاطفية والحماس الداخلى فى حب أهل البيت ، وتعظيم الأئمة كاد يشمل كل فراغ فى النفس والعاطفة العقل ، ونخشى أن يكون قد أخذ الشىء الكثير من حق النبوة التى هى مصدر كل خير وسعادة ومن شخصية الرسول الأعظم الذى نال به أهل البيت الشرف واستحقوا الحب والتعظيم وأنه نما وازدهر على حساب الصلة العميقة التى يجب أن تكون بين المسلم وبين نبيه صلى الله عليه وسلم .

« ولا بد للتقريب بين المسلمين أن يوجه هذا التيار إلى النبوة التى هى ملتقى كل مسلم والشخصية التى نبعت منها هذه العيون الدافقة وخرجت هذه الخيوط الذهبية التى أضاءت العالم كله »ا.ه.

وهكذا نجد داعيتنا الكبير لاتفوته الملاحظة الدقيقة والموعظة الحسنة فى كل مقام من أجل أعلاء كامه « التوحيد » .

(٥)

كذلك نجد العلامه الندى يوجه سهام النقد مسددة فى قوة إلى « القاديانية » إيمانا بأنها ثورة على النبوة والإسلام يقول : قد تحقق علميا وتاريخيا أن القاديانية وليدة السياسة الانجليزية فقد أهم بريطانيا وأقلقها حركة المجاهد الشهيد السيد الإمام أحمد بن عرقان الشهيد ١٢٤٦ ه وكيف الهب شعلة الجهاد والفداء وبث روح النخوه الإسلامية والحماسة الإسلامية فى صدور المسلمين فى الربع الأول من القرن التاسع عشر المسيحى وكيف التف حوله وحول دعاته آلاف من المسلمين عانت منهم الحكومة الانجليزية فى الهند مصاعب عظيمة وكانوا موضع اهتمامها ورأت السيد محمد أحمد السودانى يقوم فى السودان باسم الجهاد والمهدوية ، فكاد يقضى على الحكم الانجليزى فى السودان ، وكانت شرارة دينبة حسب لها الانجليز كل حساب ثم رأت دعوة السيد جمال الدين الأفغانى تنتشر فى العالم الإسلامى ، كل ذلك رأته الحكومة الانجليزية ودرسته وعرفت أن طبيعة المسلمين دينبه فالدين هو الذى يثيرها والدين هو الذى يخدرها ، وأن المسلمين لايؤثون إلا من قبل العقيدة والإقناع الدينى ومايكون له طابع دينى وإقتنعت أخيرا بأنه لايؤثر فى المسلمين وفى اتجاههم مثل مايؤثر قيام رجل منهم باسم منصب دينى رفيع ، ويجمع حوله المسلمين ويخدم سياسة الانجليز ويؤمنهم منى جهه المسلمين وعائلتهم وفى شخص مرزا أعلام أحمد القاديانى — الذى كان مضطرب الأفكار والعقيدة — وكان طموحا إلى أن يؤسس ديانه جديدة ويكون لى إتباع ومؤمنون ويكون له مجد واسع فى التاريخ مثل ما كان للنبى صلى الله عليه وسلم — وجد الانجليز وكيلا لهم يعمل بين المسلمين لمصلحتهم ولم يزل تتدرج من التجديد إلى المهدوية ومن المهدوية إلى المسحية من المسيحية إلى النبوة حتى تم ما أراده الانجليز وقام القاديانى بدوره وبما

كاف به خير القيام وكان أهم مادعا إليه القادياني : أنه لايحل الجهاد أهلا ضد الحكومة الانجليزية وحاول تأويل الجهاد بأنه جهاد الكلمة وكان الهدف القضاء على أعظم مايملك المسلمون من دينهم في مواجهه الناصبين .

وقد حمل الأستاذ الندوى حملات شديدة على هذه النحلة وهاجمها وكشف سترها وزيف دعواها ، وأعلن أن القاديانية هي منبع الفساد والعلة في جسم العالم الإسلامي تنفذ في شرايينه وعروقه سموم الخنوع والجبن والتملق والخضوع للمستعمرين الأوربين والركون إلى الظالمين .

« أن القاديانه تنشر في العالم الإسلامي الفوضى الفكرية وعدم الثقة بمصادر الإسلام الصحيحة ومراجعة وسلفه ، وتقطع صله هذه الأمة عن ماضيها وعن خير أيامها وأفضل رجالها وتفتح الباب للادعياء والمتطفلين والمتنبئين على مصراعية وتسيء الظن بقوة الإسلام وحيويته وإنتاجه وتؤيس المسلمين من مستقبلهم » .

• • •

وفي كتابين هامين من كتب الأستاذ الندوى مازال الباحثون يجدون مرجعاً وافرا للتحدى الاستعماري التغريبي الخطير الذي يلف المسلمون وفكرهم في العصر الحديث . وهما :

الأول : ماذا خسر العالم .

الثاني . الحضارة الغربية .

أما الأول فإنه يتحدث في تفضيل عن الدور الذي قام به المسلمون في بناء الحضارة الإنسانية ويكف عن العطاء الذي قدمه الإسلام للبشرية وكيف كانت أوربا قبل الإسلام ، وكيف كان العالم كله غارقا في العبودية للاوثان وللبشر .

أما الثانى فإنه يعالج تلك التحولات التغريبية الخطيرة التى واجهها المسلمون ابتداء بتركيا وثم ما كان من أمر البلاد العربية الإسلامية وسيطره التغريب عليها ولا ريب أن كتابات العلامة أبو الحسن الندوى هى ضوء كاشف لكثير من الحقائق وضياء ساطع على طريق القرآن والإسلام والتوحيد الخالص له أثاره البعيدة فى حركة اليقظة الإسلامية التى تتحول حثيثا من المفهوم الفلسفى إلى المفهوم القرآنى بفضل نخبة من الدعاة المسلمين من أمثال حسن البنا والمودودى والندوى .

(٤)

مصطفى السباعى

هذا رجل هو نتاج بيت من بيوت العلم فى الشام ، ونتاج الأزهر ، ونتاج ذلك الضوء الذى ساد العالم الإسلامى والأمة العربية فى الثلاثينات ومن نوره كل من اتصل به ولقد كان مصطفى السباعى يحس بقصر العمر فكان يجرى ويسرع ويعمل فى كل مبدان : الصحافه والنيابة والخطابة والكتابة وميدان القتال ، لاتفوته لمحة من لمحات عصره وبيئته إلا وهو مشارك فيها ، ليقول كلمه الله عاليه مدويه ، وفق أسلوبه الحماس المتدفق ، وليرد كل شبهة ويدحض كل باطل بل أنه ليقتحم على المستشرقين معاملتهم فى الجامعات العربية ليناقشهم ويكشف لهم أخطائهم ويصور لهم الحقيقة ، إبلاغاً لوجه الله وقد كانت السنة ومكانها فى التشريع الإسلامى أكبر همومه وقضاياه وكان أمله الذى هو أمل اليقظة الإسلامية كلها هو أن يصبح هذا التشريع هو نظام المجتمع ، وإليه يرد الفصل فى إضافة تعبير « التشريع الإسلامى المصدر الأساسى للتشريع « إلى دستور سوريا ومنه إلى دساتير عدد من الأقطار الإسلامية بعد أن كانت هـذه الدساتير قاصرة على التعاقـد على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ولغتها العربية .

ومن ناحية أخرى فقد كان مصطفى للسباعى حريصا على أن يقدم الإسلام إلى الناس فى هذا العصر كمنهج حياة ، وما أن رأى صيحة الفكر الماركسى الوافد يجتاح بلاد المسلمين والعرب حق سارع إلى تقديم الإسلام على أنه أصدق منهج

للعدل الاجتماعي وهو يمضي في هذا الطريق فيكشف عن روائع الحضارة الإسلامية كل هذا على نطاق إيمانه بالإسلام كمنهج حياة ونظام مجتمع ، وقد مضى إلى ذلك فلم يتوقف عند الكتابة والبحث ولكنه شارك في الحركة والنهضة وقاد الكتائب ضمن ذلك المجتمع الصغير المؤمن المؤهل ليكون نواة المجتمع الإسلامي، كما جاهد في سبيل إنشاء كلية الشريعة الإسلامية في جامعة دمشق ، وعين عميدا لها ، وعمل على تشكيل لجنة تضم كبار علماء سوريا وأشهد علماء الشرق للعمل على إخراج موسوعة إسلامية تجمع كل مذاهب العلماء والمجتهدين في الفقه الإسلامي .

وما أن إندلعت ثورة فلسطين عام ١٩٤٨ حتى كان على رأس الكتائب الإسلامية المجاهده واتخذ من القدس مركزا له ، عاملا على المحافظة على القدس القديمة وصد اليهود عنها وأجلاء اليهود من الحي اليهودي فيها . كذلك فقد أصدر جريدة يومية (النار) ومجلة أسبوعية الشباب ومجلة شهرية (حضارة الإسلام) وحين انتخب نائبا لدمشق ، ١٩٥٠ جاهد في سبيل وضع الدستور السوري ، وكان له الفضل في وضع النصوص التي تجعل الإسلام مصدر التشريع وتلزم المجلس بإعادة النظر في كل القوانين المعمول بها في الدولة وإلغاء ما كان مخالفا منها للاسلام ، وكانت حياته عملا وجهاداً فقد شارك في الحركات الوطنية العربية بوصفها كلها جهاد اسلامي ، وأيد ثورة رشيد عالي الكيلاني في مصر وقضية فلسطين أبان طلبه في الأزهر واعتقلته السلطات في مصر فلما أن وصل إلى سوريا حتى اعتقله السلطات الفرنسية فيها وأنشأ جمعية الشبان في حمص وجمع الهيئات الإسلامية كشباب محمد التي كان قد أنشأها عمر الأميري وغيرها في هيئة واحدة .

وهكذا تجد إنسانا هو سهم من سهام الله ، وشعلة مشتعلة ، في كل مكان له أثر وعمل ، خطيبا يهز المنابر بكلمة الحق ، وكاتبا تملأ أثاره النفوس إيمانا ،

وفى البرلمان نائب يقود معركة القرآن ، يحشد القوى للضغط على دعـــاة العـــلم والشعوبيين والماركسيين والملحدين ، لايتوقف فى جهادهم ومجابتهم بحقائق الإسلام .

وحين صدمه المرض لم يتوقف فقد اعتبرها فرصة اتيحت له ليكتب وليقدم نفس أثارة وكان يشغلة عنها ذلك الجهاد اليومى المتصل.

أولا : السنة

الدفاع عن السنه ضد سموم الاستشراق وأخطاء التغريبين كان من أهم قضايا فكره وعمره يقول : تعرضت السنة فى القديم لهجمات بعض الفرق الإسلامية الخارجية عن سنن الحق لشبهات طارئه ، لم تجد فى نفوس أتباعها مايدفعها ، كما تعرضت فى العصر الحاضر لهجمات بعض المستشرقين المتعصبين من دعاة التبشير والاستعمار أبتغاء الفتنة وأبتغاء هدم هذا الركن المتين من أركان التشريع الإسلامى الوارف الظلال ، وتابعهم على ذلك بعض المؤلفين من أبناء أمتنا اغتراراً بما بضعه أو لئك المستشرقين على بحثهم من زخارف عامية لاتثبت أمام النقد العلمى النزية ، أو اندفاعا وراء ميول نفسه وشبهات فكرية لم يحاولوا تمحيصها فى ضوء مابين أيديهم من تراث السلف وبحوث العلماء الراسخين فصادف رأى المستشرقين فى السنة هوى كامنا فى نفوس هؤلاء فضربوا على الوتر وغنوا بذلك الحداء .

يقول : نحن لا نشك فى أن هذه المعارك المتصله بين الإسلام وخصومه ستنتهى معركة اليوم منها كما انتهت معارك الأمس إلى هزيمتهم وكشف مقاصدهم الخبيثة الخبيثة وبقاء الاسلام كالطور مشامخ ترتدى على سفوحة الرمال والأعاصير ، لأن المعركة بين الإسلام وخصومه معركة بين الحق والهوى ، بين العلم والجهل ، بين السماحة والحقد، بين النور والظامة ومن سنة الله فى الحياة أن ينتصر فى هذه المعارك :

الحق والعلم والسماحة والنور دائماً أبدا :

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق »

ومن المؤسف أن يسير وراء إعداء الإسلام فى الحاضر فئة ممن لانشك فى صدق إسلامهم من العلماء والكتاب ، ولكنهم منخدعون بمظاهر التحقيق العلمى الكاذب الذى يلبسه هؤلاء الأعداء من المستشرقين والمؤرخين الغربيين لإخفاء حقيقة أهدافهم ومقاصدهم ، فإذا هم وهم مسلمون — ينتهون إلى نفس الغاية التى يسعى إليها أولئك وهم يهود أو مسيحيون أو واستعماريون من أشاعة التشكيك وبعض الإسلام وحملته من حيث يدردن أولا يدرون ، فالتقى إعداء الإسلام وبعض أبنائه على صعيد واحد لايشرف هؤلاء ولا أولئك لا فى ميدان العلم ولا فى سجل التاريخ .

ومن الملاحظ أن هؤلاء الذين ينخدعون من المسلمين فى المستشرقين والمؤرخين والكاتبين من إعداء الإسلام الغربيين لايوقعهم فى الفخ الذى نصبه لهم هؤلاء إلا أحد أربعة أمور غالباً :

الأولى : أما جهلهم بحقائق أصول الإسلام وعدم إطلاعهم عليه من ينابيعه الصافية .

الثانى : أما انخداعهم بالأسلوب العلمى المزعوم الذى يدعيه أولئك الخصوم .

الثالث : أما رغبتهم فى الشهرة والتظاهر بالتحرر الفكرى من ربقه التقايد كما يدعون .

الرابعة : أما وقوعهم تحت تأثير (اهواء) و (انحرافات فكرية) لايجدون مجالا للتعبير عنها إلا بالتستر وراء أولئك المستشرقين والكاتبين .

يقول : وفى هذا الجو النفسى إخرج الأستاذ (محمود أبو ريه) على مايبدو كتابه (اضواء على السنة المحمدية)[1] وقد قرأت كتابه فرأيت مصادره الأصلية فى كل ماخرج به على جمهور المحققين من علمـــاء السلف والخلف لايتعدى المصادر التالية :

---

(١) هلل لهذا الكتاب ومجده وقدمه للقراء فى صفحة كامله فى جريدة الجمهوريه الدكتور طه حسين قائد الركب وعميد التغريب .

١ — آراء أئمة الاعتزال التى نقلت عنهم الكتب .

٢ — آراء غلاة الشيعة التى جهروا بها فى مؤلفاتهم .

٣ — آراء المستشرقين التى بثوها فى كتبهم ودائرة معارفهم .

٤ — حكايات تذكر فى بعض كتب الأدب التى كان مؤلفوها موضع الشبهة فى صدقهم وتحريهم للحقائق .

٥ — أهواء دفينة للمؤلف ظلت تحيك فى صدره سنين طويلة .

والملاحظ أن الدكتور طه حسين هلل لهذا الكتاب ومجده وقدمه للقراء فى صفحة كاملة فى جريدة الجمهورية الدكتور طه حسين قائد الركب وعميد التغريب أما ماذكره أبارية خلال كتابه من نقول عن مصادر محترمة من الأوساط الإسلامية العلمية فإنها لاتعدو أن تكون وردت فى تلك المصادر فى مورد غير الذى أورده المؤلف فوضعها فى غير مواضعها ، أو أن تكون فى حد ذاتها حقائق مسلمه لدى المحققين ولكنهم لايقصدون منها ماقصده المؤلف فيذكرها أيهاما للقارىء بأن أصحابها يتفقون معه فى فكرته وأهوائه أو تكون نصوصا مبتورة انتزع منها مايرد على المؤلف . ولم يذكر منها إلا مايريد أن يبثه فى البحث الذى تناوله ، أو أن يكون من أقوال بعض العلماء نقلا عن المعتزلة ، فينسبها إلى هؤلاء العلماء أنفسهم كما فعل فيما نقل عن أبى قتيبة وبالجملة فإن أصحاب هذه المؤلفات والنصوص التى نسبها إليهم لايلتقون معه فى آراه ونزعاته ، وأكثر من تستر بأسمائهم وتظاهر بالنقل عنهم ، تأييدا منهم فى زعمه لفكرته التى يدور حولها — كشيخ الإسلام ابن تيميه ، والشيخ طاهر الجزائرى والإمام محمد عبده والسيد رشيد رضا رحمهم الله جميعا ، لم يقل واحد منهم بما انتهى إليه بل أنهم ليبرءون جميعاً مما قاله وخاصة من الكلام البذىء فى حق أبى هريرة ومن النتائج الخطيرة التى انتهى اليها بحثه .

ومن الملاحظ أنه أكثر من ثبت المصادر التى كانت مراجع لبحثه ليوهم قراءه بأهمية كتابه ومن هذه المصادر كتب فى التفسير والحديث والفقه وعلوم القرآن والسنة ، ليس فيها كلمة واحدة من نتائج بحثه الذى انتهى إليه وكلها تكذبه فى

دعاوية ومنها مصادر تاريخية ليست من المصادر التى يعتبرها العلماء مرجعا للتحقيق فى تدوين السنة ورواتها وعلمائها ومن المصادر التاريخية مصادر لا يوثق بها أبدا لدى جمهور المحققين ، ومنها كتب فى الأدب واللغة والنحو والشعر لا رابطة بينها وبين الموضوع الخطير .

ومن هذه : كتب جرجى زيدان (التمدن والعرب قبل الإسلام) ودائرة المعارف الإسلامية والحضارة الإسلامية لكريمر ، والسيادة العربية لفولهوزن ، وتاريخ العرب المطول لفيليب حتى ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمن والمسيحية فى الإسلام للقس إبرهم لوقا ووجهة الإسلام لجماعة من المستشرقين والعقيدة والشريعة لجولد زيهر . » الخ .

وهكذا يكشف مصطفى السباعى زيف الشبهات الموجهة إلى السنة ، عن طريق أقلام عربية تابعة للاستشراق والفكر الغربى فى نقض الحقائق وتزييف الصحائح .

٢ — ولم يتوقف عمله عند هذا الحد بل أنه أجرى — ولأول مرة يقوم عالم باحث بمثل هذا — أجرى مواجهة صريحة مع جماعة المستشرقين الأحياء فى أغلب جامعات الغرب التى اتيح له زيارتها عام ١٩٥٦ حيث زار جامعات أدنبره (اسكتلنده) وجلاسكو ، وكمبردج ومانشيستر وجامعة لندن .

لقول : أول من إجتمعت بهم البرفسور أندرسن رئيس قسم الأحوال الشخصية المعمول بها فى العالم الاسلامى بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن وحدثنى أنه أسقط أحد المتخرجين من الأزهر الذى أراد نيل شهادة الدكتوراه فى الشريعة الإسلامية وقد برهن فيها على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة .

وفى اكسفورد وجدت يهوديا يتكلم العربية ببطء وصعوبة وكان يعمل فى دائرة الاستخبارات البريطانية أبان الحرب ، وفى كمبردج ، قابلت أربرى : الذى قال لى بعد مناقشة طويلة حول آراء جولد سيهر ومرجليوث وشاخت :

« نجن المستشرقين نقع فى أخطاء كثيرة فى بحوثنا عن الإسلام » .

وفى مقابلة لرونسون فى جامعة مانشتر يقول : تعرضت لآراء جولد سيهر وأثبت له أخطائه التاريخيه والعلميةفقال : لاشك أن المستشرقين فى هذا العصر أكثر إطلاعا علي المصادر الإسلامية من جولد سيهر نظراً لما طبع ونشر وعرف من مؤلفات إسلامية كانت غير معلومه فى عصر جولد سيهر .

وقابل شاخت فى جامعة (هولندا) وهو الذى يحمل رسالة جولد سيهر فى الدس على الإسلام والكيد له وتشويه حقائقه ، يقول: باحثته طويلة فى أخطاء جولد سيهر وتعمده تحريف النصوص التى ينقلها عن كتبنا فانكر ذلك أول الأمر فضربت له مثلا واحداً ، بما كتبه جولد سيهر فى تاريخ السنة وكيف حرف قول الإمام الزهرى : [أن هؤلاء الأمراء اكرهونا على كتابة الأحاديث] إلى عبارة: [أن هؤلاء الأمراء اكرهونا على كتابة أحاديث] .

فاستغرب ذلك ثم راجع كتاب جولد سيهر فقال : معك الحق ، أن جولدسيهر أخطأ هنا ، قلت له هل هو مجرد خطأ فاحتد وقال : لماذا تسيئون به الظن ، فانتقلت إلى بحث تحليله لموقف الزهرى من عبد الملك بن مروان ، وذكرت له من الحقائق التاريخية ما ينفى مازعم جولد سيهر ، وبعد مناقشة هذا الموضوع قلت له :

أن جولد سيهر هو مؤسس المدرسة الاستشراقية التى تبنى حكمها فى التشريع الإسلامى على وقائع التاريخ نفسه فلماذا لم يستعمل مبدأه هذا حين تكلم عن الزهرى وكيف جاز له أن يحكم على الزهرى بأنه وضع حديث فضل المسجد الأقصى إرضاء لعبد الملك ضد ابن الزبير ، مع أن الزهرى لم يلق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزبير .

وهنا إصفر وجه شاخت وأخذ يفرك يدا بيد

وقلت : لقد كانت مثل هذه الأخطاء كما تسميها أنت تشتهر فى القرن الماضى

ويتناقلها مستشرق منكم عن آخر على أنها حقائق علمية قبل أن نقرأ نحن المسلمين لتلك المؤلفات إلا بعد موت مؤلفيها أما الآن فارجو أن تسمعوا منا ملاحظاتنا على أخطائكم لتصححوها فى حياتكم قبل أن تتقرر كحقائق علمية .

يقول الأستاذ السباعى : أننى زرت أيضا عواصم بلجيكا والدنمرك والنرويج وفنلندا وألمانيا وسويسرا وباريس والسويد وناقشت المستشرقين فى كل جامعاتها ومن لقائى بهم اتضحت الحقائق التالية :

أولا : أن المستشرقين — فى جمهورهم — لايخلو أحدكم من أن يكون قسيسيا أو إستعماريا أو يهوديا وقد يشذ عن ذلك أفراد .

ثانيا : أن الاستشراق فى الدول الغربية غير الاستعمارية كالدول السكندنافية أضعف منه فى الدول الاستعمارية .

ثالثاً : أن المستشرقين المعاصرين فى الدول الاستعمارية يتخلون عن جولدسيهر وأرائه بعد أن تكشفت أهدافه الخفية .

رابعاً : أن الاستشراق بصورة عامة ينبعث من الكنيسة وفى الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة وزارة الخارجية جنبا إلى جنب .

خامسا : الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا لاتزال حريصة على توجيــــه الاستشراق وجهته التقليدية من كونه أداة هدم للاسلام وتشويه سمعة المسلمين .

وفى فرنسا لا يزال بلا شير وماسنيون هما شيخا المستشرقين يعملان فى وزارة الخارجية كخبيرين فى شئون العرب والمسلمين .

أما فى جامعات انجلترا فالاشتشراق يشرف عليه يهود وانجليز استعماريون ومبشرون وهم يحرصون على أن تظل مؤلفات جولدسيهر ومارجليوت وشاخت ومن بعدهما هى المراجع الأصيلة لدعاة الاستشراق من الغربيين .

وهم لايوافقون أبداً على رسالة لطالب الدكتوراه يكون موضوعها إنصاف

الإسلام وكشف دسائس المستشرقين (ومن ذلك ماحدث للدكتور أمين المصرى : الذى حاول نقد كتاب شاخت وتقدم إلى البروفسور اندرسن ليكون مشرفا على تحضير هذه الرساله فإبى عليه هذ المستشرق أن تكون رساله نقد كتاب شاخت من جامعة لندن وعبثا ذهب إلى جامعة كمبردج ، قالوا له : إذا أردت أن تنجح فى الدكتوراه فيجب إبعاد شاخت فإن الجامعة لن تسمح لك بذلك) .

وقد خدع جولد سيهر عدد من الكتاب أمثال أحمد أمين وعلى حسن عبد القادر .

ويرد الأستاذ مصطفى السباعى ذلك كله إلى غاية أساسية بعيده :

يقول : منذ انتهت الحروب الصليبية بالفشل لم ينقطع تفكير الغرب عن الانتقام من الإسلام وأهله بطرق أخرى فكانت الطريقة الأولى هى دراسة الإسلام ونقده وفى جو هذا التفكير الذى ساد البيئة المسيحية فى الغرب خلال القرون الوسطى نشأت فكرة الاستيلاء على البلاد الإسلامية عن طريق القوة والعلم وبعد الاستيلاء بدأت الدراسات العربية تنمو وتتكاثر بقصد تبرير سياستهم الاستعمارية نحو هذه الشعوب . وقد تم لهم فى القرن الماضى دراسة التراث الإسلامى من جميع نواحيه الدينية والتاريخية والحضارية ، ومن الطبيعى أن تكون الدراسة محجوبة عن أصابة الحق فيها بحاجبين :

الأول : التعصب الدينى الذى استمر لدى ساسة أوربا وقادتها العسكريين حتى إذا دخلت جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى بيت المقدس قال اللورد اللبنى كلمة المشهورة (الآن انتهت الحروب الصليبية) .

أما التعصب الغربى فمازال أثره باقيا فى كثير مما كتب الغربيون عن الإسلام وحضارته .

الثانى : أن القوة المادية العلمية التى وصل إليها الغربيون فى القرن الثامن عشر

والتاسع عشر أدخلت فى نفوس علمائهم ومؤرخيهم قدرا كبيرا من الغرور حق اعتقدوا أن الغربيين أصل جميع الحضارات فى التاريخ — ماعدا المصرية — وإن العقلية الغربية هى العقلية الدقيقة الشاملة الكاملة .

وهكذا تجد مصطفى السباعى يخوض لجج هذا البحث فى تحرير السنة الإسلامية من شبهات التغريب والاستشراق فى الميدانين : الداخلى والخارجى ،ولايمتنع وهو مريض بالفالج أن يطوف أوربا ويناقش ويكافح ويكشف الشبهات ويلقم المزورين أحجاراً ويقيم عليهم الحجة حسبة لله وإيمانا بدينه وعقيدته وليترك لنا هذه الوثيقة الرائعة التى هى ضوء كاشف فى مجال الاستشراق والتبشير الغربى . ومن ذلك قوله « لما رأيت ذلك إزددت إيمانا بما كتب عنهم وأقتناعا بخطراهم على تراثنا الإسلامى كله سواء كان تشريعيا أم حضاريا لما تملا نفوسهم من عصبية تأكل قلوبهم حقدا على الإسلام والعرب والمسلمين .

(٢)

الإيمان بحضارة الإسلام

ويتصل بهذا إيمانه بحضارة الإسلام ، وقد جاء ذلك بعد دراسة دقيقة للحضارة الغربية وزيارة للعالمين الغربى والماركسى ومطالعة صورة الحياة فى الغرب : هـذه الحياة التى يسودها ازدياد المصابين بالأمراض العصبية[1] ازدياداً مزعجاً ويخيم عليها جو من القلق والخوف يفقد فيه الناس هناك — لذة ماوصلت إليه الحضارة من تيسير لوسائل العيش والترف والرفاهية مما بدد الأحلام التى كانت قائمة فى أخيلة العلماء والمفكرين فى القرن التاسع عشر حول « السعادة » التى ستشمل الناس جميعا نتيجة للاكتشافات العلمية الرائعة .

يقول : من الملاحظ (فى الغرب) أن مظاهر القلق والاضطراب تتزايد كلما أصبحت وسائل الرفاهية ميسرة للانسان فنسبة الأمراض النفسية فى البلاد التى يرتفع فيها مستوى المعيشة أكثر مما فى غيرها من البلاد المتأخرة والإحصائيات الأمريكية فى هذا الشأن واضحة الدلالة على هذا المعنى .

---

(١) مقدمة كتابه (من روائع حضارتنا .

ويرد نشأه القلق المستولى على الغرب — ليس من ترادف الحربين العالميتين — بل من الاجواء النفسية التى هيأتها الحضاة الحديثة لأبنائها وليس ناشئا من وجود الاستعمار فحسب ، ذلك أن القلق يستحوذ الآن على شعوب غير مستعمرة وعلى الشعوب التى تتمتع بخيرات الاستعمار وثمراته ،بل أن هذا القلق تجده فى كل مكان فى ظل مختلف المذاهب الاجتماعية الحديثة ، فكما نجد هذا القلق فى شعوب الشرق قاطبة نجده فى شعوب الغرب ونجده فى شعوب الاتحاد السوفيتى وماله دلالة فى

هذا المقام كثرة حوادث الانتحار فى الشعوب المتحضرة والأغرب وقوع ذلك فى بلاد تعد من أرقى البلاد فى المستوى المعيشى والحضارى كالبلاد السكندنافيه وأغرب من ذلك أن القوم هناك ينتحرون « مللا » من الحياة الرغيدة التى يحيونها ومن ذلك يبدو لنا أن هذا القلق والاضطراب والانحراف الخلقى الذى وصل إلى درجة جزع منها الآباء والأمهات فى الغرب نفسه ، ناشىء من الحضاره الغربية الحديثة نفسها ، ومن الأسس التى قامت عليها والفلسفات التى سادت فيها » .

يقول الأستاذ محمد عبد الغنى حسن: كان إيمان مصطفى السباعى بافلاس الحضارة العالمية المعاصرة وأغراقها فى المادة وبعدها عن الأرواح عقيدة أخرى يدعوا إليها ولايكتفى بالإشارة إليها فى كتابه (من روائع حضارتنا) يؤكد فيه هذه الحقيقة ويقرر أن فئه الداعين إلى حل مشكلاتنا الاجتماعية عن طريق (العودة إلى الإسلام) يرون أن هذه الحضارة الغربية المعاصره ، غير قادره على أسعاد الناس وغير قادرة على تحقيق الأمن والرخاء لهم فلا يصح أن تكون قاعدة أو أساساً نبنى عليه حل مشكلاتنا الاجتماعية » .

ويقول أن السباعى كان فى رحلاته للغرب وروسيا باحثا عميقا منقبا فاحصا وأنه وصل من تجربته إلى القول بأن الحضارة الغربية بقسميها الرأسمالى والشيوعى حين أهملت الروح فى بناء أسسها الحضارية أفقدت الإنسان قناعة كبرى ضد القلق والاضطراب وأن الشيوعية زادت على ذلك بأن أفقدت الإنسان مثله العليا التى تتخطى

حدود الحياة المادية من أكل ولباس ومسكن : لقد أقتنعت بأن الإنسانية تنشر حضاره من طراز جديد تجد فيه استقرارها النفسى ولاتفقد مثلها العليا » بل أن السباعى كان وهو يلتقى فى الغرب من بعض الذين دخلوا فى الإسلام يحاول أن يفهم منهم سر تحولهم فيجده فى الأغلب منصبا على فشل الحضارة الغربية : يقول قال لى مره الأستاذ أبو بكر المستشرق الإنجليزى المسلم الذى كان أستاذا للغةالإنجليزية فى جامعة فؤاد (القاهرة حاليا) وقد اعتنق الإسلام وهو فى القاهرة ، قال لى وهو يشرح أسباب إعتناقه للاسلام : أن هذه الحضارة الغربية تفقدالشرف والجمال.

فقلت له : أما فقدانها للشرف فلا أنازعك فيه ! أما فقدانها للجمال فكيف : والناس يرونها أروح حضارة عنيت بالجمال : جمال الطبيعة وجمال اللباس ، وجمال المدن وجمال البيت وجمال المرأة أيضاً ، قال :أنها فقدت جمال الروح وجمال الذوق الفطرى وجمال الخلق .

ويروى أنه فى جنيف ١٩٥٦ القى فى مسجدباريس خطبهالجمعة وتحدثفيهاعن رساله الإسلام الرحيمه العادلهالتى تجلت فى فتوحاتهوحكمه للشعوب وعرض بالحرب الجزائرية ومايقع فيها من ماس دامية جعلتها أكبر مجزره مستمرة فى التاريخوبعد الصلاة تعرف على (مصطفى فالسان) وهو رومانى الأصل ، كان قنصل رومانيافى باريس ثم أعتنق الإسلام وترك العمل الدبلوماسى وقد أطلق لحيته على صغر سنه قال : لقد سمعتك تتحدث عن الرحمة فى الفتوحات الإسلامية ولعلك تريد بذلكأن تنفى ما يفتريه الغربيون على الإسلام من قسوته فى حروبه وفتوحاته ، فلا تتعب نفسك فى هذا ، أن لكل أمه خلقا تعرف به ومن أبرز أخلاق الغربيين : النفاق فى أدعاء الرحمة .

وقالت لنافتاه سويسرية تسكن فى باريس وتتخصص فى تخطيط موجاتالدماغ أننى فتاة فقيرة يرسل إلى أهلى مالا يكفينى لسد رمقى فى هذة المدينة (الفاجرة) وهى مع ذلك كما ترون مدينة (فاخرة) تجعل الإنسان أشبه مايكون بالحيوان الجائع الشره .

وقد رأيت أن أنضم إلى إحدى العائلات لاستعين بذلك على تأمين معيشتى وتطلعت إلى الخدمة عند عائلة شرقية عسى أن أجد عندها الجو الروحى الذى يحفظ لى كرامتى وأنسانيتى ، واتفقت مع هائله هندوسية على الخدمة ساعات معينة فى اليوم ويؤسفنى أن أقول أننى لم أجد فيهم ضالتى ، لقد وجدتهم ذوى أرواح :(صفراء).

ويستدل من هذا على تطلع الغربيين إلى حياة روحيهيأ نسون إليهابعد أن فجرت حضارتهم المادية فى نفوسهم وحياتهم كل ينابيع الآلام والحيرة و الاضطراب.

ولا يجد الدكتور مصطفى السباعى بدا من أن يهدى إليهم عظمة الإسلام وحضارة الإسلام : « كدليل على استطاعتنا بناء حضارة أكمل وأسمى من هذه الحضارة ، وأن نذكر الجيل الجديد من أبناء أمتنا بواجبهم فى بناء حضارة إنسانية كريمة كما بنى أباؤهم مثلها » .

ويصور أبرز معالم هذه الحضارة الإسلامية فى الخصائص التالية :

(١) أنها قامت على الوحدانية المطلقة فى العقيدة .

(٢) أنها إنسانية النزعة والهدف عالمية الأفق والرساله .

(٣) أنها جعلت للمبادىء الأخلاقية المحل الأول فى نظمها ومختلف ميادين نشاطها .

(٤) إنها تؤمن بالعلم فى أصدق أصوله وترتكز فى العقيدة على أصفى مبادئها.

(٥) من أبرز خصائصها : التسامح الدينى العجيب الذى لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين .

(٢)

ويصل الأستاذ السباعي من هذا : إلى أن أعظم معالم الإسلام هو : العدل الاجتماعي ، حين يرى صيحة الماركسية والشيوعية والاشتراكية تحاول ان تقتحم أفق الفكر الإسلامي ، عندئذ يقول لهم : أن الإسلام يستطيع أن يعطي خيراً مما دعوتهم وبأسلوب أكرم وأعظم :

وقد أطلق مصطفى السباعي على بحثه (اشتراكية الإسلام) حين تناول منهج الإسلام الاجتماعي كله وصور في توسع وتعمق : الحقوق الطبيعية التي يمنحها الإسلام :

وهي حق الحياة (مايتعلق بحفظ الحياة والصحة وحياة الأطفال والأرقاء والحيوان) .

وحق الحرية (الإنسانية والدينية والعلمية والسياسية والمدنية والاجتماعية والأدبية)

وحق العلم وحق الكرامة وحق التملك وحقوق العمال وأفاض في بيان : قوانين التكافل الاجتماعي :الأدبي والعلمي والسياسي والدفاعي والجنائي والاقتصادي والعبادي والحضاري والمعاشي وتوسع في الحديث عن الفئات التي تستحق التكافل وموارد نفقات التكافل وقارن بين حقائق التكافل الإسلامية ومثلها عن الغربيين وأجرى مقارنات واسعة مع الرأسمالية ومع الشيوعية ثم تناول التطبيق في حياة الرسول والدوله الإسلامية والمجتمع الإسلامي .

وقد كشف الأستاذ مصطفى السباعي عن أنه إنما استعمل نفس اللفظ الجاري على الألسنة حتى يسبق هؤلاء جميعا إلى بيان أن مايدعونه يستطيع الإسلام أن يقدمه على أكمل وجه ودون الحاجة إلى استيراده من الخارج .

وبالرغم من أنه كان يعرف أن هذا المصطلح مرتبط بظرف تاريخى يمكن أن يختفى بعد أو بتغير ، وبالرغم من أن هناك تعبيرات إسلامية كالعدل الاجتماعى فإنه قد أصر على هذا المصطلح : يقول : ومادام الناس فى مختلف الشعوب يتوقون إلى تحقيق ذلك الهدف ويتهافتون على المذاهب الاشتراكية المعروفة أعتقاداً منهم أنها هى الطريق الوحيد لتحقيقه ، أفــلا يجب أن ندلهم على « طريق آخر » لا يعرفونه لتحقيق ذلك الهدف العظيم ، وهو طريق أكمل منهجا وأكثر استقامة وأبعد عن مساوئى تلك المذاهب الاشتراكية وعيوبها ثم يقول أن مانعرضه فى هذا البحث هو « التشريع الإسلامى » الذى جاء ليحقق ذلك الهدف لاتزويق فيه ولاتحريف ، وهو تطبيق ذلك التشريع نظريا فى أحكام الفقه وعمليا فى تاريخ الدول الإسلامية فى مختلف عصورها .

فليسمه غيرنا بما يشاء ، ليسمه باسم العدالة الاجتماعية أو التكافل الاجتماعى أو محاربة الفقر أو مايشبه ذلك أما نحن فنسمه بالإسم الذى يحبه الناس ويرونه أملهم الوحيد فى الخلاص من شقائهم وأضطراب أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية .

ولكن الدكتور السباعى يكشف موقفه واضحا من الشيوعية فتقول : أنها عقيدة ذات فلسفة ماديه تنكر الروح وماوراء المادة وهى فى ذلك تختلف عن الإسلام فى أسسها وجوهرها ولايمكن أن نلتقى معه فى عقيدته وفلسفة وجواب الإسلام على الشيوعية من هذه الناحية ، هو جوابه على كل فكرة خاطئة أن يفندها بالحجة والمنطق وأن يبين ما فيها من انحراف عن الحق وخطأ فى الواقع . كذلك فإن الإسلام وضع نظاما واضح المعالم مستقلا عن الشيوعية وعن الاشتراكية وعن الرأسمالية ، وهو فى ذلك لايحارب الشيوعية فى كل اتجاهاتها الاشتراكية ولايقرها فى كل اتجاهاتها أيضاً كما أنه لايحارب النظم الاقتصادية الأخرى لايقرها فى كل تفاصيلها واتجاهاتها . ويقول : أعتقد أن الأديان كلها سبقت الشيوعية إلى الرحمة بالبائسين والانصاف للناس والرغبة فى تحقيق العدالة بين الجماهير ولكل ديانه وسائلها الخاصة بها فى تحقيق هذه الأهداف » .

وهو يفرق بعد ذلك بين الشيوعية كعقيدة ونظام وبين الشيوعية كدولة ، « فإن سالمت عقيدة المسلمين وكرامتهم وأحترمت أرائهم وسلطانهم على ديارهم سالمها الإسلام » .

وهكذا عاش مصطفى السباعى حياة قصيرة ولكنها عريضة. خمسون عاماتقريباً فقد ولد فى حمص (سوريا) عام ١٩١٤ وتوفى ١٩٦٤ (٣ أكتوبر) وكان قد تخرج فى المدرسة الشرعية وأرسل إلى الأزهر فحصل على العالميه والتحق بكلية الشريعة ، ونال شهاده الدكتوراه فى علمى الفقه والحديث واشترك فى تحرير مجلة الفتح التى كان يصدرها السيد محب الدين الخطيب وفيها كتب عديدا من مقالاته وتعرض بالنقد لكتاب ضحى الإسلام للاستاذ أحمد أمين (الذى كان قد تعرض للامام الزهرى ولأبى هريره) ولما عادإلى سوريامضى فى الطريق الوطنى والإسلامى جميعا ، فى مواجهة الاستعمار والتغريب معا ، واستطاع أن يحقق كثيرا بانشاء كلية الشريعة الإسلامية وبإقرار مبدأ (الشريعة الإسلامية) مصدرا للقانون فى الدستور السورى ١٩٥٠ وقد إعانته التجربة والرحلة فى التعرف إلى رجال اليقظه الإسلامية فى كل مكان ، وبذلك حقق الأمل الذى يتطلع إليه والده الشيخ حسن السباعى « من كان أملة أن أكون حلقة فى سلسلة بيتنا العلمى منذ مئات السنين وكل ماطلبته من ربى أن يجعلنى من حسناته يوم الدين » على حد تعبيره فى إهداء إحدى كتبه إليه ولقد قدم السباعى للمكتبة الإسلامية عديدا من الأبحاث خاصة فى ميدان الشريعة الذى تخصص فيه :

(١) شرح قانون الأحوال الشخصية

(٢) الوصايا والفرائض

(٣) مشروعية الأرث وأحكامه فى الإسلام

(٤) المرونة والتطور فى التشريع الإسلامى

(٥) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى

كما قدم فى الدراسات الحضارية والاجتماعية :

(١) من روائع حضارتنا

(٢) أخلاقنا الاجتماعية

(٣) أحكام الصيام وفلسفته

(٤) اشتراكية الإسلام

— ٥ —

محمد المبارك

لم اقابله ولكني عشت معه وحادثته وتابعته كمثل حي من أمثلة النوابغ الفلائل الذين عرفوا معضلات فكرنا العربي الاسلامي المعاصر . ووضعوا لها حلولا جذرية في أسلوب علمي هادىء رائع هو ثمرة جماع منسق من الثقافة العميقة الواسعة والنظرة الشاملة والايمان الصادق .

وهو لا شك ثمرة خصبة من ثمار (مدرسة اليقظة العربية الاسلامية) التي استمدت منذ قرنين منذ أوقد هذه الجذوة داعية التوحيد الخالص (الامام محمد ابن عبد الوهاب) في قلب الجزيرة العربيه فأتسع ضياؤها حتى عم كل مكان ومنه استمدت مختلف المدارس التي توالت على هذا الزمن ، وتركت أثارها الواضحة بالتجديد والاصلاح والدفاع عن الحقيقة .

وتصحيح المفاهيم من خلال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وطاهر الجزائري وعبد ألرازق البيطار وجمال الدين القاسمي وعبد القادر المبارك والد المترجم له .

وفي عصرنا هذا يبدو العلامة محمد المبارك في اضمامه واحدة مع شكيب ارسلان ومحب الدين الخطيب مصطفى السباعي وحسن البنا ، وهم يتابعون خطوات من تقدمهم في سبيل تأصيل اليقظة والفكر الاسلامي والثقافة العربية من غزوات التبشير والتغريب والغزو ويتسم محمد المبارك بأنه جمع بين دراستين : دراسه الشرق العربي الاسلامي في الفقه والتوحيد والتاريخ واللغة والتراث ، ودراسة الغرب في الفلسفة للفكر واللغات وقد أفاد من هذه لتلك واستطاع أن يقيم منهجا محددا تقدميا للفكر الاسلامي بعد أن عرف أخطار وتحديات الفكر الغربي

وهو يؤمن بطريقة القرآن فى البحث ومنهجه فى الفكر (طريقة القرآن : كتاب الله العظيم : الطريقة الحكيمة فى الجمع بين مخاطبة العقل والقلب) .

يقول : لقد كان عمل القرآن الثورى فى قلب الأوضاع العالمية وتصحيح القيم وتبديل الأفكار وتعيير معالم الحياة ناجما عن أفكار سياسية عميقة أبرزها واشاعها ورسمها فى النفوس وبثها فى القلوب وهى أفكار خالدة وقيم رائعة وهو يؤمن بأن المفكرين المسلمين العرب يجب أن يتخذوا هذا المنهج القرانى (متحررين من طريقة المتكامين المتأثرين بفلسفة اليونان كذلك التحرر من اقحام المفاهيم الغربية الحديثة التى حاول بعض تلاميذ الثقافة الاوروبية الخاضعين لنفوذها خضوعا مطلقا أن يخضعوا الاسلام لمقاييسها ويتعسفوا فى تفسيره وتأويله حتى يوافق مبادئها وهم بذلك أفقدوه بذلك خاصيته وأضاعوا ذاتيته) .

ويولى العلامة محمد المبارك اهتماما خاصا بالغزو الحضارى الغربى للعالم الاسلامى والفكر الغربى الاسلامى .

ويرى أنه احدث أزمة جذرية عنيفة وثورة نفسيه فكرية (فكان شكا أو جحودا لاسس حضارتنا ومعتقداتنا ولقيمنا ومفاهيمنا وتاريخنا) وقد غمرت هذه الموجة من الشك طبقة كثيرة من المثقفين فى حدود متفاوته بتفاوت أثرها فى نفوسهم .

وكان ذلك طبيعيا فى زمن جاءهم فيه النور من نافذة الغرب ، وكان الاسلام محجوبا عنهم تحجزه ركائز من مخلفات العصور وتشويهها .

وعنده أن هذه المرحلة : مرحلة النقل والتقليد والغزو الفكرى : قامت على أساس نفسى من الاعجاب بالغرب واكباره بل تقديسه والاستشعار بالنقص ، كما قامت على أساس الأخذ بالمثل العليا التى اتخذها الغرب وغاياته فى الحياة ،

واتخاذ قيمه فى الاخلاق ومقاييسه فى الحياة أساساً لحياتنا ، بل اتخاذها مقاييس وقيما نقوم بها تراثنا وحضارتنا وديننا .

وعن هذا الطريق انتقلت الينا الأفكار خاطئة قبلناها على أنها بديهيات مسلم بها وزيناها بالفاظ احطناها بهالة من السحر (كالتقدمية) (والتطور) و (التجديد) ، وقبحنا ما يخالها بالفاظ جعلناها منفرة .

ولقد كانت (المادية) بشتى مذاهبها والالحاد فى مختلف صورة من آثار هذا الوعى المنحرف ، ومن مظاهر نفوذ حضارة الغرب وتأثيره الفكرى الممتد إلى حياتنا .

ومن هذه المظاهر أيضا انتشار كثير من المفاهيم الخاطئة فى الحياة التى هى أثر من أثار إنحلال بعض عرى المجتمع الغربى أو الاتجاهات الخاطئة لحضارته أو ضعف مؤسساته أو تنظيماته الاجتماعية وهى فى الوقت نفسه مجافية للمفاهيم العربية الصحيحة ومنافية لمبادى الإسلام ، ومنها أيضا عرض تاريخنا وعقائدنا ومؤسساتنا الاجتماعية من خلال هذه المفاهيم الخاطئة واقتباسا من الفهم الاجنبى الخاطىء) .

وأشار العلامة محمد المبارك إلى نتائج ذلك على الفكر العربى الاسلامى: والثقافة والادب وغيرهما . « أن أكثر ما يكتب فى ادبنا ويصاغ من فننا ليس إلا اقتباسا وتقليدا لذلك الادب. أنه يخالف من حيث الاساس والجوهر، والمفاهيم الأصيلة فى الادب العربى » .

ونظرة ثانية يلقيها العلامة محمد المبارك على (الأمة العربية) ودورها ورسالتها الانسانية فى محاولة لتحديد معالم الشخصية العربية وخصائصها وعناصر رسالتها وما فعله الاسلام فى العرب من أثر عميق ومانقله من أفق رحيب وما حققته مبادىء الاسلام وروحه عن طريق هذه المكارم ، والمفاخر من انسانية رفيعة وسمو

نفسى . وكيف أن العالم اليوم يتطلع إلى نظام جديد للحياة ويتشوق إلى مثلى أعلى لن يجده إلا فى الاسلام .

وهو يعتقد أن الأمة العربية هى الأمة المؤهلة للقيام بهذا الدور العالمى :

(الأمة العربية بمكانها الثقافى والجغرافى وموقعها القيادى فى العالم الإسلامى تستطيع أن تقوم بدور المنقذ وأن تكون رائدة للحضارة الانسانية المقبلة وطليعتها) فالأمة العربية هى منطلق الاشعاع للعالم الاسلامى كله. ولذلك لابد أن يعى العرب ذاتهم ويفهمون دورهم ، ولا بد من عملية جذرية للتحرر من رواسب عصور الانحطاط من ناحية ومن جذور النفوذ الأجنبى من ناحية أخرى .

وهو يحدد موقف الاسلام الذى حمله العرب إلى العالمين بأنه يحمل نظرية كلية شاملة وأنه لم يجزىء الحياة بل نظر إليها نظرة موحدة متصلة ولو انها كانت هى نفسها اقساما (ولو استعرضت كتاب الله لخرجت منه بفكرة محيطة شاملة تحيط بالكون والانسان ونواحى حياته ونشاطه وتربطها جميعا بخالقها ونهايتها) .

وهو يؤمن بأن كل مافى الحضارة الإسلامية متفرع من الايمان بالله واليوم الاخر بحيث لا تنفك هذه العقيدة عن تلك الحضارة ولا عن النظام التشريعى والاخلاق المنبثق عنها والمبنى على أساسها وإذا كان لكل حضارة مميزات وخصائص وأهم خصائص الحضارة العربية الاسلامية بوجه عام اتصال العقيدة بالنظام، والنظام بالعقيدة وكل فصل بينهما إفساد لخصائص هذه الحضارة .

فالعقيدة هى الخاصية الأساسية التى إذا فقدناها ، فقدنا الأصل من شخصيتنا العربية وفقدنا الأساس من حضارتنا الاسلامية بل فقدنا السانيتنا نفسها ، كما فقدتها الحضارة الحديثة . وعلى أساس هذه الايمان الذى يسمو فوق كل إيمان غيره يجب أن تبنى مناهج التعليم فى مدارسنا فى جميع مواد

الدراسة إلا أن يكون الدين درسا ملحقا أو رقعة فى نظام تعليمى يقوم على أساس لامكان فيه لوجود الله والايمان به .

ويجب أن يكون تعليم الطبيعيات والأخلاق والفلسفة قائما على أساس وطيد من الايمان بالله ولقائه وحسابه .

ويكشف هذا الفهم عن عمق إيمان هذا الباحث وسعة افقه وقدرته على التحليق فى جو إيجابى متحرر قادر على النظر إلى الزوايا البعيدة والنظر الى المستقبل القريب الذى ينتظر الفكر الاسلامى ليقوم بدوره فى معرفة مشاكل الانسانية وحل قضاياها .

وجانب ثالث فى فكر علامتنا محمد المبارك له دوره وأثره ودراساته : ذلك هو جانب (اللغة العربية) وله فى مهمة اللغة العربية مكانتها مفهوم عميق فهو يؤمن بدور اللغة العربية الخطير إيمانا يقتضى (ضرورة حفظها وجمعها والكشف عنها والتعرف بها وتجديد عرضها على الناس ليأخذوا بأحسنها والذود عنها أمام خصومها واخراج الناس من اسفاف العامية وتحرير أهل الأدب من إنحلال الصنعة ومحاولة التجديد فى اللغة لسد حاجة من الحاجات وتسمية ماتشاء من المستحدثات على طريقة العرب وسليقتهم .

ويتتبع هذا بالطبع بعث التراث العربى ليكون أداة أساسية فى بناء الحياة الجديدة والذود عن هذا الميراث (تراث العرب وحضارة الاسلام) أمام مطاعن الشعوبيين والمستشرقين ودعاة الاقليمية وانصار العامية من اعداء العربية .

وهو فى هذا المجال ومن أجل تعميق هذا العمل يرى أنه لا بد من الانتفاع بتجارب اللغات الاخرى يقول : (لا بد لنا نحن فى ميدان العلوم المادية والحياة العلمية فى الحضارات الغربية الاجنبية المعاصرة أن نستفيد من تجربة اللغات الاجنبية ما يعيننا فى تجربتنا على أن نعرف لكل لغة خصائصها وطرائقها فى الاشتقاق والتوليد ، وقد كان من حسن حظى أن اتاح الله لى فرصة الاطلاع على هذه التجربة

فى لغة غير العربية وفى ثقافة غير الثقافة العربية خلال دراستى فى جامعة باريس فى مجالات الأدب واللغة والاجتماع .. فكان ذلك ما فتح لى الطريق إلى تجربة شخصية فى قضايا الفكر واللغة وفتح لى بابا جديدا فى معالجه مسائل اللغة العربية والكشف عن خصائصها بطريق الموازنة والمقارنة ، وأوقع نفسى مع ذلك الحذر من التقليد الحرفى والنقل الالى والخلط بين خصائص اللغة أو فنون ادابها ، والانسياق فى تيار نظريات المستشرقين وأصحاب المذاهب الاجتماعية .

لقاء مع جيل الرواد (محمد المبارك)

ومن خلال هذه الخطوط العامة السريعة الخاطفة تبدو وملامح شخصية باحث عربى اسلامى نابه يلفت النظر بإصالته ومرونته وعمقه فى تناول القضايا المصيرية للامة العربية والعالم الإسلامى ، وهو واحد من رواد المدرسة الأصيلة التى تجمع بين التجديد والبناء على اساس من القيم الاساسية للفكر الإسلامى والثقافة العربية ، هذه المدرسة الوسطى التى لم يتوقف عند التقليد والمحافظة ولم تندفع إلى التطرف فى التحديد والانحراف فى ولاء فكرى أو ثقافى للغرب ، بل أخذت الطريق الاسنى: طريق الجمع بين الاحياء والتجديد على قاعدة أساسية من مفاهيمنا وقيمنا مع المحافظة على شخصيتنا وتراثنا ودورنا الانسانى فى الحضارة البشرية .

والعلامة محمد المبارك فرع من دوحة علم وفضل أخرجت الكثير من الاعلام: جده محمد المبارك الكبير الجزائرى الحصنى أول من احيا قراءة المقامات الحريرية فى دمشق وكتب لطلابه شرح عشر مقامات منها ، اتجاها منه إلى الاهتمام باللغة العربية. وهو ابن (عبد القادر المبارك) علامة دمشق وأحد عمد فكرها الحديث فى حلقة طاهر الجزائرى ورفيقيه البيطار ، والقاسمى ولقد كان لهذا البيت المبارك اهتمامه وولائه وشغفه باللغة العربية ، وقد ولد محمد المبارك الحفيد فى هذا الجو المعطر بروح الاسلام واللغة العربية فأتيح له بدراساته فى جامعة باريس أن يعمق مفاهيم اليقظة العربية الاسلامية وأن يضيف إلى الرواد نموذجا جديدا عرفته حركة

اليقظة فى كثيرين ممن تعلموا فى جامعات الغرب أمثال عبد العزيز جاويش والدكتور عبد الحميد سعيد والدكتور الدوديرى والدكتور علي مظهر .

وقد تتلمذ العلامة محمد المبارك لثلاثة من النوابغ والده والشيخ سليم الجندى ومحدث الشام محمد بدر الدين واتيح له منذ مطالع شبابه أن يقضى الساعات اطوال مع والده فى شرح المعلقات أو (لامية العرب) للشنفرى أو المقصورة الدريدية ، أو مقامات الحريرى وأمثالها من أثار اللغة وحصونها وقد ظلت الصلة بينه وبين الوالد فى مجال البحث العلمى متصلة بعد سفره إلى باريس عام ١٩٣٥ للتخصص فى الأداب وكانت تدور حول القضايا العلمية ولا سيما اللغوية منها وكان يصحب والده الذى كان عضوا عاملا فى المجمع العلمى — منذ اوائل الشبات فى ندوات أعضائه ويسمع منه حكاية ما كان يدور من مناقشاب وابحاث .

وأتيح له بعد عودته من أوربا أن يعمل فى تدريس علم العربية فى المدرسة التجهيرية وفى كاية الأداب والشريعة بجامعة دمشق وقد وصل إلى عمادتها ثم عمل فى تفتيش العربية بالمدارس ، وعمل وزيراً بين عام ١٩٤٧ — ١٩٥٨ وشارك فى عديد من أوجه النشاط الفكرى العربى والاسلامى ومؤتمرات العالم الاسلامى فى لاهور والقاهرة .

وقد أودعت خلاصة تجاربه الفكرية فى اللغة والاسلام والحضارة العربية الاسلامية ودورها الجديد فى عدد من المؤلفات والرسائل وقدم فى كل مجال من هذه المجالات نظرية كاملة . وخاصة نظريته فى خصائص الاغة العربية فى كتابة (فقه اللغة) ومن آثاره العملية (رسالة من منهل الأدب الخالد) التى عرض فيها لعناصر الفن وأسرار البيان فى القران وله رسالة فى نظرة الاسلام العالمية إلى الوجود وأثرها فى الحضارة) وله — رسالة نحو وعى اسلامى جديد — التى دعا فيها إلى إصلاح التدريس فى المعاهد والجامعات الاسلامية وإلى أن تكون رسالة الأزهر باعثة للايمان الصحيح فى القلوب والعقول . وله كتاب (الأمة العربية فى معركة تحقيق الذات) وله كتاب — فقه الاغة — ويضم دراسة تحليلة مقارنة للكامة العربية فى تركيب حروفها واشتقاقها . وله دراسة عميقة فى الاسلام بعنوان ذاتية الاسلام وله بحث عن موسوعة الفقه الاسلامى رسم فيها بيان فكرة هذه الموسوعة التى

تفتح أمام الأنظار العالمية أعظم ثروة فقهية عرفها تاريخ الأمم معروضة بالطرق الحديثة خدمة للتشريع وتنمية لثروته القانونية وتغذية للنهضة العربية الحديثة .

وقد سوز العلامة محمد المبارك عمله الفكرى فى عبارات مضيئة دقيقة حين قال — آثرت ولا سيما بعد اشتغالى بالتدريس بالجامعى أن أحافظ على خطوط فكرية ثلاثة كنت دوما انتقل بينها واتابع المدراسة والبحث فى آفاقها وهى اللغة والفكر الاسلامى ، وخصائص الأمة العربية وذلك حفاظا على لغة القرآن التى هى اداة تفكيرنا وفن تعبيرنا ووسيلة أدائنا لرسالتنا بها توارثنا مكارم امتنا وبها نزل كتاب الله علينا وفيها يكمن الكثير من قوتنا والثمين من تراثنا .

والحق أن العلامة محمد المبارك أطال الله عمرك مازال مرموقا من الباحثين الذين يتطلعون إلى مختلف آثاره واعماله .

وفى السنوات العشر الأخيرة من حياة عامرة خصبة مباركة ممتدة:أخذ العلامة محمد المبارك يؤصل الفكر الإسلامى فى دراسات واسعة عميقة : [العقيدة ، الشريعة، الاقتصاد، المجتمع] خلال فترة أقامته الطيبة فى مكه المكرمة ، استعمالا لمنهجه الواسع الذى بدأه بمؤلفاته عن اللغة العربية والأمـــة العربية ، وفقه اللغة . والدوله عند ابن تيمية ، ونظره الإسلام العامة إلى الوجود وأثرها فى الحضارة ، وقد طوف العلامة المبارك ماطوف ، فى جامعات البلاد العربية والإسلامية ، وكان تخصصه فى التربية والتعليم من أبرز الجوانب التى يحرص على أن يقدم فيها تجارب هامة لتحرير منهج التربية فى البلاد العربية والإسلامية من انفوذ الأجنبى ولاغرو فالمبارك من أسرة علم قديمة وقد جاءت دراسته فى فرنسا عاملا هاما فى دعم الفكر الإسلامى بفهم عوامل الغزو الثقافى وأساليبه .

يقول عز الدين التنوخى : محمد المبارك روحه أخرجت محمد المبارك الكبير الجزائرى الحسنى أول من إحيا قراءة المقامات الحريرية فى دمشق ، وكتب لطلابه شرح عشر مقامات فيها وهو ابن وخليفة عبد القادر المبارك الذى نشأ مفتونا بالعربية وأدابها ومازال يستضىء بمشكاة والده حتى أصبح فى اللغة ممن يرمى بالأبصار .

فقد تأثر بالدراسة اللغوية ، بوالده وجدة . يقول المبارك : الفيت الأقبال على الأبحاث اللغوية إحياء لميل قديم موروث فطالما قضيت الساعات الطوال مع والدى فى شرح المعلقات أو لاميه العرب للشنفرى أو المقصورة الدريديهأومقامات الحريرى وأمثالها من آثار لغتنا وكانت المراسلات تبنى وبينه حين سافرت إلى باريس ١٩٣٥ للتخصص فى الأداب تدور حول القضايا العلمية ولاسيما اللغوية فيها » .

يقول : وقد أودعت خلاصة تجربتى فى اللغة فى كتابين أخرجتهما وحاولت فى ثانيهما أن أقدم نظرية عامة مقارنة فى خصائص اللغة العربية : فقه اللغة وخصائص العربية وآثرت ولاسيما بعد اشتغالى بالتدريس الجامعى أن أحافظ على خطوط فكرية ثلاثة كنت دوما أنتقل بينها: وأن أتابع الدراسة والبحث فى أقامتها وهى اللغة والفكر الإسلامى وخصائص الأمة العربية .

ويقول لقد كان ثلاثة لهم أثرها فى تكوين : سليم الجندى ومحمد بدر الدين محدث الشام ووالده ويقول : أتيح لى أن أعيش فى حداثنى نحو ثلاثين سنةفى ذلك الجو المجمعى فقد كان والدى رحمة الله عضوا عاملا فى المجمع منذ أوائل من الشباب فكنت أصحبه فى تلك الندوات الخاصة بالأعضاء واسمع منه حكاية مايدور من مناقشات وأبحاث .

ويقول أن مهمة المجمع فى اعتقاده هى :

بعث التراث العربى ليكون أداه أساسية فى بناء إلحدبية ، وحفظ اللغة وجمعها والكشف عنها والتعريف بهاوتجديد عرضها على الناس ليأخذ وابإحستها والذودعنها أمام خصومها وإخراج الناس من أسفاف العامة وتحرير أهل الأدب من الانحلال الضيقة ومحاولة التجديد فى اللغة لسد ماجدمن الحاجات وتسميه مانشأ من المستحدثات على طريقة العرب وسليقتهم والذود عن التراث (أى تراث العرب وحضارة الاسلام) أمام مطاعن الشعوبين والمستشرفين ودعاة الاقليمية وأنصار العامة من إعداء العربية ويؤمن العلامة محمد المبارك بما يسميه « طريقة القرآن » ويدعو إلى ذلك :

لقد كان عمل القرآن النورى فى قلب الأوضاع العالمين وتصحيح القيم وتبديل الأفكار وتغيير معالم الحياة ناجما عن أفكار سياسية عميقة ، أبرزها وأشاعها

ورسخها فى النفوس وبثها فى العقول وهى أفكار خالدة وقيم رائعة . وعلينا أن نبين أن لكتاب الله العظيم طريقته الحكيمه فى الجمع بين مخاطبه العقل والقلب ، متحررين فى ذلك من طريقة المتكلمين المتأثرين بفلسفة اليونان ومن تشويه العصور المتأخرة ومفاهيمها الضيقة المضطربة ، فى أمر التحرر كذلك من أقتحام المفاهيم الغربية على الإسلام من منتجات الحضارة الغربية الحديثة التى حاول بعض تلاميذ الثقافة الأوربيه الخاضعين لنفوذها خضوعا مطلقا أن يخضعوا الإسلام لمقايسها ويتعسفوا فى تأويله حتى يوافق مبادئها ففقدوه بذلك خاصة وأضاعوا ذاتيته » ،

— ٦ —

الدكتور محمد أحمد الغمراوى

لم يكن تبريز هذا العلامة الجليل فى مجاله العلمى فحسب ،ولكن كان واحدا منذ ذلك الرعيل الرائد التى حمل لواء تصحيح المفاهيم وتحرير الفكر الإسلامى والكشف عن الشبهات الزائفه التى أثارها التغريب والغزو الثقافى والتى حمل لوائها طائفة المثقفين دون أن تبينوا حقيقةمايراد بها من هدم للقيم الاصلامية العربية .

وهو واحد من أولئك العلماء الذين درسوا فى الجامعات الأوربية وعادوا دون أن تضطرب فيهم قيمهم الاسلامية أو تأكلهم الموجه الاستعماريه ومن ثم كانوا نواة لحركة اليقظة التى حملت لوائها جمعية الشبان المسلمين وتفرع منهامن جماعات فى الثلاثينات من هذا القرن فى مواجهة حركة التغريب وحركة التبشير ودعوات الصهيونية والماسونية والبهائية جميعها .

من هؤلاء الدكتور يحى الدرديرى ، وعبد الحميد سعيد وعبد العزيز جاويش والغمراوى هو الذى تصدى للرد على الدكتور طه حسين عندما أصدر كتابه (الشعر الجاهلى) وقال فيه : أنه حين يعرض لنظرية ديكارت فإن علماء الأزهر لا يفهمونه ولا يستطيعون مناقشته ، فتقدم الغمراوى وقال أنه من خريجى جامعة لندن فى العلوم الكيماوية ويستطيع أن يناقش الكاتب فيما يزعم أنه رأى ديكارت ولقد كان كتابه (النقد التحليلى للادب الجاهلى) من أدق ما كتب فى الرد على طه حسين فى هذه الفترة، وكانت للغمراوى معارضات أخرى لزكى مبارك ومناقشة واسعة لارائه التى أوردها فى كتابيه (التصوف الاسلامى) و (النثر الفنى) فقد تناول هذه القضايا فى بضعة عشرة مقال نشرها فى الرسالة عام ١٩٤٤ وعجز زكى مبارك عن مساجلته

بعد أن لم يكن هناك من يقف أمام صوله (الدكاترة) ويجرؤ على منازلته في ميدان السجال .

وللغمراوى معارضات ومساجلات أخرى ، كانت هى القول الفصل حين امتد العراك بين أنصار الرافعى وأنصار العقاد وجرى السجال حول أى الاديبين أكثر رصانة وأبلغ مضمونا وشارك فى هذه المساجلات شاكر وقطب والعريان واستطاع الغمراوى أن يحسم الموقف كله . ولقد يدهش القارىء من هذه القدرة البارعة للغمراوى فى التصدى الدراسات الأدب والنقد والشعر والنثر وهو المتخصص فى الكيمياء من جامعة لندن والباحث فى تحليل الأغذية والأستاذ بكليات الطب والصيدلة .

ولكن الأمر فى ذلك كله بين ويسير إذا علمنا أن الغمراوى بدأ حياته فى بيئة أزهرية وجو ادبى خالص ، وانه كان يتطلع منذ صباه الباكر أن يصبح اديبا وكاتبا وقد سألته فى ذلك رحمة الله عندما أخذ يشرح لى نظريات الذرة وتركيبها من الالكترون والبروتون يربط ذلك بما ورد فى القرآن الكريم ، وقال : الواقع أننى حفظت القرآن الكريم فى مطلع حياتى كما حفظت أربعة عشر مقامة من مقامات الحريرى عرفت بها وكان لاخى الشيخ محمود الغمراوى (من كبار رجال الأزهر) فضل على فى فهم البلاغة والعلوم الأدبية ولما كنت معجبا بالشيخ حامد أحمد خريجى دار العلوم الذى سافر إلى اوربا وتعلم الطب ولذلك فقد رغبت فى الالتحاق بها غير أن الاقدار وجهتنى إلى الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤ وكان من زملائى الدكتور أحمد زكى والدكتور الكردانى ثم أخذت فى بعثة المعارف لدراسة الكيمياء فى جامعة لندن ١٩٢٢ واتيح لى بعد أن درس تحليل الأغذية ١٩٢٤ إن عملت بعد ذلك مدرسا للكيمياء فى كلية طب القصر العينى ثم فى كلية الصيدلة .

ولقد شارك الغمراوى فى انشاء الشبان المسلمين مع السيد محب الدين الخطيب

وتصدى للابحاث الأدبية والعلمية منذ عام ١٩٢٧ تقريباً حتى وفاته ،وكانت اخر مقالاته فى مجلة الازهر — رحمة الله — عن اعجاز القرآن ولقد عاش الغمراوى (١٨٩٣ — ١٩٧١) حياه حافلة بالبحث والدراسة وكان من أبرز اهتماماته دراسة (الآيات الكونية) وعقد الصلة بين العلوم الطبيعية والقرآن الكريم وعرف ابان حياته الفكرية كلها بذلك الايمان الراسخ والفكر الواضح والأسلوب النقى الصريح فى مواجهة أخطار الغزو الثقافى والتعليم العلمانى وقد طالعنا أغلب ما كتب الباحث الكبير فى مجلات الفتح والرسالة والثقافة والازهر وغيرها واستطعنا أن نكتشف له منهجا فكريا متكاملا بشكل نظرية اسلامية عربية شاملة فى مجال الأدب والعلم والفن والحضارة مستمدة من مفهوم القرآن يمكن أن تكون قاعدة صالحة لبناء مذهب عصرى متجدد قائم على قيم الاسلام الأساسية .

مجمل النظرية

« الاسلام دين الفطرة ، ولذلك فهو لا يعارض العلم ولا المدنية ، وأن القرآن ليلفت الإنسان إلى أسرار الفطرة ويحثه على تفقهها . وأن خمس آيات القرآن تحث الإنسان على دراسة الفطرة ، وعبادة الله عن طريق هذه الدراسة .

ومن هنا فإن هناك تطابق تام بين دين الإسلام والعلم لاشك فيه ، ولما كانت كلها منشئها واحد هو الله سبحانه وتعالى والعلم والدين كلاهما اجتمعا على استحالة التناقض فى الفطرة فإن ما يخالف الفطرة من الآداب والفنون ليس أصيلا ، فإذا تحققت الواحدة بين الفن والأدب والدين ، هذه الوحدة المتحققة بين الدين والعلم، تحققت وحدة حياة الانسان كلها وبذلك تبرأ من التناقض والتنافر والصراع ».

موقف الاسلام

ومن هذا المنطق يحدد موقف الاسلام من قضايا ثلاث كبرى هامة :

(أولا) المحضارة:

أن المدنية الكاملة يجب أن يكون بينها وبين الفطرة من الاتفاق ما يحملها فى فى الواقع جزءا من الفطرة التى فطر الله عليها الكون واية ذلك أن يكون منها ما فى سائر النظم الكونية من الاتساق والانسجام والتوافق والتماسك والاتزان والهدوء. وهذا لا يتحقق لأى مدنية من المدنيات وإلا إذا قامت على (الحق) فى جميع نواحيها وكانت نظمها النافذة مطبقة على قوانين الفطرة التى فطر الله عليها الناس .

ومن ثم فإن شيوع الخلل والاضطراب فى بعض النواحى ، هو دليل شيوع الباطل فى هذه النواحى ودليل بعد هذه النواحى عن الفطرة .

أن المدنية فى الإسلام شطران : شطر يقوم على العلم وشطر يقوم على العدل ومن وواء ذلك مخافة الله ومحبته ، ولاغنى لاهل المدنية عن هذين إذا أرادوا لها البقاء».

(ثانياً) المعلم :

الناحية العلمية فى هذه ألمدنية هى الناحية الواحدة التى اتخذت فيها هذه المدنية بالفطرة واذا كان الاسلام دين الفطرة فهى الناحية الواحدة التى تم فيها الاتصال بين المدنية الحديثة وبين الإسلام . أما أن الإسلام يؤيد العلم بعامة ويحض عليه ويكبر منه فأمر يعرفه كل من له المام ولو ببعض الآيات والأحاديث الواردة فى العلم والتأييد التام العلم على اطلاقه يشمل طبعا التأييد التام للعلم بمعناه الخاص ، معناه

الطليمى المستعمل فيه اللفظ اليوم ، وفى ألحق أن الانسان ليأخذه العجب من كثرة مالقيت هذه الناحية من التركيز فى القرآن ثم من تراخى المسلمين برغم ذلك فى طلب هذا العلم . وليس كل ما ينتسب إلى العلم ينتمى إليه ولا كل ما ينتمى للعلم مفروغ من اثباته ، بل كما أن فى العلم الحقائق التى لاشك فيها فان فيه أيضاً القضايا المفتقرة إلى الإثبات ، أما حقائقه فهى مفردات المشاهدات فى ميادين العلم المختلفة وما سينتجه العقل فيها حسب قوانين التفكير الفطرية ، ولكن كل ماينتمى إلى العلم من هذا النوع هو علم الفروض التى يقدمها العلم فى ميادينه المختلفة ملتمسا بها تفسير مشاهداته فهى عنده فروض رهن التجربة والامتحان وهى بعينها التى يستعينها المشغوفون بكل جديد وموقفهم هذا تلقاء العلم يشبه موقف العوام تلقاء من يكبرون من الأبطال الخرافيين أو الحقيقيين والذين يكثرون من التغنى باسم العلم وليسوا فيهم فى التعصب أعوان القديم ، ينتصرون لكل جديد كما ينتصر العوام لكل قديم ، أولئك هم عوام الخواص « أن مصادر الحق هو القرآن والفطرة والانسان لا يتطلب الحق إلا فى هذين أما الفلسفة فليست مصدراً الحق ، أن تحول الذرة إلى طاقة قد ذهب بشبهة قدم العلم وقدم المادة ، فقد اثبت العلم أن المادة تفنى وتصير طاقة أى تعدم وعندما وصل العلم إلى ذلك قضى على ما كان مقررا فى الفلسفة مما ردده أرسطو وابن رشد .

(ثالثاً) الفن والأدب :

« أن الفن ومنه الأدب له من الأثر فى حياة الفرد وفى حياة الجماعات اكثر مما للعلم ، لأنه متصل بدخيلة هذه الحياة فى حين يتصل العلم عند أكثر الناس بظاهرها وإذا اتصل عند أقوام بباطن حياتهم النفسية فقد صار بابا من الفن عند ذلك القليل .

وأن المسلم الذى يفقه دينه ويفقه الحياة انما نظر لايجد مفرا من ان يصل هذه الحياة (ادبها وفنها وعلما) بالدين كما انزله الله على رسوله (محمد بن عبد الله) لى كما يتبين من القرآن ل من عمل الرسول ذلك أن الاسلام دين يشمل الحياة بحذافيرها ويحيط بها من جميع أطرافها . وكيف يجوز أن يجمع الانسان بين الحياة الإسلامية والحياة الفنية والادبية أو العلميه أن لم يكن بين (الفن والأدب والعلم وبين الاسلام تمام التطابق والاتفاق) .

والتطابق التام بين العلم والاسلام ثابت لاشك فيه ، فليس فى الثابت من العلم شىء ينقض شيئا من الاسلام وليس فى الاسلام أصل ينقض حقيقة ثابته فى العلم وكل ما يثبته العلم فى المستقبل يقبله الاسلام مقدما بنص القرآن .

فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب الا تخالف أو تناقض دين الفطرة ودين الاسلام فى شىء فإذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة أو ضمنا إلى رزيلة من أمهات الرزائل التى جاء الدين لمحاربتها وعاقت الانسان أن يعمل بالفضايل التى جاء الدين لايجابها على الانسان ، حتى يبلغ له ما قدر له من الرقى فى النفس والروح — إذا خالفت الفنون الدين فى شىء من هذا أو من شىء من غير هذا فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق ودابوت الخير ، واخطأت الفطرة التى فطر الله عليها الناس والخلق .

والأدب الرفيعة أداب نبل قبل كل شىء : نبل فى المعنى ونبل فى التعبير على السواء ، ونبل التعبير راجع إلى حد كبير لنبل المعنى عند تمام الأداء .

موقف المسلمين

ثم يحدد « موقف المسلمين من الحضارة والعلم والفن » فيقول :

« إذا كان المسلمون يريدون النجاة فليطلبوها داخل الاسلام لا خارجه ، وهم يخطئون طريق الرشد إذا قلدوا الغرب فى نظمه الاجتماعية وخرجوا عما ألفوا من صواب إلى مالم يألفوا من نظم أن لا ءمت غيرهم لأنها إلى حد ما وليدة حاجاتهم فهى لاتلائمهم لأنها ليست فيهم وليدة الحاجة ولكن وليدة الهوى والتقليد . أن التقليد رق قد حرر الإسلام منه الإنسان إلى الأبد .

وعندنا أن الشرق وأن فقد حكمه على المادة لقد بقيت له من دينه بقية تجعله أقرب إلى الرقى الروحى من الغرب واجدر أن يرقى فى معارج الانسان إلى غير حد ، وإذا اراد الشرق عامة والعالم الإسلامى خاصة أن يسترد مجده الضائع فيجمع بين السلطانين : سلطان المادة وسلطان الروح ويعود قائد العالم إلى الفضيلة و هادية إلى الله كما كان فليحذر من أن يفقد البقية الباقية من الاستقلال الروحى المستمد من الدين فإنه أن فقدها جمع على نفسه ذلا إلى ذل وسد على نفسه طريق النجاة وحكم عليها بالموت فليس بينه وبين الموت الأدبى إلا أن يستعبده الغرب فى نفسه كما استبعده فى جسمه وهو مستعبده نفسيا من غير شك أن هو أطاع دعاة التقليد الذين يوهمونه أن الطريق إلى العزة أن يقلد الغرب فيما الغرب منحط إليه .

وخلاصة الرأى أنه لا يكاد يكون فى الغرب ما يؤخذ عنه الأعلمه الطبيعى وليس فى العلوم الطبيعية خاصة واحدة من خواص الغرب ، فقد جعل الله العقل الانسانى واحدا فى الشرق والغرب ، قوانينه واحدة، ومنطقه واحد ، فيما يستنتجه العقل الصرف فى غرب الأرض يصير ملكا للعقل الذى يقف فى شرقها فلا خطر على نفسية الشرق أن يأخذ عن الغرب علمه الطبيعى المبنى على التجربة والمشاهدة والعلمية ».

القرات والتجديد

ويرسم الخطوط العامة لمفهوم « التجديد » فهما علميا صحيحا :

« أن التجديد عمل يشق إلا على من يأخذ نفسه باشد مما يطالب به الناس من التجرد من الهوى ومن الاخلاص للحق ، ولاغنى فيه بعد ذلك عن شيئين : عن القدرة على تمييز الحق من الباطل وعن الاستمساك بالحق بعد أن يمتاز . فلا ننبذ شيئاً قبل أن نستعيض عنه بخير منه من جنسه ويستوثق من فضل العوض قبل أن ينبذ هذا ونأخذ بذاك . هذه القاعدة البسيطة التى تمكن » العلم « بها من تجديد تراثه وتنميته ، وهى القاعدة البسيطة التى تجب أن يسير عليها الشرق فيحتفظ بتراثه الكثير القيم فلا فغير منه إلا بقدر ما يجدده وينميه . » والتجديد فى العلم لايمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون الحاضر والماضى ، يبنى العقل فى حاضره على ما أسس عليه العقل فى ماضيه ، فإن الحق وحدة قائمة لايقوم جزء منه إلا على جزء .

روح الأدب

ثم يكمل الحلقات حتى تلتئم على مضمون متكامل :

لا بد أن تتحقق الوحدة بين الفن والأدب وبين الدين ، كما تحققت بين العلم والدين فتتحقق وحدة الانسان كلها .

أليس روح الفن والأدب : الجمال .

أليس الجمال النفسى روح الجمال الانسانى .

اليس الجمال النفسى اخباته واخلاده واسلامه لله .

ومن محبة الله سبحانه تشيع فى النفس الهدى ، ويشع فيها النور فكيف يمكن أن يكون للادب المكشوف نصيب من روح الجمال الانسانى النفسى التى فيها بقية من الفضيلة والخير ».

هذه هى النظرية التى استخلصها الدكتور محمد أحمد الغمراوى من دراسته فى الاسلام والعلوم خلال أربعين عاما ، ضمنها معرفه العديد من كتاباته وحاولنا هنا ربطها فى منظمة كاملة ، تكشف بوضوح عن ترابط العلم والفن والحضارة فى مفهوم الاسلام على أساس الفطرة : فطرة الله التى فطر الناس عليها ، مستمدة من القرآن جارية مع أحدث نظريات العلم الحديث الذى يقترب رويدا من الايمان والحق والتوحيد

توفى إلى رحمة الله ٣/٥/١٩٧١

* * *

اعلام الدعوة والفكر

الموضوع | الصفحة

مدرسة الفقهاء

الفاضل بن عاشور ١١
محمد عبدالله دراز ١٩
محمد أبوزهره ٣٥
محمد بهجت الأثرى ٥١
حسن البنا ٦٧
الدكتور عيسى عبده ٨٩
محمد بهجه البيطار ٩٧
عبدالله كنون ١٠٥
طاهر الزاوى ١١٣

مدرسة المفكرين

مدرسة المفكرين ١٢١
صلاح الدين السلجوقى ١٢٣
دكتور محمد حسين هيكل (الباحث الإسلامى) ١٣١
مالك بن بنى ١٣٩
محمد عبد الله العربى ١٦٣
محمد جميل بيهم ١٧٣
عمر رضا كحاله ١٧٩
محمد عزة دروزه ١٨٩

الموضوع — صفحة

علي علي منصور ١٩٩
علال الفاسي ٢١٣
محمد اقبال ٢٢١
فريد وجدي ٢٢٩
مبشر الطرازي ٢٣٧
مصطفى صبري ٢٤٥

أرباب السيف والقلم ٢٦٩

عبد الله التل ٢٧١
محمود شيت خطاب ٢٨٩

كتاب وأدباء ٢٩٩

محمد مسعود ٣٠١
إبراهيم عبد القادر المازني ٣٢٧
كامل كيلاني ٣٣٦
علي أحمد باكثير ٣٤٣
أحمد عطيه الله ٣٥٧
عثمان الكماك ٣٦٣
عدنان الخطيب ٣٧٣

الدعاة الى الله ٣٧٩

محب الدين الخطيب ٣٨١

الموضوع	صفحة
أبو الأعلى المودودى	٣٩٧
أبو الحسن الندوى	٤١٣
مصطفى السباعى	٤٣٥
محمد المبارك	٤٥٣
محمد أحمد الغمراوى	٤٦١

الحلقة الثانية

« تراجم الأعلام المعاصرين »

« قريبا »

رقم الايداع بدار الكتب ٣٧٣٦ لسنة ١٩٨١
الرقم الدولى : ٢ — ٤٦١ — ٢٦٦ — ٩٧٧